الأستاذ محمد تقي المصباح



معارف القرآن

تعريب

محمد عبد المنعم الخاقاني


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

معارف القرآن

القسم الاول

في معرفة الله

تاليف

الاستاذ محمد تقي المصباح

تعريب

محمد عبد المنعم الخاقاني

الدار الاسلامية

الطبعة الثانية

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ - غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة المؤلف

قال أمير المؤمنين (ع) : « وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه »[1] وقال أيضاً : « ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقّده ، وبحراً لا يدرك قعره »[2] ، نعم ، صحيح أن القرآن بحر لا يدرك قعره ولكنّا في نفس الوقت نجد القرآن الكريم يؤكد والمعصومين (ع) يحثون على التدبّر في آيات القرآن ، قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته . . ﴾[3] .

ولم يكتف القرآن الكريم بهذا المقدار ، بل وبّخ الذين لا يتدبّرون هذا الكتاب العزيز ، يقول الله تعالى في القرآن :

﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[4] .

---

(١) نهج البلاغة : شرح الدكتور صبحي الصالح ص ٦١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٥ .

(٣) سورة ص : الآية ٢٩ .

(٤) سورة محمد : الآية ٢٤ .

ونجد في أحاديث النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) تأكيداتٍ متضافرةً تحثّ على الرجوع إلى القرآن وتدبّر آياته ، وخصوصاً عندما تتأزّم وتضطرب الأجواء الفكرية في المجتمع فتظهر الشبهات بين المسلمين وتؤدي إلى انحرافات فكرية وعقائدية ، ففي مثل هذه الظروف ورد الحثّ الأكيد في الروايات على الرجوع إلى القرآن :

« إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن »[1] .

ومع أنه لدينا كثيراً من الروايات يصرح بأن العلم التام بالقرآن هو عند الرسول الكريم (ص) والأئمة الأطهار (ع) ، فهو المعلم الحقيقي والمفسر الأصيل للقرآن ، كما يقول القرآن بالنسبة للنبي (ص) : إن المعلم والمبيّن للقرآن هو الرسول الكريم (ص)[2] ، ولكنّا في الوقت نفسه نلاحظ أن النبي (ص) ذاته والأئمة الأطهار (ع) يؤكدون على الرجوع إلى القرآن الكريم ، وحتى إذا شككنا في صحة الروايات المنقولة عنهم فقد أمرونا بعرضها على القرآن .

---

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٤٣٨ ، المكتبة الإسلامية .

(٢) من جملة أوصاف النبي الكريم (ص) في القرآن : ﴿ يُعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ وقد جاء هذا الوصف بعد قوله تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ﴾ ، أي أنه بعد التلاوة وتزكية الناس يصل الدور إلى تعليم الكتاب . إذن من هنا يعلم أن تعليم القرآن غير تلاوة آياته ، وأن من واجبات النبي (ص) عندما تنزل عليه الآيات القرآنية أن يتلو الآيات للناس لكي يتقنوا ألفاظها ومن ثم يحاول تزكيتهم ، وهناك واجب آخر من واجبات النبي (ص) وهو أن يعلم الناس القرآن . إذن فالتعليم ليس هو صرف قراءة الألفاظ لأنه يصبح حينئذ نفس التلاوة ، وإنما المقصود منه تعليم الناس معاني القرآن ، أي أنه يعلم الناس ما لا يفهمون ، قال تعالى : ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٥١) ، ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم ﴾ (سورة النحل : الآية ٤٤) .
إذن يعرف من هذا أن آيات القرآن تحتاج إلى تبيين ، ومن واجبات النبي الكريم (ص) تبيينها ، ومن الواضح أن التبيين غير التلاوة ، ونعتقد ـ نحن الشيعة ـ أن منصب النبي (ص) هذا من جملة المناصب الثابتة للأئمة المعصومين (ع) ، وتوجد أدلة أخرى لسنا هنا بصدد ذكرها تثبت أن منصب تعليم القرآن مختص بالرسول الأكرم (ص) والأئمة الأطهار (ع) .

ويعقد باب في كتب الروايات عنوانه « العرض على الكتاب » ويذكر في كتب أصول الفقه في باب التعادل والترجيح ، وفيه تعتبر موافقة الرواية للقرآن وعدم مخالفتها إياه من جملة المرجّحات للرواية ومن الشروط التي ترفع قيمة سندها .

إذن عندما نريد أن نعرف قيمة رواية ما ، أو على الأقل نريد ترجيحها على رواية أخرى فلا بد من عرضها على القرآن ، ويستلزم هذا أن يكون مفهوم الآية واضحاً لدينا حتى نستطيع عرض الرواية عليه ، وأما إذا كان مفهوم الآية محتاجاً إلى الرواية لكي يتضح فإنه يلزم من ذلك الدور ، وهذه الشبهة القائلة : لا يحق لأحد ـ من دون الرجوع إلى الروايات ـ أن يتدبّر في القرآن وأن يستفيد من مفاهيمه إنما هي شبهة واهية ، ونحن مأمورون من قبل الله في القرآن ومن قبل الرسول (ص) والأئمة الأطهار (ع) فيما ورد عنهم أن نتدبّر في آيات القرآن ، ومع الأسف الشديد فإن هناك تقصيراً مخجلاً في هذا المجال ، وحتى أن درس القرآن وتفسيره كان ضعيفاً بل ملحقاً بالعدم في الحوزات العلمية . إلى أن قيّض الله له المرحوم الأستاذ العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه ، الذي نعيش في هذه الأيام مأتم الحزن على فقدانه ، فمنحه التوفيق لإحياء تفسير القرآن في الحوزة العلمية في مدينة قم ، ويعدّ هذا الإنجاز من أكبر مفاخره ، وكلنا قد استفاد منه ، ويعتبر اليوم كتابه (تفسير الميزان) من أكبر المراجع الإسلامية وأفضلها لكسب معارف الإسلام ، نسأل الله تعالى أن يحشره مع أجداده الطاهرين ، وأن يمنحنا التوفيق لمتابعة مسيرته وتقدير جهوده وجهود أمثاله من المؤمنين المخلصين .

وعلى أي حال فإن من واجباتنا المعيّنة لنا من قبل الله والمبلّغة إلينا من قبل رسول الله (ص) التفكير في أطراف القرآن والتدبّر في آياته لنستفيد من الكنوز القيّمة التي أودعها الله سبحانه للناس في هذا الكتاب العزيز .

وقد اتضحت اليوم ـ بحمد الله ـ أهمية تعليم القرآن وتفسيره لعامّة الناس إلى حدّ بعيد ، ونلاحظ إقبالاً منقطع النظير على تفسير القرآن ، ولكنا في نفس الوقت الذي نكون فيه مسرورين لهذا الإقبال الشديد من الناس يجب أن نكون

خائفين من حصول انحرافات في تفسير القرآن ، ولا يقتصر هذا على أنه لا يقرّب المجتمع من حقائق الإسلام ، وإنما يفتح أبواب الضلال المؤدية إلى مقاصد الشيطان ، ونحن على علم ـ مع الأسف الشديد ـ بأن مثل هذه الأمور قد حصلت بالفعل ، وتوجد اليوم فئات ومنظمات تحت عناوين مختلفة تزعم أنها تستفيد من القرآن وتثبت أفكارها بآيات القرآن ، وبعضها قد انفضح أمره تماماً ، ولكنّ بعضها الآخر لم يعرف كما ينبغي ، ولا يزال له نشاط قويّ ، ويجب علينا أن نكون يقظين في هذا المجال ، ومن المؤكّد أننا فرحون بإقبال الناس الشديد ـ ولا سيما الشباب ـ على فهم القرآن ، ولكن يجب أن نحذر الأساليب المنحرفة في تفسير القرآن ، فهي تؤدي ـ لا قدّر الله ـ إلى تغيير اتّجاه المجتمع .

ومن الطبيعي أن يقع عبء المسؤولية ـ في هذا المجال أيضاً ـ على عاتق علماء الدين ، فيجب عليهم المبادرة لملء هذا الفراغ ، ويتحتم عليهم أن يعرضوا الطريق الصحيح على الذين يحبون أن يتعلموا القرآن ، ويحسن أن لا يغيب عن أذهاننا أنّ جميع المنحرفين لم يصبحوا أعداء الإسلام والدولة الإسلامية عامدين مغرضين ، وإنما جُرّ كثير منهم ـ ولعله أكثرهم ـ إلى هذا الانحراف بسبب الاشتباهات والتعليمات والتلقينات المخطئة ، ونأسف ألف مرة على أن بعض هؤلاء قد نال الدعم والتأييد من بعض علماء الدين .

على أي حال يتحتم علينا أن نتعامل مع هذه الأمور بوعي ويقظة ، ويجب أن نحرص على السير في الطريق السليم الذي دلّ عليه القرآن وأوصى به الرسول الأكرم (ص) والأئمة الأطهار (ع) ، وأن نحاول بكل نزاهة لنجعل أفكارنا متلائمة مع القرآن ، لا أن نجعل القرآن متلائماً مع أفكارنا ، فهذه مأساة محزنة كانت موجودة أيام أمير المؤمنين (ع) ، وهي من جملة الآلام التي كان يشكو منها في نهج البلاغة ويهاجم أولئك الذين يحاولون جرّ القرآن ليوافق آراءهم ولا يحاولون عرض أفكارهم على القرآن ليختاروا منها ما يتفق معه .

فإذا كانت مثل هذه الانحرافات تظهر في ذلك الزمان مع قرب العهد

بالرسول الكريم (ص) ومع وجود أشخاص من قبيل أمير المؤمنين (ع) فلا يبعد أن تحدث الانحرافات في هذا الزمان على مستوى أوسع ، بسبب ما نعانيه من ضعف علمي .

إذن لا شك بأن من أهم الواجبات على علماء الدين هو أن يحاولوا توضيح مفاهيم القرآن الكريم بشكل صحيح ومتقن وعلى مختلف المستويات (العالي ، المتوسط ، البسيط) ، وأن يجعلوها تحت تصرف أبناء المجتمع ، ويعدّ هذا من الواجبات الاجتماعية ، وإذا لم يتمّ هذا العمل فلا بد أن ننتظر انحرافات أخرى ، كما نشاهد بعضها اليوم في حياتنا الاجتماعية .

ونشاهد اليوم أغلب الشباب المسلم يحاول بشوق ويريد أن يتعلم مفاهيم القرآن ، وحتى أنه يتخيل أحياناً أنه بالاستعانة بالمعاجم يستطيع القيام بتحقيق علمي ، ويظنّ أنه عمل سهل يسير ، ولعلهم معذورون في ظنهم ، ولكن الذين عاشوا سنين متطاولة في الحوزات العلمية، وشاهدوا الدقة في الآيات والروايات التي يتخذها العلماء في هذا المجال ، لن يكونوا معذورين أبداً إذا ما فكّروا على هذا النحو .

ومن الواجب علينا أن نستغل التراث الذي انحدر إلينا من العلماء والمفسرين رحمهم الله ، وأن ننظّم سعينا لكي نظفر بمفاهيم واضحة مشرقة للقرآن الكريم ، ثم نقدمها للمجتمع لنؤدّي ما على عاتقنا من دَيْن للقرآن والإسلام .

أجل ، إنّ تفسير القرآن وفهم معانيه ليس ميسّراً بسهولة ، ولكننا إذا ألزمنا من يريد أن يفهم القرآن بدراسته ثلاثين عاماً حتى يتمكن من فهمه ، فمعنى ذلك أننا ندخل اليأس إلى قلبه من استيعاب المعنى الصحيح للقرآن ، أو نقذف به في أحضان المنحرفين . من المسلّم أنّ فهم القرآن يحتاج إلى جهود خاصة وإلى تعمّق وتخصّص ، ولكن بالتالي يجب أن يتحمل هذا العناء مجموعة من الناس ، ثم يتحتم عليهم أن يتركوا ثمار أتعابهم تحت تصرف الآخرين لينتفعوا ويستمتعوا بها .

إنّ ما نحتاج إليه هو تقديم مواضيع لا يرقى إليها الشك في انتسابها للقرآن ، ولا تكون في نفس الوقت مبعثرة لا نظام يسودها ولا رابط يجمعها ، وذلك لأننا إذا قدّمنا مواضيع مبعثرة فعلاوة على أن تعلّمها يصبح أمراً مشكلاً وصعباً فإنها تفتقد تلك الفائدة الحاصلة من نظام فكري صحيح منسجم ، يواجه تيّاراتٍ فكريّةً خاطئة .

نحن نلاحظ أن جميع المذاهب المنحرفة تحاول إضفاء النظام والانسجام على أفكارها ، أي أنهم يعرضون لمواضيعهم قاعدة وأساساً ثم يوجدون من مجموعة من المسائل المرتبطة المنسجمة كلّاً واحداً منظّماً مترابطاً ، لذا يجب علينا - ونحن سائرون في الاتّجاه الصحيح المستقيم - أن نقوم بنفس الشيء في مقابلهم ، أي أن نقوم بعرض معارف القرآن بشكل نظام فكري منسجم ومترابط ، بحيث يستطيع الباحث أن يبدأ من نقطة معينة ، ثم يسير بشكل متسلسل فيربط حلقات معارف الإسلام ببعضها ، ويصل في خاتمة المطاف إلى هدف الإسلام والقرآن .

إذن نحن مضطرون لتبويب المعارف القرآنية وإضفاء شكل منظم عليها ، ليغدو تعلّمها سهلاً للشباب الذين لا يملكون إلّا وقتاً قصيراً لإنفاقه في هذه المجالات ، وليمكن عرضها في مقابل المذاهب الفكرية الأخرى .

ولا نشك في ضرورة تبويب معارف القرآن الذي سيرافقه التفسير الموضوعي - أي تبويب الآيات حسب الموضوعات ، للحصول على المفاهيم وإيجاد الترابط والانسجام بينها - ولكن توجد في هذا السبيل صعوبات وإشكالات .

فلكي نبوّب معارف القرآن لا بدّ أن نأخذ بعين الاعتبار نظاماً خاصاً للموضوعات ، ثم نفتش عن مجموعة من الآيات لكل موضوع ونجعلها إلى جانب بعضها ، ثم نتعمق في فهمها ، وإذا صادفنا نقاطاً مبهمة غامضة في إحداها فعلينا أن نستعين بالآيات الأخرى لتوضيح الغامض وتبيين المبهم ، ويسمّى هذا الأسلوب بـ « تفسير القرآن بالقرآن » وهو نفس الطريق الذي سار

عليه العلامة الكبير المرحوم الطباطبائي في تفسير الميزان ، ولكنه يجب الالتفات إلى أننا عندما ننتزع الآية ونخرجها من سياقها من دون أن نهتم بما قبلها وما بعدها فلعل ذلك يؤدي بنا إلى الحرمان من معناها الواقعي . وبعبارة أخرى : فإن لآيات القرآن قرائن كلامية قد تذكر في الآية السابقة أو في الآية اللاحقة ، وقد تثبت أحياناً في سورة أخرى ، ولا يمكن الوصول إلى المعنى الواقعي للآيات من دون الالتفات إلى هذه القرائن .

يجب علينا أن ندقّق كثيراً لئلاّ نقع في هذاالمحذور، فنقطع الآيات ونمثّل بها ونبعدها عن مفادها الحقيقي ، فنكون كمن قال « لا إله » من دون أن يلحق بها « إلا الله » .

فإذا أردنا أن ندرج آية ما تحت موضوع وعنوان خاص فلا بد من ملاحظة الآيات التي قبلها وبعدها ، فإن وجدنا ما يصلح أن يكون قرينة لها فلا بدّ من ذكرها .

وعندما نحتاج إلى ذكر آية ما فلا مانع من إضافة آية قبلها وبعدها ، وجعل تينك الآيتين بين قوسين لئلا يغفل عن القرائن الكلامية أثناء المراجعة .

ونعود لنؤكد مرّة أخرى على الاهتمام بالقرائن المذكورة قبل وبعد الآية المطلوبة ، ويتفق لي أحياناً أن استظهر شيئاً من آية ما ، ثم التفت بعد فترة من الزمن إلى أن هناك قرينة في الآية السابقة عليها وقد غفلت عنها ، ولو أنني أخذتها بعين الاعتبار لتكامل استظهاري ، أو لاستظهرت شيئاً آخر ، لذا ينبغي علينا أن لا نغفل عن هذه الملاحظة .

إلى هنا عرفنا أنّ علينا تبويب مفاهيم القرآن ومعارفه ، ومن الطبيعي أن يتبع ذلك تبويب للآيات نفسها ، أي لا بد أن نذكر لكل باب مجموعة من الآيات ، وهنا يطرح هذا السؤال :

على أيّ أساس وحسب أيّ نظام يتمّ هذا التبويب ؟

نحن نعلم أن القرآن الكريم لم يلتزم بالتبويب المتعارف في الكتب التي ألفّها الإنسان ، فقد لا نجد سورة ـ وحتى من السور القصار ذوات السطر الواحد ـ تتحدّث عن موضوع واحد ، بل غالباً ما نجد الآية الواحدة قد ضُمّنت عدة معان ، وللآية أبعاد مختلفة ووجوه متنوعة ، فمثلاً يوجد لآية واحدة بُعْدٌ عقائدي وبعد أخلاقي وبعد تاريخي وبعد تشريعي و. . . وهذه أيضاً مشكلة تواجه موضوع تحليل الآيات ، ولكنها المشكلة يمكن حلّها بتكرار الآية في المناسبات المختلفة .

المناهج في تبويب الآيات

ليس من العسير أن نجد عنواناً كلّياً لمفهوم آية أو عدة آيات ، مثلاً : الآيات الواردة في الصلاة أو في الجهاد أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنه ليس من اليسير جمع هذه العناوين في نظام واحد وإيجاد الترابط والانسجام بينها . افرضوا أننا قمنا بدراسة للقرآن بأكمله ، واستخرجنا مفاهيمه وأدخلناها تحت مئة عنوان ، فكيف ننظم الآن هذه العناوين لنحصل على نظام واحد منسجم ؟ مثلاً الآية الأولى من القرآن تتضمن الحمد لله ، إذن أول عنوان هو « حمدالله » ، والآية الأولى من سورة البقرة تتعلق بالذين تشملهم هداية القرآن ، وكذا سائر العناوين ، فهل نبوّب العناوين بهذا الشكل ؟ أم نستطيع أن نوجد بينها نظاماً يتمتّع بنقطة بدء طبيعية ومنطقية ؟

إنّ هذه العناوين يمكن إدراجها تحت عناوين أعمّ وأشمل ، مثلاً : الصلاة والصيام والخمس والزكاة و. . . ندرجها تحت عنوان العبادات ، والبيع والإجارة والقرض و. . . تحت عنوان المعاملات ، وكذا سائر العناوين . والآن كيف ننظم هذه العناوين الأعم والأشمل ؟ وكيف نوجد بينها الانسجام والارتباط ؟

المناهج

يمكننا في هذا المجال أن نذكر ثلاثة مناهج ، وهناك مناهج أخرى ، ولكننا نطرح هذه المناهج الثلاثة في تبويب معارف القرآن باعتبار أنها نموذج

لأفضل الاقتراحات المقدمة في هذا المضمار ، لكي نختار من بينها أفضلها وأسلمها :

١ ـ لعلّ الذهن يألف هذا التبويب أكثر من غيره ، وهو أنّ مضمون الدين ينقسم إلى ثلاثة أقسام (١ ـ العقائد ، ٢ ـ الأخلاق ، ٣ ـ الأحكام) ، وقد نبّه على هذا التقسيم في موارد كثيرة من تفسير الميزان ، إذن هذا لون من ألوان التبويب يقسم معارف القرآن إلى ثلاثة أقسام : أحدها في أصول العقائد (التوحيد ، النبوة ، المعاد ، العدل والإمامة) وما يتبع هذه الأصول كتفاصيل عالم البرزخ ، الثاني في موضوع الأخلاق ، والثالث في موضوع الأحكام ، ومن المعلوم أن فقهاءنا قاموا بهذه المهمة في موضوع الأحكام فألفوا كتباً تدور حول آيات الأحكام من قبيل (كنز العرفان) و (زبدة البيان) .

ولعل كثيراً من الناس يعجبهم هذا التقسيم ـ وهو تقسيم جيّد ـ ولكن عليه بعض الإشكالات : منها أن إدراج جميع مفاهيم القرآن في هذه الأقسام الثلاثة أمر صعب ومشكل ، لأنه مثلاً هناك قسم مهمّ من آيات القرآن يدور حول تاريخ الأنبياء وقصصهم ، وصحيح أنه توجد في القصة جوانب تمس التوحيد والتشريع والأخلاق ، ولكن القصة بأجمعها ليست هذا ولا ذاك ، وإنما هي قسم قائم بذاته، وإذا قمنا بتقطيع القصة جملةً جملة فإنها لن تبقى تلك القصة ، وإذا أراد الإنسان أن يعرف رأي القرآن بالنسبة إلى أصحاب الكهف فلا يعرف إلى أيّ باب يجب أن يرجع ، وفي هذه الصورة لا يكون لدينا باب واضح معيّن يتناول قصص القرآن ويعالج مشاكلها .

ويوجد إشكال جزئي آخر ، وهو أنه ليس بين هذه الأقسام الثلاثة أيّ علاقة واضحة ، ولا بُد من تكلف العلاقة بينها .

ونحن نعترف بأن هذه الإشكالات ليست مهمة جداً ، وإذا لم نظفر بتبويب أفضل من هذا فلا بأس علينا من تبنّيه .

٢ ـ الاقتراح الثاني مبنيّ على أن القرآن جاء لهداية الناس ، كما قال

تعـالى : ﴿ **هدى للنـاس** ﴾ ، وللإنسـان أبعاد مختلفـة : ماديـة ، معنـويـة ، فردية ، اجتمـاعية ، دنيـوية ، أخـروية ، ولهـذا فنحن نبوّب معـارف القرآن حسب أبعاد وجود الإنسـان ، وعلى هـذا فإن « الإنسـان » يصبح محـوراً لهذا التبويب .

ومن الواضح أنّ هذا الأمر عملي وليس فيه إشكال أساسي ، ولكن يبدو لنا أنّ الإشكال الفنّي فيه أقوى من الإشكال في الاقتراح الأول ، لأننا عندما نتعمق في مفاهيم القرآن نجد أن اعتبار الإنسان محوراً هو أمر غير مرغوب فيه من وجهـة نظر القـرآن ، وهو تيـار شائـع في زماننـا يسمى بالاتجـاه الإنساني « هيـومـانيسم » يعتبـر الإنسـان هـو الأصـل ، ثم يقيس كـل شيء بـالنسبـة للإنسان ! ولا يتفق القـرآن مع هـذا الاتجاه ، لأننـا نلاحظ أن جميـع مفاهيم القرآن وفي أيّ باب كان ، من عقائـد وأخلاق ومـواعظ وقصص وتشريعـات وأحكام فردية واجتماعية و. . . لها جميعاً محور واحد وهو « الله » تبارك وتعالى .

فهو عندما يبين لنا قانوناً أو حكماً يقول : الله الـذي أنزل عليكم هـذا الحكم ، وحينما يريد الحث على خلق معـين يقول : إن الله يحبـه : ﴿ **إنّ الله يحب المقسطين** ﴾ ، ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾ ﴿ **إن الله لا يحب المفسدين** ﴾ . لهذا فإنّ محور الأخلاق أيضاً هو « الله » تبارك وتعالى . وبناء على هذا نستطيع أن نقول إنّ المحور في آيات القرآن الكريم هو « الله » تعالى ، وليس المحور هو الإنسان ، إذن من الانحراف أن نعتبر الإنسان هو المحور في معارف القرآن ، بل لا بدّ من اعتبار « الله » هو المحور لها ، ولا بدّ من الإصرار على ذلك .

الإشكال الآخر الذي يورد هنا هو أنّ الأبعاد الوجودية للإنسان كـانت مبهمة ، ولم يكن أحد يعرف ماهو عدد أبعاد الإنسان حتى نقوم بتبويب الآيات حسب تقسيمنا للأبعاد الوجودية للإنسان . ويبدو لنا أنه لا يوجد ارتباط واضحَ بين الأبعاد الوجودية للإنسان[1] .

---

(١) قد نفهم من القرآن فيما بعد الارتباط بينها ، ولكنه بالنظر الابتدائي لا يمكن ادّعاء ارتباط واضح بين الأبعاد الوجودية للإنسان .

الإشكال الثالث هو أن تقسيم معارف القرآن حسب الأبعاد الـوجودية للإنسان أيضاً أمر عقيم ، لأننا نجد أحياناً أن حكماً إلهيّاً أو خلقاً ممدوحاً في الإنسان لا يتعلق ببعدٍ خاص من أبعاد الإنسان ، وإنّما يرتبط بعدة أبعاد منه ، بحيث لا يمكن القول بأن هذا البيان القرآني يتعلق فقط بهذا البعد الخاص من الإنسان .

٣ ـ المنهج الآخر وهو الذي يعتبر « الله » هو المحور ، ثم يقوم بالتقسيم ، ولا يجعل الأقسام في عرض بعضها بل يجعلها في طول بعضها . أي أن معارف القرآن مثل نهر جار أو عين متدفقة تنحدر من منبع الفيض الإلهي ، فتروي وتطفىء ظمأ كل شيء تصادفه :

﴿ **أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها** . . . ﴾[1] .

إذن لا بدّ أن ننظر إلى معارف القرآن كعين متدفقة تملأ مرحلة بعد أخرى ، وهذا التقسيم للمراحل طولي وليس عرضياً .

وفي هذه الصورة تكون لها نقطة بدء تبدأ منها ، وعندما ترتوي تفيض إلى المرحلة الثانية ، فالمرحلة الثانية فرع للمرحلة الأولى وليست في عرضها ولا قسيمة لها . وصحيح أن التقسيمات الطولية تنتشر شيئاً فشيئاً وتتفرع ، ولكن الأساس الذي نسير عليه هو أن نأخذ بعين الاعتبار المعارف القرآنية حسب المراتب الطولية .

ونحن نرجّح هذا المنهج لعدة أسباب :

أولاً : لأنّ المحور فيه هو « الله » تبارك وتعالى ، ولم نجعل بإزائه أيّ شيء آخر : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ ، وهذا بعكس التقسيمات التي إمّا تضطرنا لاعتبار الإنسان محوراً وإما أن تدفعنا لتناول موضوع العقائد والتوحيد في عرض الأخلاق والأحكام ، أي أنها قسيمة لها ، بينما في منهجنا لا يوجد في البدء إلا موضوع واحد وليس إلى جانبه أي شيء

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .

آخر ، وما لم نفرغ من هذا البحث ونحلّ مشكلاته فإننا لن ننتقل إلى البحث الثاني .

إذن الميزة الأولى لهذا المنهج هي أنّ محور التقسيمات فيه هو « الله » ، والثانية أنّ بين المسائل والتقسيمات يوجد ترتيب منطقي . ومن الطبيعي أن يكون للموضوع السابق لون من التقدم على الموضوع اللاحق ، وهو تقدم واضح ومقبول ، على العكس من التقسيمات التي كانت في عرض بعضها ، فإن تقديم موضوع على آخر يحتاج إلى تبيين ، وأحياناً يحتاج إلى تكلّف . لو فرضنا أن الشؤون الفردية والاجتماعية بعدان لوجود الإنسان ، فمن منهما الذي يقدّم ؟ أم نقدمهما معاً ؟ أم نقوم بتقسيم آخر على أساس الشؤون المادّية والمعنوية ؟ ولكنه إذا كان بين العناوين ترتيب طبيعي ، وقمنا بالتبويب على أساس ذلك الترتيب الطبيعي والمنطقي ، فإنه يصبح للتقديم والتأخير سبب واضح ، ونظفر حينئذٍ بنظام منسجم خال من الإشكالات التي أوردت على المناهج الأخرى .

وبناء على هذا فمن الأفضل أن نجعل محور جميع المعارف القرآنية « الله » حيث ينسجم ذلك تماماً مع روح التعاليم القرآنية ، ونبدأ أولاً بمسائل معرفة الله ، ثم نصل من طريق البحث في الأفعال الإلهية إلى مسائل معرفة العالم ومعرفة الإنسان ، ثم نتناول سائر المواضيع الإنسانية عن طريق التدبير والتربية الإلهية بالنسبة للإنسان . وبهذا نحصل على نظام منسجم من المعارف ، تتميز مسائله بمحور له أصالة حقيقية ، وتتمتع حلقاته برابطة منطقية وترتيب واضح .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقترح النظام الآتي للمعارف القرآنية :

١ ـ معرفة الله :

وتشمل هذه المواضيع : معرفة الله والتوحيد وصفات الله وكليات الأفعال الإلهية .

٢ ـ معرفة العالم :

وتشمل هذه المواضيع : خلق العالم (الأرض والسماوات والنجوم) والظواهر الجوية (الرعد والبرق والرياح والمطر و. . .) والظواهر الأرضية (الجبال والبحار و. . .) ونتعرض أثناء ذلك للعرش والكرسي والملائكة والجن والشيطان .

من الواضح أنه بعد البحث عن كليّات الأفعال الإلهية ـ التي تدرس في القسم الأول ـ يصل الدور إلى تفاصيل الأفعال (من خلق وتدبير) ، ومن الطبيعي أن يتقدم البحثُ عن خلق العالم البحثَ عن خلق الإنسان .

٣ ـ معرفة الإنسان :

وتشمل هذه المواضيع : خلق الإنسان ، خواصّ الروح ، كرامة الإنسان ومنزلته الرفيعة ، مسؤوليته وشروط هذه المسؤولية (الوعي ـ القدرة على العمل ـ الاختيار) ، الأبعاد المختلفة لوجود الإنسان ، السنن الإلهية في التدبيرات الفردية والاجتماعية ، المعاد والمصير النهائي للبشرية .

ويتضمن هذا الفصل بيان أن الحياة الدنيا مقدّمة للآخرة ، ومرحلة يتحتم على الإنسان أن يختار فيها بإرادته طريق السعادة ، وأن يصوغ أثناءها مصيره النهائي ، وتدور التدبيرات الإلهية في هذا العالم حول محور تأمين مقدمات الاختيار (الابتلاء والامتحان) .

٤ ـ معرفة الطريق :

وتشمل هذه المواضيع : العلوم العادية (ألوان العلم الحضوري والحصولي المتعارفة) وغير العادية (الإلهام والوحي) ومسألة النبوة وضرورة بعثة الأنبياء والهدف منها ، والمناصب المسندة إليهم أيضاً (النبوة ، الرسالة ، الإمامة) ، ونتناول بالبحث أيضاً مسائل الإعجاز والعصمة ، وفي خاتمة المطاف نبحث عمن يخلف الأنبياء (الإمامة بمعناها الخاص) .

وارتباط هذا الفصل بالفصل السابق عليه واضح ، لأنه بعد أن عرفنا أنّ الإنسان موجود حرّ مختار يجب عليه أن يصطفي طريقه بحرّية تامة فنحن نواجه هذا السؤال : ما هو الطريق إلى ذلك ؟ وهذا الفصل يتولّى الجواب عليه .

٥ ـ معرفة الدليل على الطريق :

وتشمل هذه المواضيع : تاريخ الأنبياء ، ميزات كل واحد منهم والكتاب المنزل عليه ومحتوياته ، وبالتالي تاريخ نبي الإسلام (ص) والحوادث الواقعة في عصره ، ونتناول ضمناً تاريخ الأمم والشعوب الوارد ذكرها في القرآن ، وسائر قصص القرآن الكريم .

وترتّب هذا الفصل على الفصل المتقدم عليه واضح أيضاً ، لأنه بعد أن عرفنا أنّ هناك وحياً ونبوة فإنّ الدور يصل إلى معرفة الذين تسلموا الوحي وأوصلوه إلى الناس .

٦ ـ معرفة القرآن :

وتشمل هذه المواضيع : الدراسات العامة حول القرآن وخصائصه ، الهدف من نزوله ، كيفية نزوله ، إعجازه ، عالميّته ، أبديّته ، أسلوب بيانه (الاستدلال العقلي ، الموعظة ، الجدل ، التمثيل ، القصص و . .) ومواضيع المحكم والمتشابه والتأويل .

وترتّب هذا الفصل على سابقه واضح أيضاً ، لأنه بعد البحث عن الكتب السماويّة السابقة يصل الدور إلى معرفة آخر كتابٍ منزل ، وهو الذي سوف يظلّ خالداً .

٧ ـ الأخلاق ، أو صياغة الإنسان في القرآن :

وتشمل هذه المواضيع : معرفة الذات وصياغتها ، الخير والشر في الأفعال الاختيارية وعلاقة ذلك بالكمال والسعادة النهائية ، أسلوب التربية والتزكية في القرآن (إيقاظ الدوافع الباعثة على الخير بوساطة الإنذار

والتبشير) ، دور الإيمان والعمل ، وبيان علاقة أحدهما بالآخر ، وعلاقة كلٍّ منهما بالعلم ؛ ونختم بذكر تفاصيل الأخلاق الفاضلة والرذيلة .

ويجيء هذا الفصل بعد (معرفة القرآن) بهذه المناسبة : وهي أننا في ذلك الفصل انتهينا إلى هذه النتيجة ، وهي أن هدف القرآن هو التزكية والتعليم ، فالتزكية تؤدّي بنا إلى بحث الأخلاق وصياغة الذات ، والتعليم يؤدي بنا إلى البحوث اللاحقة .

٨ ـ البرامج العباديّة في القرآن :

وتشمل هذه المواضيع : الصلاة والصيام والحج والتضحية والدعاء ، وأمثالها من الأعمال التي يقصد منها أساساً توثيق علاقة الإنسان بالله ، ولو أنها تتضمن مصالح اجتماعية كثيرة .

٩ ـ الأحكام الفردية في القرآن :

وتشمل مواضيع من قبيل الحلال والحرام من المأكولات والمشروبات (الأطعمة والأشربة والصيد والذباحة) والتجمّل والزينة .

١٠ ـ الأحكام الاجتماعية في القرآن :

وتشمل المواضيع الاجتماعية والقانونية والسياسية والاقتصادية ، وتنقسم إلى الأبواب الفرعية الآتية :

أ ـ الأحكام المدنية .
ب ـ الأحكام الاقتصادية .
ج ـ الأحكام القضائية .
د ـ الأحكام الجزائية .
هـ ـ الأحكام السياسية .
و ـ الأحكام الدولية .

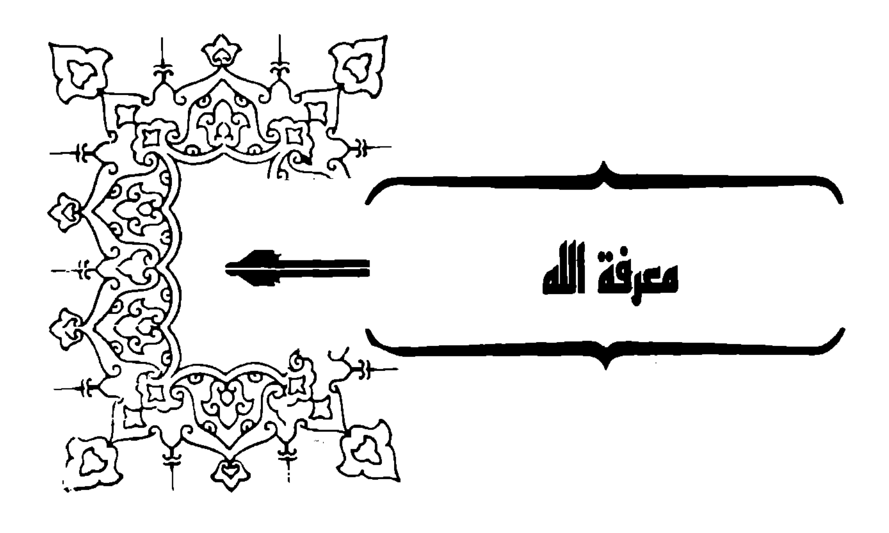
ونتناول بالبحث في مقدمة هذا الفصل موضوع : المجتمع من وجهة نظر القرآن .

وتدرس في هذه الفصول الثلاثة الأخيرة (٨ و ٩ و ١٠) البرامج العملية للقرآن في علاقة الإنسان بالله ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بالناس الآخرين ، وتذكر فيها تعاليم هذا الكتاب السماوي حلول كل واحد منها بشكل مستقل .

وبهذا الترتيب تكون معارف القرآن قد بدأت من نقطة مبدأ الوجود، وتدرّجت إلى مراحل الخلق والتدبير الإلهي ، ثم اختتمت ببيان خصائص المجتمع المثالي للإنسان ، وقد حوفظ خلال جميع هذه المراحل على الارتباط بالمحور الأصلي وهو « الله » سبحانه وتعالى .

* * *





معرفة الله

قبل الدخول في صميم الموضوع تحسن الإشارة إلى بعض الملاحظات :

١ ـ إنّ معرفة أيّ موجودٍ تتمّ بإحدى صورتين : إحداهما المعرفة الشخصية والأخرى المعرفة الكلّية ، فالمعرفة الشخصية بالنسبة للمحسوسات تتمّ بشكل إدراك حسّي وبوساطة الحواسّ . أما في غير المحسوسات فهي ممكنة فقط بصورة العلم الحضوري والشهودي . والمعرفة الكلّية تحصل بوساطة المفاهيم العقلية بالنسبة لجميع الموجودات ، وتتعلق هذه المعرفة في الواقع بالماهيّات والعناوين الكلّية للموجودات ، وتنسب بالعرض للأفراد والأشخاص .

فمثلاً وعي الإنسان بنفسه (= أنا المدرك) وبطاقاته الداخلية وأفعاله وانفعالاته النفسية كإرادته وحبّه ـ كل هذه تعدّ من المعرفة الشخصية الحضورية ، أما علمه بالألوان التي يراها والأصوات التي يسمعها فهو معرفة شخصية حسّية ، وتبقى معرفته لحسن وعلي وإبراهيم وحمزة بعنوان « إنسان » أي موجود حي يتمتع بالقدرة على التعقل وسائر الخصائص الإنسانية ، فهذه معرفة كلّية لأنها تتعلق أصالة بماهيّة « الإنسان » ثم تنسب بالعرض لحسن

وعلي و. . . وكذا معرفة « الكهرباء » بعنوان أنها طاقة تتبدّل إلى نور وحرارة ، وتكون علة لوجود كثير من الظواهر المادية ، فهي معرفة كلّية أيضاً لأنها تتعلق أصالة بعنوان كلّي ، ثم تنسب بالعرض لكهرباء معينة .

وفي مورد الله جلّ وعلا يُتصور أيضاً لونان من المعرفة :

إحداهما المعرفة الحضورية التي تتم بدون وساطة المفاهيم الذهنية ، والأخرى المعرفة الكلّية التي تحصل بوساطة المفاهيم العقلية ، وهي لا تتعلق مباشرة بالذات الإلهية . وكل العلوم الحاصلة بوساطة البراهين العقلية هي معارف كلّية وحصولية وبوساطة المفاهيم الذهنية ، ولكنه إذا حصلت المعرفة الحضورية الشهودية لشخص فإنه يصل إلى المعلوم بدون وساطة المفاهيم الذهنية ، ولعلّ المقصود من « الرؤية القلبية » المشار إليها في بعض الآيات والروايات هو المعرفة الشهودية ، ولعلّ المراد من أن « الله لا بدّ أن يعرف بنفسه لا بمخلوقاته »[1] هو مثل هذه المعرفة ، وكذا كثير من الإشارات الأخرى الواردة في بعض الروايات[2] .

إنّ الالتفات إلى هذه الملاحظة يصوننا من الأحكام المسبقة بالنسبة للآيات الواردة في معرفة الله ، فيمنعنا من حملها جميعاً ومن دون تثبّت على المعرفة الكلّية العقلية ، ويدفعنا للتعمق في مضمونها ، لعلّ بعضها ناظر إلى علاقة القلب الشهودية بالله والموجودة بصورة واعية أو نصف واعية ، وهي من ألوان المعرفة الشهودية والحضورية الشخصية .

ومن المسلم أنّ المعرفة الحضورية ليست قابلة للتعليم والتعلّم ، لأن التعليم والتعلم يحصلان بوساطة الألفاظ والمفاهيم ، ويقدّمان معاني خاصة

(١) ليرجع من شاء إلى أصول الكافي ، ج ١ ، باب إنه لا يعرف إلاّ به .

(٢) من قبيل ما ينقل عن الإمام الباقر (ع) : « كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم » (المحجة البيضاء ، ج ١ ، ص ٢١٩ ، ط مكتبة الصدوق) ، وما يروى عن الإمام الصادق (ع) : « ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب . . . إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه » (تحف العقول ـ كلامه (ع) في وصف المحبة لأهل البيت (ع)) .

لذهن السامع والمفكر ، بينما العلم الحضوري ليس من قبيل المعاني الذهنية وليس قابلاً للنقل والانتقال للآخرين . وحتى البيان القرآني أيضاً لا يستطيع بذاته أن يمنحنا العلم الحضوريّ والشهوديّ ، ولكنه يستطيع أن يدّلنا على الطريق الذي نصل منه إلى العلم الشهوديّ بالله تعالى ، أو نرفع بفضله معرفتنا اللاواعية أو نصف الواعية إلى منزلة الوعي التام .

إذن لا بدّ من استعمال الدقّة في هذا المجال لمعرفة : هل أن هدف القرآن هو أن يعلمنا المعرفة الكلية بالله تعالى وأسمائه وصفاته فقط ،كما يقول بذلك الفلاسفة والمتكلمون ؟

أم للقرآن هدف أرفع من ذلك أيضاً وهو أنه يريد أن يعرّف قلوبنا بالله ويهدينا إلى المعرفة الحضورية والشهودية ؟

٢ ـ الأسماء الإلهية والألفاظ المستعملة في اللغات المختلفة في مورد الله تعالى على قسمين :

بعضها بعنوان أنه « اسم خاص » وحسب الاصطلاح « عَلَم شخصيّ » ، وبعضها بعنوان أنه اسم عام أو صفة عامة ، وقد يستعمل لفظ واحد بشكلين : أحياناً بشكل « اسم خاص » واحياناً بشكل « اسم عام » أي أنّ فيه لوناً من « الاشتراك اللفظي » .

ولفظ « خدا » في اللغة الفارسية (أي لفظ الجلالة) وما يشبهه في اللغات الأخرى (God[١] في اللغة الإنجليزية) هو من هذا القبيل .

وفي اللغة العربية يستعمل اسم الجلالة (الله) بصورة اسم خاص وعلم شخصيّ ، ويستعمل « الرحمن » بصورة صفة خاصة بالله ، أمّا سائر أسماء الله وصفاته فهي ليست كذلك ، ومن هنا فهي تجمع وتطلق على غير الله أيضاً مثل

---

(١) عندما يستعمل GOD بعنوان أنه اسم خاص فإن الحرف الأول منه يكتب كبيراً (G) ، وعندما يستعمل بعنوان أنه اسم عام يكتب الحرف الأول منه صغيراً (g) .

« رب ← أربــاب » ، « إلــه ← آلـهــة » ، « خــالــق ← خــالــقـيــن » ، «رحيم ←رحماء وراحمين » و . . . كما جـاء في الآيـة (١٢٨) من سـورة التوبة حيث استعملت صفتا « رؤوف » و « رحيم » للنبي الأكرم (ص) :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ .

٣ ـ قد يوضع الاسم الخاص منذ البدء لموجود معين فلا تكون له سابقة في المعنى العام ، وقد يستعمل بصورة اسم أو صفة عامّة قبل أن يصبح « عَلَماً شخصياً » مثل محمد وعلي حيث إنّ لهما سابقة في الوصفيّة . مثل هذه الأسماء عندما توضع وضعاً جـديداً بعنـوان أنها « علَم شخصي » فإنّ لهـا حكم الفئة الأولى .

وبناءً على هـذا فإن لفظ الجـلالة (الله) سـواء أكان جـامداً أم مشتقـاً يستعمل الآن بصورة « علَم شخصي » وليس له من معنى سوى الذات الإلهية المقدسة ، ولكن لمّا كانت الذات الإلهيـة غير قـابلة للمشاهـدة فلمعرفـة معنى « الله » يقدمون عنواناً يختص بالله تعالى مثل : « الذات الجامعة لكل الصفات الكمالية » ، لا أنّ اسم الجلالة موضوع لمجموع هذه المفـاهيم . إذن البحث حول مادة هذه الكلمة وهيئتها لا يمكن أن يساعدنا على فهم معناها بعنوان أنها علَم شخصي .

٤ ـ لفظ « خدا » في اللغة الفارسية وإن كان مخفف « خودآ » كما يقولون وهو مرادف تقريباً لـ « واجب الوجود » ولكن بالرجوع إلى مشابهاته من قبيل « خداوند » و « كدخدا » يمكن القول إنّ معناه اللغوي يشبه معنى « الصاحب » و« المالك » ، والمعنى الذي يفهم منه عرفاً يشبه معنى الخالق والمبدع .

أمّا في القرآن الكريم فإن أكـثر التعبيرات شيوعاً في مـورد الله تعالى هي « إله » و « ربّ » ، وقد استعملت كلمة « إله » في شعار التوحيـد (لا إله إلاّ الله) ، ومن هنا فإنّ من المناسب أن نتناول هاتين الكلمتين بالتوضيح :

« إلـه » عـلى وزن « فعـال » بمعنى « مفعـول » ، مثـل « كتـاب » بمعنى « مكتوب » ، ومعناها اللغوي هو « المعبود » ، ولكنه يمكن أن يقال إن « إله » قد لوحظ فيها معنى الشأنية واللياقة مثل كثـير من المشتقات ، فيكـون معناهـا « المؤهل أو اللائق للعبادة » ، وبناء عـلى هذا فـلا نحتاج إلى تقـدير صفـة أو متعلق في جملة « لا إله إلاّ الله » .

بينما إذا كان معنى « الإله » هو المعبود فإن معنى كلمة التوحيد حينئذٍ هو « لا يوجد معبود سوى الله » ، وهـذا مخالف للواقـع ، لأنّ أشخاصـاً وأشياء كثيرة قد عبدت في هذا العالم ، ولهذا فقد اضطروا لتقدير صفة أو متعلق وقالوا لم يوجد ولا يـوجد معبـود بحق سوى الله . وأمـا إذا كان معنى « الإلـه » هو المستحق للعبادة أي أنه لوحظ فيه معنى الشـأنية فلسنـا بحاجـة حينئذٍ إلى أيّ تقدير .

وقد يثار هنـا سؤال آخر وهـو : إذا كان معنى الإلـه هو الـلائق للعبادة فكيف جمـع في القرآن نفسـه وأطلق على المعبـودات بغير حق ، كـما ورد تعبير « إلهك » بالنسبة لعجل السامريّ ، وتعبير « آلهتك » بالنسبة لمعبودات فرعون ؟

والجواب على هـذا السؤال هو أن مثـل هذه الإطـلاقات تكـون حسب عقيدة المخاطبين أو نقلاً عن لسان المشركين ، ويصبح معناها في الواقع : ذلك الشخص أو الشيء اللائق للعبادة حسب ظن القائل أو السامع . إذن حتى في مثل هذه الموارد أيضاً يمكن القول إن معنى الشأنية ملحوظ فيهـا ولكن حسب عقيدة القائل أو السامع لا بحسب الواقع .

وأمـا « ربّ » التي تترجم في اللغـة الفارسيـة إلى « برورد كـار » فلها في الأصل معنى يشبه « صاحب الاختيار » كما يفهم من موارد استعمالها مثل « ربّ الإبل » و « ربّة الدار » . وهذه الكلمة وإن كانت لها مناسبة مع مـادة « ربى » بحسب الاشتقاق الكبير ولكن معناها ليس هو عين معنى « المربي » ، وعلى هذا فلا تصبح ترجمتها إلى « برورد كار » دقيقة ، وهي تطلق على الباري جلّ وعلا

بلحاظ أنه صاحب الاختيار بالنسبة لمخلوقاته ، وهو في التصرف وتدبير أمورهم ليس بحاجة إلى إذن أو إجازة أحد لا تكويناً ولا تشريعاً .

إذن معنى الاعتقاد بربوبية أحد هو أنه يستطيع مستقلاً ومن دون حاجة إلى إذن أيّ أحد آخر أن يتصرف في أيّ شأن من شؤون مربوبه ، والاعتقاد بالتوحيد الربوبيّ يعني الاعتقاد بأن الله وحده الذي يستطيع بصورة مستقلة ومن دون حاجة إلى أيّ إذن أو إجازة أن يتصرف في جميع شؤون مخلوقاته (كل العالم) وأن يديرها ويدبّرها .

وبالتأمل في معنى « الإله » و « الربّ » يتضح لنا أنّ الألوهية تستلزم الربوبية لأنّ العبادة لا تكون إلا لمن هو صاحب الاختيار ويتصف بالربوبية والمالكية ويستطيع أن يتصرّف في شؤون مربوبه مستقلاً وأن يمنحه خيراً أو يبتليه بضرّ .

الدليل العقلي على وجود الله في القرآن :

إن أوّل مسألة تطرح للبحث في باب معرفة الله في القرآن هي :

هل استدلّ القرآن الكريم على إثبات وجود الله أم لا ؟

كثير من المفسرين ـ ولاسيّما من كانت له يد في علم الكلام منهم ـ عدّ آيات كثيرة من القرآن هادفة إلى إثبات وجود الله ، وأخرجوها بصورة براهين يمكن إعادة أغلبها إلى « برهان النظام » .

ووقفت فئة أخرى من المفسرين في مقابل هؤلاء معتقدة أنّ القرآن الكريم يعتبر وجود الله مستغنياً عن الاستدلال ، وهو لم يحاول إثبات ذلك على الإطلاق ، وجميع البراهين التي تدّعيها الفئة الأولى فهي إمّا أن تكون في مقام إثبات التوحيد ونفي الشرك ، وإمّا أن لا تكون موجودة في القرآن بصورة برهان ، وإنما المفسرون هم الذين أخذوا بعض الآيات القرآنية وضموا إليها مقدّمات أخرى ثم أخرجوها بصورة برهان .

ومحاكمة هذه الآراء لاختيار الصحيح الدقيق منها تحتاج إلى دراسة مفصلة وشاملة ، لا تتناسب مع هذا البحث المضغوط ، ولكن الذي يمكن ذكره بعنوان وجه للجمع أو للتقريب بين هذين القولين هو : لعلّ القرآن الكريم لم يحاول إثبات وجود الله بصورة مباشرة إمّا لأنه يعتبر وجود الله أمراً يقرب إلى البديهي وليس بحاجة إلى استدلال، وإمّا لأنه لم يواجه منكراً ذا بال، وقد يؤدي طرح هذا الموضوع إلى الوسوسة وهو خلاف الحكمة ، ولكنه على أيّ حال يمكن استخراج بعض الاستدلالات على هذا الموضوع من البيانات القرآنية ، ولا يبعد أن يكون القرآن نفسه قاصداً لهذه الاستدلالات عن طريق غيرمباشر . مثلاً لا مانع من أن تكون هناك آية واردة لإثبات وحدانية الله بصورة مباشرة ، ولكنها تثبت بشكل غير مباشر أصل وجود الله أيضاً ، أو آية واردة في مقام الاحتجاج على المشركين والمنكرين لنبوّة رسول الإسلام (ص) وهي تبين في أثناء ذلك موضوعاً يثبت وجود الله أيضاً .

وللمثال نذكر الآية (٣٥) من سورة « الطور » فهي في مقام الاحتجاج على الكفار الممتنعين عن الإيمان بالرسول الأكرم (ص) ، وهي تطرح سؤالات بصورة « الاستفهام الانكاريّ » ، ومن جملتها قوله تعالى :

﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ .

لا شكّ أنّ هذه الآية ليست في مقام إثبات وجود الله صراحة ، ولكن يمكن استنباط برهان لهذا الموضوع من مضمونها بهذا الشكل : إن الإنسان إمّا أن يكون قد جاء بذاته ومن دون خالق ، وإما أن يكون هو الذي خلق نفسه ، وإمّا أن يكون له خالق آخر ، ومن الواضح جداً بطلان الفرضين الأول والثاني ، فالعاقل لا يستطيع أن يقبل شيئاً منهما ، إذن لا بدّ أن يكون الفرض الثالث هو الصحيح وهو أنّ له خالقاً .

ويتوقف هذا الاستنباط على أن يكون مصداق « شيء » المذكور في الآية الشريفة هو « الخالق » ، فيصبح معنى الآية : أم خلق الكافرون من دون خالق أم هم الخالقون لأنفسهم ؟ وبديهيّ أن الفرضين غير صحيحين ، والجواب على

كلا السؤالين بالنفي ، إذن لا بدّ أن نعتقد بوجود الخالق .

ولكنه يوجد احتمالان آخران حول مصداق « شيء » الوارد في الآية : أحدهما أنّ المقصود من « شيء » هو المادة القَبْليّة ، فيصبح معنى الآية : أم خلقوا من دون مادّة قَبْليّة ؟

الاحتمال الثاني هو أن يكون المراد من « شيء » هو الهدف والغاية ، وعليه يصبح معنى الآية : أم خلقوا من دون هدف ؟

والظاهر أن هذين الاحتمالين لا ينسجمان مع ذيل الآية ، فقولنا : « أم خلقوا من دون مادة قبليّة أو من دون هدف » لا يناسبه أن نسأل بعده ، « أم هم الخالقون » ، وإنّما ينسجم الذيل مع الصدر إذا قلنا « أم خلقوا من دون خالق أم هم الخالقون لأنفسهم » . أمّا لماذا لم يقل « أليس لهم خالق أم هم الخالقون » فلعلّ المقصود هو التأكيد على صيغة « خلقوا » ليكون بطلان الفرضين أوضح .

وعلى هذا فإذا رأينا القرآن الكريم لا يطرح مسألة وجود الله بصورة مسألة مستقلة ، ولم يحاول الاستدلال عليها بشكل مباشر ، فليس معنى ذلك أنه لم يشر بصورة غير مباشرة إلى دليل ذلك ، أو أنّه لا يمكن استخراج مقدمات الاستدلال من المواضيع القرآنية .

والملاحظة التي يجب الالتفات إليها هي أنّ البراهين العقلية ـ سواء أكانت في القرآن أم في دراسات الفلاسفة والمتكلمين ـ تثبت وجود الله بوساطة المفاهيم الذهنية ، ونحصل نتيجة لذلك على معرفة حصولية وكلّية . مثلاً برهان الحركة يثبت وجود « محرك » للعالم ، وبرهان النظام يثبت وجود الله بعنوان أنه « المنظم للعالم » ، وبراهين أخرى تثبت لنا وجوده جلّ وعلا بعنوان أنه « الخالق » أو « الصانع » أو « واجب الوجود » أو « الكامل المطلق » . ثم براهين التوحيد هي التي تثبت أنّ هذه « العناوين الكلّية » ليس لها سوى « مصداق واحد » ، أي أنّ « الله واحد » . وبراهين الصفات تثبت له الصفات

الكمالية وتنفي عنه صفات النقص ، وحصيلة هـذه جميعاً أنّ هنـاك موجـوداً يتمتّع بالعلم والقدرة والحياة ، وليس له زمان ولا مكان ، ولا يتصف بأية صفة محدودة ، وهو الخالق للعالم وللإنسان ، وهذه معرفة بعنوان كليّ ولكنه منحصر في فـرد واحـد ، وهي معـرفـة غيـابيـة حيث نقـول « هنـاك مـوجـود » أو « وهو »[1] .

ويطرح أمامنا في هذا المجال سؤال يقول :

هل للقرآن حديث حول المعرفة الشهودية والشخصية بالنسبة لله سبحانه وتعالى أم لا ؟

لعلنا نستطيع الجواب عليه بالإيجاب من خلال استعراضنا لآيـة الفطرة وآية الميثاق .

معرفة الله الفطريّة :

قبـل الدخـول في صميم البحث حـول آيتي الفـطرة والميثـاق نـرى من الأفضل أن نتناول بالتوضيح كلمة « الفطرة » :

تترجم هذه الكلمة في اللغة الفارسية إلى « سـرشت » ، وهي « مصدر نوعي » تدل على نوع الخلقة ، ولكنها تستعمل عادة في مورد الإنسان ، فيقال لشيء ما إنه « فطري » إذا كان يقتضيه نوع خلقة الإنسان ، وهو منحة الله وغير اكتسابي ، ومشترك إلى حدٍّ ما بين جميع أفراد الإنسان ، ولهذا فهو يشمل جميع الرؤى والاتّجاهات الممنوحة للإنسان من قبل الله .

ولهذه الكلمة (الفـطري) اصطلاحـات متعددة في المنـطق والفلسفة ، ولكن الذى يناسب ما نحن فيه ثلاثة اصطلاحات :

١ ـ إن « البحث عن الله » من « الرغبات الفطرية » للإنسان ، والشاهد

(١) يحسن التعمق في الرواية التي نقلناها عن تحف العقول في ص ٢٢ (. . . ومعرفة صفة الغائب قبل عينه) .

على ذلك أن أفراد الإنسان على طول مرّ التاريخ وعلى الرغم من اختلافهم في القومية والثقافة والجغرافيا كانوا باحثين عن الله ، وكانت البشرية دائماً تتمتع بلون من الدين والإيمان بربٍّ خالقٍ للكون .

٢ ـ إن « معرفة الله » « معرفة فطرية » . والمقصود من قولنا : « معرفة الله فطرية » أنها أحد لونين من المعرفة : إمّا الحصولية وإما الحضورية :

أ ـ فمعنى المعرفة الفطرية الحصولية لله هو أنّ العقل الإنساني ليس بحاجة إلى بذل الجهد للتصديق بوجود الله سبحانه ، بل هو يدرك بسهولة أنّ وجود الإنسان وجميع ظواهر العالم « محتاجة » إلى « خالق غير محتاج » يرفع حاجتهم الوجودية .

ب ـ ومعنى المعرفة الفطرية الحضورية هو أنّ لقلب الإنسان ارتباطاً عميقاً بخالقه ، وعندما يغور الإنسان إلى أعماق قلبه فإنه يجد مثل هذا الارتباط ، ولكنّ أكثر الناس لا يلتفتون إلى هذه العلاقة القلبية ، ولا سيّما أثناء الحياة الاعتيادية حيث يكون الناس غارقين في أمور دنياهم ، ولكنهم يستطيعون الانتباه إلى وجود هذه العلاقة القلبية وذلك عندما يصرفون اهتمامهم عن كل شي عداها، ويقطعون أملهم بكل الأسباب .

٣ ـ إنّ « عبادة الله » « رغبة فطرية » ، والإنسان بحسب فطرته طالب لعبادة الله والخضوع والتسليم له .

ومن الواضح أن « الفطري » بالاصطلاح الأول والثالث هو لون من « الرغبة والاتجاه الباطني » ولا علاقة له بـ « المعرفة » بصورة مباشرة ، ولكنه بالمعنى الثاني هو لون من « المعرفة » : إمّا المعرفة الحصولية العقلية وإمّا المعرفة الحضورية الشهودية . فالمعرفة العقلية تحصل في الواقع عن طريق الدليل والبرهان ، وأقصى ما في الأمر أنه لمّا كان دليلها واضحاً جداً فهي تسمى « فطرية » .

وأما المعرفة الفطرية الحضورية فهي تلك المعرفة التي نحن بصدد

بيانها الآن ، ونتناول أولاً آية الفطرة ، ثم نعقبها بآية الميثاق :

آيـــة الفطـــرة :

يقول الله تعالى في الآية (٣٠) من سورة الروم :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرةَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديـل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

في هذه الآية نواجه أولاً الأمر بالاهتمام الشديد بـ « الدّين » ثم نشير إلى أنّ هذا الشيء أمر يوافق الطبيعة التي فطر الله الناس عليها ، وتتميز هذه الفطرة بأنها ليست قابلة للتغيير ولا للتبديل ، ويضاف إليه أنّ هذا هو الدين القيم ، وفي الختام تذكر الآية بأن أكثر الناس غافلون عن هذا الموضوع .

ويقع الخلاف في أن هذا « الأمر الفطري » ما هو ؟

أهو معرفة الله أم عبادته أم شيء آخر ؟

إذا كان المقصود من هذا « الأمر الفطري » هو المعرفة الحضورية القلبية اللاشعورية فهو ينطبق تماماً على ذلك الموضوع الذي أشرنا إليه فيما سبق وتؤيّده تلك الروايات[1] الواردة ، ويغدو مفـاد هذه الآيـة نفس مفاد آيـة الميثاق التي سوف يأتي توضيحها . وأما إذا كان المقصـود منه هـو « المعرفـة العقلية » فـلا يكون لها عندئذٍ ارتباط وثيق بهذا البحث ، ولكنّ هذا الاحتمال ليس في أيدينا ما يؤيّده .

ويذكر لهذه الآية الشريفة تفسيران آخران : أحدهما أنّ المقصود منها هو كـون كلّيّات عقـائد الـدين وأحكامـه ـ من قبيل التـوحيـد وعبـادة الله وصلة المحرومين وإقامة العدل والقسط في المجتمع والمَواضيع الأسـاسية الأخـرى في الإسلام ـ موافقة لفطرة الناس ، ومنسجمة مع رغباتهم وتصوراتهم ودوافعهم الإنسانية . وحسب هذا التفسير تكـون معرفـة الله وعبادتـه جزءاً من الفـطرة المذكورة في الآية الكريمة .

---

(١) الكافي : ج ٢ ، ص ١٢ (طبعة دار الكتب الإسلامية) .

وهناك تفسير آخر قريب من هذا التفسير يقول : إنّ حقيقة الدين عبارة عن التسليم والخضوع أمام الخالق جلّ وعلا ، ويتجلّى هذا التسليم في أشكال مختلفة من العبادات والطاعات والأوامر والقوانين الإلهيّة ، كما يدلّ عليه لفظ « الإسلام » : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، والمقصود من قولنا : (الدين فطري) : هو أن « الاندفاع » إلى عبادة الله والخضوع أمامه أمر له جذور عميقة في فطرة الإنسان ، وكلّ إنسان بفطرته يحب التعلّق والتقرّب إلى « الكامل المطلق » ، والعبادات المنحرفة والممزوجة بالشرك قد جاءت نتيجة للتلقينات الخاطئة والتربية السيئة ، أو نتيجة للجهل والخطأ في التطبيق : « كل مولود يولد على الفطرة . . . . » .

وحسب هذا التفسير لا تكون هذه الآية الكريمة ناظرة إلى « معرفة الله » بصورة مباشرة ، ولكنه يمكن القول بأنه إذا كانت « عبادة الله » فطرية فيلزم من ذلك وجود لون من المعرفة الفطرية بالنسبة إلى الله تعالى ، لأنّه لا بدّ أن يعرف الإنسان ربّه حتى يعبده ، وعندما يكون الاتّجاه إلى عبادة الله أمراً فطرياً فإنّ معرفته لله تعالى ستكون فطرية لا محالة . وبدرجة أشد وأولى لأنها سابقة على العبادة الفطرية .

وروي في الكافي عن الإمام الباقر (ع) أنه قال في تفسير هذه الآية الشريفة :

« فطرهم على المعرفة به »[1] .

آية الميثاق :

يقول الله تعالى في هاتين الآيتين (١٧٢ ـ ١٧٣) من سورة الأعراف :

﴿ وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

---

(١) الكافي : ج ٢ ، ص ١٣ (طبعة دار الكتب الإسلامية) .

تعتبر هاتان الآيتان من الآيات القرآنية المشكلة من حيث التفسير، ويتّسع البحث فيهما من جهات متعدّدة ، ولكنّ الإلمام بكلّ ذلك يبعدنا عن هدفنا من هذا البحث . والذي يستفاد بوضوح من الآيتين هو أنّ كل فرد من أفراد الإنسان يتمتّع بلونٍ من المعرفة بالله ووحدانيته ، بحيث يمكن التعبير عن كيفية حصول ذلك بأنّ الله قال لهم : « ألست بربكم » فأجابوا : «بلى شهدنا»؛ وقد جرى تبادل هذا الحديث بشكل لا يترك مجالاً للعذر أو ادّعاء الخطأ في التطبيق ، وعلى هذا فإنّه لا يستطيع أحد أن يدّعي يوم القيامة أنّه كان جاهلاً بربوبية الله ، ولا يستطيع أن يجعل التبعيّة للآباء والسابقين عذراً لشركه وانحرافه .

ويبدو لنا أنّ مثل هذه المكالمة والمشافهة المسقطة للأعذار والنافية للخطأ في التطبيق لا تحصل إلاّ بالعلم الحضوري والشهود القلبي ، وتؤيّد ذلك روايات عديدة تشتمل على التعبير بـ « الرؤية » و « المعاينة » ، فقد روي في الكافي عن الإمام الباقر (ع) أنه قال معلّقاً على آية الفطرة :

« فعرّفهم وأراهم نفسه ، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه »[1] .

وفي تفسير علي بن إبراهيم القمّي نقلاً عن ابن مسكان أنه قلت للإمام الصادق (ع) : « معاينة كان هذا ؟ قال : نعم »[2] .

وفي كتاب المحاسن للبرقي ينقل زرارة عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : « ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه »[3] .

يستفاد من هذه العبارة أنّ المعرفة المشارَ إليها في الآية الكريمة هي معرفة شخصية لا كلّيّة حاصلة عن طريق المفاهيم الانتزاعية والعناوين العقلية ، والمعرفة الشخصية بالله جلّ وعلا غير ممكنة إلاّ عن طريق العلم الحضوريّ

---

(١) الكافي : ج ٢ ، ص ١٣ .

(٢) تفسير الميزان : ج ٨ ، ص ٣٣٠ .

(٣) تفسير الميزان : ج ٨ ، ص ٣٣٠ .

والشهوديّ . ولو كان المقصود منها المعرفة الكلّية الناتجة من الاستدلال العقلي للزم أن يقول :

« ولولا ذلك لم يعلم أحد أنّ له خالقاً » .

ومن يتأمل في هذين التعبيرين يعلم الفرق بينهما .

والحاصل أنه يستفاد من هذه الآية أنّ جميع أفراد الإنسان يتمتعون بمعرفة فطرية لله تعالى ، وهي من لون العلم الحضوريّ والشهوديّ بالخالق جلّ وعلا ، إلاّ أنّ هذه المعرفة نصف واعية بالنسبة لعامة الناس ، فهم غير ملتفتين إليها في حياتهم الاعتيادية ، وهذه المعرفة نصف الواعية هي التي تصل إلى حدّ الوعي التام نتيجة لقطع التعلّقات المادية وتقوية التوجّهات القلبية ، فتستحكم في أولياء الله إلى حدّ أنهم يقولون :

« ألغيرك من الظهور ما ليس لك »[1] .

و« لم أعبد ربّاً لم أره »[2] .

ولعل هدف كثير من آيات القرآن هو إلفات الناس إلى هذه المعرفة الفطرية ، وتنوير القلب بمعرفة الله بشكل أعمق . مثلاً في الآية (٩٥) من سورة الأنعام يقول تعالى بعد الإشارة إلى ظاهرة الحياة :

﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ .

كأنّ التأمل في الظواهر الحيّة يعدّ القلب ليرى يد الله في الطبيعة وليدرك حضوره . وكذا في الآية (١٠٢) من نفس السورة السابقة ، فالله تعالى يقول بعد التذكير بعدد من الآيات الإلهية :

﴿ ذلكم الله ربّكم لا إله إلاّ هو ﴾ .

---

(١) انظر دعاء عرفة لسيّد الشهداء الإمام الحسين (ع) .

(٢) راجع نهج البلاغة في كلامه (ع) لمن سأله « هل رأيت ربك ؟ » .

التـوحيد الفطـري :

إنّ المعنى الذي بيّنّاه لفطرية معرفة الله يحكي في الواقع عن رابطة وجودية بين الإنسان والخالق الذي يمنح الوجود ، ومثل هذه المعرفة لا يمكن أن تنفصل عن المخلوق الذي يتمتع بـالاستعداد لإدراك ذلـك ، ولهذا كـان التعبير بـأنها « فطرية » في هذا المورد صادقاً تمام الصدق . ومثل هذا الشهود لا يتعلق فقط بأصل « وجود » الخالق ، وإنّما يشمل جميع شؤون العلاقة المذكورة ، ومن جملة ذلك فإنه يتعلق بـ « الربوبية » أيضاً ، ويشهد لذلك استعمال كلمة « ربّ » في آية الميثاق ، أي في هذا الشهود يثبت وجود الله وربوبيّته أيضاً ، ولو كانت هناك مثل هذه الرابطة الوجودية بين إنسان وموجود آخر لتعلق بها الشهود ، إذن هذه المعرفة تتعلق أيضاً بـ « وحدانية الله » ، ولهذا السبب فإنه لا يبقى عذر للشرك « أو تقولوا إنّما أشرك . . . »

ولمّا كانت الألوهية والمعبوديّة لا تليق إلاّ لمن هو خالق ورب إذن يثبت أنّ ما سوى الله ـ الذي يعرف بالشهود الفطري ـ ليس لائقاً للعبـادة والخضوع ، ونستخلص من هذا أنّ التوحيد في الخالقيّة والربوبيّة والألوهيّة أمر فطري .

يقول الإمام الصادق (ع) حسب عدة روايـات نقلت عنه في الكـافي في تفسير آية الفطرة :

« فطرهم على التوحيد »[1] .

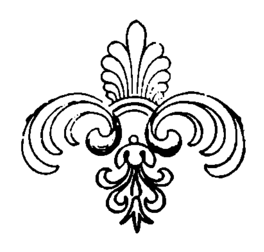
ولعلّ في هاتين الآيتين (٦٠ ـ ٦١) من سـورة « يس » إشارة إلى هـذا المعنى حيث يقول تعالى :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين * وأنِ اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ .

---

(١) الكافي : ج ٢ ، ص ١٢ ـ ١٣ . وتفسير الميزان ، ج ١٦ ص ١٨٦ .

أي أنّ الطريق المستقيم هو ذلك الذي تدل عليه الفطرة الإنسانية ، وهو عبادة الله الواحد ، وعبادة أيّ معبود آخر إنما هي انحراف عن المسير الصحيح للفطرة .





معرفة الله فطرية

مرّ علينا أنّ الفطرة في اللغة العربية تعني نوع الخلقة فيقال لشيء ما إنّه فطريّ إذا كان يقتضيه نوع خلقة ذلك الموجود . وحسب الاصطلاح تكون الفطرة في مورد الإنسان عبارةً عن الرؤى والاتّجاهات المغروسة في أعماق الإنسان ، وهو يتمتع بها بشكل ذاتي ، لا أنه قد اكتسبها وحصل عليها .

وبعبارة أخرى : الرؤى الفطرية عبارة عن الرؤى غير الاكتسابية ، والاتّجهات الفطرية هي الاتجاهات غير الإكتسابية . ومن الطبيعي أن يكون هذا الشيء غير الاكتسابي موجوداً في جميع أفراد الإنسان لأنه يقتضيه نوع خلقتهم . إذن ميزة الأمور الفطرية هي : أولاً ليست مكتسبة ، ثانياً موجودة في جميع الأفراد ، وإن كانت تختلف من حيث الشدّة والضعف . وعرفنا مما سبق أنّنا نستعمل « الفطري » في موردين : أحدهما في الإدراك والرؤية ، ثانيهما في الاتّجاه والرغبة والميول . فالفطرة لها مورد استعمال في مجال جهاز الإدراك ، وذلك فيما يتعلق بالمعرفة والوعي ، ولها مورد استعمال في الرغبة والإرادة ، فالرغبة الفطرية والاتّجاه الفطري عُبارة عن تلك الميول والرغبات الموجودة في أعماق الإنسان دون أن يحتاج إلى كسبها ، والذي يجمع هذه جميعاً هو أنها ليست مكتسبة ، وإنما هي مما تقتضيه الفطرة وكيفية خلقة الإنسان .

أمّا في مورد معرفة الله وعبادته وتوحيده فلكلمة « الفطري » أبعاد متنوّعة ، فنقول أحياناً : معرفة الله فطرية ، ونقصد منه أنّ للإنسان بحسب خلقته لوناً من المعرفة بالله تعالى . ونقول أحياناً : البحث عن الله فطري ، أي أنّ للإنسان ـ بحسب فطرته ـ اتجاهاً نحو الله يحمله على البحث عنه لمعرفته وعبادته . وعندما نقول إنّ البحث عن الله فطري فهو ليس من باب المعرفة وإنّما هو من باب الرغبة ، أي أنّ هناك رغبة قلبية وانجذاباً روحياً نحو الله يدفع الإنسان لكي يبحث عن الله . ويقال أحياناً : عبادة الله فطرية ، أي توجد في أعماق الإنسان رغبة في الخضوع والخشوع أمام الخالق جلّ وعلا ، ولا يشبع هذه الرغبة شيء سوى عبادة الله سبحانه . نعم قد تشبع ببديل عنها ، كما يحدث في سائر الرغبات الفطرية التي تشبع أحياناً ببدائلها ، ويؤكد علم النفس أنّ الإنسان إذا لم يشبع رغبة طبيعية فيه بصورة صحيحة وسليمة فإنه يندفع لإشباعها بالبديل .

وكون عبادة الله فطرية يعني أنّ في فطرة الإنسان رغبة في عبادة الله ، بحيث إذا كانت هذه الرغبة يقظة حيّة فإنها لا يمكن إشباعها إلاّ بعبادة الله ، ولمّا كان هذا المعنى أبعد عن الذهن من سائر المعاني لذا نوضحه بعض الشيء لننتقل إلى صميم الموضوع .

لعلّ كلّ من يحس بحبٍّ في قلبه لشخصٍ ما ـ ولا سيما إذا كان هذا الإحساس شديداً ـ يدرك أنه عندما يصل إلى محبوبه فهو يريد أن يظهر لوناً من الخضوع أمامه . وهذه رغبة لا يمكن الإتيان بدليل عقليّ عليها ، وليس من الصحيح أن نطلب دليلاً يثبت لنا لماذا يقف المحبّ خاضعاً أمام محبوبه . وهو مثلاً ينحني ليقبل يده أو رجله ، وقلبه يحبّ أن يتصاغر أمامه ، إنها رغبة لا يوجد تفسير عقليّ لها ، لكنّها رغبة فطرية يتم إشباعها بهذه الطريقة ، وكلّما كانت المحبة أشدّ وأكثر خلوصاً كانت هذه الرغبة أقوى ، حتى كأنّ المحبّ يرغب في أن يضحى به أمام محبوبه . إنّها رغبة فطرية يمكننا تسمية الدرجة العالية الشديدة منها بالعبادة .

إنّ مقتضى العشق ، العشق الخالص النظيف ، أن ينتهي إلى أنّ العاشق يحبّ أن يفنى أمام معشوقه، يريد أن يتصاغر إزاءه حتى كأنّه قد أصبح لا شيء . وفي مورد الخالق تعالى توجد مثل هذه الرغبة، فالذين عرفوا الله واستيقظت في قلوبهم محبة الله تتدفق في وجودهم مثل هذه الرغبة ، فهم يحبون أن يخضعوا أمام الله ، لا أنهم يطلبون أجراً لهذا الخضوع ، بل مقتضى هذا الحب هو أنهم يريدون التصاغر أمامه والعبودية له . إنّ رغبتهم هذه تشبع بالعبادة فقط ، وليست العبادة عندهم وسيلة للوصول إلى أهداف أخرى . وإنما هي بنفسها هدف ، ولهذا فهم يحيون الليالي إلى الصباح بالمناجاة دون أن يتسلل إليهم الملل أو التعب ، وتتمنى قلوبهم أن يطول هذا الليل سنوات لكي ينفقوه في بثّ محبوبهم ما في قلوبهم . انظروا إلى العاشق الذي انتظر وصال معشوقه مدة طويلة وبعد الانتظار الصعب وصل إليه في لحظة ما ، أهو يحب وصال معشوقه لكي يأخذ منه مالاً أم ليطلب منه منصباً ؟!! أم هو يريد هذا الوصال لأنه يرغب فيه ؟ وهو يضحّي بكل غال في سبيل تحقيق هذا الهدف . إنّ الذي عرف الله واستيقظ في قلبه حبّ الله ليعشق مناجاة الله وهو لا يرتوي منها . وهو يلتذّ بالعبادة إلى الحدّ الذي ينسى فيه أثناءها كلّ شيء . على أيّ حال : المقصود من كون عبادة الله فطرية هو أن مثل هذه الرغبة غائرة في أعماق وجود الإنسان ، فهو يحب الخضوع لمحبوبه ويريد أن يعبده .

وموضوع بحثنا هو فطريّة معرفة الله ، ولا يتعلق أصالة بفطرية البحث عن الله وعبادته ، أمّا بالنسبة لمعرفة الله الفطرية فإنّنا نستطيع أن نطرح لونين من المعرفة ـ كما أشرنا إلى ذلك في محاضراتٍ سابقة ـ أحدهما المعرفة الحضورية : وهي تعني ارتباط القلب بالله ، والثاني المعرفة الحصولية العقلية : وهي تعني معرفة العقل لله . والمقصود من معرفة الله الفطرية بمعنى المعرفة الحضورية هو أن الإنسان قد خلق بشكل قد غُرست في أعماق قلبه رابطة وجودية بالله ، فإذا فتّش في جنبات قلبه والتفت بجدّ إلى أعماقه فإنه سيجد تلك الرابطة . لا أنه يعلم كون الله موجوداً بل هو يدرك علاقته بالله ، وبعبارة أخرى : فإنه يرى ويشاهد ويجد ، إنّ هذا هو العلم الحضوري . أمّا المقصود

من معرفة الله الفطرية بالمعنى الثاني فهو أنّ الإنسان يستطيع أن يعرف وجود الله بسهولة من دون حاجة إلى بذل جهد في هذا السبيل ، بل يكفيه في هذا المضمار عقله الفطري الذي منّ الله به عليه . إنّ المعرفة العقلية الفطرية عبارة عن المعلومات البديهية أو القريبة من البداهة ، والتي لا يحتاج الإنسان فيها إلى جهد وكسب ، وهو يستطيع أن يدركها من دون أن يسعى لتحصيل العلم ، بل يغنيه استعداده الفطريّ الذي منحه الله إياه .

فالمعرفة الفطرية في كل واحد من هذين المعنيين قد اعتبرت فطرية من جهة أنّها ليست مكتسبة ، ولا يضطر الإنسان فيها ليبذل جهداً من أجل أن يظفر بما ليس عنده .

أمّا معرفة الله الفطرية بمعنى المعرفة العقلية الفطرية : فهي تلك المعرفة المحتاجة إلى لون من الدليل ، ولكنه دليل لا يحتاج إلى بذل جهد من قبل العقل ، والمطّلعون على المنطق يعلمون أنّ البديهيّات الثانوية في المنطق تقسم إلى عدة أقسام ، منها قسم يسمى بالفطريّات ، وهي القضايا البديهيّة من الناحية القياسية ، أي أنّ بين موضوعها ومحمولها توجد واسطة لا تحتاج إلى اكتشاف ، بل هي واضحة ، وبفضل هذه الواسطة يثبت المحمول للموضوع ، وهذه الواسطة موجودة في العقل بشكل دائم ولا تحتاج إلى كسب ، ونحن عندما نقول معرفة الله فطرية بمعنى العلم الحصولي والعقلي ، فمعناه أن العقل يصل إلى وجود الله من طريق مفتوح أمامه دائماً ، وهو لا يحتاج فيه إلى كسب وتعلّم ، ولهذا السبب كان من السهل تفهيم مسألة وجود الله للناس ، وإنْ كانوا أميين أو في مطلع بلوغهم ، وأمّا من كان منهم يتمتّع بذهن وقّاد فهو سيلتفت إليها ذاتياً ويُلمّ بها مستقلاً .

والأهمّ من هذا هو معرفة الله بمعنى العلم الحضوري ، أي هل للإنسان لون من المعرفة القلبية بالله بحيث إذا رجع إلى أعماق قلبه فسوف يجدها ؟ إذا كان لدينا مثل هذا الشيء فقد ثبت وجود معرفة الله بمعنى العلم الحضوري ، وتختلف هذه المعرفة كثيراً عن المعرفة الحصولية العقلية ، كما قدمنا ذلك فيما

مضى من بحوث ، وقلنا إنّ المعرفة العقلية تؤدي إلى معرفة كلّية ، ونتيجتها أنّ هناك موجوداً قد خلق العالم ، ولكنه غـائب لم يتعرف عليـه قلب الإنسان ولم يدركه ، وإنّما يحسّ أنّ هناك موجوداً قد خلق العالم وهو يدبّره ، وهذه معـرفة غيابية . أما إذا كان علمنا حضورياً فلا بد أن لا نقول هناك موجـود قد خلق العالم ، بل كلّ واحد منا يعرفه معرفة شخصية ، معرفة حضورية لا بعنوان كلّي وإنمـا يدرك القلب عـلاقته بـالله ، وإذا قدّر لأولئـك الغارقـين في عـالم المـادة والمتعلقين بظواهر هذا العالم من زينة وتجمّل أن يصرفوا اهتمامهم عنها ، أو أن يتورّطوا في حالة استثنائية تضطرهم للانصراف عنها ، فسوف يجدون في أعماق قلوبهم تلك العلاقة الحيّة الموجودة في جميع الناس ، إلاّ أنّ أكثرهم غير ملتفتين إليها ، فنحن نركّز انتباهنا على ما هو خارج عنا ، على الأشياء المادية وزينة هذه الدنيا ، بينما نحن غافلون عن تلك العلاقة القلبية ، وإذا استطعنا أن نصرف انتباهنا عما سوى الله وأنفسنا ونلتفت إلى أعماقنا فسوف نجد تلك العلاقـة ، وهذا هو السبيل الذي يقترحه العرفاء بشكل عام ، فالسلوك العرفـاني وسبيل الوصول إلى المعرفة الشهودية القلبية مبني على تركيز الإنسان انتباهه إلى أعماقه لكي يدرك هناك علاقته بالله . ولدينا قصة لعلها غير خافية على أحد ، توجد رواية تنقل عن الإمام الصادق (ع) أنه جاء إليه شخص وطلب منه أن يعرّف له الله كأنّه يراه ، فسأله الإمام : هل سافرت في البحر ؟ وكأنّ الإمام (ع) يعلم بـأنّ هذه القصـة قد جـرت له . قـال : نعم . قال الإمـام : هل حـدث أن تحـطمت سفينتكم في البحر ؟ قـال : نعم لقد حـدث هذا في سفـرنا . قـال الإمـام : هل وصلت إلى حـدّ انقطع فيـه أملك بكل شيء ، ورأيت نفسـك مشرفاً على الموت ؟ قال : نعم لقد جرى هذا الأمر . قال الإمام : أكان لـك أمل في النجاة ؟ قال : نعم كان لي أمـل . قالَ الإمـام : لم تكن هناك وسيلة للنجاة فبمن نعلّق أملك ؟ وعندئذٍ عرف السائل وتـذكر تلك الحـال التي كان فيها وكأنه يرى شخصاً قد تعلق به قلبه . هذه هي الحالة التي بيّنتها من قبل ، فأحياناً ينصرف انتباه الإنسان عـما سواه اضـطراراً ، فتعرض لـه هذه الحـالة ويدرك علاقته القلبية بالله ، ويستطيع الإنسان أن يقوم بهذا الشيء اختيـاراً ، وحينئذٍ تصبح له قيمة . فالاتّجاه والسلوك العرفاني الذي ترضاه الأديان الحقّـة

قائم على هذا الأساس ، وهو أنّ الإنسان يقطع تعلقه تدريجيّاً بما سوى الله ، ولا يكون معتمداً على غيره ، ولكنّ هذا لا يعني أنه يختار العزلة ويسكن في غارٍ وإنّما يقطع تعلق القلب بالأشياء ، فليكن بين أفراد المجتمع ، وليعش مثل سائر الناس ، ولكن قلبه يجب أن يكون مع الله دائماً . إذا استطاع الإنسان أن يروض نفسه على مثل هذه الحالة فإنّه سيصبح من شيعة أمير المؤمنين (ع) القائل : لم أعبد ربّاً لم أره . وهو أثناء العبادة يدرك علاقة قلبه بالله . ومثل هذا الشخص لا توجد مسألة وجود الله مشكلة أمامه ، وهو لا يفتّش عن دليل على وجوده تعالى ، فهل رأيتم شخصاً يبحث عن دليل على وجوده هو ؟ إن هذا الشخص الذي يفكّر ويدرس الأشياء ويقيم الدليل على المسائل العلمية والفلسفية ، أهو يحتاج إلى دليل يقيمه على وجوده هو بنفسه ؟ لماذا لا يريد دليلاً ؟ لأنه يدرك ذاته بالعلم الحضوري ، وكذا من يجد الله ويدرك علاقته الوجودية به سبحانه بالعلم الحضوري فإنّه لا يبقى مجال للسؤال بأنّ الله موجود أم لا ، بل هو يرى وجود كلّ شيء آخر من خلال الأشّعة المنبعثة من نور الله جلّ وعلا ، وعندئذٍ يحقّ لهذا الشخص أن يقول : بك عرفتك ، ونحن نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي أن الإمام السجاد (ع) يناجي الله عز وجل قائلاً : بك عرفتك وأنت دللتني عليك . إنّ الشمس تُرى بواسطة ذاتها ، والنور يُشاهد بنفسه ، أما الأشياء الأخرى فهي تُرى بوساطة النور . ويقول الإمام الحسين (ع) في دعاء عرفة : ألغيرك من الظهور ما ليس لك ، أي هل هناك ما هو أظهر منك حتى ترى أنت من خلال أشعّته ؟ حاشا بل أنت أظهر من كلّ شيء ، والأشياء الأخرى لا بدّ أن ترى من خلال نورك . ولهذا فإن أولياء الله يعرفون وجود الخلق بوساطة الله ، أمّا الله سبحانه فإنّهم يعرفونه بنفسه . ولما كانت دراستنا قرآنية فنحن نتساءل : هل ورد في القرآن ما يشير إلى هذه المعرفة الشهودية الفطرية ؟

هل هناك آيات قرآنية يستفاد منها هذا الأمر أم لا ؟

من المؤكد أنّ لدينا آيات متظافرة تدل على أنّ الإنسان يستطيع أن يصل إلى منزلةٍ يشاهد فيها الله ، فالمؤمنون سيصلون إلى هذه المنزلة في يوم القيامة ،

أي أنّ جزاء أعمالهم سيكون رؤية الله ولقاءه والنظر إليه :

﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة * إلى ربّها ناظرة ﴾[1] .

فهي مسرورة وتنظر إلى ربّها . وهذا التعبير : «إلى ربّها ناظرة» ونظائره كثير في الآيات القرآنية والروايات والأدعية والمناجاة . ولكن بحثنا عن أن هذه الرؤية تتم بصورة فطرية لجميع الناس ، أما هذه المنزلة من العلم الحضوري التي يظفر بها أولياء الله فهي مكتسبة ، وتُنال بالرياضة والطاعة وعبادة الله . وبحثنا يدور حول هذا السؤال : هل يوجد لون من الشهود الفطري للإنسان بحيث يكون جميع أفراده متمتعين به ؟ وجوابنا عليه بالإيجاب ، فنحن نرى أن القرآن يثبت هذا الأمر ، ونستدل على ذلك بآيتين كريمتين ، نتناول بالبحث كلاً منهما على حدة :

الآية الأولى هي (٣٠) من سورة الروم :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

في هذه الآية يخاطب الله سبحانه الرسول الكريم (ص) : **﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾** ، وهو تعبير شائع في اللغة العربية ، فعندما يراد الأمر بالتركيز على شيء وحصر الانتباه فيه يقال : أقم وجهك إليه ، أي اجعل وجهك مقابلاً له ، كناية عن الاهتمام الشديد به ، ويصبح معنى الآية : ركّز انتباهك بدقّة على الدين ، ثم يتلوها قوله تعالى : **﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾** ، والفطرة هي نوع الخلقة التي خلق الله الناس عليها . وهذا أيضاً لون من التعبير الشائع في اللغة العربية وفي الأدب الفارسي ، حيث تذكر في وسط الكلام جملة يظهر أنها غير تامة . يقول المفسرون : إنّ هذا التعبير « فطرة الله » من باب الإغراء ، وهي تعتبر تفسيراً وتحليلاً للجملة المتقدمة عليها ، أي : قلت لك ركّز انتباهك على الدين معناه تمسك بما تقتضيه فطرتك ، ولا تقدم على ما

---

(١) سورة القيامة : الآيتان ٢٢ ـ ٢٣ .

يخالف رغبتك الفطرية ، بل اتّجه نحو الدين وحافظ على الفطرة التي خلقك الله عليها . وحسب قول بعض المفسرين إنها تعني : الزم فطرة الله التي فطر الناس عليها . وهناك أقوال أخرى لا أريد أن أستعرضها في هذا المجال ، وإنّما أردت أن ألفت القارىء إلى موقع هذه الجملة . وبعد هذا يقول تعالى : ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ ، أي أنّ هذا لون من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فمقتضى فطرتهم الاتّجاه نحو الدين ، ثم يؤكد على أنه لا تظنّوا بأنّ هذا شامل لبعض الناس فقط ، أو أنّ فطرة الإنسان كانت هكذا في أحد الأزمنة ، كلاّ ، « لا تبديل لخلق الله » ، إن الله خلق الإنسان على هذا الشكل بحيث إنّ مقتضى فطرته الاتّجاه نحو الدين ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون .

وقدّم بعض المفسرين تفاسير أخرى لهذه الآية وحاولوا أن يستنتجوا منها بعض النتائج . قال بعضهم : مفاد الآية الشريفة هو أنّ أحكام الدين ـ ولا سيما الجذريّ منها والأساسيّ ـ منسجمة مع الفطرة الإنسانية . فالكلّيّات الموجودة في الدين أشياء تطلبها فطرة الإنسان ، وليست هي مما ترفضها فطرته ، إذن عندما تقول الآية : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ ، فالمقصود هو أنّ أحكام الدين وقواعده الأساسية موافقة لنوع خلقه الإنسان . فإذا وجدنا في الدين الأمر بعبادة الله فإنّ عبادته لا تخالف الفطرة ، بل هي رغبة في نفس الإنسان لا يشبعها إلاّ العبادة . وإذا رأينا الدين يوصي بمساعدة الآخرين وإقامة العدل والبعد عن الظلم ، فإنّ في أعماق الإنسان شيئاً يطلب هذه الأمور . وكذا الأشياء المتعلقة بحياة الإنسان الاعتيادية كتجويز الطيّبات وتحريم الخبائث ، إنه شيء تقتضيه فطرة الإنسان : ﴿ **يُحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث** ﴾ سورة الأعراف ـ ١٥٧ .

قانون الزواج مثلاً شيء موافق للفطرة ، فإذا قام دين ما بتحريم الزواج مطلقاً فقد جاء بما يخالف الفطرة ، والإسلام لا يخالف الفطرة في جميع قوانينه . إنّ هذا تفسير لهذه الآية ، وحسب هذا التفسير تصبح عبادة الله ـ التي هي من أحكام الدين الإسلامي ، بل أساس جميع الأحكام ـ موافقة للفطرة . وحسب هذا التفسير تعتبر العبادة أحد الأمور الفطرية المشار إليها في الآية ، ويكون

معنى الآية : ركّز اهتمامك على الدين الذي هو مجموعة من الأحكام والقوانين الموافقة للفطرة الإلهية التي فطر الله الناس عليها ، ومن جملتها عبادة الله . إذن عبادة الله أمر موافق للفطرة .

التفسير الآخر للآية هو أنّ المقصود من الدين الموافق للفطرة هو التسليم في مقابل الله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ والإسلام يعني الطاعة والانقياد ، الإسلام هو التسليم : فالانقياد لله تعالى أمر فطري ، ولا تريد الآية أن تقول إنّ جزئيّات الأحكام أو أشياء أخرى موافقة للفطرة . كل ما يقول الله فنحن له مطيعون ، فنحن عبيد أمام المولى ومنقادون لأوامره : « إن الدين عند الله الإسلام » فالدين عبارة عن أنك تصبح مطيعاً لله ﴿ إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾ أسلم نفسك لله ، هذا هو الدين ، وهو أمر فطري ، إذن يصبح معنى موافقة الدين للفطرة هو أنّ في أعماق الإنسان اتّجاهاً نحو عبادة الله .

وفي هذين التفسيرين يكون المقصود من الفطرية هو الاتّجاه الفطري ، فكلاهما رغبة في عبادة الله والانقياد له ، أمّا ما نحن فيه فهو الرؤية الفطرية ، أي نحن نسأل : هل للإنسان معرفة فطرية بالله تعالى ؟ وهل هي معرفة حضورية ؟ وهل تستفاد هذه المعرفة من تلك الآية ؟

أقول : إذا كانت هناك في فطرة الإنسان رغبة في عبادة الله ، أيمكن أن لا تشير هذه الرغبة إلى متعلقها بشكل أولي ؟ فإذا قلنا توجد رغبة في عبادة الله ، إذن لا بدّ أن تكون في فطرتهمعرفة له بدرجة أولى لأن المعرفة سابقة للعبادة . ونحن عندما نقول : في فطرة الإنسان ـ بمعناها العام الشامل للغرائز أيضاً ـ رغبة في الزواج ، فإنّ الفطرة تشير إلى متعلقها ، فعندما يشعر الإنسان بالحاجة إلى الزوج فهو يفهم ماذا يريد ومع من يحب المعاشرة والحياة . ولا يصح لنا أن نقبل الرغبة الجنسية على أنها أمر غريزي فطري ، بحيث يكون متعلقها شيئاً غير معلوم ، أي أنّ الإنسان عندما يحس بالحاجة إلى الزوج فليس هو بحيث لا يفهم أنه : هل يريد الصعود على الشجرة ، أم النزول على كرة القمر ، أم أنه

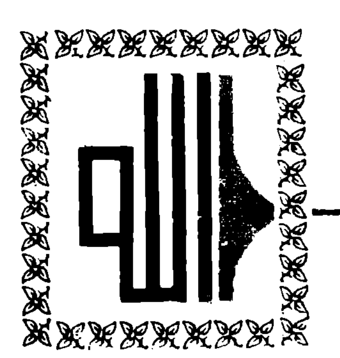
يريد أن يتزوج امرأة . إنّ هذه الرغبة عندما تظهر في الإنسان فهـو يفهم ماذا يريد ، إذن ترافق هذه الرغبة معرفة ، وكذا عبادة الله عندما تصبح فطريـة ، أي عندما توجد رغبة في أعماقنا تدفعنا للخضوع أمام أحد فلا بدّ أن تكون لنا معرفة بذلك الشخص ، ولا يجوز أن نخضع أمام شيء لا نعرف عنه شيئاً . إن الفطرة تشير لنا أنّ الخضوع يكون أمام الكامل المطلق .

وأرجو من القراء أن لا يشكلوا عليّ بالنسبة للتعبير بالغريـزة والفطرة ، فأنا اعتبرهما اصطلاحين متصادقين ، أي أنّي أطلقهـما على شيء واحـد ، وإن كانت بعض الاصطلاحات تستعمل الفطرة في مقابل الغريزة .

إذن عندما نقول : توجد في أعماق كلّ منّا رغبـة في الخضوع أمـام الله والعبادة له ، فمعناه أنّ هذه الرغبة تبحث عن موجود يتصف بالكمال المطلق ، وأمّا إذا خضعت أنفسنا لغيره فلأنها لم تجد مطلوبها ، لم تظفر بضالّتها فتبحث عن بديل للمطلوب . إذا لقي العاشق معشوقه فهـو يحب أن يتمرّغ أمـامه في التراب ، ولكنه لم يلق معشوقه الحقيقي ، ولهذا فهو إذا وجـد من هو أفضـل وأكمـل منه فـإنه سـوف ينسى معشوقـه الأوّلي . إذا كان مـلاك العشق عنـده الجمال ، فإذا رأى معشوقاً أجمل فإنه سيفقد الأنس بالأول ويرتمي في أحضان الثاني . وكذا إذا ظفر بأكمل منه فإنه يتـركه إلى الثـالث . إذن ليس هذا هـو مطلوبه الحقيقيّ ، وهذه جميعاً بدائل عنه ، أما ما تطلبـه فطرتـه فهو الكـامل المطلق الذي لا عيب ولا نقص فيه ، ولا يُتصوّر كمال أرفع منـه . فإذا ظفـر بهذا فهو لن يتخلّى عنه لأنه مطلوبه الحقيقي ، وسائر الأشياء بـدائل لا تشبـع ـ حقيقة ـ هذه الرغبة ، ويتم إشباعها بعبادة الله فحسب .

إذن في أعماق فطرتنا توجد معرفـة الله ، وإن كانت معـرفة ضعيفـة ، ونحن بسبب هذا الضعف نشتبه في التطبيق .

* * *



التوحيد الفطري

قلنا إنّنا نستطيع أن نفهم المعرفة الفطرية بالله تعالى من مكانين في سورتين ، وقد تناولنا الآية (٣٠) من سورة الرم ، ونتحدث الآن عن آيتين من سورة الأعراف وهما الآيتان ١٧٢ ـ ١٧٣ :

﴿ وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرّيّة من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

مضمون هاتين الآيتين هو أنّ الله سبحانه قد جعل بني آدم شهداء على أنفسهم فشهدوا بأنّ الله ربهم . والمكالمة والمواجهة التي جرت بينهم وبين الله حيث قال لهم تعالى : ألست بربّكم ؟ وهم أجابوه : بلى ، لم تترك لهم عذراً للشرك ، فهم لا يستطيعون أن يدّعوا : أنّنا كنا غافلين عن هذه الحقيقة ، ولا يستطيعون أن يزعموا أنّنا كنا تابعين لآبائنا ، فهم أشركوا ونحن اتّبعناهم من دون وعي ، ولهذا فلا ينبغي أن نؤاخذ ونعاقب . إنّ هذه الأعذار ليست مقبولة ، لأنّ الله سبحانه قد كانت له تلك المحادثة والمواجهة مع أبناء آدم ، وسمع منهم ذلك الجواب ، هذا ما يفهم من الآيتين .

وتعتبر هاتان الآيتان من أشدّ الآيات القرآنية تعقيداً في التفسير ، أي أنّ المفسرين يختلفون في توضيح معاني جمل الآيتين وارتباطها ببعضها ، وبيان المقصود النهائي منهما ، وتطرح بشأنهما أسئلة كثيرة، حتى قال بعضهم : إنّي عاجز عن فهم شيء منهما ، وهما من الآيات المتشابهة التي لا بدّ من تركها لأهلها .

والإنصاف هو أن نقول : إنّ هذه الآيات وإن كان الإبهام يغلفها وهي حقّاً من المتشابهات ، ولكنّ كون آية من المتشابهات لا يعني أنها لا يستفاد منها شيء ، ولا يمكن رفع التشابه عنها . وبالتأمّل في الآيتين نستفيد شيئاً بوضوح تامّ ، وإذا كان هناك إشكال فهو من ناحيتنا وليس راجعاً إلى مفاد الآية ، فالآيتان تدلّان على أنّ الله سبحانه كانت له مواجهة مع كل فرد من أفراد الإنسان ، قال لهم فيها : ألست بربّكم ؟ قالوا : بلى ، ولم تُبقِ هذه المواجهة عذراً لأيّ مشرك ، فليس له أن يقول : إنّي ، كنت غافلاً عن هذا التوحيد وعن عبادة الرب الخالق ، ولا يستطيع أن يقول إني كنت تابعاً للآباء وقد حملوني على الشرك فمسؤولية الذنب تقع على عاتقهم وأنا لا ذنب لي . كلاّ ، إنَّ كلّ واحد من هذه الأعذار لا يقبل ، وقد كان عليكم أن تلتفتوا إلى هذه الحقيقة ، ولستم معذورين من الغفلة عنها ، والتبعيّة للآباء ليست عذراً وجيهاً لأنّ لديكم من المعرفة ما يضمن لكم تشخيص الحقّ ، فكيف تقتفون آثار الآباء وتشيحون بوجوهكم عن طاقات الإدراك التي منحتم إيّاها ؟

إذن لا شك في كون الآية الكريمة تقصد إلى هذا الموضوع ، والإبهام واقع في شيء آخر : وهو أننا لا نتذكر مثل هذا الموقف مع الباري جلّ وعلا ، حيث قال لنا : ألست بربكم ؟ وأجبناه : بلى ، ولمّا كنا لا نتذكر هذا الشيء فإنه يصعب علينا قبوله ، وإلاّ فإنه لا شك أنّ الآية صريحة في هذا الأمر ، أجل هناك بعض الأسئلة : في أيّ عالم حدث هذا ؟ وما هي الظروف التي وقع فيها ؟ وهل جرى هذا بشكل جماعيّ أم فرداً فرداً ؟ وأمثالها . .

وكل تفسير نتصوره لهذه المواجهة لا يمكن أن يُخرج الآية عن دلالتها على أنّ هذه المواجهة عبارة عن العلم الحضوري للإنسان بالله تعالى ، إنّها ليست

مكالمة من وراء ستار ولا غيابية ، فمن الممكن أن يصيح شخص من وراء حجاب : ألست فلاناً ؟ وأنت تجيبه : بلى أنت فلان ، ولكن هذا ليس له قيمة ، لا بدّ أن يكون السؤال بشكل لا يقبل الخطأ وإلاّ فإنّ لك عذراً في الاشتباه ، فلو فرضنا أنّ الشيطان نادى : ألست بربّكم ؟ وظنّ بعضهم أنه كلام الله فقال : بلى ، إنّه يقبل الخطأ ، أي أنّ مجرد سماعنا لصوت لا يصلح دليلاً على أنّ المتكلم من هو ، ولا تقطع هذه المكالمة الأعذار ، نعم تنفي المحادثة الأعذار عندما لا تبقي مجالاً للاشتباه ، بحيث يرى الطرف الآخر ، فإذا جاء السؤال : ألست أباك ؟ ينظر فيراه ثم يقول : بلى . أمّا صرف الصوت الذي يطرق السمع غيابياً ومن وراء ستار فإنّه لا يقطع الأعذار ، إذن تتضمن الآية الحديث عن مكالمة جرت بين الله والإنسان ولم تبق عذراً للإنسان في الخطأ في التطبيق ، فكل عذر يتوسل به الإنسان يوم القيامة قائلاً لله : : أنا لم أعرفك أو لم أعبدك لهذا السبب ، فإنّه عذر غير مقبول بسبب هذه المواجهة التي تمّت بين الله والإنسان . هذا هو مفاد الآية . وكل إنسان تكون له مواجهة مع الله بحيث يقول له : ألست بربّك ؟ وهو يجيب : بلى ، فهي لا تقطع الأعذار إلاّ إذا كانت بالشهود والعلم الحضوري ، حيث يعرف فيها ذات الله ، ويكسب معرفة بربّه لا تقبل الخطأ في التطبيق .

ويؤيّد هذا الاستظهار روايات متعددة منقولة عن الأئمة الأطهار (ع) في ذيل هذه الآية الكريمة ، وجميع هذه الروايات متقاربة من حيث المضمون ومعتبرة من حيث السند ، وهي مدرجة في التفاسير أو الكتب الروائيّة مثل : أصول الكافي وتفسير علي بن إبراهيم ـ تفسير البرهان ـ تفسير نور الثقلين ، ومضمون هذه الروايات أنّ الراوي يسأل الإمام الباقر (ع) أو الإمام الصادق (ع) ـ أغلب الروايات عن هذين الإمامين الكريمين ـ : « معاينة كان هذا ؟ قال : نعم »[1] المعاينة مصدر من عاين ـ يعاين ـ معاينة ، أي النظر إلى الشيء ، فعندما نقول : معاينة الطبيب ، نقصد أنه لم يكتف بالمعلومات المنقولة

(١، ٢) تفسير الميزان : ج ٨ ، ص ٣٣٠ .

له عن المريض بل رآه بعينه وسأله ، « معاينة كان هذا ؟ قال : نعم » أي أنهم رأوا الله عياناً .

« ثبتت المعرفة في نفوسهم ونسوا الموقف » .

أمّا البحث عن كيفية هذه المعاينة والعالَم الذي حدثت فيه هذه المواجهة وتفاصيل الموقف فهي جزئيّات لا علاقة لها بأصل البحث، ونحن نعترف بأنّ الإبهام يكتنف هذه الأمور ، ولكنه لا إبهام في أصل الموضوع الذي تقصده الآية ، وهو صالح للانطباق على العلم الحضوري الذي نـدّعيه ونعتقد به ، فحسب الشواهد التي ذكرناها يريد القرآن أن يقول إنّ للإنسان شهوداً بالنسبة لله ، لا أنه قد سمع صوتاً فقط يقول : ألست بربّكم ؟ بل كانت هناك مكالمة حضوريّة . ولا يغيب عن القراء الكرام أننا عندما نستعمل هذه الكلمات « الرؤية » ، « المعاينة » ، « الشهود » فنحن لا نقصد إطلاقاً الرؤية بالعين والوسائل الحسّية ، وهذا يشبه قولي : إنّي أرى نفسي أنا المتحدّث والمدرك والمفكّر ، فالروح هو الموجود المفكر وهو لا يرى بالعين ، والمقصود هنا هو الشهود القلبي والعلم الحضوري ، وما يشبه هذه من تعبيرات تستعمل لتدلّ على أنّ الإدراك لم يكن بالعين ولا بالحواس ، وإنما هو إدراك باطنيّ نفسيّ .

وفي الروايات الواردة في هذا الباب ملاحظات دقيقة بودّي أن أشير إلى طرف منها :

« ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه » .

ولو كان الإنسان غير مزوّد بالعلم الحضوري لاستطاع فقط أن يفهم هذه الحقيقة وهي أنّ هناك موجوداً يقوم بهذا العمل الخاص . ونقرب هذا للذهن فنقول : إذا كنتم لم تشاهدوا البنّاء وهو يبني عمارة ما ، أو لم تشاهدوا صاحب الصنعة وهو يصنع ما تخصص في صناعته ثم رأيتم العمارة أو ذلك الشيء المصنوع فإنكم تستطيعون أن تفهموا أنّ هناك شخصاً بنى العمارة أو صنع هذا الشيء ، وتستطيعون أيضاً الإلمام بصفات الصانع من صفات المصنوع ، فكلما كانت الدقة والمهارة في المصنوع أكثر كانت دلالته أعظم على فن ونشاط ومهارة

الصانع . فأنتم إلى هذا الحد تستطيعون معرفة المؤثر من معرفة الأثر ، ولكنكم بالتالي لا تستطيعون أن تعرفوا الصانع بشخصه من هذه الاستدلالات ، نعم تفيدكم هذه المعرفة أنّ هناك صانعاً ماهراً صاحب ذوق ، ولكنّه من هو ؟ لا تستطيعون أن تعرفوه من هذه الاستدلالات ، وهي لا تؤدّي بنا إلى إدراك شخصه . الأدلة العقلية تنبئنا أنّ للكون خالقاً حكيماً ومبدعاً قديراً لا يغلب ، ولكن هذه مفاهيم كلية ، هناك موجود خالق قدير عليم حكيم ، ولكن من هو ؟ وأين هو ؟ الاستدلال العقلي عاجز عن الجواب .

لو كانت تلك العلاقة القلبية الباطنية بيننا وبين الله مقطوعة لما استطعنا معرفة ذات الله . نعم كنا نستطيع معرفة أنّ للعالم خالقاً ، ولكنه من هو ؟ لسنا ندري . ومعرفة الخالق بشخصه لا تتيسّر إلاّ إذا حصلنا على لون من الشهود بالنسبة إليه ، وإلاّ كانت معرفتنا له كلّيّة .

وفي هذه الرواية تعبير دقيق فهي لم تقل : لم يدر أحد أنّ له خالقاً ورازقاً ، لأننا نعلم أنّ هذا الشهود ـ حتى إذا لم يكن ـ فإنّ عقل الإنسان يفهم أنّ للعالم خالقاً ويفهم أيضاً صفاته ولكنه عندئذٍ لا يعرف شخصه ، ونتيجة لهذه المواجهة الحضورية فقد انعقدت علاقة وثيقة بين قلوبنا وذات الله جلّ جلاله ، وعندما نغور إلى أعماق قلوبنا فسوف نصل إلى ذات الله تعالى ، لا أننا نعرف أنّ هناك خالقاً فقط ، ولهذا تقول الرواية : « لم يدر أحد من خالقه ورازقه » ، نسأل الله أن تكون أفكارنا وأرواحنا حاضرة في الدعاء والمناجاة حتى ندرك هذه العلاقة القلبية بالله ، فالإنسان إذا صرف انتباهه عن كل شيء وركزه تماماً واتجه نحو الله فإنه سوف يرتفع إلى آفاق شاهقة يدرك فيها ذات الله تعالى ، لا أنه يكلمه من وراء حجاب : أيّها الموجود فوق السماوات والأرض وتدبّر شؤون الكون ، كلاّ ، وإنما كأنه يسمع حديثه ، يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) معلّقاً على الآية الكريمة :

﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ :
« ألا إنّ للذكر أهلاً اتّخذوه من الدنيا بدلاً » .

والإمام (ع) يصف أهل الذكر الذين ينفقون حياتهم في ذكر الله قائلاً : « فناجاهم في سرّهم » أي أنّ الله يناجيهم في الخفاء ، فهو (ع) لا يقول إن العبد يناجي ربه ، بل يقول إن الله يناجي عبده ، فالعبد يسمع أسرار الرب .

ما أعظم الإنسان ، فهو يستطيع أن يصل إلى مثل هذه الدرجات العالية ، ولا يقتصر هذا الأمر على الأنبياء والأولياء المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ، بل يشمل التابعين بصدق ووفاء للأنبياء والأوصياء المعصومين ، فهؤلاء قد جاؤوا لينتشلوا الآخرين ويجرّوهم نحوهم وليقرّبوهم من تلك الآفاق الرفيعة التي انتهوا إليها .

ونلخّص ما أردنا قوله في أنّ هذه الآية تدلّ على أن للإنسان لوناً من العلم الحضوري بالله سبحانه يصل فيه إلى ذات الباري تعالى ، ولكي نقرّب ذلك إلى الذهن نذكر هذا المثال : قد تشاهدون أحياناً بنّاءً وهو يبني وتلاحظون دقته في العمل وتلمسون مهارته ، ثمّ تصادفون في مكان آخر بنّاء يتميز بنفس الصفات فتتذكرون عندئذٍ ذلك البنّاء وتقولون إنه هو الذي قام بهذا البناء ، هذا مثلما لو كانت للإنسان معرفة لذات الله وعندما يشاهد آثار حكمته فإنّ قلبه يستيقظ ويدرك أنّ الخالق هو نفس ذلك الذي يعرفه من قبل ، وبالتفات قلبه يستطيع أن يؤدّي عبادة واقعية ، والرواية التي مرّ ذكرها تقول : « ومعرفة صفة الغائب قبل عينه » فالحاضر يعرف هو أولاً ثم تعرف أوصافه ، أما إذا أراد الإنسان أن يعرف موجوداً غائباً فهو لا بدّ أن يعرف أوصافه أولاً . وتريد هذه الآية أن تقول: إنّ لكلّ إنسان معرفة بذات الله غائرة في أعماق قلبه ، وعندما يصادف آثاره فإنّ تلك المعرفة تستيقظ ، وهي معرفة فطريّة غير مكتسبةٌ ولكننا عادة غير ملتفتين إليها ، وعندما نلتفت إليها تنتقل إلى الوعي . وتقول هذه الرواية : لولا تلك المواجهة لم يعرف أحد مَن خالقه بالذات ، وهو قد يدرك أنّ له خالقاً ، ولكن من هو ؟ لا يدري ، لأنه لم يشاهد شخصه ، ولكنه لما كانت هذه المعرفة الشهودية حاصلة له فعندما ينبئه عقله أنّ للعالَم خالقاً فهو يعرف من هو هذا الخالق ، لأنّه قد تعرّف عليه من قبل .

إذن حسب هذا الفهم الذي تؤيّده الروايات والذي لا أدّعي ابتكاره يصبح القرآن مؤيداً أنّ للإنسان معرفة حضورية وشهودية بالنسبة لله تعالى .

ولا يفوتنا أن ننبّه في هذه المناسبة على أنّ الإنسان بفضل هذه المعرفة الحضورية ـ علاوة على إدراكه لأصل وجود الله ـ فهو يدرك أموراً أخرى : من جملتها صفات الله عزّ وجل ، ومن أهمها الربوبية ، أي أنّ هذا الشهود كان بشكل بحيث لا يدرك فيه أن الله خالقه فحسب ، وإنما يدرك بالإضافة إلى ذلك أنه ربّه وصاحب الاختيار والمدبّر للعالم ؟ ولهذا لم يقل في الآية الكريمة : ألست بخالقكم ؟ وإنما قال : ألست بربّكم ؟ وكأنه يقول أليس وجودكم تحت تصرفي ؟ قالوا : بلى . إذن لا تثبت هذه الآية الخالقية فقط بل ومعها الربوبية ، وعلاوة على ذلك يثبت التوحيد أيضاً ، أي يثبت أنه لا أحد غيره خالق أو ربّ . ومن أين جاءنا هذا ؟

لقد جاءنا من تلك العلاقة الحضورية بالله ، ولم يأت جزافاً ولا من دون قاعدة ، فالمعرفة الحضورية لون من المعرفة بين الإنسان وربّه ، أو العلة المانحة للوجود والمفيضة له بالاصطلاح الفلسفي ، وهو ارتباط وجودي ، فمعنى العلم الحضوري هو أنّ بين وجودنا وخالقنا رابطة تكوينية نراها . ونواجه أمامنا هذا السؤال : بالنسبة لمن يحصل لي هذا الشهود ؟ إنه يحصل لي بالنسبة لكلّ أحد يرتبط معي بهذه الرابطة الوجودية ، فهذا الارتباط يكون مورد الشهود ، فإذا كان هذا الارتباط موجوداً فهو يُرى ، وإن لم يكن موجوداً فإن العلم الحضوريّ لا يتعلق بشيء غير موجود .

وعندما يصبح هذا الارتباط مشهوداً ، فمع أيّ أحد يكون هذا الارتباط فإنّه سيُرى . وفي هذه المكالمة شاهدوا ارتباطهم بالله فقط ، ولو كان لهم ارتباط بغيره لشاهدوه أيضاً ، لأنّ هذا الشهود لم يكن بلا ضابطة وإنّما كان لوجود الرابطة التكوينية بين الإنسان وربّه ، ولكي نقرّب الموضوع للذهن افرضوا أن هذا المصباح مربوط إلى السقف بسلك، وبالتالي فهو مرتبط بالسقف، والرابط بينهما هو السلك، فإذا حضر شخص يتمتع بقوة الإبصار وتوفرت له شروط الرؤية فهو عندما ينظر يرى ما هو موجود، فإذا كان هناك سلك واحد

يربط بين المصباح والسقف فإنه سيرى سلكاً واحداً، وإذا كان هناك سلكان فهو سيرى اثنين ، وإذا كان ثلاثة فهو سيرى ثلاثة . وكذا الرابطة بيننا وبين الله فهي رابطة تكوينية حقيقية ، أي أنّ وجودنا مرتبط به ، ولتقريب هذا للذهن نذكر مثالاً وهو أفعال وأحوال أنفسنا فهي مرتبطة بأنفسنا ، لو فرضنا أنك أوجدت صورة في ذهنك ، فهل يمكن أن تكون هذه الصورة الذهنية موجودة دون أن يكون ذهنك موجوداً ؟ تصور الآن في ذهنك شجرة تفاح ، هل تتصور شجرة التفاح هذه التي في ذهنك بدون ذهنك ؟

كلّا ، إنّ حقيقتها هي ارتباطها بالذهن، والعالم بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى له مثل هذا الارتباط ، بل فوق هذا الارتباط ، ونحن نذكر هذا للتقريب للذهن ، وإلّا فإنّنا لا نستطيع إدراك حقيقة العلاقة بين الإنسان وربه أو بين العالَم وخالقه .

إذن إذا كانت هناك علاقة تكوينية بين الله والإنسان ، فإنه في الشهود سوف تُرى نفس تلك العلاقة ، فإن كانت للإنسان مثل هذه العلاقة مع ربَّيْنْ ـ والعياذ بالله ـ أي كان لنا خالقان ، فعند حصول المعرفة الشهودية لا بدّ أن ندرك ارتباطنا الوجودي بربّين ، لأن الشهود ينصبّ على حقيقة الارتباط ، ولكنه لما كنا لم ندرك في هذا الارتباط إلّا ربّاً واحداً فهذا دليل على أنه لا ربّ غيره . إذن كما تثبت هذه المكالمة وجود الله فهي تثبت أيضاً ربوبيته ، أي أن الإنسان من خلال هذا الشهود يرى نفسه بالنسبة إلى الله كالصورة الذهنية بالنسبة إلى الذهن الذي يتصورها ، إنها معلقة تماماً على التفاته ، فما دام الذهن ملتفتاً فالصورة الذهنية لشجرة التفاح موجودة ، أمّا إذا انصرف الذهن فلن تكون هناك صورة ذهنية بل تنعدم . قوام وجودها بإرادتنا والتفاتنا . وكذا يكون العالَم كلّه بالنسبة لله ، فإذا أراد الله فالعالم موجود ، وإذا انقطعت إرادته فإنّ العالم ينعدم ولا يبقى منه شيء .

إذا شعر الإنسان بهذه الحالة ، بأنّ وجوده مرتبط بالله ، كل وجوده بيد القدرة الإلهية ، إن شاء الله فهو موجود وإن لم يشأ فهو لا شيء ، فقد أدرك

حقيقة الربوبية الإلهية ، أي أن وجودنا تحت تصرفه إن شاء كنا وإن لم يشأ لم نكن :

﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ .

هكذا يكون وجود العالم بالنسبة إلى الله ، فإن أدركنا هذه الحالة التي يقول القرآن الكريم إننا شاهدناها من قبلُ ونسيناها الآن ، وأوصلناها ـ بتوفيق الله ـ إلى حدّ الكمال ، وهي المعرفة التي نالها أولياء الله ، فسوف نجد أن وجودنا بالنسبة إلى الله ليس له أيّ استقلال ، وجميع ما سوى الله فهو تبلور إرادته ، كانت إرادته فكان العالَم ، وإن لم تكن إرادته لم يكن شيء . يستطيع الإنسان أن يرى هذا بالعلم الحضوري في عالم يسميه بعض العلماء بعالم الذرّ أو عالم الميثاق ، حيث قال الله : ألست بربّكم ؟ وعقد مع خلقه ميثاق العبوديّة ، أمّا ما هي كيفيته ؟ وأيّ عالم هو ؟ فنحن لا نعرف شيئاً عن هذه العوالم ، لا نعرف إلاّ العالم الطبيعي ، ولهذا لا نستطيع أن نفهم كيفيته ، ولا بأي شكل تحققت هذه المكالمة . وهذه الجهات هي المبهمة في الآية الكريمة ، وعلّة الإبهام هي النقص في أفهامنا حيث لا علم لها بما وراء الطبيعة .

وعلى أساس هذه المشاهدة فإن لنا معرفة بذات الله وربوبيته ووحدانيته . وقد جاء في بعض الروايات :

« فطرهم على التوحيد » .

وقد ورد هذا التعبير في ذيل آية الفطرة في سورة الروم ، وفي ذيل آية الميثاق في سورة الأعراف ، ويلزم من كون الله قد فطر الناس على التوحيد أن يكونوا عارفين لربوبيته ووحدانيته وأهليّته للعبادة ، وجاء في بعض الروايات :

« فطرهم على المعرفة بأنّه لا ربّ سواه » .

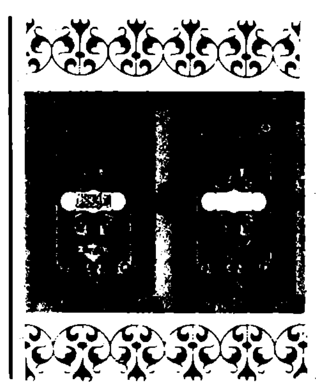
نستخلص من هذا أن الآية تدلّ على أن لنا معرفة فطريّة ، وللمعرفة الفطرية معنيان : أحدهما معرفة الله الفطرية العقلية التي تحصل بوساطة المفاهيم الكلية ، والثاني معرفة الله الحضورية الشهودية التي تحصل بوساطة

الرؤية القلبية . وحسب هذا البيان الذي مرّ علينا فقد كانت للإنسان بالنسبة لله مثل هذه المعرفة الحضورية ، وفي أنفسنا الآن بقايا منها تقطع علينا الأعذار ، أي إذا اتّجهنا إلى معرفة الله فسيكون حالنا حال من يشاهد آثار بناء لبنّاء ماهر كان يعرفه من قبل ، وتذكّره هذه الآثار به ، فلا يحقّ له أن يقول إنه لبنّاء آخر لعله يعود للأصنام ، كلاّ ، إن قلبه يعرف من هو الذي بيده عالم الوجود ، صحيح أنه غافل الآن ، وقد أضعف معرفته الفطرية هذه اهتمامه الشديد بعالم المادة ، ولكنّه عندما يتجه إلى العبادة ويستخدم الدليل العقلي ويستنير بما جاء به الأنبياء من بشارة وإنذار فلا يحق له عندئذٍ أن يقول إنني ظننت أن الخالق للسماء والأرض هو الصنم المنحوت من الصخر ، لأنك إذا التفتّ إلى هذه الحقيقة : وهي أنّنا لا بدّ أن نعبد من بيده نظام العالم ومنه وجوده ، وأنت تعرفه من قبلُ فلا يحقّ لك أن تطبّقه على غيره ، فالأعذار غير مقبولة ، وإذا قلت :

﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ .

فسيقولون لك إنّ لديك شعوراً ، وقد عرفت الله من قبل ورآه قلبك ، فليس من حقك أن تعبد صنماً مصنوعاً من تمر أو من طين ، وأنت تعرف من هو المؤهّل للعبادة وقلبك قد رآه من قبل ، لهذا لا يقبل منك عذر .

* * *



نصاب التوحيد في القرآن

« التوحيد » مصدر من « وحّد » « يوحّد » ومعناه اعتبار الشيء واحداً مثل التعظيم والتكفير والتفسيق ، أي اعتباره عظيماً أو كافراً أو فاسقاً ، وقد يأتي بمعنى إيجاد الوحدة مثل « توحيد الأمة » .

وحاولت بعض الفئات والمنظمات تطعيم روح الثقافة الإسلامية بالأفكار الأوربية الغربية عنها ، ومن جملة ذلك ما فسّروا به التوحيد الإسلامي ، فهم أخذوا المعنى الثاني للتوحيد (وهو إيجاد الوحدة) وقالوا لا معنى لإيجاد الوحدة بالنسبة لله ، إذن لا بدّ أن يكون معنى التوحيد في الإسلام هو إيجاد الوحدة في المجتمع ، فأول أصل يجب أن نسعى لتحقيقه هو إيجاد المجتمع اللاطبقي ، لا بد أن تتحد جميع الطبقات ، ولا علاقة لهذا التوحيد بالله . وزعم بعضهم : أنه في الرؤية الإسلامية تتجه الأشياء نحو الوحدَة وهذا هو التوحيد ، واخترعوا لسائر الأصول الإسلامية مثل هذه المعاني التي تضحك الثكلى ، وإذا لم يكن الإنسان مقيداً بضابطة فهو يكتب أو يقول كلّ شيء يدور في خياله ويتلاعب بألفاظ القرآن أو أي نصّ أدبي آخر ، ولكننا نتساءل :

ما هو معنى التوحيد الذي هو أول أصل من أصول الرؤية الكونية الإسلامية ؟

هل معناه توحيد المجتمع والاتّجاه الموحد، أم معناه اعتبار الله واحداً وإظهار الوحدانية له ؟

لم تستعمل في القرآن الكريم كلمة التوحيد ولا مشتقاتها (وحّد ـ يوحّد ـ فهو موحّد) ، إذن بأيّ أسلوب طرح القرآن الكريم هذا الأصل الأساسي ؟

إنه لم يستعمل كلمة التوحيد حتى نتصارع على أن التوحيد في القرآن ما هو معناه ، وإنما هو يطرح هذا الموضوع وهو :

لا بدّ أن نعتقد أنه لا إله سوى إله واحد ، ويبّينه بمثل هذه الأساليب : **﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ ، ﴿ لا إله إلا الله ﴾ ، ﴿ لا إله إلا هو ﴾** . ولا بدّ أيضاً ألاّ نعبد إلاّ الله ، قال تعالى : **﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ، ﴿ ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾**[1] فعبادة الله واجتناب الطاغوت على رأس دعوة جميع الأنبياء ، إذن لا يعني التوحيد الإسلامي شيئاً سوى توحيد الله . وهو بمعنى عدّ الله واحداً وإظهار الوحدانية له . وهو بهذا المعنى في أيّ نص إسلامي ورد سواء أكان نهج البلاغة أم الأحاديث الإسلامية أم أيّ مصدر إسلامي معتبر آخر . وتفسير التوحيد بأيّ معنى آخر إنما هو جهل أو انحراف مغرض . وهو لا يعني سوى اعتبار الله واحداً ، ولا علاقة له بالأمور الأخرى سواء أكانت على حق أم على باطل . وحتى لو فرضنا أن الإسلام يدعو إلى المجتمع ذي الطبقة الواحدة فإن ذلك لا علاقة له بالتوحيد الذي هو أصل من الأصول العقائدية للإسلام . وحتى إذا أثبتنا كون الإسلام داعياً إلى اتجاه المجتمع نحو المجتمع اللاطبقي فلن يكون لذلك علاقة بالتوحيد الذي معناه اعتبار الله وعدّه واحداً .

أما كيف نعتبر الله واحداً فذلك في أن نعتبر وجود جميع الموجودات ما عدا الله ليس من ذاتها ، ونعبّر عن هذا فلسفياً فنقول : التوحيد في وجوب الوجود ، أي وجود الله تبارك وتعالى فقط ضروري بصورة ذاتية ، وأما سائر الموجودات فوجودها مكتسب منه . وهذه هي المسألة الأولى من التوحيد (التوحيد في وجوب الوجود) .

---

(١) سورة النحل : الآية ٣٦ .

المسألة الثانية منه هي أنه لا وجود لخالق سوى الله ، وهي نتيجة طبيعية للمسألة السابقة ، ويطلق عليها (التوحيد في الخالقية) .

المسألة الثالثة هي (التوحيد في التدبير والربوبية التكوينية) أي بعد التسليم بأن المدبّر للعالم هو الله فهل يوجد غيره بحيث يكون له دخل في تدبير العالم من دون إذن الله وإرادته ؟

إذا قال أحد بأن الله خلق العالم ثم ترك أمر تدبيره إلى آخرين ، أو أنّ الله لا دخل له في إدارة العالم ، أو أنه يتدخّل ولكن له شركاء في ذلك فإنّ هذا يعتبر شركاً في الربوبية أو في التدبير . أما الموحّد بهذا المعنى فهو يطلق على من يعتقد بأن الله غير محتاج إلى أحد في تدبير العالم وإدارته ، كما لم يكن محتاجاً إلى أحد في خلقه ، وربوبيته التكوينية منحصرة به تعالى .

المسألة الأخرى هي (التوحيد في الربوبية التشريعية) أي بعد أن اعتقدنا بأن الله هو خالقنا ، ووجودنا بيده ، وتدبير حياتنا منه لا بدّ أن نعتقد بأنه لا يحقّ لأحد غيره وضع القوانين وإصدار الأوامر لنا ، وكل من يريد أن يأمر أحداً فلا بدّ أن يكون ذلك بإذن الله ، فشرعية أيّ قانون تتوقف على الإمضاء الإلهي ، وليس لأيّ إنسان أن يضع قانوناً للناس ، و[illegible] له أن يأمر أو ينهى ، إنّ الوجود كله منه تعالى وهو الذي يضع القوانين ، هذا هو التوحيد في الربوبية التشريعية .

وهناك مرحلة أخرى من مراتب التوحيد وهي (التوحيد في الألوهية والمعبودية) أي ليس لدينا معبود سوى الله ، وهذا أيضاً نتيجة طبيعية للمعتقدات السابقة ، وهو مفاد « لا إله إلا الله » فعندما نعتقد بأن وجودنا من الله واختيار وجودنا بيده ، ولا يؤثّر في العالم شيء بصورة مستقلة إلّا هو ، وحق وضع القوانين منحصر به فإنه لا يبقى حينئذٍ مجال لعبادة غيره . ولا بدّ أن نعبده هو فقط لأن العبادة في الواقع إظهار للعبودية ، وجعل النفس تحت تصرف المعبود من دون شرط ، وإظهار أنني ملك لك ، ولا يليق هذا إلّا إذا كان هذا مالكاً حقاً وبعبارة أخرى : التوحيد في الألوهية هو نتيجة التوحيد في

الربوبيـة ، فالإنسـان يعبد من يعتقـد بأنّ لـه سيادة عليـه ، وقد عـرفنا معنى الربوبية التكوينيـة والتشريعيـة ، والنتيجة الـطبيعية لهـا هي أن لا يعبد أحـد سواه ، فمن مظاهر التوحيد أن الإنسان عملياً لا يعبد سوى الله .

فهناك أمران : أحدهما يرجع إلى القلب وهو الاعتقاد بأن الله تعالى هو اللائق للعبادة وحده ، وثانيهما يعود إلى العمل وهو أن لا يعبد عملياً غـير الله سبحانه ، والثاني من مظاهر الأول ويسمى بـ « التوحيد في العبادة » .

وأنتم تلاحظون أن الآيات تعتبر الشرك في العبادة من الذنوب ، وعندما يعدّون الذنوب الكبيرة فهم يقولون أولها الشرك بـالله ، ويقصدون الشـرك في العبادة ، أي أن يقوم الإنسان بعبادة غير الله في مقام العمـل حتى ولو لم يكن معتقداً بأهليته للعبادة ولكنه يقوم بهذا الأمر من أجل مصالحه ، هذا هو الشرك في العبادة .

ويوجد بعد آخر من التوحيد هو التوحيـد في الاستعانـة ، ومعناه أن لا يطلب الإنسان مساعدة من أي أحـد سوى الله ، فنحن عنـدما نعتبـر الله هو المؤثر الحقيقي في الوجـود ، ومعنى هذا أنـه لا ينالنـا خير ولا يصيبنـا ضرّ إلاّ بإرادته فلا معنى لأن نطلب المساعدة من أيّ أحد غيره ، هو المالك لكل شيء ، وغيره محتاج إليه مثلنا ، وكل مسلم يقول : ﴿ **إياك نعبد وإيـاك نستعين** ﴾ ، وإذا تكامل هـذا الأمر لـدى الإنسان فـإنّه يتحـول إلى صفة نفسيـة يُسمى في الأخلاق الإسلامية بالتوكّل على الله وهو الاعتماد عليه . وكثير من الآيات بعد الأمر بعبادة الله تأمر بالتوكلّ عليه :

﴿ **وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾[1] .

ومن مظاهر التوحيد أن لا يخـاف الإنسان إلاّ من الله ، فلمـاذا نخشى أحداً غيره ما دام هو المؤثر الحقيقي في الوجود ، كل من عداه لا قدرة له حتى يخشى جانبه ، وكل تأثير فهو بالأصالة منه ، والآخـرون وسائـل للتنفيذ ، ولا

(١) سورة المائدة : الآية ٢٣ .

يصل الإنسان إلى التوحيد الخالص إلاّ إذا لم يخش غير الله ، ولدينا آيات كثيرة تدعو الناس إلى الخوف من الله وعدم الخوف من غيره :

﴿ الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيباً ﴾[1] .

﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[2] .

ومن مظاهر التوحيد أيضاً أن لا يكون لنا أمل إلاّ بالله ، وهذا أيضاً من النتائج الطبيعية للاعتقاد بالربوبية التكوينية ، فإذا كنا معتقدين بأن المؤثر الحقيقي في العالم هو الله فحسب فلا معنى لأن يكون أملنا متعلقاً بغيره ، لأنّ ما سواه لا تأثير له بالأصالة ، إذن لا بدّ أن ينحصر الأمل به .

وأخيراً فإنّ من مظاهر التوحيد أيضاً التوحيد في المحبة ، فكل من يعتقد أنّ الجمال والكمال كله لله بالأصالة ، فهو لا بدّ أن يعتبر المحبة متعلقة به بالأصالة أيضاً ، أما محبتنا لأيّ شخص أو لأيّ شيء آخر فهي للكمال أو الجمال الكامن فيه ، وكمال وجمال هذه الأشياء مستعار ، لأن الكمال والجمال الذاتي لله فقط ، لهذا لا ينبغي أن نحبّ شيئاً أو أحداً غيره بالأصالة ، والموحد الخالص هو الذي لا يتعلق قلبه إلاّ بالله ، وإذا أحبّ شخصاً آخر فذلك من خلال حبه لله ومن أجل الله ، وهذا أمر طبيعي فعندما يحبّ الإنسان أحداً فإن ذلك الحب يسري إلى متعلقاته ، انظر إلى نفسك إذا أحببت صديقاً فإنك ستحب كتابه وبيته وملابسه ، وكذا الحب لله فهو يلزم منه الحب لما ينتسب إليه من ناحية أنه منتسب إليه . وفي النتيجة يصل الإنسان في التوحيد إلى حدّ يرى فيه عياناً أن الوجود وجميع شؤونه محتاجة إلى الله ، بل لا وجود لشيء غير الاحتياج ، ويعبّر عن هذا باللغة الفلسفية فيقال « عالم الوجود هو عين الربط أو عين التعلق لا أنه شيء مرتبط أو متعلق » ، قد يعتقد الإنسان بهذا الموضوع عن طريق البرهان ، ولكنه أحياناً تتكامل معرفته ويتوقّد إيمانه فتصل هذه الحقيقة إلى درجة « الشهود » وهذه أيضاً من مراتب التوحيد .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٧٥ .

والآن نتساءل : هل يجب على من يريد أن يصبح موحّداً من وجهة نظر الإسلام ـ ويعد من جملة المسلمين لينال السعادة في الآخرة ويدخل الجنة ـ هل يجب عليه أن يظفر بجميع هذه المراتب من التوحيد أم تكفيه المرتبة الأولى منه ، أم لذلك نصاب آخر يعتبر الحدّ الأدنى لقبوله ضمن المسلمين ولفوزه بالسعادة الأبديّة في الآخرة ؟

إذا كانت هذه الدرجة الأخيرة من التوحيد هي المطلوبة ولا بدّ أن يصل إلى هذه المنزلة التي يشاهد فيها هذا الأمر بالعلم الحضوري فلن يكون لدينا إلاّ أفراد معدودون جداً على مَرّ التاريخ قد ظفروا بهذه المنزلة ، ولا بدّ عندئذٍ من إسقاط البقية من الحساب . من البديهي أن هذا لا يحكي الحقيقة .

ومن ناحية أخرى ، إذا كانت المرتبة الأولى من التوحيد كافية ، أي يكفي الإنسان ليصبح موحّداً أن يعتقد بأنّ واجب الوجود واحد ، أما الخالقية والربوبية والمعبودية فقد تكون للآخرين فسيصبح من الموحدين من يعتقد بأنّ الموجود الذي وجوده من ذاته هو الله ، وأما العالم فهو من خلق آخرين ، وصحيح أنّ هذا الاعتقاد متناقض ولكن هذا شيء آخر ، فكثير من العقائد يلزم منها التناقض ، ولكنّ الشخص المعتقد غير ملتفت إلى كون هذين الاعتقادين غير منسجمين ولهذا فهو يعتقد بهما معاً نتيجة لنقص معرفته ولعدم وضوح رؤيته . وسيكون من الموحدين بطريق أولى من يعتقد بأنه لا خالق للعالم سوى الله ولكنه بعد أن خلقه الله فقد ترك أمر تدبيره إلى بعض مخلوقاته ، أو أن ذلك لا يحتاج إلى إذن ، فعندما جاءت هذه الموجودات إلى هذا العالم تولت أمر تدبيره بصورة ذاتية وانتزعت ذلك من يد الله . ومن الملاحظ أنّ عقائد الشرك على طول مسيرة التاريخ تتعلق بهذا الموضوع ، وحتى المشركين في عصر صدر الإسلام الذين يقول القرآن بشأنهم :

﴿ إنما المشركون نجس ﴾[1] ، و**﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾**[2]

لأنهم قد أخرجوا المسلمين من ديارهم ـ حتى هؤلاء المشركون لم يكونوا

---

(١) سورة التوبة : الآية ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩١ .

يعتقدون أنّ للعالم أكثر من خالق ، وإنما هم يقولون للعالم عدد من المديرين ، وهم الملائكة الذين يعتبرونهم بنات الله ، وتقدير عددهم يعتمد على مدى كرم هؤلاء ، ولا يصنعون الأصنام ولا يعبدونها إلّا من أجل أن تقربهم إلى هذه الملائكة ، لأنّ كل واحدٍ منها تمثال لملك ، ولما كانت بنات الله عزيزات لديه فهو لا يردّ لهنّ رغبة ، وإذا أردن منه شيئاً فإنه لا يخيب لهنّ أملاً ، وعلى هذا فستصبح الملائكة شفيعاً لهم عند الله :

﴿ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾ [1] ، و **﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾** [2] .

أي أنّ المشركين من العرب كانوا مؤمنين بوجود الله :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله ﴾ [3] .

فكان شركهم إذن في العبادة والربوبية ، وكذا حال المشركين في عصر يوسف (ع) ، وهو لم يقل : أخالقون متعددون خير أم خالق واحد ، بل قال (ع) حسب ما ينقل القرآن :

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ [4] .

ويظهر من هذا أنّهم كانوا مشركين في الربوبية .

أهؤلاء موحدّون أم مشركون من وجهة نظر الإسلام ؟

من يعتقد بأنّ الخالق واحد والأرباب متعددون ، أصحاب الاختيار متعددون ، للأرض رب ، وللحيوانات رب ، لليابسة رب وللبحار رب ، ولكنّ هذه جميعاً قد خلقها الله ، أيكون هذا موحّداً أم مشركاً حسب المقاييس الإسلامية ؟

---

(١) سورة الزمر : الآية ٣ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٣) سورة لقمان : الآية ٢٥ .

(٤) سورة يوسف : الآية ٣٩ .

لا شك أنه مشرك ولا يكفي التوحيد في الخالقية .

أما إذا اعتقد الإنسان بأن المدبّر التكويني للعالم واحد ، فالله الخالق للعالم هو المدبّر له تكوينياً ، ولكنه يعتقد إلى جانب ذلك بأن لبعض الأفراد الحق في وضع القوانين للناس ، وتجب عليهم الطاعة لها فهي مثل الطاعة لله ، أحياناً ينزل الله قانوناً ويضع بعض الأشخاص قانوناً في عرض قوانين الله ، ويلزمون الناس بتنفيذه ، ولا بدّ عندئذٍ من الطاعة لله ولهم فهما واجبتان . هذا هو الشرك في الربوبية التشريعية :

﴿ اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾[1] .

لقد كان اليهود والنصارى معتقدين بأنّ مسؤولي الأديرة والكنائس يتمتعون بحقّ التشريع وسن القوانين ، أو تغيير الأحكام الإلهية والتصرف فيها ، ولا يزال هذا الحق حتى الآن ممنوحاً لهم ، فللشورى المسيطرة على الكنيسة الكاثوليكية الحق في أن تحلّ شيئاً أو تحرّمه ، مثلاً : كان الطلاق إلى ما قبل فترة غير طويلة محرّماً في المذهب الكاثوليكي ، فإذا تزوّج رجلٌ وامرأة فسيظلان زوجين إلى الأبد ، ولا سبيل لهما إلى الطلاق، ولكنّ الطلاق أجيز أخيراً في بعض الموارد من قبل تلك الشورى الكنسية ، ووضع القانون تحت تصرفهم ، ما هو رأي الدين المسيحي ؟ ما قالته الشورى الكنسية هو الدين المسيحي .

وهؤلاء أنفسهم تتغير غداً آراؤهم فيتغيّر معها الدين أيضاً ، وهو نفسه ذلك الدين القديم ، ولكنه يصبح بهذا الشكل في هذا الزمان . إنّ هذه العقيدة شرك في الربوبية التشريعية ، والظاهر أنّ القرآن ينظر إلى هذا الموضوع عندما ينعى على اليهود والنصارى اتّخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله ، ولا ينصرف ظاهر الآية إلى أنهم يعتقدون مثلاً بأنّ البابا هو الخالق للعالم ، لأنه لم يكن بين اليهود والمسيحيين مثل هذه العقيدة ، بل

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣١ .

ينصرف إلى حقّ التقنين الأصيل الذي كانوا يعتقدون به ويقولون إن طاعته واجبة ، ويؤدّي بهم هذا إلى الاعتقاد بأنّ هناك من يستحق العبادة غير الله ، وهو اعتراف بآلهة غير الله .

أما إذا رجعنا إلى القرآن الكريم وتأملنا فيه واستفتيناه عن النصاب اللازم ليصبح الإنسان موحداً فسيكون الجواب : إنّ الموحّد من وجهة نظر القرآن هو كل من يعترف بأن واجب الوجود منحصر بالله ، وهو تعالى وحده الخالق والرب التكويني والرب التشريعي والإله المعبود ، ولما كان الاعتقاد بالألوهية واقعاً في الأخير لذا أصبح شعار الإسلام « لا إله إلا الله » أي إذا تمّ لنا الاعتقاد بالألوهية فمن المؤكد أنّ ما قبله تامّ وهو من باب « إذا حصلنا على المئة فالتسعون قطعاً في أيدينا » .

اذن نصاب التوحيد في القرآن هو الاعتقاد بهذه الأمور مجتمعةً ومنتهية بالتوحيد في الألوهية ، فمن توفرت فيه كان موحّداً ومسلماً وله السعادة في الآخرة ، أما ما دون ذلك فهو ليس بمقبول ، يبقى علينا أن نعرف حكم ما فوق ذلك ، وللجواب نقول : إنه ممتاز جّداً ، وعلى الإنسان أن يكدح ليصل إليه فترتفع درجة تكامله ، وكلما ارتقى الإنسان في سلّم التكامل ارتفعت درجة توحيده ، ونحن نعلم أن درجة التوحيد هي معيار الفضيلة عند التقييم حسب المقاييس الإسلامية .

وههنا قد يطرح هذا السؤال :

درجات التوحيد السابقة للتوحيد في الألوهية . . أيكون كل واحد منها بمفرده مؤمّناً لنا بعض السعادة ومحققاً لنا بعض الكمال والفضيلة ، أم أن مجموع هذه المفاهيم التوحيدية يشكل تركيباً واحداً يؤثّر أثره إذا اجتمعت جميع أجزائه ، وأما إذا فقد جزء منها فكأنّ الأجزاء الأخرى أيضاً غير موجودة ؟

وبعبارة أوضح : إذا اعترف شخص بالتوحيد في الخالقية ولكنه أنكر التوحيد في الربوبية ، ثم وجدنا شخصاً آخر ينكرهما معاً ، أيحقّ لنا أن نقارن بينهما ونقول إن كل واحد منهما في مرتبة من الكمال والفضيلة تختلف عن مرتبة

الآخر ، فلأحدهما مثلاً عشر درجات من الفضيلة وللآخر عشرون ، أم أن مجموع مراتب التوحيد إذا انضمت إلى بعضها وحققت النصاب فعند ذلك تصبح منشأ للأثر ، وأما إذا لم تصل إلى هذا الحد فليس لها أيّ أثر ؟

قد يبدو أن هذه سلسلة مراتب وكل واحد منها يحقق أثره ، فالمنكر لله حتى بعنوان أنه واجب الوجود يحتلّ منزلة دانية جداً ، أما الذي يعترف به تعالى بعنوان أنه واجب الوجود فهو قد ظفر بجانب من الحقيقة وله شيء من الكمّال ، وهو أحسن حالاً من سابقه ، وهكذا نتصاعد حتى نصل إلى المعتقد بالتوحيد في الألوهية .

ولكن هل تؤيد النصوص القرآنية هذا الجواب السطحيّ ؟

كلا ، لا يستفاد من القرآن أنّ من نال بعض مراتب التوحيد فهو أحسن حالاً ممن يفقدها جميعاً ، فلعلّ موجوداً قد نال أربع مراتب من التوحيد دون المرحلة الخامسة وهو أسوأ حالاً حتى من المحروم من المرحلة الأولى للتوحيد ، وقد ينتابنا العجب لأوّل وهلة من هذا الأمر ، ولكنّ هذا العجب سرعان ما يتبدّد إذا استعرضنا ما يؤيّد هذه الدعوى من نصوص القرآن الكريم ، وأوضح مصاديق هذا الموضوع في القرآن هو قصة إبليس ، ونحن لا نبحث هنا هل أنّ إبليس موجود حقيقي أم هو أسطورة ؟ هل هو مستقل عن الإنسان أم هو بعدٌ وجزء من الإنسان ؟

بل نعتقد أن لإبليس وجوداً مستقلاً ، وقد كان له وجود حقيقي وخارجي قبل أن يوجد الإنسان ، ويتميز بعمر طويل ، ولا نريد أن نطيل البحث في هذه الأمور الخارجة عن صميم الموضوع لأن لها مجالاً خاصاً بها ، ولكنه لم يكن بدّ من الإشارة إليها لوجود بعض الأقوال في هذا المضمار . وعلى أي حال فقصة إبليس التي تكرّر ذكرها في القرآن الكريم وأوليت اهتماماً خاصاً فيه ليست أسطورة لا ثمرة فيها ، وإنما القرآن يهتمّ بها لأنها شيء مهمّ جداً ولا بدّ أن نستفيد منها . لقد كان إبليس معتقداً بخالقية الله بدليل أن الله لما سأله بنصّ القرآن :

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت ؟ ﴾[1] .

أجاب إبليس :

﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾[2] .

ففي هذه المكالمة لا ينكر إبليس خالقية الله ، وإنما هو يعترف بأن الله موجود وهو خالق العالم ومن ضمنه الشيطان والإنسان .

وهل هو معتقد بربوبية الله ؟

نعم ، لأنه يقول :

﴿ قال رب بما أغويتني لأزيّنّ لهم في الأرض ﴾[3] .

بل هو يعتقد أيضاً بالمعاد ، لأنه عندما قال الله له :

﴿ فاخرج منها فإنك رجيم * وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾[4] .

فقد أجاب إبليس :

﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾[5] .

إذن كان إبليس معتقداً بخالقية الله وربوبيته ومعتقداً بيوم القيامة ، ولو كان كل واحد من هذه المعتقدات كافياً لتحقيق درجة من الكمال والفضيلة لأصبح إبليس متمتعاً بدرجات من الفضيلة والكمال ، ويتحدث الإمام علي (ع) في نهج البلاغة عن إبليس قائلاً :

« وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة ، لا يدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة »[6] .

(١، ٢) سورة ص : الآيتان ٧٥ و ٧٦ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٣٩ .

(٤، ٥) سورة الحجر الآيات ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ .

(٦) نهج البلاغة : تحقيق الدكتور صبحي الصالح ص ٢٨٧ ، في الخطبة القاصعة .

ولنفرضها من سنيّ الدنيا . فعبادة إبليس لله قبل خلق آدم ستة آلاف سنة ليس بالشيء القليل ، إذن ماذا كان ينقصه ؟ كان ينقصه هذا الأمر : وهو أنّ ما يقوله الله لا بدّ من قبوله ، فالطاعة لله ترفض النقاش ، لأنّه هو الله ، وجميع الوجود له ، فأوامره تنفذّ من دون سؤال ، ولا معنى إطلاقاً لأن يقوم مخلوق بإثبات وجوده أمام الله ، والإيمان بالربوبية التشريعية يفرض على الإنسان وكل مخاطب أن يستسلم للأوامر الإلهية من دون سؤال ، ولا يحقّ لأيّ أحد أن يناقش الله ويقول له : أمرك هذا ـ والعياذ بالله ـ ليس في محله ، لأنّه إذا كان لموجود أن يخضع لموجود آخر ويسجد له فالخاضع لا بدّ أن يكون أخفضَ منزلة ، وأنا أفضل من آدم فلا بدّ أن يسجد هو لي ، لا أنا أسجد له ، ومعنى هذا الكلام أنك يا ربّ قد أصدرت أمراً في غير محله ، وليس من حقك أن تأمرني بالسجود لآدم ، وأنا أطالبك بالدليل ، فلأيّ سبب أنا أسجد له ؟

لا يوجد في القرآن ولا في أيّ كتاب سماوي ولا في الروايات شيء يذكر بعنوان أنه السبب في سقوط إبليس سوى هذا الذنب وجذوره النفسية ، فمنشأ سقوطه هو تمرده على أمر الله ، ومن الطبيعي أن يكون لهذا التمرّد جذور نفسية تعتبر المنشأ له ، وهي التكبّر والحسد لآدم ، وانتهى به الأمر إلى هذا المصير :

﴿ وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾[1] .

وفي يوم القيامة يتوعده الله :

﴿ لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين ﴾[2] .

أما إذا قلنا بأن من يظفر بمرتبة من مراتب التوحيد فهو أشرف ممن يفتقدها فإنه يلزم منه أن يصبح إبليس أرفع بكثير ممن لا يؤمن بالله أساساً ، بينما الأمر ليس كذلك : فالشخص الذي لم يؤمن بالله وعاش في هذا العالم فترة قصيرة من الزمن وقد لا يكون غارقاً خلالها في الأعمال السيئة الأخرى لا يصبح رئيس أهل جهنم ، ويتسلّم زمام الرئاسة فيها إبليس الذي عبد الله ستة آلاف سنة واعتقد بعدد من مراتب التوحيد ومعه أتباعه ، يجدون أمامهم أحطّ

(١) سورة ص : الآية ٧٨ .

(٢) سورة ص : الآية ٨٥ .

درجات جهنم ، ولا نقصد أنّ هذه المنزلة مقصورة عليه ، فلعلّ له شركاء من شياطين وأبالسة الإنس الذين لا يقلّون عن أولئك ، ولكنه على أيّ حال لم ينفع إبليس إيمانه بخالقيّة الله وربوبيته التكوينية ، ولم ترفعه عبادته الطويلة الماضية ، لماذا ؟ لأنّ توحيده لم يصل إلى حدّ النصاب ، فهو كالمركّب الذي يفتقر إلى عنصر أصلي من عناصره المساهمة في تركيبه ، وهو لا فائدة منه ما لم تتوفّر فيه كل أجزائه الأساسية ، ولعلّ مركباً يؤثّر أثراً مضرّاً إذا فقد جزءاً منه ، فهناك بعض الأدوية التي إذا لم تضف مادة معينة إلى تركيبها فإنها ليست غير مفيدة فحسب ، وإنما هي قد تكون ضارة . إذن هذه المجموعة من عقائد التوحيد التي تبدأ من التوحيد في الخالقية وتنتهي بالتوحيد في الألوهية تشكّل مركّباً واحداً يستطيع أن يؤثّر في سعادة الإنسان ، حيث يؤدي إلى دخوله في دار الرحمة الإلهية وتمتعه بالجنة ، أما إذا فقد أيّ جزء من أجزائه فلن يكون له ذلك الأثر .

بعد أن عرفنا نصاب التوحيد الذي يضمن للإنسان الدخول ضمن المسلمين ، ويؤمّن له السعادة الأبدية ، يلزمنا أن نعرف لماذا نهتمّ بهذه المسائل البعيدة عن الأذهان ؟

نحن نهتمّ بهذه الأمور لأنّ من ينكر حكماً ضرورياً منصوصاً في القرآن فهو مرتدٌ ، أي أنه خارج من الدين ، ولعلكم تذكرون أن الإمام الخميني قبل مدة من الزمن أعلن أن من يعتبر لائحة القصاص غير إنسانية فهو مرتدّ تحرم عليه زوجه ، ودمه مهدور وتنتقل أمواله إلى وارثه المسلم ، لماذا ؟ هل أنكر وجود الله ؟ هل أنكر رسالة النبي (ص) ؟ هل كذّب بيوم القيامة ؟

كلا ، لم يقدم على شيء من هذه ، وإنما كان معتقداً بها وهو يصلي ويصوم ، ولكنه قال فقط : « لائحة القصاص لا إنسانية » أو ليس فيها إنصاف .

لماذا خرج من الدين ؟

لماذا يلقى في جهنم من كانت له تلك العقائد وقد أتعب نفسه في العبادة ستة آلاف سنة ؟ ولماذا يصبح أسوأ حالاً من منكر وجود الله أساساً ؟ لأنه لم يصل في توحيده إلى حد النصاب .

وكذا الحال بالنسبة لمنكر لائحة القصاص ، لأنّ معنى الاعتراض عليها هو أنّ جانباً من رسالة النبي (ص) غير مستقيم ، ويعود هذا ـ والعياذ بالله ـ إما إلى سوء نقل حكم الله إلى الناس من قبل النبي (ص) ، وإما إلى سوء بيانه أو وضعه من قبل الله تعالى ، والأول إنكار للرسالة والثاني إنكار للتوحيد ، فمن يعتقد برسالة النبي (ص) ويعتقد أنه :

﴿ ما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى ﴾[1] ، ثم يوجّه إشكالاً إلى كلام النبي (ص) فهو يوجّه إشكاله في الواقع إلى الله جلّ وعلا ، لأنّ النبي لا ينطق بشيء من نفسه ، إذن يتجه الإشكال إلى الله تعالى بأنه : لماذا وضعت قانون القصاص ؟ **﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾**[2] .

وهل يختلف هذا عن إبليس في هذا المجال ؟!

والحاصل أنّ التأكيد الشديد على قصة إبليس ليس عبثاً ، وإنما هو من أجل أن نفهم أننا لا نصبح مسلمين إلاّ إذا استسلمنا أمام أوامر الله . فإذا قلنا : نحن لا نقبل شيئاً إلاّ إذا عرفنا دليله العقلي ، وأما إذا لم نعرف ذلك فسيكون موقفنا إزاءه الإهمال لأننا تابعون للعقل ، فهو موقف غير إسلامي ، لأننا نسلّم بأنّ للأحكام الإسلامية دليلاً عقلياً فهي تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية ، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين أن نقول : لا نقبل الحكم ما لم نفهم مصلحته ، وأن نقول : لا وجود لحكم إسلامي من دون مصلحة وإن كنت أنا لم أفهمها . الإسلام يعني « الاستسلام » لكل ما يقوله الله . هو الله وكل ما لدينا فهو منه ، فكيف تواجه الله بهذا القول : أنت واحد وأنا واحد ، أنت تريد وأنا أريد .

أنت ! من أنت ؟ هل عندك شيء من ذات نفسك ؟

وتقول : قال الله كذا في القرآن ووضع هذا القانون ولكني أرى من الأفضل أن يكون بهذا الشكل .

---

(١) سورة النجم : الآيتان ٣ و ٤ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٣٣ .

عجيب ! هذا يعني أنّ لديك شعوراً ليس موجوداً عند الله ، وهو جل شأنه لا يفهم كيف يجب أن يكون ، وما دام شعورك هذا ليس من الله فقد أصبحت تحتلّ مكان الله في هذا الشعور،وأما إذا كان من الله فللّه تعالى ما هو أرفع منه . إذا كنت تفهم شيئاً لا يفهمه الله سبحانه فقد غدوت أنت أولى بمقام الألوهية منه !!

أما إذا أردنا أن نبقى مسلمين فليس أمامنا سوى الانقياد والاستسلام لأوامر الله ، وتنفيذها من دون مناقشة ومن دون إبداء الرأي الشخصي بأنّ هذا الحكم ـ مثلاً ـ إهانة لمكانة المرأة ، أو ذاك الحكم غير إنساني ، وأشياء من هذا القبيل . ولهذا السبب بالذات حكم الإمام الخميني بأن دماء هؤلاء مهدورة لأن المسألة تمسّ أساس الإسلام .

ومن الواضح أن هذا حكم فقهي له أدلته الخاصة به ، ولكن تفسير هذا الحكم حسب الرؤية الإسلامية هو ما قدمته قبل قليل، وهو أن هذا الإنكار لحكم ضروري من أحكام الإسلام يعود إلى إنكار الربوبية التشريعية لله سبحانه ، فيكون هذا الشخص مثل إبليس ، حتى إذا عبد الله ألف سنة ، وجاهد في سبيل الله ألف عام ، ولكنه يرفض حكماً إسلامياً منصوصاً في القرآن ، فإن دمه مهدور ، وزوجه عليه محرّمة ، وأمواله تنتقل إلى وارثه المسلم .

إذن لا ينسجم مع الإسلام الاعتراض والإشكال ، والتحرّر والديمقراطية ـ حسنة كانت أم سيئة ـ ليست من الإسلام في شيء ، لأن الإسلام هو التسليم ، وإذا كان التمرّد وإثبات الشخصية حسناً في أي مكان فإنّ المطلوب أمام الله هو إظهار العجز والتذلّل والعبودية ، وليس للإنسان أن يتفاخر أمام الله قائلاً « أنا كذا ! » .

بعض الناس تصوّر أنّ الإسلام لا يريد من الإنسان حتى أن يتذلّل أمام الله ، ولكنّ هؤلاء لم يفهموا الإسلام ، فالإنسان أمام الله يتميز بأرفع مراتب الذلة، ولا بدّ له من إظهارها إزاء خالقه، وكمال الإنسان في أن يكون ذليلاً أمام

بارئه ، أيحقّ لنا أن نتعالى بأنفسنا في مقابل الله تعالى ؟ وما هو معنى العبادة ؟ أليست العبادة إظهاراً للتذلّل ؟ وهل يوجد لدينا إسلام بلا عبادة ؟ وحينئذٍ كيف نسمح لأنفسنا أن نقول : إن الإسلام لم يشأ للإنسان التذلّل حتى أمام الله ، إذن ماذا يريد الإسلام ؟ ليس الإسلام إلاّ هذا ، إنه الاستسلام والانقياد ، وإذا أردنا أن نعرفه جيداً فلننصت إلى ابن الإسلام :

« كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً » و « كفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً » .

الإسلام يقول : ضع جبهتك في مقابل الله على التراب ، مرّغ وجهك في التراب ، وحسب نص القرآن :

﴿ ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾[1] .

إذا كان الإسلام لا يريد من الإنسان التذلّل أمام الله ، فلأيّ شيء كان بكاء رسول الله (ص) وعلي (ع) وتذلّلهما ؟!!

وعلى أيّ حال فإنه يستفاد من القرآن الكريم أن الحدّ الأدنى الذي يقبله من الإنسان من الناحية العقائدية هو اعتناقنا للتوحيد بهذه المفاهيم وهذه المظاهر ، وأيّ تقصير في أيّ واحد من هذه فإنه يوجب سقوط الإنسان من أدنى مراتب الإسلام ، ولا يعترف الإسلام للإنسان بأيّ تكامل أو فضيلة أو نضج ما لم يتوفّر فيه هذا الحد الأدنى . أما الدرجات الرفيعة للتكامل الإنساني فهي تأتي بعد هذه الدرجة . فالأساس هو التوحيد ، والفضائل الأخرى تعتبر عوامل مساعدة لرقيّ الإنسان وصعوده ، والشيء الأصيل في هذا الشأن هو علاقة القلب بالله التي تتجلى في هذه العقائد .

ونستطيع أن نلخّص ما مرّ في : أن التوحيد في الإسلام يعني إظهار الوحدانية لله ، وهو يتمثل في شؤون متعددة :

١ ـ في وجوب الوجود ، أي أن واجب الوجود منحصر بالله .
٢ ـ في الخالقية .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠٩ .

٣ ـ في الربوبية التكوينية ، أي ادارة العالم .

٤ ـ في الربوبية التشريعية ، أي أنّ التقنين والأمر والنهي ووجوب الطاعة بلا مناقشة يقتصر على الله .

٥ ـ في المعبودية والألوهية ، أي لا يوجد أهل للعبادة سوى الله .

فالذي تتمثل فيه هذه الأمور يصبح مصداقاً للمعترف بـ « لا إله إلاّ الله » ، وهي أول رتبة من مراتب الإسلام ، وبدونها لا ينطبق عليه الإسلام ، وتوجد بعد هذه المنزلة مراحل أرفع للتوحيد يستطيع الإنسان أن يظفر بها خلال مسيرة التكاملي في العلم والعمل ، منها التوحيد في الاستعانة والتوكل ، التوحيد في الخوف والرجاء ، التوحيد في المحبة ، حتى يصل إلى أرفع منازل التوحيد التي هي « التوحيد في الوجود المستقل » أي أن الوجود المستقل مختص به تعالى ، وجميع شؤون الوجود منه ، على أن يدرك هذا شهوداً وبالعلم الحضوري ، ولا يكفي اكتسابه عن طريق المفاهيم الذهنية الحاصلة عن طريق البرهان العقلي والفلسفي ، ومن يصل إلى هذه المنزلة فسيصبح موحداً كاملاً ، إنّ مثل هذا الشخص لا تكون له علاقة مستقلة بغير الله ، ولنستمع إلى الإمام الحسين (ع) كيف يناجي ربّه في دعاء يوم عرفة :

« أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدّوك ، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبّائك حتى لم يحبّوا سواك » .

هذا هو الإنسان المثالي الذي يربّيه الإسلام والقرآن ، فيتغلغل النور الإلهي إلى أعماق قلبه فيرى وحدانية الله ويجتث كل تعلق لقلبه بغيرْ الله ، ويحب الله أصالة ويعشقه ، ويحب كل ما ينتسب إليه من ناحية أنه منتسب إليه . نسأل الله تعالى ببركة أوليائه أن يمنحنا نفحة من هذه الحقائق الرفيعة ، إنه سميع مجيب .

ويواجهنا عندئذٍ هذا السؤال :

ما هو المقصود من توحيد الله في وجوب الوجود والخالقية والربوبية ؟ هل المقصود إنكار أي تأثير لكل موجود سوى الله في إيجاد وتدبير العالم ؟ وإذا قلنا

بتأثير لموجود ما فهل نصبح مشركين ؟ أم أنّ المقصود من التوحيد شيء آخر ؟

عندما نرجع إلى القرآن نستفتيه نجد أنه ينسب حتى الخلق والتدبير وإحياء الموتى لغير الله ، ولكنها جميعاً متوقفة على إذنه تعالى ، وسوف نوضّح هذا بشكل أكبر فيما بعد ، ونذكر هنا نموذجاً لهذا وهو الآيات الواردة بحق عيسى (ع) وقد نسبت إليه بعض هذه الأمور ، يقول الله تعالى في الآية (١١٠) من سورة المائدة :

﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني ﴾ .

فالخطاب في هذه الآية الكريمة لعيسى (ع) بأنك تخلق الطير وتحييه ، وتشفي عمى من ولد أعمى ، وترفع المرض عن الأبرص (كان مرض البرص مستعصياً على العلاج في تلك الأزمنة ، ولست أدري اليوم موقف الطب منه) ، والأهمّ من ذلك كله أنك تحيي الموتى وتخرجهم من قبورهم . هذه معجزات عرضها عيسى (ع) على الناس لإثبات نبوّته ، وقد كانت لكلّ نبيّ معجزات ، ومعجزات عيسى (ع) هي هذه ، وجاء في الآية (٤٩) من سورة آل عمران :

﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآيةٍ من ربكم أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله . . . ﴾ .

وهناك فئة من الناس تنكر وجود المعجزات وتحاول تأويل هذه الآيات وتفسيرها حسب القوانين الطبيعية ، فيقولون بالنسبة لشفاء المرضى مثلاً إنه كان لوناً من النبوغ في الطبابة ، أي أن عيسى (ع) كان طبيباً حاذقاً يسهل عليه علاج المرضى ، ولكنّ أهل ذلك الزمان كانوا يعتبرون هذا لوناً من الإعجاز ، وفي الواقع فإنه لم يقم بعمل مخالف للقوانين الطبيعية ، وعندما يصلون إلى هذه الفقرة من الآية الكريمة : « وإذ تخرج الموتى » فإنهم يفسرونها بأن عيسى (ع) كان ينبش القبور ويخرج الموتى من قبورهم !!

إنه حقاً لأمر مضحك جداً لا يتفوّه بـه إلّا من ابتلي بمـرض قلبي (من الواضح أننا لا نقصد بالقلب هنا ذلك العضو المادي المغروس في الجانب الأيسر من صدر الإنسان ، بل نقصد الكيان الروحي ، كما ورد في القرآن الكريم : ﴿ في قلوبهم مـرض ﴾ . هـل هـذا كـلام معقـول ، وهـو أن يمنّ الله عـلى عيسى (ع) بأنك تنبش القبور وتخرج الموتى منها ؟!

أيعتبر هذا فنّاً ؟

وعلاوة على هذا فبم يفسّرون الآية الأخرى القـائلة عن لسان عيسى : ﴿ وأحيي الموتى ﴾ ؟

إن هذا لون من الأمراض التي أصابت بعض منتحلي الإسلام والمنتسبين إليه بعنوان التمسك بالعلم أو التبعيـة للغرب أو أي شيء تسمّـونه ، وهـو في الحقيقـة ناتـج عن ضعف الإيمان ، حيث يتصـورون أن جميع قـوانـين العـالم منحصرة في القوانين الطبيعية ولا وجود لشيء فيما وراء الطبيعة وحاكم عليها ؛ وبناء على هذا فكلّ ما يقع في هذا العالم لا بـدّ أن يكون من خـلال القوانـين الطبيعية ، وينفون وقوع المعجزات والكرامات ، وعندما يحاولـون الجمع بـين عقائدهم الفاسدة والآيات التي قبلوها وآمنوا بها في الظاهر فإنهم يتورطـون في هذه الأقوال المتناقضة ، وإذا ضاق بهم المجال انطلقت ألسنتهم بهذا العبث من الكلام الطفولي .

وعلى أي حال فـالقرآن يصـرّح بأن عيسى (ع) يخلق : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ ، وهو يحيي الموتى ويشفي المرضى مع أنه كـان عبداً من عباد الله ، وهذا الأمر هو الذي دفع بعض أصدقائه وأتباعه للغلوّ فيه واعتباره ابن الله ، بـل قالـوا عنه : إنـه هو الله بنفسـه ، والقرآن الكـريم يقاوم ـ من ناحية ـ هذه العقائد مقاومة شديدة : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾[1] .

﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾[2] .

---

(١) سورة الحج : الآية ٣٤ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٧١ .

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ (1) .

ومن ناحية أخرى فهو يثبت ويؤكّد أن عيسى (ع) كان يؤدّي مثل هذه الأعمال ، ولكنكم تلاحظون أنه يضيف إلى الجملة كلمة « بإذني » ، ويكرّر هذه الكلمة مع كل جملة ولا يكتفي بإضافتها في آخر الآية ، وهذا يعني أن الاعتقاد بصدور مثل هذه الأمور من الإنسان أو من أيّ مخلوق آخر لا يؤدّي إلى الشرك ما لم يعتقد بأن المخلوق يقوم بهذه الأعمال « مستقلاً » غير محتاج فيها إلى إذن أحد ، وأما إذا اعتقد بأن الله سبحانه يمنح المخلوق مثل هذه القدرة بحيث يستطيع التصرّف في العالم الطبيعي ويوجد بعض الظواهر عن غير طريق القوانين الطبيعية فإن هذا الاعتقاد ليس غير شرك فحسب وإنما هو عين التوحيد ، وحتى أن إنكاره يصبح إنكاراً للقرآن ولرسالة النبي (ص) وللتوحيد بمعناه الكامل .

إذن لا بدّ لنا أن نعتقد أن مثل هذه الأمور تصدر من غير الله ، ولكن بإذن الله ، أما ما هي حقيقة هذا الإذن ؟ فسوف يأتي توضيحه ـ إن شاء الله ـ في البحوث القادمة ، وهذا هو ما نسميه في عرفنا بـ « الولاية التكوينية » ونواجه هذا السؤال :

هل للنبي الكريم (ص) والأئمة الطاهرين (ع) ولاية تكوينية أم لا ؟

وظنّ بعض الإخوة من أهل السنة أنّ مثل هذا الاعتقاد شرك بالله ، فإذا اعتقد شخص بأن للنبي (ص) ولاية تكوينية أي أنه هو يستطيع إحياء الموتى أو شفاء المرضى فهو قد أشرك ، لأن هذه الأمور من شأن الله فقط . وتعدّ هذه الفئة سائر الطوائف الإسلامية التي تشكلّ أكثر من ٩٥٪ من المسلمين ـ تعدّها مشركة ، ومن جملتها الشيعة الذين يعتقدون بالولاية التكوينية للنبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وتعود هذه الاتّهامات في الواقع إلى الجهل (هذا إذا لم تكن معرضة

(1) سورة المائدة : الآية ٧٢ .

وذات دوافع سياسية) ، فمن يقرأ القرآن ويفهم هذه الآيات . . كيف يسمح لنفسه أن يعدّ هذه العقائد من الشرك ؟

إن القــرآن نفســه يقــول كـان عيسى (ع) يخلق ويحيي المــوتى ويشفي المرضى ، فكيف يصبح هذا القول شركاً ؟!

وأحياناً يضمّون إلى أقوالهم شيئاً طفولياً آخر فيقولون : في المجالات التي يذكرها القرآن ليست شـركاً وأمـا إذا نسبناهـا إلى شخص آخر لم ينصّ عليـه القرآن فهنا يتحقق الشرك .

ومن الواضح ضحالة هذا القول ، فأي شيء إذا كان شـركاً فهـو شرك حتى إذا لم يذكره القرآن نفسه . لو فرضنا أن القرآن قال يوجد إلهان أو أنّ هناك خالقين للعالم ، أيصبح هذا توحيداً ؟!

وهل حقيقة التوحيد يمكن تغييرها بالقول والكلام ؟

الأمر الذي هو شرك يبقى شركاً سواءً أذكر ذلك القرآن أم لم يـذكره ، والشيء الذي هو توحيد يظلّ توحيداً تعرّض له القرآن أم لم يتعرض له .

كيف يصحّ لنا أن نتصور أنه ما دام القرآن يقول لعيسى (ع) أنت تخلق وتحيي الموتى وتشفي المرضى فهذا « توحيد » ، لكنه في الوقت الذي لم يقل فيه ذلـك فهو « شـرك » ثم تحوّل إلى التـوحيد بعـد القول بـأنّ عيسى (ع) يفعـل هذا ؟!

ومن الغريب أن تشيع هذه الرؤية الساذجة بين كثير من المسلمين نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية ، أي أن بعض المدارس تفرض على المستضعفين في الدول الفقيرة بقوة المال هذه الأفكار والتصورات.

ونظير هذا يقال بالنسبة للربوبية التشريعيـة ، يعني عندمـا نقول لا يحقّ لأحد سوى الله تعالى وضع القوانين وإصدار الأوامر والطاعة من دون سؤال ،

فليس معنى هذا أننا لا يجوز لنا أن نطيع أي أحد آخر بأيّ شكل من الأشكال ، أو لا يحقّ لأيّ أحد إصدار الأوامر ، كلّا ، ليس هذا معناه ، بل المقصود هنا أيضاً أنّ أيّ شخص لا يحقّ له أن يصدر الأوامر « مستقلاً » من ذات نفسه ، إلّا إذا كان الله تعالى قد منحه هذا الحق ، وتعود الطاعة لهذا الشخص في الواقع إلى طاعة الله ، وجاء في القرآن الكريم :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله ﴾[1] .

إذن فالطاعة التي تكون بإذن الله لا تتنافى مع التوحيد بل هي من شؤون التوحيد . أما ما يتنافى مع الربوبية التشريعية فهو الاعتقاد بأنّ لأحد غير الله وفي عرضه حقّ التقنين ، بحيث يضع القوانين من دون اعتماد عليه تعالى ، وتكون طاعته واجبة مثل طاعة الله . هذا شرك لا شك فيه . أما إذا قال أحد بأن الله سبحانه قد عينّ أشخاصاً لهم الحق في التدخّل في شؤون الناس ، يسوسون أمورهم ، يأمرون وينهون ، وتجب على الناس الطاعة لهم ، فهو ليس بشرك إطلاقاً ، وجاء تصريح في الآية (٥) من سورة النازعات :

﴿ فالمدبِّرات أمراً ﴾ .

مع أن التدبير مقصور على الله تعالى حسب هذه الآية الكريمة :

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[2] .

أي أن الخلق والتدبير مختصّان بالله ، ويقول تعالى في آية أخرى :

﴿ يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾[3] .

فالقرآن إذن يعتبر تدبير شؤون العالم مختصّاً بالله سبحانه ، ولكنه في نفس الوقت يقول ﴿ فالمدبّرات أمراً ﴾ أياً كانت هذه المدبّرات (يعتقد أكثر المفسرين أنها من الملائكة) فإن هناك أفراداً يدبّرون بإذن الله ، ويعترف القرآن بصحة هذا الأمر .

---

(١) سورة النساء : الآية ٦٤ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٣) سورة السجدة : الاية ٥ .

يقول الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ [1] .

فهو يأمر بطاعة الرسول ، ولا يكتفي بهذا الحد بل يوجب طاعة خلفاء الرسول من المعصومين :

﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ .

حسب ما نقل من تفسير عن الرسول الأكرم (ص) أن « أولي الأمر » هم المعصومون الاثنا عشر (ع) ، ومن الطبيعي أن تكون طاعة الرسول وأولي الأمر شاملة للمنصوبين من قبل النبي أو الإمام بصورة خاصة أو بشكل عام . عندما كان النبي (ص) يبعث والياً إلى منطقة معينة فإنّه يجب على الناس طاعة هذا الوالي ، لأنها في الحقيقة طاعة للنبي (ص) . وكذا الطاعة للولي الفقيه المنصوب من قبل الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) لتسيير شؤون الناس في عصر الغيبة ، وهذه في الواقع طاعة لإمام العصر التي هي طاعة لله : « فإنّهم حجتي عليكم وأنا حجة الله » .

إذن الاعتقاد بالولاية التشريعية للنبي (ص) والإمام (ع) ومن ينصبه هذان ، ومن جملتهم الفقهاء الكبار في عصر غيبة الإمام المهدي (عج) ليس فقط لا يتنافى مع التوحيد ، بل هو من شؤون التوحيد ، وهذا يعني أن الطاعة لله تشمل الطاعة لرسول الله (ص) لأنه تعالى هو الذي أمر بطاعة الرسول ، وهكذا . . . حتى نصل إلى الفقهاء .

ونحن إنّما تعرّضناا لهذه المسألة بعد موضوع التوحيد لكي نرفع بعض الشبهات التي تشيع على ألسنة الجهلاء أو المغرضين في هذا المضمار .

ومثل هذا يقال في موضوع الشفاعة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن مشركي مكّة كانوا يعتقدون بأن الملائكة بنات الله والعياذ بالله ، والله لا يردّ لهن رغبة ، فكلّما أردن شيئاً فرضنه على الله ولو كان مخالفاً لإرادة الله ، ويقولون نحن نعبد هذه الملائكة ، لكن لمّا كنّا لا نراها فنحن نصنع لها تماثيل ، وهم يصنعون

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

الأصنام ويعبدونها من أجل أن تلتفت أرواح هذه الأصنام ـ التي هي بنات الله ـ وتعطف على هؤلاء « العباد » وتشفع لهم عند الله ليرحمهم ، وعندما يُسألون : لماذا تعبدون هذه الأصنام ؟ يجيبون :

﴿ ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾[1] .

وأحياناً يقولون :

﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾[2] .

وقد أدّى هذا الأمر بالبعض إلى القول : إنّ من يعتقد بالشفاعة فهو مشرك .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أنّ زعيم هؤلاء يعترف بشفاعة الرسول الكريم (ص) في يوم القيامة ، ولكنه يعتبر من الشرك الاعتقاد بشفاعة الآخرين ومن جملتهم أئمة الشيعة سلام الله عليهم ، ولا سيما إذا اتّسعت لتشمل الأمور الدنيوية .

وهناك بعض آخر أراد أن يكون « ملكياً أكثر من الملك » فأنكر الشفاعة مطلقاً وقال عنها إنها مرفوضة ، ومعنى الشفاعة هو القيادة والدلالة على الطريق والتعليم وليس شيئاً أكثر من ذلك . ويقولون إن الاعتقاد بالشفاعة شرك ، وهو نفس ما كان يعتقده المشركون بالنسبة للأصنام .

وجوابنا على هذا يتلخص في أنّ القرآن يصرّح بوجود الشفاعة للملائكة والأنبياء وأولياء الله ، ولكنها شفاعة مقيّدة بإذن الله من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنها لا تشمل إلّا أشخاصاً يتمتّعون بميزات خاصة ، وليست هي بلا ضابطة ، ولا هي من قبيل تلاعب الوساطات في حياتنا الاجتماعية ، وإنما للشفاعة قانون إلهي خاص سوف يشرح في موقعه بإذن الله . يقول الله تعالى :

---

(١) سورة الزمر : الآية ٣ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٨ .

﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾[1] .

إذن أيّ شفاعة يحاربها القرآن الكريم ؟

إنها الشفاعة المستقلة التي يعتقد بها المشركون : وهي أن يفرض أحد إرادته على الله ويقول له : أنت تريد أن تدخل هذا جهنّم ولكنّي أريد أن يذهب إلى الجنة لقربه مني وعلاقته بي ، ولما كانت لله علاقة خاصة بهذا الوسيط فهو لا يردّ له هذا الطلب ويدخل هذا الشخص الجنة .

لا شكّ أنّ هذا شرك لأنها شفاعة مستقلة .

أما إذا كان الله قد وضع قانوناً وعيّن أشخاصاً ليتوسّطوا لأشخاص معينين ، في موارد خاصة ، من أجل أن يستفيدوا من رحمة الله ، مع أنهم غير مستحقين لها ابتداءً . فهذا هو مورد تأييد القرآن ، لأنّ رحمة الله تفضّلٌ منه ، وهو تعالى يستطيع أن يرحم بعض عباده أو جميعهم بما يفوق استحقاقهم ، ولكنه تعالى جعل لهذه الرحمة قناة تمرّ من خلالها ، ولها ضوابط . فهناك أشخاص ينالون جزاءهم عن طريق الأعمال التي يؤدّونها بصورة مباشرة ، هؤلاء لهم حساب على حدة ، ولكنه يوجد لدينا أشخاص يستحقون ـ بوساطة بعض الأعمال ـ نيل رحمة الله بشكل غير مباشر (أكثر ممّا يستفيدونه بصورة مباشرة) ، وللتشبيه نضرب مثلاً : يوجد أفراد لا يأكلون إلاّ خبز أنفسهم ، وهناك أشخاص مؤهّلون ليكونوا ضيوفاً أيضاً ، ولكنهم لا بدّ أن يكسبوا مؤهّلات الضيافة ، فلا يقبل أيّ شخص ضيفاً هكذا اعتباطاً ومن دون علة ، وكذا حلول الإنسان ضيفاً يوم القيامة عند الرسول الأكرم (ص) والأئمة الطاهرين (ع) وأولياء الله المقربين فهو أمر لا شك فيه ، ولكن هذه الضيافة لا ينالها كل أحد ، يقول القرآن الكريم :

﴿ ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

أي لا تشفع الملائكة إلاّ لمن يرتضيه الله ، وهذا يعني أن تتوفّر في ذلك الشخص الشروط التي يريدها الله ، ثم يظفر بالشفاعة . ونظير هذا كثير في القرآن حيث تكون الشفاعة منوطة بإذن الله من جهة ، ومحدودة بالذين يرضاهم الله من جهة أخرى .

وبهذا نعرف أن الشفاعة أيضاً لا تتنافى مع التوحيد ، بل هي من شؤونه ونتائجه .

والسبب الذي دعاني لأؤكّد على هذه الملاحظات هو ما يثار حولها ـ في العقود الأخيرة من عصرنا ـ من شبهات ودعايات ، ومن البديهيّ أن يكون لهذا النشاط الدعائي عوامل كامنة وراءه ، منها ما بقي خافياً علينا ومنها ما استطعنا اكتشافه ، فمن العوامل التي افتضح أمرها أخيراً هو ما ينفقه أعداء الإسلام بسخاء لإشاعة مثل هذه الأمور ، ولعلّ بعضها ناشىء من جهل وحماقة الناشرين لهذه الأفكار .

وهم يصرّون على أنّ من الشرك الاعتقاد بأن النبي (ص) والإمام (ع) يشفي المرضى أو يحيى الموتى أو يشفع ، وهم في الواقع يخططون لكي يفصلوا الناس عن عقيدتهم في الأمور المعنوية والغيبية ، وبالتالي تنقطع عنهم الإمدادات الغيبية . ولكن من حسن الحظ فالوقائع أغنتنا عن الجلوس في قاعات الدرس لكي نبحث عن الآيات والروايات التي تثبت هذا الموضوع . فهناك إمدادات غيبيّة وأيدٍ تعمل فوق العوامل الطبيعية في العالم ، وهذه الأدعية والتوسّلات والبكاء مؤثّرة بشكل عجيب في جذب الرحمة والإمدادات الغيبيّة . وهي خير شاهد على ما نقول .

* * *



هل القرآن يستدّل على التوحيد الذي مرّ علينا حدّ نصابه أم أنه يكل أمر الاستدلال إلى عقول الناس أنفسهم ؟

وجوابنا على هذا السؤال يتلخص في أن القرآن قد ذكر أدّلة على التوحيد ، وتتميز هذه الأدلة بأسلوب منطقي يعتمد على الطريقة القياسية .

منها ما جاء في الآية (٢٢) من سورة الأنبياء :
﴿ لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا ﴾ .

« فيهما » إشارة إلى السماء والأرض . ومن الواضح كون هذا لوناً من ألوان الاستدلال ، ومعناه : أنتم تشاهدون أن السماء والأرض لم تفسدا إذن لا وجود لآلهة سوى الله ، ويسمى هذا في العرف المنطقي بالقياس الاستثنائي ، فالقياس في علم المنطق على قسمَين : استثنائي واقتراني ، في القياس الاستثنائي تبين أولاً الملازمة بين شيئين ثم يتمّ إثبات أحدهما ، وله أشكال معينة تذكر في الكتب المنطقية ، مثلاً يقال :

إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود . ولكنّ النهار موجود ، إذن : الشمس طالعة .

أو يقولون :

إذا كانت الشمس طالعة فالنهـار موجـود . ولكنّ النهار غـير موجـود ،
إذن : الشمس ليست طالعة .

وكذا بالنسبة للآية المذكـورة فهي تبين مـلازمة بـين تعدّد الآلهـة وفساد السماء والأرض مثل الملازمة بـين طلوع الشمس ووجود النهـار ، ثـم لا يذكـر شيء بعد ذلك عن مصير السماء والأرض وعن وجود آلهة متعـددين ، ويسمى هـذا في المنطق بـأنّ جـانبـاً من القيـاس مضمـر أو مـطويّ . ونحن نعلم أن الاستدلال يتكوّن من مقدّمتين ولكنّه أحياناً عندما تذكر إحدى المقدمتين فـإن الأخـرى تـأتي إلى ذهن المخـاطب دون حـاجـة إلى بيـان ، لهـذا فهم يهملون ذكرها ، ويقال : تلك المقدّمة مطويّة أو مضمرة ، وفي موضوع حديثنا كان لا بدّ أن نقول :

ولكنهما لم تفسدا . . إذن ليس فيهما من إله إلاّ الله .

ولما كانت هذه من الأمور الواضحة ؛ حيث يشاهد كل واحد منا أنّ السماء والأرض باقيتان في مكانهما ولا حاجة لذكر هذا ، ثم تؤخذ النتيجة المذكورة من قبل بصورة مدّعى . إذن يصبح هذا استدلالاً منطقياً تاماً ومبتنىً على أسس الأسلوب القياسي في المنطق .

والشيء المهمّ في هذا المجال هو توضيح الملازمـة ، فما هـو المقصود من قولنا:لو كانت هناك عدّة آلهة لفسدت السماء والأرض ؟ ما هي الملازمة بينهما ؟ وإلى أيّ شيء يهدف القائل من ذكر هذه الملازمة ؟

روح الحديث هنا ، وإلاّ فإنه من الواضح جداً أن العالم لم يفسد ، وإذا ثبتت هذه الملازمة فنتيجتها أن العالم ليس له إلاّ إله واحد ، فالكلام كله في أنّ هذه الملازمة على أيّ أساس قائمة ؟ وكيف يفسد العالم إذا كان لدينا عدّة آلهة ؟

للمفسّرين بيانات مختلفة في توضيح هذه الملازمة ، ويمكن القول بأنّ هذه البيانات تنقسم في مستـوياتهـا إلى ثلاث درجـات : أحدهـا ساذج وعـامي ، والآخران فنّيّان دقيقان .

أما الساذج فيمكن توضيحه بهذا الشكل :

نحن محتاجون إلى نظام واحد في إدارة أيّ جهاز أو مجتمع أو فئة أو هيئة ، وإلا فإن ذلك الجهاز يتبعثر ، وحتى في العائلة الواحدة إذا حاول شخصان الحكم فيها مستقلّين ـ كل واحد منهما على حدة ـ فإن وحدة تلك العائلة سوف تتبدّد ، وإذا أراد « مختاران » تسيير أمور قرية واحدة فإن أوضاع تلك القرية سوف تتدهور .

إذا كانت هذه الأمور البسيطة بهذه الصورة . فكيف يمكن أن يكون لهذا العالم العظيم عدّة آلهة تحكمه وتسير أموره ؟

هذا البيان لا يتمتع بدقّة منطقية ، ويمكن أن يناقش فيه من الناحية الفنية ، ولكن البيانين الآخرين فنيان ومبنيان على أسس فلسفية دقيقة :

أحدهما يتبناه بعض المفسرين ذوي الأذواق الفلسفية ، الذين ألفوا برهان التمانع الذي يقام على التوحيد في كتبهم الفلسفية ، وحاولوا أن يطبّقوا هذه الآية على برهان التمانع ، ولما كان هذا البرهان مبنياً على ذكر مقدمات تحتوي بعض الأسس الفلسفية ، وذِكْرها جميعاً يؤدي إلى التطويل لذلك أعرضت عن تفصيلها[1] .

والنتيجة التي تؤخذ من برهان التمانع بشكل مختصر هي أن علّتين لا يمكن أن تؤثّرا بصورة مستقلة في وجود معلول ما ، وإذا كانتا مشتركتين بحيث إنّ كلاً منهما يوجد سهماً من ذلك المعلول فإن ذلك المعلول ـ في الواقع ـ مركب من جزءين أحدهما توجده إحدى العلتين ، والثاني توجده العلة الأخرى . وهناك مقدّمات أخرى لا يسعنا ذكرها في هذا المجال ، ونتيجتها أن العالم لا يمكن أن يكون له إلهان .

ويوجد في هذا البرهان تالٍ فاسد ، وقلنا في المثال المشهور :

---

(١) من يحب التفصيل فليرجع إلى الجزء الخامس من كتاب « أسس الفلسفة والمذهب الواقعي » ، فصل التوحيد ، تعليقة الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري .

إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود .

وأحياناً نقول :
ولكنّ الشمس ليست طالعة . . إذن : النهار ليس موجوداً .

وأحياناً أخرى نقول :
ولكن النهار ليس موجوداً . . إذن : الشمس ليست طالعة .

في هذا الشق الثاني يقال : التالي فاسد ، أي أنّ القضية الأولى مركبة من جزءين أحدهما يسمى بـ « المقدّم » والثاني بـ « التالي » ، المقدّم هو (إذا كانت الشمس طالعة) والتالي هو (فالنهار موجود) ، فإذا كان التالي فاسداً فالمقدّم فاسد أيضاً ، أي إذا لم يكن النهار موجوداً فإنه يعلم أن الشمس غير طالعة .

وفي هذا البرهان يكون التالي فاسداً أي أنه فرض كاذب ، والتالي هو عبارة عن فساد العالم ، ويستنتج من فساد التالي أن المقدم فاسد أيضاً ، أي أن تعدّد الآلهة كاذب أيضاً كما فصل في برهان التمانع ، فالعالم الواحد لا يمكن أن يوجد من علتين لأنّ من المستحيل أن يوجد معلول واحد من علتين ، فلو كان هناك إلهان لم يوجد هذا العالم ، فالتالي الفاسد في برهان التمانع هو عدم العالم ، بينما التالي الفاسد في الآية الشريفة ليس هو عدم العالم بل هو فساده : « ولو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا » ولم يقل « لو كان فيهما آلهة إلا الله لم توجدا » ، ولا يذكر الفساد إلاّ إذا كان لدينا شيء ثم يطرأ عليه الفساد ، فهل يصحّ مثلاً أن نقول : فسد اللبن ، والحال أنه لا يوجد لبن في هذا العالم ؟ كلاّ ، لا بد أن يكون اللبن موجوداً ثمّ يعرض له الفساد ، عندئذٍ فقط يقال : فسد اللبن . إذن . . . ما تذكره الآية يختلف عما ينتج من برهان التمانع . وقد ذكروا بعض التبريرات والتفسيرات ولكنها لا تنسجم مع ظاهر الآية .

ويبدو لنا ـ وهذا هو البيان الفنيّ الثاني لمحتوى الآية ـ أنّ هذا برهان آخر يختلف عن برهان التمانع الذي يقيمه الفلاسفة على التوحيد ، ويحتاج بيان هذا البرهان إلى ذكر بعض المقدّمات : فالمقدمة الأولى التي نعتمد عليها في هذا

المجال هي أنّ هذا العالم ـ بأرضه وسمائه وجميع ظواهره ـ نظاماً واحداً ، وسوف نشرح فيها بعد معنى النظام الواحد ، ويؤكد الفلاسفة في برهان التمانع على إثبات الوحدة للعالم ، أي أنّ العالم موجود واحد ، أما برهاننا فهو يعتمد على إثبات نظام واحد للعالم ، ومعنى هذا أنّ وحدة النظام لا يلزم منها وحدة الوجود للعالم ، بل قد تتعدّد الموجودات ولكنّ النظام المسيطر عليها نظام واحد ، ونحن نكتفي بإثبات النظام الواحد للعالم ، ولسنا بحاجة إلى إثبات الوحدة للعالم ؛ فحتّى إذا كان العالم مجموعة هائلة من الموجودات الكثيرة فإن البرهان لا يتزلزل موقفه ، والآن نتساءل : ما هو المقصود من النظام الواحد ؟

مقصودنا منه أنّ أجزاء هذا العالم ـ إذا اعتبرناه عالماً واحداً وله أجزاء ـ يسيطر عليها نظام واحد ، وحتى إذا اعتبرنا العالم متعدداً ـ أي مركباً من أنظمة مستقلة بحيث يتميز كل منها بوجود مستقل ولا تربطها رابطة عضوية ـ فإنه لا يمكن إنكار الوحدة في نظامه ، وهذا يعني أن العالم الذي نعرفه مخلوق بشكل لا تكون فيه موجودات مستقلة ومنعزلة عن بعضها ، فالواقع ـ مثلاً ـ يكذّب أن يكون لي أنا في هذا العالم وجود مستقل لا علاقة له بأيّ ظاهرة سابقة ، أو أنّ الموجودات المعاصرة لا علاقة لها بموجودات المستقبل ، إنّ العالم ليس مثل حبات الرّز المرصوفة إلى جانب بعضها في إناء واحد من دون أن تكون لأيّ منها علاقة بالأخرى ، انظروا إلى أجزاء هذا العالم ـ ولا نحتاج هنا إلى دراسة علمية دقيقة بل تكفينا النظرة السطحية ـ انظروا إلى شجيرة الورد هذه (المغروسة) في المزهرّية ، وإلى تلك الشجرة الباسقة في البستان ، وإلى ذلك الطفل الوادع في مهده ، وإلى كلّ الأشياء المتناثرة فيما حولكم ، انظروا إليها كيف تجيء إلى الوجود ؟ هل تبقى شجيرة الورد هذه خضراء إذا لم تمدّ بالماء ؟ إذن بقاؤها منوط بما تعطاه من ماء ، وبدون الماء لا تستمرّ خضرتها ، ولا يمكن أن توجد هذه الوردة إذا لم توضع في الأرض بذرتها أو يغرس فسيلها . إذن لا بدّ أن يكون لدينا قبل ذلك فسيل أو بذور نزرعها حتى تتفتح لنا هذه الوردة ، ومعنى هذا أنها مرتبطة بالظاهرة المتقدّمة عليها وليست منعزلة عنها . وتستفيد هذه الوردة من الهواء المحيط بها فتتنفس الأوكسجين ، أو تأخذ ثاني أوكسيد الكاربون

الموجود في الجو ، ولو لم تكن هذه لما استطاعت هذه الوردة أن تواصل حياتها ، وهي بدورها تؤثّر في تغيير الهواء ، أي أنها تعدّل نسبة الغازات ، فإن أخذت الأوكسجين فإنّ نسبته سوف تقلّ وإن أخذت غازات أخرى فسوف ترتفع نسبة الأوكسجين . إذن هي مرتبطة بالهواء المحيط بها ، فلا الهواء مستقل عن شجيرة الورد ولا هذه مستقلة عن الهواء .

ولنتّجه نحو الحيوانات ، فهذا الفرخ الذي فقس البيضة وخرج منها . . هل جاء إلى الوجود من دون أم ومن دون بيضتها ؟ وهل له في حياته وحركته علاقة الفعل والانفعال والتفاعل مع ما يحيط به من أشياء أم لا ؟ إنه يتنفسّ أيضاً من الهواء ويأكل الطعام وهو بدوره يؤثّر في بيئته ، ويؤدي هذا بالتالي إلى أن يضع البيض لتخرج منه أفراخ المستقبل ، إذن له علاقة الفعل والانفعال بالموجودات المعاصرة له والمتقدّمة عليه واللاحقة له .

وحتى إذا يمّمنا وجوهنا نحو الموجودات غير الحية فسوف نلاحظ حصول الفعل والانفعالات الفيزيائية والكيميائية فيها ، فنحن إذا تأملنا في أيّ ظاهرة سوف نجد أنها قد وجدت نتيجة لما جرى في الظاهرة المتقدّمة عليها من فعل وانفعالات ، وهي بدورها تؤثّر في الظواهر المعاصرة لها ، وتكون مادة لوجود الظواهر اللاحقة لها. إن هذا النظام يسيطر على العالم كله ، وهو نظام الارتباط والتفاعل ، التأثير والتأثّر ،وهذا أمر لا يحتاج إلى برهان فلسفي ليثبت لنا أن نظام العالم واحد ، فكل واحد منا ـ وبمقدار ما يملك من معلومات ـ يستطيع أن يدرك هذا اللون من وحدة النظام والارتباط والتعلق ، ومن البديهي فإنه كلما ازدادت معلوماتنا دقة فنحن سوف ندرك عمق هذا الارتباط بشكل أعظم ، وإلّا فإن النظرة السطحية تؤدّي بنا إلى إدراكه إلى حدّ بعيد .

أما إذا قال أحد بأن في هذا العالم أنظمة مختلفة ، وكل واحد منها يتميز بارتباط عضوي داخل دائرته ، ولكنه لا يوجد مثل هذا الارتباط بين نظام وآخر ، فنحن نقول إنها فرضية من جملة الفرضيات في الأنظمة ، ولا نريد أن نناقش فيها هنا ، ولكننا حتى إذا اعتبرنا هذه الأنظمة مستقلة عن بعضها فنحن

نلاحظ بينها مثل هذه العلاقات بحيث يمكن إدراجها في نظام أشمل ، أي أنّ فرض الأنظمة الجزئية لا ينافي أن تكون جميعها أعضاء في نظام كلي ، وذلك النظام الكلي هو الذي يجعل كل ظواهر هذا العالم مشمولة لقانون التأثير والتأثر ببعضها ، وهذا أمر واضح يستطيع كل واحد منا أن يتقبله ببساطة بمقدار ما عنده من ذكاء ومعلومات .

والآن إذا كان لكلّ واحد من هذه الأنظمةالموجودة في عالمنا إله ، فماذا يعني الإله ؟ إنه يعني ذلك الموجود الذي أخذ هذا المخلوق وجوده منه ، وجميع حاجات هذا المخلوق تؤمّن بوساطة ذلك الإله . هذا هو معنى الإله ، لا سيّما إذا التفتنا إلى معناه في التوحيد الإسلامي ، حيث لا يكفي التوحيد في الخالقيّة بل لا بدّ من التوحيد في الربوبيّة ، إذن : الإله الذي يتجه إليه المسلم هو ذلك الموجود الموجِد للمخلوق ، والذي يكون وجود المخلوق بيده ، وهو الذي يوفّر لهذا المخلوق حاجاته ، وأما إذا كان غير ذلك بحيث احتاج المخلوق في تأمين ما يحتاج إلى أن يمدّ يده إلى غيره فهو إذن ليس إلهاً ، ولو كان إلهاً حقاً لوفّر للمخلوق كلّ ما يحتاج ، لأن وجوده بيد ذلك الإله ، وهذا المخلوق قائم به ، ولو كان لكل واحد من هذه الأنظمة الموجودة في العالم إله على حدة ، فإن ذلك يعني أنّ هذا الإله هو الذي يوجد ذلك النظام من دون حاجة إلى شيء آخر ، لأنه إله ذلك المخلوق ، وكونه إلهه يعني أنه أوجده وخلقه . إن هذا النظام الذي هو بيد هذا الإله كل أشيائه تكون من هذا الإله ، أي هو نظام مكتفٍ ذاتياً ، لا يحتاج إلى ما عداه ولا يحتاج إلى غير إلهه . ولا يعني فرض الإله والمخلوق إلاّ هذا ، فإذا خلق الإله موجوداً فإن جميع شؤون وجود هذا المخلوق تكون بيد إلهه ، وتؤمّن جميع حاجاته بوساطة ذلك الإله أو بوساطة المخلوقات التي يبدعها .

أمّا إذا فرضنا أن للعالم عدداً من الآلهة فلا بدّ أن تكون له عدة أنظمة ، كل واحد منها مكتف بذاته لا يحتاج إلى ما سواه ، فإذا كان لعالم الإنسان إله ولعالم الحيوانات إله آخر ولعالم النبات إله ثالث ولعالم الجمادات إله رابع ، فإنه يلزم منه أن يكون العالم الإنساني محتاجاً فقط إلى إلهه وما تنتجه يداه ، ويجب أن

لا تكون له أي علاقة بمخلوقات أيّ إله آخر ، فذلك نظام مستقل ومنفصل ، أي لا بدّ أن لا يستفيد من الهواء الذي خلقه إله آخر وهو تحت تصرفه وملك لذلك الإله ، ولا بدّ أن لا يكون هذا العالم الإنساني محتاجاً إلى ما وراء ذاته ونظامه ، وكل ارتباطات وجوده لا بدّ أن تكون مع إلهه ومع الأشياء التي جعلها إلهه واسطة بينه وبينه ، ويجب أن يكون مستغنياً عن الأنظمة الأخرى . لو فرضنا عالماً له مثل هذه الأنظمة أيكون مؤهّلاً للاستمرار ؟ افرضوا أننا خُلقنا بشكل مستقل من قبل إله معين لا علاقه له بإله الأرض أو السماء أو الهواء ، أيمكننا أن نواصل الحياة من دون ماء أو من دون هواء وقد فرضنا أن هذه الموجودات من إله آخر وجزء نظام آخر منفصل عنا ؟ نعم لو كنا نستطيع الحياة مستقلين من دون أن نحتاج لذلك الإله الآخر ومخلوقاته لأمكن القول إنّ لنا إلهاً تتبعه مخلوقاته ، وإنّ لتلك الموجودات إلهاً آخر يسيطر على مخلوقاته ، ولكنّ العالم ليس بهذا النحو ، فنحن نرى أنّ أيّ موجود وأيّ نظام لا يمكن أن يوجد من دون ارتباط بالموجودات الأخرى ، وحتى إذا وجد فإنه لا يستطيع أن يستمر . وحتى إذا فرضنا أن هذا الإله قد أوجد الإنسان من دون مادة ترابية ومن دون نطفة فإن هذا الإنسان لا بدّ أن يتنفسّ ويتغذىّ ، ولا بدّ أن يستفيد من الماء والنبات ولحم الحيوانات ، وإن لم يفعل فالموت ينتظره :

« لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا » .

لو فرضنا أنّ لهذا العالم أنظمة متعدّدة ، وكان لكلّ واحد منها إله مستقل لانفرط نظام هذا العالم ، ولما استطاع الاستمرار ، ولكننا نلاحظ أن هذه الموجودات لا يمكن أن تتحقق بدون احتياج للموجودات الأخرى ، ولا تستطيع الاستمرار في وجودها مستقلة لأنها تفسد عندئذ وتتبعثر ، إذن وحدة النظام هذه المنبثّة في العالم واضحة يستطيع الجميع إدراكها ، وصحيح أن مستوى الإدراك يختلف ، ولكنّ الجميع يدرك أنّ أجزاء هذا العالم مرتبطة ببعضها وليست منعزلة عنها ، وأن هناك نظاماً واحداً يحكم العالم كله ، وهذا يعني أن اليد التي تسيّر العالم هي يد واحدة تربط هذه جميعاً ببعضها وتديرها . ولو كانت هناك أيد مستقلة بحيث تريد كل واحدة منها أن تدير العالم ـ كما هو مقتضى

الربوبية ، فربّ أيّ شيء هو الذي يربّي مربوبه بيده ويدير شؤونه مستقلاً ـ لتبعثر هذا العالم وانفرط نظامه ، ولكننا نلاحظ أن النظام الواحد مستقر والفساد فيه غير موجود ، أي أنه لا يفنى ، لا أنه يوجد أساساً ، فنحن الذين لم نكن ، كيف وجدنا ؟ وبعد أن وجدنا كيف لا نفنى ؟ إذن يعرف من هذا أنّ من بيده شؤون هذا العالم وهو يدبّره ويربيه ويربط أجزاءه ببعضها إنما هو إله واحد لكي يوجد نظاماً واحداً .

هذا التقريب هو الذي نراه منسجماً مع الآية الكريمة ، ولست أنا المبتدع له ، وإنّما المبتكر له هو العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي ـ صاحب كتاب تفسير الميزان ـ رضوان الله عليه ، ولعلّ أسلوب بيانه يختلف قليلاً أما أصل الموضوع فإنه عائد إليه ، وهو أكثر ملاءمة للآية الكريمة ، لأن التالي الفاسد في الآية هو الفساد وليس العدم كما مرّ معنا . ويتميز هذا التقريب بشيء آخر وهو أن أقصى ما يثبته برهان التمانع الذي يقيمه الفلاسفة هو أنه ليس لدينا خالقان وموجدان ولا أكثر من ذلك ، أي أنه يستطيع فقط إثبات التوحيد في وجوب الوجود ، والحد الأقصى في الخالقية ، فهو يقول لو كان للعالم إلهان ، وبالتعبير الفلسفي علّتان مانِحتان للوجود فهو لا يوجد ، أي أن إلهين لا يمكن أن يوجدا عالماً واحداً ، فالعالم الواحد يحتاج إلى إله واحد ، ولو كان هناك إلهان للزم أن يصبح لدينا عالمان .

اذن ثمرة برهان التمانع هي إثبات وحدة الخالق ، أما برهاننا فهو علاوة على إثباته الوحدة في الخالقية فإنه يثبت الوحدة في الربوبية ، فليس فقط أصل الوجود لم يأت من إلهين وإنما تدبير شؤون هذا العالم أيضاً ليس في يد إلهين .

ويكون التأكيد في هذا التقريب على تدبير العالم ونظامه ، أي أنه علاوة على التوحيد في وجوب الوجود والخالقية يثبت أيضاً التوحيد في الربوبية والألوهية ، ومعنى إثبات الإله الواحد هو أنه لا يوجد خالق ولا ربّ ولا معبود سوى الله ، ولهذا قال تعالى :

« لو كان فيهما آلهة إلاّ الله »

ولم يقل : « لو كان فيهما خالقون إلا الله »
ولا قال : « لو كان فيهما أرباب إلا الله »

لأن هذه لا ترتفع إلى حد نصاب التوحيد الإسلامي ، أما تقريبنا فقد أثبت لنا وحدة الربوبية إلى هنا ، فكيف نستفيد وحدة الألوهية ، أي أنه لا أحد يليق للعبادة سوى الله حتى نكمل نصاب توحيدنا ؟

في أحاديثنا السابقة عن العلاقة بين الربوبية والألوهية بينا أن اللائق للعبادة هو المالك لأمور العابد ، فالذي يريد أن يعبد لا بد أن يكون معتقداً بأن معبوده سيده ومالكه ، حتى تتجلّى هذه العقيدة في مقام العمل بإظهار العبودية والاعتراف بالعجز والتذلّل أمامه ، إذن لا بدّ أن يكون المعبود عزيزاً مالكاً سيداً حتى يصبح الإنسان إزاءه ذليلاً عبداً مملوكاً ، ويظهر هذه المشاعر في شكل العبادة ، ومن لا يكون ربّاً فهو ليس مؤهلاً للعبادة . وعندما يثبت أنه لا رب للعالم والإنسان سوى الله فقد ثبت أنه ليس هناك غيره من يستحق العبادة ، لأنه كل من يريد أن يعبد لا بدّ أن يتمتع بالربوبية ، ولا يوجد من يتميز بها سوى الله ، إذن لا يوجد غيره من هو أهل للعبادة . وعندئذٍ يكمل نصاب التوحيد الإسلامي المتضمنّ في « لا إله إلّا الله » .

وفي القرآن آيات أخرى تثبت التوحيد بطريقة ما ، منها مثلاً قوله تعالى :

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم ﴾[1] .

بعضهم يقول بأنّ في هذه الآية إشارة إلى برهان التوحيد ، ولكني لا أريد أن اعتمد على هذه الجهة وإنما أقول : تتضمن هذه الآية ذكر المدّعى ، أي أن القرآن يقول إن إلهكم واحد وهو الله ، وهذا يعني أنه ليس لكم من معبود سواه ، وجملة « لا إله إلا هو » تأكيد للموضوع نفسه . أما ما هي مناسبة ذكر « الرحمن الرحيم » في هذا المجال ، فتوجد في تفسير ذلك ملاحظات دقيقة لسنا هنا بصدد ذكرها ، ولكنه يمكن القول إنّ صفة الرحمن تشير غالباً إلى ناحية

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٣ .

الإيجاد والربوبية التكوينية ، أمـا الرحيم فهي تتعلق بنضـج وتكامـل الإنسان المعنوي في ظل الربوبية التشريعية . وعلى هذا نجمل مـدّعى الآية في أنـه لا معبود ولا إله سوى الله ، وهو الرحمن الذي يمنح الوجود ، وهو الرحيم الذي يوصل من يسير في طريق عبوديته إلى كماله وسعادته اللائقة به ، ثم بعد هذا يأتي قوله تعالى :

﴿ إنّ في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعـد موتهـا وبثّ فيها من كـل دابةٍ وتصـريف الريـاح ، والسحـاب المسخّرِ بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

بعد أن ذكر تعالى المدّعى يقـول : إذا تأملتم في هـذه الظواهـر فسوف تجدون فيها دلالات على هذا المدّعى ، وهذه أمامكم علامات على توحيد الله . أمّا كيفية الاستدلال بهذه الآية فهي مشروحة بالتفصيل في « تفسير الميزان » عند تناوله هذه الآية الكـريمة ، وسـوف أشير هنـا إشارة سـريعة إلى بعض وجـوه الاستـدلال : إنّكم إذا نظرتم إلى العـالم فسوف تجـدون سـماءً وأرضـاً وقمـراً وشمساً ، ونتيجة لدوران الأرض يحدث الليل والنهار ، ولكنّ حـدوثهما ليس منقطع الصلة بالشمس ، فلو دارت الأرض ألف مرّة ولم تكن لدينا شمس فإنّ النهار لا يأتي ، وهكذا كل الظواهر الجويّة والأرضيـة مرتّبـة بشكل تكـون فيه مـرتبطة ببعضهـا ، فهـذه الحـركـات تؤدي إلى سـطوع الشمس عـلى البحـار والمحيطات ، فيتعالى منها البخار ويتكثف ليصبـح سحابـاً ، وبفعل العـوامل الطبيعية يتحوّل السحاب إلى قطرات مطر تنـزل إلى الأرض فينمو النبـات بها ويعيش الحيوان . إنها ظواهر مترابطة متعانقة ، لا السماء منفصلة عن الأرض ولا الأرض منقطعة عن السماء، وكذا الحال بالنسبة للظواهر الأرضية فيما بينها .

إذا لاحظتم مجموع هذه الظواهر فسوف تجدون نظاماً منسجماً مترابطاً ، وأينما ولّيتم وجوهكم فثمّ الوحدة والنظام . ومثل هذا العالم لا يمكن أن يكون

---

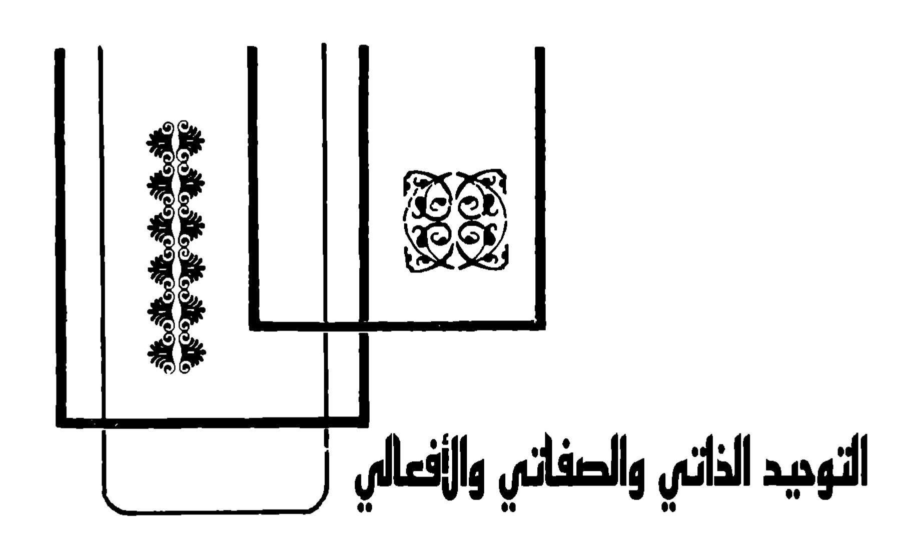
(١) سورة البقرة : الآية ١٦٤ .

له عدة آلهة أو عدّة خالقين أو عدة مدبّرين ، لأن ظواهره مرتبطة ببعضها في وجودها ، فخالق الإنسان هو الذي خلق التراب والأب والأم والنطفة من أجل أن يخرج الإنسان ، ولا يمكن القول إن للتراب خالقاً على حدة وللأب والأم خالقاً آخر ، ولهذا الوليد خالقاً ثالثاً ، كلا ، إنّه نظام واحد مترابط . ولا يمكن القول إن للشمس خالقاً ، وللماء خالقاً آخر ينزله من السماء . ما هي حقيقة إنزال المطر من السماء ؟ ليست هي إلّا إشراقة الشمس على مياة البحار فتتبخر وتتصاعد حتى تصل إلى آفاق باردة يتحول فيها البخار إلى ماء في ظل ظروف معينة . أليس هذا نتيجة لتأثير الشمس وسائر العوامل الأخرى ؟ إذن من خلق هذه الشمس وتلك العوامل هو نفسه الذي أنزل هذا الماء من السماء ، إنه نظام واحد يكذّب من يقول إن للشمس ربّاً وللمطر ربّاً آخر . إنّ من يحرّك الريح هو نفسه الذي يحرّك سفنكم في البحار ، ولا سيما تلك السفن التي كانت تعتمد على دفع الهواء لها في تلك العصور الغابرة ، أما الآن فلدينا بواخر أخرى تسيطر عليها عوامل أخرى ، ولكنها جميعاً تعود بالتالي إلى القوانين الطبيعية ، فعندما يستغلها الإنسان تتكاثر لديه المخترعات والمصنوعات . إن هذه القوانين قد جعلها الله ، وهذه العلاقات قد نظمها هو .

إن الذي خلق مادة هذا العالم وخلق إنسانه هو الذي خلق طائرته ، والذي خلق الفلزّات لكي تصنع منها الطائرات ، وخلق العقل الذي يستطيع إخراجها بهذا الشكل هو الخالق للطائرة ، فالعالم كله من خلق الله ، إمّا مباشرة وإمّا بوساطة مخلوقاته ، الباخرة والطائرة خلقهما الله أيضاً ، ولكن بوساطة هذا العقل ووجود العناصر والقوانين الطبيعية ، ولا يصحّ القول بأن الخالق للطائرة هو غير خالق الإنسان والعناصر الطبيعية ، لأن هذه الطائرة لا يمكن أن تصنع من دون هذا العقل الإنساني وهذه العناصر الطبيعية .

فالنظام واحد ، والتأمل في ظواهر العالم يقود الإنسان إلى الإيمان بأنّ للعالم إلهاً واحداً .

* * *



التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي

لهذا البحث مقدّمة لا بدّ من الإشارة إليها : وهي أن هذه المصطلحات الثلاثة تستعمل عند طائفتين في معانٍ خاصة ، فالفلاسفة والمتكلمون يصطلحون عليها بشكل ، والعرفاء يصطلحون عليها بشكل آخر ، فالمعاني المقصودة من هذه التعبيرات تتفاوت بين هاتين الطائفتين . ونبدأ أولاً بالإشارة إلى اصطلاحات المتكلمين والفلاسفة ، فهم يقصدون من التوحيد الذاتي الاعتقاد بأنّ ذات الله تعالى واحدة وليس له شريك في ذاته ، فلا تركيب في أعماق ذاته ولا وجود لإله آخر خارجٍ عن ذاته ، إن ذاته بسيطة لا تتركب من أجزاء وأعضاء ، وهو تعالى واحد بلا شريك .

أما التوحيد الصفاتي في اصطلاحهم فهو يعني أن الصفات التي ننسبها إلى الله تعالى ليست شيئاً مغايراً لذاته ، فهي ليست موجودات خارجة عن الذات ، ثم تلحق بها وتتصل معها كما يجري في صفات المخلوقين ، فلكي يتصف جسم أسود بالبياض لا بدّ من إضافة صبغة له حتى يصبح أبيض ، وهكذا الأمر في الصفات النفسية ، فالإنسان الحزين لا بدّ من إضافة حالة الفرح إليه حتى يغدو فرحاً ، والشخص الذي لا إرادة له لا بدّ من إضافة الإرادة إلى ذاته حتى يكون مريداً ، إذن هناك ذات تفتقد الإرادة ثم تنضمّ إليها

إرادة انضماماً يناسب مع النفس والأشياء المجرّدة وعندئذٍ تصبح واجدة لشيء كانت تفتقده من قبل ، ومن هذا يعلم أن النفس بذاتها شيء والإرادة شيء آخر . لقد كانت نفس الإنسان ولم تكن معها الإرادة ، ثم تحقّقت الإرادة وأصبحت النفس ذات إرادة ، فاتّصاف النفس بالإرادة لا يتحقق ما لم يضَف شيء غير النفس إليها . والصفات التي نعرفها في الأجسام وغير الأجسام كالصفات النفسية كلها من هذا القبيل ، أي أن الصفة فيها مغايرة للذات .

فهل هذا جار حتى في ذات الله تعالى ؟

أي هل أن ذات الله ـ مثلاً ـ شيء وعلمه شيء آخر بحيث إذا قطعنا النظر عن العلم فالذات نفسها فاقدة للعلم ؟

وهل قدرة الله أمر مغاير لذاته ، فالذات بنفسها وبغضّ النظر عن القدرة تكون مجرّدة عن القدرة ، والقدرة شيء يضاف إلى الذات وعندئذٍ نستطيع القول إن الله قادر ؟

هل هذا هو الحق ؟

ينقل عن بعض طوائف أهل التسنن (الأشاعرة) قولهم إنّ صفات الله غير ذاته، فالله بنفسه حقيقة ولها سبع صفات تكون قائمة بالذات وليست هي عين الذات ، وهي كلها قديمة ، ومن هنا يقال إن الأشاعرة يقولون بالقدماء الثمانية ، أحدها ذات الله ، والباقي صفات الله .

وفي مقابل هذا القول الذي لا يتمتّع بالصحة توجد عقيدة سائر المفكّرين المسلمين من فلاسفة ومتكلمين ، حيث يقولون : إن صفات الله ليست سوى ذاته ، فهناك فقط ذات الله البسيطة ، وعقلنا هو الذي ينتزع من هذه الذات مفاهيم مختلفة ، فمنشأ جميع هذه المفاهيم هي الذات ، والعقل يظفر بها عندما ينظر إلى الذات من زوايا متعددة . إن هذه المفاهيم مأخوذة قبل ذلك من مكان آخر ، ولكن لمّا كانت هذه المفاهيم تحكي عن الكمال ، والعقل عندما ينظر يرى أن الله ليس فاقداً لأيّ كمال ، إذن يقول إنه يتمتّع بهذا الكمال أيضاً ، وهذا الكمال ليس شيئاً غير الذات . نحن ندرك مفهوم العلم ابتداء في أنفسنا

ثم نتساءل : هل يمكن أن يكون خالق هذا العالم غير عالم ؟ من المستحيل أن يخلق من لا علم له ولا وعي مثل هذا العالم الدالّ على الحكمة ، إذن نقول : الله عالم أو حكيم . ونحن نحصل على هذه المفاهيم في البدء من أنفسنا ، ولكنّنا ننسبها إلى الله لأنه تعالى ليس فاقداً لأيّ كمال ، إذن ليس يوجد شيء يصلح ليكون منشأً لانتزاع هذه المفاهيم سوى الذات الإلهية المقدّسة ، والعلم ليس شيئاً منفصلاً ثم يتّصل بذات الله أو يضاف إليها أو يتّحد بها ، وإنّما توجد الذات الإلهية البسيطة فحسب ، والعقل هو الذي ينسب هذه المفاهيم إليها .

إن هذا القول - بكون الصفات الإلهية ليست شيئاً سوى الذات - يصطلح عليه عند الفلاسفة والمتكلمين بالتوحيد الصفاتي ، ولعلّ هذا هو ما تشير إليه إحدى خطب الإمام علي (ع) في نهج البلاغة حول « نفي الصفات »[1] . فالتوحيد لا يكمل إلا إذا نفينا عن ذاته الصفات المغايرة لها ، كالعلم الخارج عن الذات ، فلا بدّ أن لا ننسب لله العلم المغاير لذاته ، وإلاّ فالتوحيد ناقص ، لأننا قد قلنا حينئذٍ بلونٍ من التعدّد : فهناك ذات الله ، وهناك علمه وقدرته وحياته وهكذا . . .

ويتلخّص من هذا أن التوحيد الصفاتي عند الفلاسفة والمتكلمين يعني أن الله تعالى ليس له صفات زائدة على ذاته .

أما التوحيد الأفعالي عندهم فهو يعني أن الأفعال التي يقوم بها الله سبحانه لا يحتاج في أدائها إلى مساعد ولا إلى معين ، إنه مستقل ومتفرّد في أداء أي فعل منها . ويقف هذا القول في مقابل المشركين والمنحرفين القائلين إن الله لا يستطيع أن يؤدّي عملاً ما لم توجد أشياء أخرى أو أشخاص آخرون ، والأعمال التي يريد القيام بها لا تتمّ إلاّ إذا استعان بالآخرين .

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى ملاحظة دقيقة وهي : يوجد فرق كبير بين أن نقول : يؤدّي الله أفعاله بوساطة الأسباب ولكنها الأسباب التي يخلقها هو ، وأن

(١) نهج البلاغة : الخطبة الأولى ص ٣٩ ، تحقيق الدكتور صبحي الصالح .

نقـول : لا يستطيـع الله أن يؤدّي عمـلاً من دون الأسبـاب ، هـذان قـولان مختلفان ، وسوف يتضـح في البحوث الـلاحقة إن شـاء الله الفرق بـين هذين التعبيرين .

تبينّ لنا أن المقصود من التوحيد الأفعالي حسب اصـطلاح أهل الكـلام والمعقول هو أنّ أداء الأفعال الإلهية ليس بحـاجة إلى معـين أو مساعـد خارج الـذات المقدّسـة ، وإذا صادفنـا عملاً يتمّ أداؤه بـوساطـة الأسباب فـإن هذه الأسباب أيضاً يخلقها الله ويجعلها سبباً ، لا أن الله محتاج إلى أسباب خارجة عن ذاته ، كلاّ ، ليس الأمـر كذلـك ، أفعال الله لا تحتـاج إلى غيره ، وإذا كـان الفعل بشكل لا ينجز إلا عن طريق السبب فإن ذلك السبب يخلقـه الله أيضاً ويجعله سبباً .

ويوجد اصطلاح آخر عند بعض الفلاسفـة المسلمين حيث يقـولون : « توحيد الفعـل » ، ويقصدون من هـذا التعبير أن جميـع مخلوقات الله تـرتبط بعضها ارتباطاً وجوديّاً حيث تشكّل بمجموعها أمراً واحداً ، فنلاحظ الوحـدة بين جميع مراتب الوجود . ولمّا كان العالم ـ في هذه النظرة ـ شيئاً واحداً فالفعل الذي يؤدّى من قبل الله هو إيجاد هذا العالم الواحد ، وفي الحقيقة فإن الله لم يؤدّ إلاّ فعلاً واحداً ليس غير وهو إيجاد العالم بجميع تفاصيله وفي أبعاده المختلفة ، حيث مدّه الله على بساط الزمان ، ولا يعني هذا أن الله خلق العالم في لحظة ثم تركه يواصل مسيره حتى النهاية بشكل ذاتي ، بـل المقصود أن هـذا العالم كـما تكون له أبعاد متضامّة مجتمعة مع بعضها (له طول وعرض وسمك) يكون له بعد زماني أيضاً ، وهذا البعد الزماني واحد من أبعاد هذا الموجود ، فإذا نظرنا إلى هذا العالم بهذا البعد الممتدّ على بساط الزمان وجدناه شيئاً واحداً ، وإيجاد هذا الشيء عندئذ لا يكون واقعاً في زمان ، إن الزمان ظرف للعالم وليس ظرفاً لله . هذا العالم مع زمانه من الذي خلقه ؟ خلقه الله . في أيّ زمان ؟ ليس لهذا زمان . إن علاقة العالم بجميع ظواهره على طول الزمان علاقة وجودية بالله ، ولكنّ هذه العلاقة ليست حالة في ظرف الزمان ، كما أنها ليست واقعة في ظرف المكـان ، أيصحّ أن نسـأل : في أيّ مكان خلق الله العـالم ، مكان العـالم مع

العالم ، فعندما يخلق العالم يوجد معه المكان ، وليس صحيحاً أن يقال : في أيّ مكان خلق الله العالم ؟ وإذا قلنا:« المكان » شيء خلقـه الله أولاً ثم خلق فيه العالم يواجهنا هذا السؤال : وفي أيّ مكان خلق ذلك المكان ؟ افرضوا أن الله يخلق فضاء خالياً وبعد ذلك يخلق العالم فيه ، هنا يثار هذا السؤال : وأين خلق هذا الفضاء ؟ لا بدّ أن نصل بالتالي إلى شيء لا يصحّ فيه السؤال : أين خلق هذا ؟

المكان تابع للمخلوق نفسه ، وقبـل المخلوق لم يكن « مكان » ولم يكن « زمان » ، إنهما من شؤون هذا العالم ، كما أن طوله وعرضه وسمكه من شؤونه أيضاً ، فليس صحيحاً أن نتصوّر كون الله قد خلق العالم أولاً ثم أضفى عليه الطول كلاّ ، إن العالم الماديّ يعني الشيء الـذي له طـول ، ولا يصحّ أيضـاً القول إن الله خلق العالم ثم زوّده بالعرض أو السمـك ، لأنّ العالم المـاديّ لا يتحقق بدون الطول والعرض والعمق . وكذا لا يمكن أن يوجد العالم من دون زمان ، إذن الزمان والمكان مثل الحجم وسائر الأبعاد هي من شؤون هذا العالم وليست أمراً خارجاً عنه ، فمجموع العالم بأبعاده المكانية والزمانية شيء واحد ، والله سبحانه أوجد هذا الشيء الواحد ، وقد طبّقوا الآية الشريفة القائلة :

﴿ وما أمرُنا إلاّ واحدةٌ ﴾[1] .

على هذا المعنى ، فنحن أمرناه مرة واحدة « كن » فكان وتحقق وجوده هذا هو التوحيد في الفعل عند طائفة من الفـلاسفة المسلمـين ، وهو يعني أنّ هناك فعلاً واحداً فحسب ، وكل هذه الأفعال ناشئة من فعل واحد ، فهو فعل واحد يتجلّى في صور متنوّعـة في أمكنة متعـددة وأزمنة متفـاوتة ، وجميـع هذه مظاهر وشؤون لفعل واحد .

هذه المصطلحات هي لأهل المعقـول ، أي لهؤلاء الذين يعتمـدون على الدراسة النظرية ويريدون إثبات شيء عن طريق العقل .

وهناك مصطلحات تخصّ العرفاء ، وهم الذين يسلكون سبيل تهـذيب

---

(١) سورة القمر : الاية ٥٠ .

النفس وتصفية الباطن وصقل الروح من أجل أن تصبح أرواحهم مستعدة لإدراك الحقائق بالذوق والشهود ، لا بالعلم والدراسة ، وهم يتجشّمون هذه الأتعاب ويتحمّلون القيام بهذه الرياضات حتى يظفروا بالعلم الشهودي ، وحينئذ يرون الحقائق ، لا أنهم يعلمون بها ، أمّا من هو العارف الحقيقي فتلك مسألة أخرى ، ومن الطبيعي أن يتنافس الكثيرون على الانتساب إلى الشيء النفيس ، ولعلّ الأدعياء الكاذبين أكثر من أهل العرفان الواقعيين . وعلى كل حال فالذين يجدون الحقائق ويرونها عن طريق التزكية الباطنية تسمى معرفتهم بالعرفانية ، أو الشهودية ، أو العلم الحضوري ، ولهم أحاديث تتعلق بما يجدونه ، وحقيقة العرفان هي المعرفة القلبية ، أما هذه الأحاديث فهي في الواقع قوالب لما يجدونه ، وإشارات لما يذوقونه ، وإلاّ فإنّ الألفاظ قاصرة عن تبيين حقيقة ما يدركه العارف بقلبه ، لأنّ ما يدركه فوق هذا العالم المحدود المليء بالضيق والتزاحم ، وعندما يريدون إفراغ ما لديهم في قوالب الألفاظ فإنهم يستعملون بعض الاصطلاحات . وينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أننا لسنا بصدد تعيين المصداق الحقيقي للعارف ، فهل كل واحد يستعمل الاصطلاحات العرفانية هو عارف أم أنه متظاهر بالعرفان ؟ أي قد اقتبس أشياء من الآخرين بتكلّف ثمّ نسبها إلى نفسه ، وأغلب المدّعين للعرفان هم من هذا القبيل ، لم يجدوا هم في أنفسهم شيئاً ، بل سمعوا أشياء من الآخرين أعجبتهم فقبلوها ، ثمّ استعملوا هذه الألفاظ للدلالة عليها ، ولا يعلم من هذا أنهم قد ذاقوها أم هم يردّدون ألفاظها فقط . أما نحن فنعتقد أنّ العارفين الحقيقيين هم الأنبياء والأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ومن ربّته أيديهم ، والأشخاص الآخرون هل وصلوا إلى حقيقة العرفان الواقعي أم لا ؟إنه أمر ليس من اليسير معرفته إلا لمن نال درجات من العرفان ، فهو يعرف الشخص من خلال العلامات والآثار ، أو بوساطة الاتّصال النفسي ، ولكنّ أغلب الناس لا يستطيعون أن يفهموا أن هذا الذي يتحدّث بالعرفان هل هو قد وجد شيئاً أم استعار ألفاظ الآخرين وردّدها ؟

العارفون الحقيقيون يستعملون ثلاثة اصطلاحات لتوضيح ما وجدوه في مجال التوحيد ، وهي: التوحيد في الأفعال ، والتوحيد في الصفات ، والتوحيد

الذاتي ، وقد لاحظنا فيما مضى أن الفلاسفة عندما يشرحون هذه الاصطلاحات فإنهم يبدأون من التوحيد الذاتي ، ويقولون لا بدّ لنا أولاً من الاعتقاد بأن ذات الله واحدة ، ثم ينتقلون إلى التوحيد في الصفات ، فيرون لزوم الاعتقاد بأنه ليست هناك صفات زائدة على الذات ، وبعد ذلك ينتهون إلى التوحيد في الأفعال ، فيصرّحون بأن الله تعالى لا يحتاج في أفعاله إلى معين ولا إلى مساعد . ولكنّ العرفاء لا يسلكون هذا السبيل لأنهم يبينون الموضوع حسب السير الإنساني ، فيبدأون بالتوحيد في الأفعال أي أن الإنسان خلال سيره نحو الله يكتشف أولاً التوحيد في الأفعال ، فإذا تكاملت معرفته أكثر أصبح مؤهّلاً لإدراك التوحيد في الصفات ، وآخر مرحلة يصل إليها العارف هي التوحيد الذاتي .

أما مقصودهم من التوحيد في الأفعال فهو أن الذين تصفو أرواحهم يدركون أنّ كل فعل هو فعل الله ، وكل الفاعلين عداه ليسوا سوى وسائل ، والذي يدير العالم من وراء ستار لأسباب ويخلق كل شيء في موضعه هو الله تعالى ، فيده حاضرة دائماً وفي كل مكان ، وأدنى ظاهرة تتحقق في العالم إنما يوجدها الله . وما هو دور الأسباب المادية ؟ إنها ليست إلاّ وسائل بيده . ونشبّه هذا تشبيهاً ناقصاً بالقلم الذي في يد الكاتب ، فهو يخطّ بالقلم ، ولكن الدور الأساسيّ يقوم به الكاتب نفسه ، والقلم وسيلة في يده .

ويعتقد العرفاء أن الإنسان بعد الإيمان بالله والإدمان على طاعته وعبادته يفاض عليه من قبل الله نور يدرك به ظواهر الكون بهذا الشكل ويجدها،لا أنه يعلم بها . إذن أوّل مرحلة يصلها الإنسان في التوحيد خلال صعوده هي التوحيد في الأفعال . ونحن نستطيع أن نصل إلى هذه الأمور بشكل أو بآخر عن طريق للدراسات الفلسفية ، وهي سبيل العلم بها ، أما هؤلاء فإنهم يشاهدون حقيقتها ويجدونها ، لا أنهم يعلمون بها .

توجد قصة معروفة لست أعلم مدى صحّتها تقول : التقى يوماً الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا بأبي سعيد أبي الخير ، ومن المعلوم أنّ ابن سينا كان فيلسوفاً ، أما أبو سعيد فقد كان عارفاً ، وبعد هذا اللقاء سأل الشيخ الرئيس

تلامذتُه ، كيف وجدت أبا سعيد أبا الخير؟ قال : ما نحن نعلمه هو يـراه . وسأل أبا سعيد تلامذتُه : كيف وجـدت ابن سينا ؟ قـال : ما نحن نـراه هو يعلمه .

وحتى إذا لم تكن هذه القصة صحيحة فإنها تجيد بيان الفرق الأساسي بين الفلسفة والعرفان ، فنتيجة الفلسفة العلم ، ونتيجة العرفان الحقيقي الشهـود والرؤية .

إن الإنسان عندما يتجاوز مجال معرفة نفسه ويضع أول قدم له في وادي التوحيد ، فأول مرحلة يدركها من التوحيد ويراها هي التوحيد في الأفعال .

وعندما يرتفع الإنسان على هذا المستوى ويواصل سيره في هذا السبيـل وتترّسخ أقدامه فيه فإنه يصل إلى التوحيد في الصفات وهو يختلف عن اصطلاح الفلاسفة . يقول العرفاء إن الإنسان يصل خلال مسيره التكاملي إلى مرحلة يجد فيها أن جميع صفات الكمال هي بالأصالة لله فقط . في المرحلة السابقة كـان يرى أن كل فعل هو من عند الله ، أما في هذه المرحلة فهـو يجد أن كـل صفة كمـالية هي لله ، فهـو يرى أن من عـدا الله في الحقيقـة لا علم لـه ، وعلوم الآخرين هي تجلّيات للعلم الإلهي وظلال له ، فالعلم الحقيقي مختصّ بالله ، والعلوم الأخرى ظلال باهتة من ذلك العلم اللانهائي . والقوة والقدرة في العالم لله تعالى أصالة ، ولكننا ننسبها للأشخاص والأشياء بالاستعارة ، إنها تجلّيات لقوة الله وقدرته تجلت في مظاهر خلقه ، وإلاّ فهي له أساساً .

ونحن لا نستطيع أن نفهم بوضوح مـا يدّعـونه ، فكلما ضغـطنا عـلى عقولنا لنفهم كيف يكون علمنا هـو علم الله فإننـا لا نستطيـع أن نفهم ذلك بوضوح ، وهؤلاء يدّعون أيضاً أن هذه الأمـور لا تدرك بـالعقل وإنمـا يجدهـا الإنسـان عندما تصفو روحه ، فهي أشياء تذاق ولا تسمع .

ومن لديه القدرة العقلية الكـافية والـذهنية الفلسفيـة المتمرّسـة والذوق العرفاني الرفيع يستطيع صياغة هذه المعاني العـرفانيـة في اصطلاحـات فلسفية رائعة ، ولكن مثل هذا قليل النظير .

ويختلف هذا عن التوحيد في الصفات عند الفلاسفة ، فهو عندهم يعني أن صفات الله ليست شيئاً زائداً على ذاته ، أما عند العرفاء فهو يعني أن أيّ صفة كمالية فهي أصالة لله ، وكل ما ينسب للآخرين من صفات الكمال فهي أشباح لصفات الله .

ويوجد في هذا المجال شعر ذو مضمون عرفاني :

رقّ الزجاج ورقّت الخمر   فتشاكلا وتشابه الأمر
فكأنّه خمر ولا قدح   وكأنها قدح ولا خمر

ويتوسّل الشعراء عادة بهذه الأمثال من خمر وقدح وغيرها ، ويدّعي العرفاء أن لكل واحد من هذه معنى خاصاً في الشعر العرفاني ، وهذه الألفاظ رموز فقط ، وقد أُلِّفت كتب لشرح هذه الاصطلاحات وتوضيح ما يقصد العارف مثلاً من الخمر والقدح وغيرهما . ومعنى البيتين هو : كان هناك خمر موضوع في قدح ، والقدح لطيف وشفّاف إلى حدٍّ لا يمكن وصفه ، وقد سكبت فيه الخمرة الصافية ، فمن ينظر من الخارج يخيّل إليه أنه يرى قدحاً أحمر فارغاً ، أو أنه يرى خمراً أحمر ليس موضوعاً في قدح . والواقع أن الخمر كان في القدح ، ولكنه كان شفافاً جدّاً بحيث لا يضفي على الخمرة لوناً ، وإنما لون الخمرة هو الذي يظهر من خلال القدح ، فكأنّ القدح خال من الخمر ، أو كأنّ الخمرة ليست في قدح .

ويشير هذان البيتان إلى أن صفات الله عندما تتجلى في مخلوقاته فكأنّها صفات المخلوقات وليست هي لله ، هذا إذا تخيلنا أن القدح فارغ من الخمر ، أما من يفهم ويعرف أن اللون للخمر فهو يلتفت إلى الخمر وكأنه لا وجود للقدح ، إنه لا يرى القدح ويرى لون الخمر فقط . والعارف يصل أحياناً إلى منزلة يرى فيها صفات الكمال بهذا الشكل ، فأينما رأى علماً فهو يراه علم الله قد تجلّى في هذا الظرف ، وكلما شاهد قوة أو قدرة فهو ينظر إليها على أساس أنها قوة الله أو قدرته تجلّت في هذا المظهر ، وهكذا سائر صفات الكمال .

بهذه الطريقة يفكّرون ويدّعون أن الظفر بهذه الحقائق لذيذ إلى حدّ أنه

يغرق الإنسان في الفرح والسرور ، ويخرجه من ذاته . ونحن نؤكّد أنّ ما انحدر إلينا من قبل الأنبياء والأئمة المعصومين سلام الله عليهم أجمعين في هذا المجال صحيح لا شك فيه ، ولكنّ ما يدّعيه الآخرون فإننا لا نستطيع قبوله باليقين ، ولا نستطيع أيضاً إنكاره ونفيه ، لأننّا لا علم لنا ببواطنهم ، نعم نستطيع أن نحدس من خلال آثارهم المتجلية في أعمالهم وسلوكهم هل أنهم صادقون في ادّعائهم أم لا ، وليس هذا الحدس مضمون الصحة تماماً . فإذا كان من يدّعي مثل هذا الشهود يتملّق الناس للحصول على أتفه الأشياء ، وتمتدّ يده مستجدية هذا وذاك ، هل نستطيع أن نصدّق أنه مؤمن بالتوحيد في الأفعال ، وأنه يرى الأفعال كلها من الله ؟ من تمتدّ يده نحو السلاطين وينطلق لسانه بمدحهم وثنائهم ويتملّق أتباعهم تملّقاً مخجلاً من أجل الحصول على فتات من الطعام أيمكن التصديق بأنه ينسب ـ حقيقة ـ إدارة العالم لله ؟

نعم يمكن تصديق ذلك ممّن وجد جانباً من حقائق العرفان وهو يقول : « والله لم أخش أحداً في عمري »[1] وقد أثبت طيلة عمره أنه لا يخاف غير الله ، عندما يذكر اسم الله عنده تتساقط دموعه ، ولكنه يتحدّث مع أعظم القوى العالمية وكأنه يتكلم مع صبي : « لا بد أن يسقط رئيس الجمهورية الفلاني » يطلقها ولا يخاف أحداً ، أما إذا وقف في محراب العبادة فإنه يرتعش ، ولكنه لا يتحرّك له ساكن إذا ما تعرّض للخطر ماله ووجوده وحياته ، ولا يعير هذا الأمر أية أهمية ، إنه صامد صموداً حيّر العالم بأجمعه ، مثل هذا الإنسان إذا ادّعى أنه قد وجد القدرة كلها في يد الله ، وليس الآخرون إلاّ وسائل فإنه يمكن قبول ذلك منه . أما من يدّعي أنه قد نال أرفع مراتب التوحيد ولكنه يستجدي هذا وذاك ، لا يمكن أن يصدّق أنه قد وصل إلى التوحيد .

وآخر مرحلة في التوحيد يصلها الإنسان عند العرفاء هي التوحيد الذاتي ، فهم يقولون إنّ الإنسان يحلّق في تكامله فيصل إلى أفق يرى فيه الوجود الحقيقي منحصراً بالله ، وكل ما يشاهده في عالم الوجود فهي تجلّيات لوجوده تعالى وظلال له ، وحتى التعبير بالظلال ليس صحيحاً ، ولكنه يستعمل لتقريب

---

(١) إشارة إلى كلام الإمام الخميني أدام الله ظله العالي .

المعنى للذهن . يقول العرفاء : عندما يصل الإنسان إلى أرفع درجات التوحيد فأي شيء يراه كأنه ينظر في مرآة قد تجلى فيها وجود الله تعالى ، وهذه الكثرة التي يراها في العالم عائدة إلى الكثرة في المـرآة حيث تكون المـرايا متعـددة ، والنور الذي يتجلى فيها جميعاً هو نور واحد ، والمرآة ليست نوراً وإنما هي عاكسة للنور الإلهي :

﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾[1] .

إنهم ينـظرون إلى العالم بعنـوان أنـه مـرآة تتجـلى فيهـا الـذات الإلهيـة المقدسة .

وليس من السهل ـ كما قلنا من قبل ـ إخراج المعاني التي يريدهـا هؤلاء الكبار في القوالب اللفظية والمفاهيم المتداولة ، ولكننا ننطلق من موقف حسن الظن مع من انكشفت لنا عقائدهم وتجلت لنا أخلاقهم الإسلاميـة وسلوكهم المطابق لموازين الشرع الحنيف ، فنقول إنهم لا يدّعون شيئاً لم يجدوه مما تحكيه هذه الألفاظ ، وإن كانت حكايـة قاصـرة . فمن سجّل في آثـاره أن الله ليس جسماً ولا يحلّ في جسم ، وهو ليس عين مخلوقاته عندما يقول : أنا لا أرى شيئاً سوى الله ، فإن ذلك لا يعني أنّ ما يراه من أشياء هي ذات الله ، وإنما معناه أننا نتملّى في هذه المرآة جمال محبوبنا .

ومن حقّنا أن نحسن الظنّ بمن كـانت حياتـه بأجمعهـا طاعـة وعبادة لله سبحانه ، ونؤوّل أحاديثهم بحيث تتضمن معاني رفيعة لا نستطيع فهمها عـلى حقيقتها .

أما الشخص المتحللّ الذي لا يلتزم بضابطة وهو يدّعي العرفان ، فنحن لا نستطيع أن نحسن الظن به ، وهذه المعرفة ليست شرعة لكل وارد ، وإنمـا هي محتاجة ـ لينـزف لها دم قلبـه ـ عشرات السنـين ، وهي تحتاج ـ كـما يقول بعضهم ـ إلى تحطيم الجبل بشعـر الأجفان . ومن تجشّم هـذا العناء في سبيـل معرفة الله وعبادته ، فلعلّ الله سبحانه يطلعـه على بعض الحقـائق التي يقصر

---

(١) سورة النور : الآية ٣٥ .

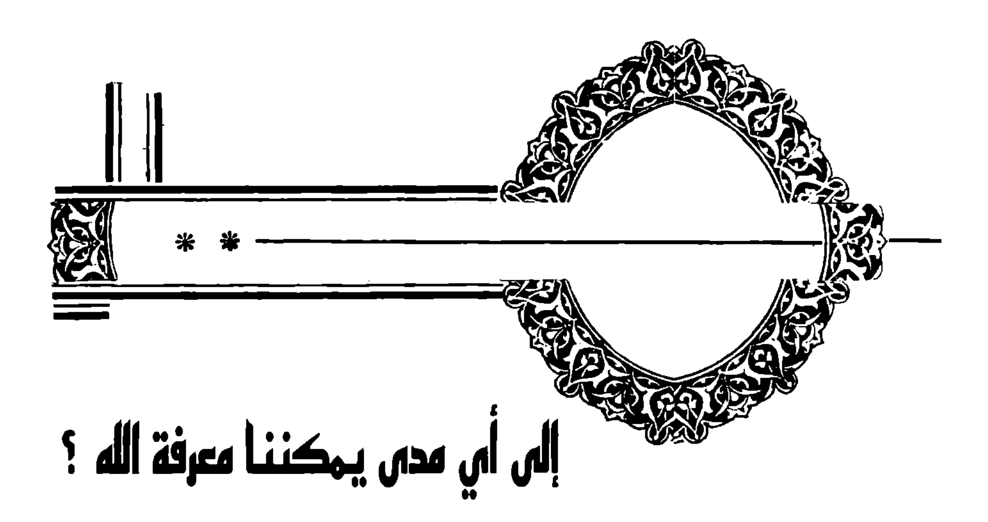
فهمنا عنها . وتؤيّد هذا الروايات التي تذكر أنه كان بين أصحاب النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) أشخاص لا يستطيعون أن يكشفوا كل ما لديهم لأقرب أصدقائهم ، ففي رواية مذكورة في أصول الكافي :

« لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لكفّره أو لقتله »[1] .

وقد كان أبو ذر وسلمان من كبار صحابة الرسول الكريم (ص) ، وكان إيمانهما متقارباً إلى حدّ أن النبي (ص) قد آخى بينهما يوم آخى بين المؤمنين ، ومع أن إيمانهما كان متقارباً فالرواية تقول إن معرفة سلمان كانت أرفع وأدّق ، بحيث لو أراد إعلانها لم يفهمها أبو ذر ، ولاستنبط منها معنى آخر ، ولتصور أنه كافر ! . . .



(١) الكافي .



إلى أي مدى يمكننا معرفة الله ؟

سبق لنا القول إن معرفة الله يمكن أن تتم بإحدى صورتين : إحداهما المعرفة الحضورية والأخرى المعرفة الحصولية الذهنية . وللمعرفة الحضورية مراتب من حيث الشدة والضعف والوضوح والخفاء،وكلما تكاملت النفس وارتفعت درجة تجرّدها وتركّز التفاتها ازدادت معرفتها الحضورية بالله تعالى. وصحيح أن للنفس قدرة على التكامل بشكل واسع ، ولكنها لا تحيط أبداً بالذات الإلهية ، وإنّما تشاهد بعض التجلّيات الإلهية بمقدار سعة وجودها .

وأما المعرفة الحصولية التي تكون بوساطة المفاهيم العقلية فلها مراتب مختلفة أيضاً ، وهي تتفاوت من حيث الدّقة ومن حيث تعدّد المفاهيم . وحتى إذا كان المفهوم دقيقاً ثريّاً فإنه لا يستطيع أبداً أن يعكس حقيقة الذات والصفات الإلهية . وليس هذا مقصوراً على هذا المجال ، وإنما كل مفهوم لا يمكن أن يعكس مصداقه بشكل كامل إلاّ إذا كان المتصوّر قد أدرك المصداق من قبلُ بالعلم الحضوري ، فالذي لم يجد مصداق « الحب » فكل توضيح لهذا المفهوم لا يمكن أن يوصل إلى مصداقه ، ولهذا كان العقل عاجزاً عن إدراك حقيقة الله لأن تعامله مع المفاهيم ، والمفهوم لا يبيّن حقيقة المصداق :

« إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار » .

والقلب وحده الذي يستطيع النفوذ إلى الساحة الإلهية باكتساب النور والطهارة فهو يتمتع عندئذ بالأنوار الإلهية بمقدار ظرفيته :

« ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان »[1] .

والذين نالوا شيئاً من مراتب المعرفة الحضورية يستطيعون ـ بمقدار معرفتهم ـ أن يجعلوا المفاهيم الذهنية حاكية عن المعرفة الشهودية .

والذين لم يظفروا حتّى الآن بالمعرفة الحضورية الواعية يستطيعون فقط أن يضمّوا عدة مفاهيم ذهنية إلى بعضها ليصوغوا عنواناً عقلياً ليس له مصداق خارجي سوى الله تعالى مثل : خالق العالم ، الكامل اللانهائي ، الغنيّ المطلق ، واجب الوجود بالذات . . .

وفائدة الدراسات الفلسفية والعقلية هي أنها تعدّ الذهن لتصوّر المفاهيم العقلية القابلة للإطلاق على الله تعالى بشكل أدق ، أما من لم يتمرّس عقله فهو يتلقى هذه المفاهيم بصورة مبهمة ، ومن هنا فهو يقع أحياناً في الخطأ والاشتباه عند التطبيق . ولكن الجهود العقلية والفلسفية لا تؤدّي بالتالي إلا إلى معرفة غيابية :

« إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته ، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه »[2].
وحتى المفاهيم الواردة في الآيات والروايات لا يستفاد منها أكثر من هذا ، لكنه باستطاعة المعرفة الذهنية أن تدفع القلب للالتفات إلى علاقته الوجودية بالله ، فتستيقظ معرفته الفطريّة وتتّضح تدريجياً . وليس من البعيد أن يكون أحد أهداف آيات التوحيد في القرآن هو إيقاظ الفطرة وإحياء المعرفة القلبية[3] ، وقد جرّب كبار أهل المعرفة هذه الفائدة القرآنية العظيمة ، ففي أثناء تلاوة القرآن مع حضور القلب ولا سيما في الأماكن المنعزلة عند منتصف الليل ظفروا بمشاهدات وانكشفت لهم حقائق .

---

(١) نهج البلاغة ـ تحقيق الدكتور صبحي الصالح ـ ص ٢٥٨ .

(٢) تحف العقول .

(٣) « ليستأدوهم ميثاق فطرته » (نهج البلاغة ص ٤٣ تحقيق الدكتور صبحي الصالح) .

وبالنسبة للمعرفة العقلية لله يوجد اتجاهان على حدّ الإفراط والتفريط :

أحدهما اتجاه أهل التشبيه الذين يستعملون في مورد الله تعالى حتى المفاهيم المتضمنة لمعاني النقص ، ويتمسّكون بروايات وآيات من المتشابهات من قبيل ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ و ﴿ وجاء ربك ﴾ .

وهذا الاتّجاه ـ علاوة على مخالفته للبراهين العقلية فإنه ـ يتنافى مع الآيات المحكمات مثل :

﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] .

والآيات المتشابهات لا بدّ من تفسيرها بالمحكمات ، كما يذكر ذلك في محله .

الاتّجاه الثاني هو اتّجاه أهل التنزيه المطلق ، وهم يعتقدون أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك أيّ مفهوم حول الله تعالى ، ونحن لا نفهم حتى معاني الألفاظ المستعملة في القرآن الكريم بالنسبة لأسماء الله وصفاته ، ويجوز لنا فقط استعمال أسماء الله وأوصافه الواردة في القرآن الكريم أثناء أدعيتنا أو محادثاتنا ، فنقول مثلاً : إن الله خالق ، رازق ، عالم ، حكيم ، ولكننا لا نفهم ماذا يعني علم الله أو قدرته . وأقصى ما يفهمه عقلنا هو أن الله ليس معدوماً ولا جاهلاً ولا عاجزاً ، أي لا يفهم عقلنا إلاّ معنى سلبياً ، وأما المعنى الإيجابي بالنسبة لوجوده وعلمه وقدرته تعالى فهو لا يستطيع أن يدركه .

ويؤدي هذا الاتّجاه إلى شلّ نشاط العقل في مجال معرفة الله ، وهو ناشيء من الخلط بين المفهوم والمصداق ، فالعقل الإنساني عاجز عن إدراك حقيقة وكنه الذات الإلهية ، بل هو لا يستطيع معرفة أي وجود عيني ، ولكن هذا لا يعني أنه لا يستطيع إدراك المفاهيم التي يصلح بعضها للإطلاق على الله تعالى .

وتتمسك هذه الفئة بآيات من قبيل :

---

(١) سورة الشورى : الآية ١١ .

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[1] .

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾[2] .

إنهم يقولون : ما تدركه عقولنا إنما هو أوصاف وأمثال ، وهذه الآيات تعتبر الله منزّهاً عن أمثال الناس وأوصافهم .

وغاب عن هؤلاء أن هذه الآيات في مقام ردّ تخرّصات المشركين وعبّاد الأصنام وسائر الكافرين ، كما يدلّ على ذلك سياقها في الآيات التي تسبقها والتي تلحقها ، ولا تدلّ على نفي مطلق الصفات التي يدركها العقل ، وهناك فقط آية واحدة توهم أنها تنزّه الله عن جميع الصفات التي يدركها عقل عامة الناس ، والمخلَصون (بفتح اللام) فقط - وهم الذين استخلصهم الله - يستطيعون وصفه بشكل صحيح ، وهذه الآية هي (١٦٠) من سورة الصافات ، وهي تأتي بعد آيات تنزّه الله سبحانه عن الصفات غير اللائقة التي ينسبها إليه المشركون يقول تعالى :

﴿ سبحان الله عما يصفون * إلّا عباد الله المخلَصين ﴾[3] .

وهم يستدلّون بها بهذا الشكل : صحيح أن سياق الكلام هو حول الصفات التي ينسبها المشركون لله تعالى ، ولكنّ هذا الاستثناء نوع من أنواع الاستثناء المنقطع ، وهو أبلغ من الاستثناء المتّصل في إفادة الحصر ، ومعناه عندئذ أن الله منزّه عن وصف أي واصف سوى وصف المخلَصين ، وعلى هذا يصبح عقل عامّة الناس عاجزاً عن إدراك صفاته .

ولرفع هذا التوهّم يمكن القول :

أولاً : إن الحصر الموجود في الآية الكريمة هو من ألوان حصر القلب ،

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٤ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٩١ .

(٣) سورة الصافات : الآيتان ١٥٩ ، ١٦٠ .

أي أن هناك فئتين من الواصفين وهما متعارضتان : إحداهما فئة المشركين ، والأخرى فئة المخلَصين ، والآية الكريمة تعارض كلام المشركين وتؤيّد كلام المخلَصين ، وعليه فالآية ليست ناظرة إلى سائر الواصفين .

ثانياً : حتى إذا سلمنا بأن مفاد الآية الشريفة هو تنزيه الذات الإلهية عن مطلق الصفات ما عدا الصفات التي ينسبها المخلصون إليه ، فإنه لا يستفاد منها أن العقل لا يدرك مفاهيم أسماء الله وصفاته ، وإنما مفادها هو أن عقل عامّة الناس لا سبيل له إلى الظفر بحقيقتها ، لأن هذه المفاهيم من إبداع الذهن وصياغته ، فالذين يتمتعون بالعلم الحضوري في هذا المضمار يستطيعون وصف الله بهذه المفاهيم ، حيث يجعلونها حاكيةً عن معرفتهم الحضورية .

ولا بدّ لنا أن نشير إلى ملاحظة مهمة وهي أن المفاهيم السلبية في قوة الإيجاب ، فعندما نقول : « إن الله ليس جاهلاً » فقد سلبنا عن الله معنى عدمياً ، وهو بدوره لا يعرف إلّا بالالتفات إلى المعنى الوجودي الإيجابي ، أي الجهل يساوي عدم العلم وما لم نعرف معنى العلم فإننا لا نفهم معنى الجهل ، ونفي الجهل يعني نفي عدم العلم وهو يساوي إثبات العلم ، ولو كان العقل عاجزاً عن إدراك معنى مفهوم العلم بالنسبة لله تعالى لكان عاجزاً أيضاً عن إدراك معنى نفي نفيه ، إذن : نفي الجهل عن الله تعالى هو في قوة إثبات العلم له ، بل هو مؤخر عنه من حيث الرتبة العقلية ، فما لم نثبت العلم لله لا نستطيع نفي الجهل (نفي نفي العلم) عنه .

وقد يقال : نحن ندرك جهل أنفسنا ثم ننفي هذا الجهل عن الله ، ومثل هذا النفي لا يستلزم إدراك العلم بالنسبة لله تعالى .

ولكن هذا غير صحيح لأن جهلنا مقيّد ، ونفي الجهل المقيد لا يستلزم إثبات العلم المطلق ، لأنه لا يتنافى مع الجهل المطلق ، كما يصدق نفي الجهل المقيّد على الموجود الذي لم يظفر بأيّ لون من ألوان العلم ، فيقال عنه إنه ليس

جاهلاً جهلاً مقيّداً ، أي أنه جاهل جهلاً مطلقاً . إذن لا بـد من حذف قيـد الجهل المقيد الذي ندركه في أنفسنا ثم ننفي مطلق الجهل عن الله . ونستطيع أن نفعل مثل هذا في مورد العلم ، أي أننـا نقوم بحـذف القيود المـوجودة في علومنا الناقصة المحدودة ، ثم ننتزع مفهوماً عاماً يشمل كل ألوان العلم ، ولو أننا لا نفهم حقيقة بعض مصاديقه ثم ننسب « العلم المطلق » لله تعالى . وهذا هو نفس ما أشرنا إليه فيما سبق من أن العقل يستطيع إدراك مفاهيم الصفات الإلهيـة ولو أنـه لا يستطيـع إدراك حقيقتها ، وهـو معنى العبادات الـواردة في الروايات من أنه :

« عالم لا كعلمنا ، قادر لا كقدرتنا . . . » .

والحاصل أنّ من يستعرض القرآن ويدقّق في الآيات التي تذكر أسماء الله وصفـاته وأفعـاله يعـرف أن القرآن يعـرض مفـاهيم يفهم معنـاهـا النـاس ، ويتحدّث عن أمور يتوقّع من السامعين إدراكها وقبولها ، ولا يفهم منها أنها مجرّد ألفاظ يستعملها الله ويريد منا استعمالها من دون أن نفهم لها معنى ، خذ مثلاً قوله تعالى :

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

فالناس يسألون أنفسهم : أيمكن أن يكون خالق هذا العالم العظيم بلا علم ؟

ماذا يريد أن يقول بهذه الجملة ؟ إنه يريد أن يقول : لا بد أن تعتقدوا بأنّ لله علماً بالمعنى الذي نفهمه من العلم، أم أنه يريـد إثبات لفظ لا نفهم معناه ؟ أي أنكم لا بد أن تقولوا : إن لله علماً ، بطريقة التعبد ، من دون أن تستطيعوا فهم هذه الجملة ؟

لا شك أن القرآن ينسب لله أسماء وصفات ويريد من الناس أن يعرفوه بها بالمعنى الذي يفهمونـه منها ، لا أنها ألفـاظ مستعملة في مورد الله من دون معنى مفهوم للناس .

---

(١) سورة الملك : الآية ١٤ .

وأما الذين يتعلقون ببعض الروايات ليفهموا منها عدم قدرة الناس على إدراك معاني أسماء الله وصفاته ، كالرواية التي ينقلها المرحوم الفيض في كتاب (المحجة البيضاء) عن الإمام الباقر (ع) أنه قال :

« كلّ ما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معـانيه مخلوق مصنـوع مثلكم مردود إليكم »[1] .

فإن شبهتهم حاصلة نتيجـة للخلط بين المفهـوم والمصداق ، وكثـير من المغـالطات التي يبتـلى بها الإنسـان أثناء الاستـدلال تحدث نتيجـةً للخلط بين المفهوم والمصداق ، أي أنه ينسب للمفهوم مـا هو في الحقيقـة للمصداق ، أو بالعكس .

المفهوم هو ذلك المعنى الكلّي الذي تدركه عقولنا مثل مفهوم الإنسان ، مفهوم النور ، مفهوم الحرارة . وهذه كلها معان نتصوّرها في أذهاننا ، وعندما نريد توضيحه نقول : الإنسان موجود حي يتمتع بالعقـل (حيوان نـاطق) ، فالمفهوم شيء يمكن تفسيره بمعانٍ أخرى .

أما المصداق فهو الوجود الشخصي الذي ينطبق عليه هذا المفهوم ، وهو الفرد الخارجي له ، فنحن عندما نشرح مفهـوم النار نقـول : جسم حار ، أو تركيب مواد قابلة للاحتراق مع الأكسجين ، أو موجود يتميز بـالحرارة ذاتـاً ، ولكن هل ترتفع درجة حرارة أذهانكم عندما تتصورون النار (الجسم الحار) ؟ كلا ، لأن مفهوم النار ليس حاراً وإنّما مصداقه هو الحار . فإذا أراد شخص أن يستـدل من ـ تصوّركم للنـار ـ على ارتفـاع درجة حـرارة أذهـانكم فـإن هـذا مغالطة ، لأنه قد نسب آثار المصداق للمفهوم ، فالذي في أذهانكم هو مفهوم النار لا مصداقها ، وذو الحرارة هو مصـداق النار لا مفهومها . وتكثر مثل هذه المغالطات في الكلام ، ويستطيع الأذكياء اصطيادها والتنبيه عليها . ويوجد في علم المنطق فصل في فنّ المغالطة يسرد ألوان المغالطات من أجل الحيلولة دون وقوع الناس فيها ، أو من أجل أن لا تنطلي عليهم مغالطات الآخرين .

---

(1) المحجة البيضاء ج ١ ، ص ٢١٩ ، طبعة مكتبة الصدوق .

نعود الآن إلى أصل الموضوع فنقول : يبدو أن القائلين بعدم إمكانية معرفة الله ، وأن هذه الصفات ما هي إلا ألفاظ أجيز لنا استعمالها بالنسبة لله قد تورّطوا في هذه المغالطة ، فالمستفاد من الآيات والروايات هو أن مصداق الصفات الإلهية لا يمكن معرفته بالمفاهيم الذهنية ، لا أنّ المفاهيم الذهنية عندما تستعمل في مورد الله فإنها تفقد معانيها . عندما نقول : الله موجود ، فماذا نعني ؟ هل نقصد المعنى الذي يقابل المعدوم أم شيئاً آخر ؟ وإذا قلنا : الله عالم ، فهل نقصد المعنى المقابل للجاهل أم معنى آخر ؟ لا شك أننا نستعمل هذه الألفاظ في هذه المعاني . الله عالم أي ذلك الشيء الذي يلازم عدم الجهل . إذن نحن نفهم معنى المفهوم ولكننا لا نستطيع معرفة مصداق هذا العلم . فللعلم مصاديق كثيرة ونحن نعرف من مصاديقه علوماً محدودة موجودة في أنفسنا ، وإذا أردنا نسبة العلم للآخرين فنحن ننسب إليهم ما يشبه الموجود في أنفسنا ، أما العلم الذاتي الذي هو عين ذات الله فنحن لا نعرف مثل هذا المصداق ولا ندرك حقيقته .

مثلاً نحن لا نستطيع أن نسمع الأمواج الصوتية إلاّ إذا كانت بذبذبات معينة ، فإن كانت أقلّ من ذلك أو أكثر فلا يمكننا سماعها ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نتصوّر الأمواج ذات الذبذبات العالية أو المنخفضة . وكذا الضوء ، فنحن لا نرى الضوء إلا بذبذبات خاصّة ، أما إذا كانت ذبذباته أكثر من ذلك أو أقل فنحن لا نستطيع رؤيته ، كالأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء ، ولكننا نقول إنها أشعة ذات ذبذبات أكثر أو أقل ، فنحن ندرك مفهومها مع أننا لا نرى المصداق ولا نسمعه ، لأن قوة الرؤية أو قوة السمع لدينا لا تستطيع إدراكه .

ومثال آخر : فنحن ندرك مفهوم العلم ، ومصاديقه التي نعرفها في أنفسنا محدودة توجد في ظروف محدّدة ، فعلمنا ليس مطلقاً ، وسبيل تحققه أيضاً محدودٌ ، فنحن لا نكسب العلم عن طريق أصابعنا ، وإنما نظفر به عن طريق أعيننا وآذاننا أما إذا فرضنا أن هناك علماً لا حدّ له وليس مكتسباً ، وهو عين وجود ذلك الموجود فنحن نستعمل له مفهوم العلم ، ومفهوم أنه غير مكتسب ،

ومفهوم أنه غير محدود ، ونحن ندرك هذه المفاهيم ولكننا لا نعرف مصاديقها ، نعرف من مصاديق العلم ما هي محدودة ومتناهية ومكتسبة ، أما مصداق العلم المنطبق على ذات الله فهو علم ذاتي لا نهائي ، ولكن مفهوم العالم عندما يستعمل في مورد الله هو نفسه عندما يستعمل بالنسبة إلينا . فالمصاديق تختلف والمفهوم واحد .

وبهذا نستطيع تقريب الفئتين إلى بعضهما فنقول ، قد يكون مقصود الفئة الأولى هو أننا نعرف المفاهيم المستعملة في مورد الذات الإلهية ، أما مقصود الفئة الثانية فهو أننا لا نعرف شيئاً عن كنه وحقيقة الذات الإلية .

وبهذا نفهم معنى الرواية القائلة :

« إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار » .

أي أن حقيقة الذات الإلهية لا يمكن معرفتها بوساطة العقل ، وليس المقصود هنا هو أن مفاهيم الصفات لا يمكن إدراكها بالعقل . ومن الضروري أن نشير إلى أن عمل العقل هو إدراك المفاهيم ، فهو القوة المدركة للمفاهيم الكلية ، ولا يستطيع العقل أبداً أن يظفر بالمصداق ، ويحتاج الإنسان لإدراك المصداق إما إلى التجربة الحسية وإما إلى التجربة الباطنية التي نسميها بالعلم الحضوري والشهودي . ولا يعرف العقل أبداً موجوداً عينياً خارجياً إلاّ بالصفات الكلية ، إذن لا بد أن لا نتوقّع من العقل معرفة ذات الله من حيث كونه موجوداً عينياً خارجياً ومصداق الصفات والأسماء الإلهية ، وكلما أدرك العقل شيئاً فإن ذلك يتمّ عن طريق المفاهيم الكلية .

إذن كيف يمكننا معرفة ذات الله ؟

إنّها منحصرة بالعلم الحضوري ، ولهذا العلم درجات متفاوتة تبدأ من درجة ضعيفة موجودة عند كل الناس ، حسب ما استفدناه من آية الميثاق ، ثم تتصاعد حتى تصل إلى أرفع مراتبها عند المؤمنين الصالحين ، الذين يظفرون بها نتيجة للتركيز وحضور القلب في عبادة الله وطاعته، فتتعرّف قلوبهم على الله بشكل أوثق ، وتصقل معرفتهم الفطرية وتشتد وتستيقظ . ويجري هذا حتى مع

المؤمنين المتوسّطين ، فلعلّ مؤمناً يستغرق في مناجاة الله وبثّه ما في نفسه أثناء هدأة الليل ، فينسى العالم ويغفل عن نفسه ، فيشرق قلبه بمعرفة الله ، وتأنس روحه بمناجاته ، وينصرف عن كل شيء عداه . إن هذا هو العلم الحضوري وقد انكشف الستار عنه فنشط وتوّقد نوره . والأرفع من هذه تلك المعرفة الشهودية التي ينالها أولياء الله وأصفياؤه ، منها قول الإمام (ع) :

« لم أعبد ربّاً لم أره » .

أو « ألغيرك من الظهور ما ليس لك ؟! »

أو« أن تتعرّف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء » .

و « أنت الظاهر لكل شيء » .

إنها مقتطفات من دعاء عرفة لسيد الشهداء الإمام الحسين (ع) ، أي هل لغيرك نور يستطيع إظهار ذاتك ، فكأن الذين يريدون معرفتك بغيرك قد تصوّروا أن للآخرين نوراً تفقده أنت ، ومن خلال أشعة هذا النور يريدون أن يعرفوك . تعساً لهذا التوّهم الباطل ، فلا يوجد نور إلاّ وهو منك ، ولم تغب عن قلبي حتى أبحث عنك ، ولم أجهلك حتى أطلب معرفتك ، ولا ظهور لشيء إلاّ إذا أظهرته أنت . إنها معرفة تختصّ بأولياء الله الذين قطعوا مراحل واسعة في مجال التوحيد ، وانشدّت قلوبهم إلى الله : « أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتّى عرفوك ووحّدوك ، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبّائك حتى لم يحبّوا سواك » .

إن أمثال هؤلاء يستطيعون معرفة ذات الله بمقدار ما تتحمله ظرفية وجودهم . ونقرّب هذا للذهن من باب تشبيه المعقول بالمحسوس « ولله المثل الأعلى » فنقول :

إذا كان لدينا مصباح يضيء من منبع مولّد للضوء ،فهذا المصباح متّصل بالمنبع بوساطة خط (لا يهمنا في هذا المجال أن نعرف حقيقة النور ، أهي موجيّة أم ذرية أم شيء آخر) وإذا استطاع هذا الخط المتصل بالمصباح أن يدرك ذاته ـ أي أنه كان له شعور يدرك به نفسه ـ فهو سيدرك أنه خط متصلّ بمنبع للضوء ، أي أن إدراكه لذاته هو بنفسه إدراكه لارتباطه واتّصاله بمنبع الضوء ،

فإذا كان يدرك ذاته فإنه يدرك اتصاله أيضاً بالمبدأ الصادر منه ، إذن هو يدرك ذات ذلك الشيء ولكن بمقدار ما هو مرتبط به .

وبهذه الطريقة استطعنا التوفيق بين القائلين بعدم قدرة الإنسان على معرفة ذات الله والقائلين بقدرته على ذلك ، نقول :

إذا كان المقصود من معرفة الذات هو الإحاطة بذاته تعالى فإن هذا الأمر مستحيل لغير الله ، فذات الله غير متناهية ، ولا يستطيع الموجود المتناهي أن يحيط باللامتناهي ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾(١) .

وأما إذا كان المقصود من معرفة الذات هو أن بعض أفراد الإنسان يستطيع أن يصل إلى منزلة يدرك فيها علاقته الوجودية بالله تعالى ، ويرى وجوده شعاعاً من وجود الله (من باب التمثيل الناقص لتقريب الموضوع إلى الذهن) فيتحقق له العلم الحضوري ، فهذا ممكن ولا غبار عليه .

ولا بدّ لنا من التذكير هنا بأنّ ارتباطنا بالله ليس من قبيل العلاقات المادية الجسمية ، فهذا مستحيل بالنسبة لله تعالى :

« داخل في الأشياء لا كدخول شيء في شيء » .

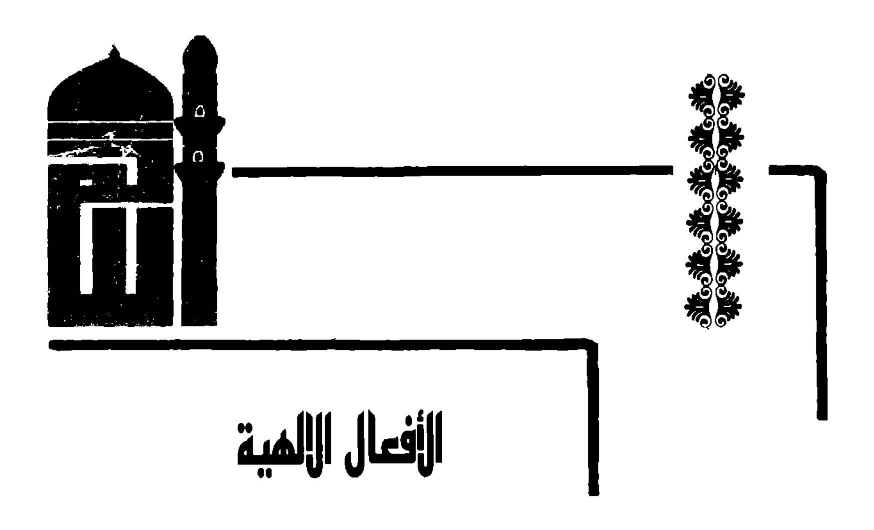
وإنما ارتباطنا به يعني أنه لو لم تكن إرادته لم نكن شيئاً . ونمثّل لهذا بتمثيل ناقص وهو الصورة الذهنية التي توجدونها في أذهانكم ، وهي ترتبط بأذهانكم لأنكم الخالقون لها ، ولا يمكن فصلها عن الذهن ، ولو فصلتموها عنه لم تكن شيئاً ، فقوامها بارتباطها بالذهن ، ولهذا قال الفلاسفة الإسلاميون : وجود هذه الأشياء هو عين الربط لا أنها أشياء تتميز بالربط وإنما هي عين الارتباط . فمن يدرك أنّ قلبه متعلق دائماً بالله فهو يدرك عندئذٍ وبنفس المقدار ارتباطه بالله في حدود ذاته ، ولكنه لا يستطيع على الإطلاق الإحاطة بالذات الإلهية المقدسة .

---

(١) سورة طه : الآية ١١٠ .

إذن معرفـة كنه ذات الله مستحيلة ، أما معرفة ذاته بشكل محدود ومن زاوية خاصة فهي ممكنة ، والسبيل إليها هو القلب وليس العقل ، لأن عمـل العقل هو إدراك المفاهيم وحديثنا هنا عن معرفة المصداق .





الأفعال الإلهية

قلنا فيما مضى إنّ نصاب التوحيد يكتمل بالتوحيد في الخالقية والربوبية والألوهية ، فمقتضى الربوبية هو أن لله تعالى حقّ التصرّف بأية صورة في مخلوقاته ، ومقتضى التوحيد في الخالقية هو أنّ العالم وجميع الظواهر هي من مخلوقاته تعالى ولا شريك له في ذلك .

ويواجهنا في هذا المجال سؤال يقول :

كيف تتحققّ هذه الخالقية والتدبير بالنسبة للعالم والإنسان ، وكيف نصل إلى الفعلية ؟ وبعبارة أخرى : بأية صورة تتمّ الأفعال الإلهية في الخلق والتدبير ؟

إن كل موحّد ينسب أصل وجود العالم وتدبيره العام لله ، ولكن هل تتعلق بالله أيضاً تلك الظواهر الجزئية التي توجد في العالم نتيجة لتغير أجزائه وتحوّلها ؟ أم ينحصر الإيجاد الإلهي بأصل العالم ، والتدبير الإلهي بشؤونه العامة ؟ مثلاً خلق الله الشمس ، وهي تشرق على السيارات التابعة لها ومن جملتها الأرض ، فتنشأ من هذا كثير من الظواهر ، فهل ننسب هنا خلق الشمس فقط لله ، أم لا بدّ من نسبة كل الظواهر الجزئية الناتجة من إشراق الشمس لله أيضاً ؟

وفي مورد خلق الإنسان : هـل ينسب إلى الله خلق آدم (ع) فقط ، أم ينسب إليـه أيضاً خلق أولاده الـذين جـاؤوا إلى الحيـاة نتيجـة لمجمـوعـة من التأثيرات والتأثّرات الطبيعية ؟

والأهمّ من هـذا كله : هل تنسب لله أفعـال الإنسان الاختيـارية ، أم نكتفي بنسبة خلقه إليه ؟

وعندما نقول : إن الله خالق العالم ، هل نقصد منه أنه تعالى يخلق كلّ شيء فيـه أم أنه خلق المـادة الأولية للعـالم ، ثمّ تُواصِـل هذه المـادة حـركتهـا بديناميكيّتها الذاتية ، فتوجد الظواهر اللاحقة حسب قوانـين المادة ، وتتحققّ تدريجياً ، وهي عندئذٍ ليست بحاجة إلى الله تعالى ؟

ولنضرب مثالاً يتعلق بتدبير العالم :

هل أن الله عندما خلق العالم جعـل فيه نـظاماً ورتبـه بشكل خـاص ، بحيث إن موجوداته تنظم عملها وتدير نفسها بصورة ذاتية حتى نهاية عمره من دون حاجة إلى أحـد ، كصناعـة الساعـة التي رتبت أجزاؤهـا بحيث إذا أدير نابضها فهي تعمل بشكل منتظم ولا تحتاج بعد ذلك إلى صانعها ـ هل العالم مثل هذه الساعة ، فقد خلقه الله ثم تركه لنفسه ، أم أنـه يحتاج في كـل لحظة إلى تدبير الله ، وهو سبحانـه حاضر في جميـع الحوادث ، وربـوبيته شـاملة لجميع الظواهر على طول الزمان وامتداد المكان ؟

ينظر عامة الناس إلى هذا الموضوع نظرة سطحية ، فينسبـون إلى الله ما يتعلق بالخلق والأشياء التكوينية الخارقة للعادة ، التي تحدث أحياناً من قبل الله مباشرة أو على يد أنبيائه أحيانـاً أخرى ، والأمور التشريعية المعجـزة كإرسـال الكتب السماوية،وأمـا سائـر الأفعال فهم يـرونها خارجـة عن نطاق الـربوبيـة الإلهية ، وكذا تدبير شؤون الإنسان فإنهم ينسبونه للإنسان نفسه .

أما العلماء المسلمون فقد اختلفوا في الجواب على هذه الأسئلة منذ زمن بعيد ، وانقسموا إلى فئات بين الإفراط والتفريط :

فالأشاعرة يقولون إن جميع الأفعال التي تتحقق في العالم ، والآثار التي تترّتب على المؤثّرات يوجدها الله ، وأما نسبتنا الأفعال إلى الآخرين فهي نسبة مجازيّة ، وأما إذا واجههم هذا السؤال : لماذا يكون لكل فعل معين أثر خاص دائماً ؟ فهم يجيبون : لقد جرت عادة الله على إيجاد آثار معينة بعد أفعال بعينها ، مثلاً جرت عادة الله على أن يكون بعد النار الاحتراق ، ولو شاء غير ذلك لحدث الاحتراق ـ مثلاً ـ بعد هطول الثلج . إذن توجد الآثار كلها من الله مباشرة . ويرون نفس هذا الرأي بالنسبة لأفعال الإنسان الاختيارية ، فهم يقولون : إن الله يوجد الإرادة في الإنسان ويوجد الشيء الخارجي أيضاً ، إلا أنّ عادة الله قد جرت على إيجاد الفعل بعد الإرادة .

ويندفع المعتزلة إلى الجهة المقابلة فيقولون : إن كل فاعل فهو مستقل في فاعليته ، مثلاً يخلق الله النار ، أما خاصّيّة الإحراق فهي لذات النار .

وتبنّت فئة ثالثة رأياً وسطاً استفادته من مذهب أهل البيت (ع) فقالت بالنسبة لأفعال الإنسان بالأمر بين الأمرين ، وهو المذهب الحق وما عداه ضلال .

ومجمل هذا الرأي هو أنّ الفعل ينسب حقيقة إلى فاعله الطبيعي ، ولكن هذا لا يمنع من نسبته إلى الله تعالى في مستوى أرفع . وبعبارة أخرى : يتعدّد الفاعل هنا بشكل طولي بحيث يصبح كل واحد فوق الآخر ، فينسب الفعل إلى الفاعل المباشر وإلى الفاعل الأعلى نسبة حقيقية ، فهو إذن ينسب إلى الله . وكذا أفعال الإنسان الاختيارية فهي فعل الإنسان نفسه حقيقة ، ولكنها في مستوى أرفع تعتبر صادرة من الله ، ونسبتها إليه تعالى صحيحة ، مع حذف جهات النقص والأمور العدميّة .

وقبل أن نذكر الأدلّة من القرآن الكريم على هذا المذهب الحق ، يحسن أن نستنطق القرآن عن كيفية علاقة الله بالعالم والإنسان ، ولهذا الكتاب العظيم أسلوبه المتميّز الدالّ على حكمة الله ، فهو يشعرنا بهذا : كما أنكم لا تستطيعون معرفة الذات الإلهية بشكل تام ، ولا إدراك حقيقة الصفات الإلهية فأنتم أيضاً عاجزون عن النفوذ إلى صميم الأفعال الإلهية ، ولكنه مع هذا يسعى بأسلوبه

الخاص لتسليط الأضواء على الأفعال الإلهية وتبيين علاقة الله بالعالم والإنسان .

ولعلّ بعض الناس يستهول هذا القول ، وهو أننا لا نستطيع إدراك حقيقة الأفعال الإلهية ، لذا نجد من الأفضل أن نقدّم توضيحاً في هذا المجال يثبت لنا عجزنا عن هذا الأمر : إن المفاهيم المستعملة في هذا المضمار مثل مفهوم الخالقية ، العليّة ، الفاعليّة وأمثالها هي مفاهيم مأخوذة من مصاديق تتصف بالإمكان ، أي أننا في البدء نجد شيئاً في أنفسنا أو علاقة بين موجودين ماديّين فنأخذ منها مفهوماً ، ثمّ نعممّ هذا المفهوم ليشمل الله أيضاً ، فنحن عندما نقول : أنجزت الفعل الكذائي ، فقد استعملنا مفهوم الفعل والإنجاز ، وهي نفس المفاهيم التي نستعملها بالنسبة إلى الله فنقول : أنجز الله الفعل الكذائي . أو عندما نقول : أدار فلان المجتمع أو الفئة الكذائية أو الجهاز الفلاني ، فنحن نستعمل مفاهيم قد حصلنا عليها من العلاقات الخاصة الموجودة بين الإنسان والطبيعة ، أو بين الإنسان والإنسان الآخر ، كصناعة سيارة أو إدارة مجتمع ، فهذه أشياء رأيناها وعرفناها ، ثم نوسع مفهومها ونحذف قيودها فنقول : صنع الله العالم ، أو يدير الله العالم . ولكن الذي وجدناه في أنفسنا أمر مقرون بالنقص والمحدودية ، لذا نقوم بحذف جهات النقص والأمور العدمية عندما نريد استعمالها بالنسبة إلى الله تعالى . إذا أردنا أن نعمل فماذا نصنع ؟ إننا نستخدم أيدينا وأجسامنا ونستغلّ عيوننا وآذاننا وسائر طاقاتنا ، فهل يؤدي الله أعماله بهذه الصورة ؟ أله تعالى ـ والعياذ بالله ـ يد يحركها ، ويفعل كما نفعل نحن عندما نريد تحريك جسم ، فيسلط طاقة ميكانيكية على ذلك الجسم ؟

كلّا ، إنّ الله ليس بجسم ، وليس له يد ولا قدم جسمية يدير بها كرة الشمس ، وهو تعالى لا يؤدّي أفعاله بوساطة أعضاء مادية ، ولكنه كما توجد علاقة بين أقدامنا وكرة القدم ، فما لم تضرب أقدامنا الكرة فإنها لا تتحرّك ، كذلك توجد علاقة بين الله سبحانه وأعماله ، فما لم يحرّك هذا العالم فإنه لا يتحرّك ، أمّا كيف يتحقق ذلك ؟ وماذا يفعل لكي تتحرك المجرّات والكرات السماوية والظواهر الضخمة والضئيلة من الذرة وحتى المجرّة ؟ لسنا ندري ،

لأننا لم نشاهد نموذجاً لها ، وأما علاقاتنا بظواهر العالم فهي محدودة وناقصة ومادية ، ولا نجد في أنفسنا مثل تلك العلاقة التي تربط الله بمخلوقاته ، ولو وجدنا هذه الرابطة لأصبحنا آلهة ، وأقصى ما نفهمه هو أننا ما لم نحرّك شيئاً فإنه لا يتحرك ، وكذا الأمر بالنسبة إلى الله ، فإنه ما لم يحرك العالم فهو لا يتحرك ، أما كيف يحركه ؟ فهذا ما نجهله كما قلنا بالنسبة لصفات الله ، مثلاً : نقول إن الله عالم ، ونحن نعرف من مصاديق العلم أشياء محدودة ، ولكن علمه تعالى غير محدود ، كيف يكون ذلك ؟ لسنا ندري ، إنه علم غير اكتسابي ، لم يحصل عن طريق السمع والقراءة وغيرهما ، ولهذا قلنا :

« عالم لا كعلمنا » .

ويصدق مثل هذا في مورد أفعاله تعالى ، فإذا قلنا إن الله هو المدير للعالم وهو المدبّر له فلا يعني ذلك أنه يشبه تدبيرنا . وكذا إذا قال الفلاسفة وأهل المعقول إن الله علة العالم ، لا بد أن نضيف إليه قيد « لا كعلّيّتنا للأشياء » ، فهذه الخصوصيات الموجودة في العلاقة بين العلة والمعلول في ظواهر العالم غير موجودة في العلاقة بين الله والعالم ، وهي علّيّة ، لكنها ليست من ألوان العلية التي نعرفها ، ما هي حقيقتها ؟ لسنا ندري ، وأقصى ما نعلمه عن معنى كون الله علة العلل هو أنه لو لم يكن الله موجوداً لما وجد العالم ، فهو علة بمعنى « ما يتوقف عليه الشيء » أو « ما يُفيض وجود الشيء » فلو لم يكن هو لم يوجد شيء ، أما ما هو كنه علاقة الله بالعالم ؟ فهذا ما لا نفهمه لأننا لسنا آلهة ، نعم قد يمنّ الله سبحانه على بعض عباده اللائقين بلون من المعرفة الشهودية يدركون بها حقيقة الأفعال الإلهية بما يتسع له ظرف وجودهم ، كما مرّ علينا بالنسبة لذاته تعالى وصفاته .

ولعلّ تلك الآية الواردة في حقّ إبراهيم تشير إلى هذا الموضوع :

﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرْهنّ إليك ،

ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءاً ، ثم ادْعُهنّ يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾[1] .

وتفهم هذه الآية عادة بشكل سطحي ، وهو أن إبراهيم (ع) أراد أن يرى كيف تعود الحياة إلى ميّت ، لأن للرؤية أثراً قوياً في القلب ، ولكن العلاّمة الطباطبائي (صاحب تفسير الميزان) رضوان الله عليه ينبّه على ملاحظة دقيقة في هذه الآية حيث يقول : إن إبراهيم (ع) لم يقل أرني كيف تعود الحياة إلى الميت ، وإنما أراد من الله أن يريه كيف يحيي الله الموتى ، أي أنه أراد رؤية الإحياء الإلهي ، أراد رؤية تلك العلاقة الحقيقية بين الله وخلقه التي يتمّ بها إحياء الميت ، أي أنه أراد أن يرى ما يفعله الله في سبيل إحياء الميت ، ولنستمع إلى كلام العلامة الطباطبائي :

« يوجد في السؤال ـ ربِّ أرني كيف تحيي الموتى ـ أمران :

أحدهما : ما اشتمل عليه قوله « تحيي » وهو أن المسؤول مشاهدة الإحياء من حيث إنه وصف لله سبحانه ، لا من حيث إنه وصف لأجزاء المادة الحاملة للحياة .

ثانيهما : ما اشتمل عليه لفظ « الموتى » من معنى الجمع ، فإنه خصوصية زائدة .

أما الأول فيرتبط به في الجواب إجراء هذا الأمر بيد إبراهيم نفسه ، حيث يقول : فخذ ، فصرهنّ ، ثم اجعل بصيغة الأمر ، ويقول : ثم ادعهنّ يأتينك ، فإنه تعالى جعل إتيانهنّ سعياً وهو الحياة ، مرتبطاً متفرّعاً على الدعوة ، فهذه الدعوة هي السبب الذي يفيض عنه حياة ما أريد إحياؤه ، ولا إحياء إلاّ بأمر الله ، فدعوة إبراهيم إياهنّ بأمر الله قد كانت متصلة ـ نحو اتصال ـ بأمر الله الذي منه تترّشح حياة الأحياء ، وعند ذلك شاهده إبراهيم ورأى كيفيّة فيضان الأمر بالحياة ، ولو كانت دعوة إبراهيم إياهنّ غير متصلة بأمر الله الذي هو أن يقول لشيء أراده : كن فيكون ، كمثل أقوالنا غير المتصلة

(١) سورة البقرة : الاية ٢٦٠ .

إلا بالتخيّل ، كان هو أيضاً كمثلنا إذ قلنا لشيء كن فلا يكون ، فلا تأثير جزافياً في الوجود »[1] .

إنها معرفة شهودية ، تطّلع على حقيقة فعل الله بمقدار ما تتحمله ظرفية وجود هذا المخلوق .

إذن نستطيع أن ننسب لله هذه المفاهيم بعد حذف جهات النقص والجوانب العدمية فيها . وصحيح أن عقولنا لا تستطيع إدراك حقيقة الأفعال الإلهية كما تحدث في صميم الواقع ، ولكن هذا لا يعني أن نعطل عقولنا متعللين بأننا لا نعلم ، فقول العالم لا أدري بعد البحث والدراسة لا يشبه قول الجاهل لا أدري منذ البدء ، ونحن نعترف بأن العقل الإنساني بطاقاته المتاحة له لا يستطيع إدراك حقيقة الفعل الإلهي ، ولكن هذا لا ينبغي أن يحملنا على تعطيل عقولنا ، بل لا بدّ من استغلالها إلى أقصى حدّ تستطيعه ، فهي ـ وإن كانت لا توصلنا إلى كنه الأفعال الإلهية ولكنها ـ تثري معرفتنا العقلية .

وللقرآن الكريم في هذا السبيل أسلوب خاص يبين فيه علاقة الله بمخلوقاته بصور مختلفة ، ويجيب القرآن على هذا السؤال :

أيكون الله خالقاً لأصل العالم فقط أم أنه خالق كل ظاهرة ؟

بأن الله خالق لكل شيء ، وليس هو خالقا لمادة العالم الأولية فحسب ، وقد حان الوقت لذكر بعض الآيات الواردة في هذا المجال :

﴿ **وخلق كل شيء** ﴾[2] .
﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء** ﴾[3] .
﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾[4] .

فكل ما نعمله أشياء موجودة ، والموجد لها هو الله سبحانه . فالقرآن

---

(١) تفسير الميزان : ج ٢ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٠١ .
(٣) سورة الأنعام : الآية ١٠٢ .
(٤) سورة الصافات : الآية ٩٦ .

يصـرح بأن كـل شيء هو من خلق الله ، ولا يقتصر خلقـه على المـادة الأولية للعالم .

وكـذا الحال بـالنسبة للتـدبير والإدارة ، ففي أي مجـال يطرح مـوضوع التدبير تكون ربوبية الله حاضرة فيه ، يقول الله تعالى :

﴿ ثم استوى على العرش يدبّر الأمر ﴾[1] .

﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾[2] .

وتقديم الجار والمجرور (لله) مفيد للحصر .

ويقول تعالى :

﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين ﴾[3] .

فما دام هو رب العالمين إذن يصبـح كل شيء مشمـولاً لربـوبيته : خلق العالمين وتدبيرهم .

وقد يعترض بعضهم قائلاً : نحن نعترف أنّ خلق كل شيء هو من عند الله ، ولكنّ موضوع التدبير والإدارة شيء آخر ، مثلاً : قد يزرع الفلاح شجرة فتنمو وتثمر ، والله سبحانه هو الذي خلق الشجرة والثمرة ، ولكنّ المدّبر لنمو الشجرة هو الفلاح بما لديه من خبرة وتجارب ، والآيات التي تنسب خلق كل شيء لله لا تنفي التدبير عمن سواه ، فهي ـ مثلاً ـ لا تنفيه عن الإنسان .

والجواب : إن هذا الاعتراض ليس صحيحاً ، لأننا عندما نحلّل حقيقة التدبير فإنها تعود إلى العلاقة بين كيفية خلق هذا وكيفية خلق ذاك ، مثلاً : من تدبيرات الإنسان الواضحة تدبيره لرزقه ، فلننظر كيف يدبّر الله الرزق له ، إن تـدبير الـرزق له يعني أنّ الإنسـان إذا خُلق لا بدّ أن يـوجـد في الأرض شيء يستـطيع أن يـأكله ، ولا بد أن يكـون الإنسان بشكـل يستطيـع هضم ذلـك الشيء . هذا هو تدبير الرزق من قبل الله .

---

(1) سورة يونس : الآية ٣ .

(2) سورة الرعد : الآية ٣١ .

(3) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

إذن : التدبير أمر انتزاعي وليس شيئاً عينيّاً ، فعندما نقول : الفلاح دبّر أمـور الشجرة ، فهـو يعني أن الله خلقه وخلق إرادتـه وفكره وبـدنه ، وخلق البذور والفسائل والأرض والماء وجعل هذه الأمور مرتبطة ببعضها ، وهذا هو التـدبير . إذن : الخـالق هو نفسـه المدبّـر ، والتدبـير ليس شيئاً منفصـلاً عن الخلق ، ولهذا يقترن التوحيد في الربوبية والخلق في آيات القرآن الكريم :

﴿ ذلكم الله ربّكم خالق كل شيء لا إله إلّا هو ﴾(١) .

فالارتباط بين تلك الظواهر هو الذي أدّى إلى نموّ الشجـرة ، وهو معنى التدبير والربوبية . وعلى هذا فإنه لا يمكن القول بوحدة الخـالق والالتزام مـع ذلك بالشرك في الربوبية ، بل لا بدّ من الالتزام بالوحدة في الخالقية والربوبية .

ولا يكتفي القرآن بهذا العمـوم وإنّما يصـرّح في كثير من المـواقف بنسبة ظواهر العالم المختلفة إلى الله ، ويمكننا تقسيم هذه الآيات إلى عدة مجموعات :

منها ما تنسب الظواهر العادية والطبيعية لله تعالى ، مثل قوله عزّ وجلّ :

﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾(٢) .

كلّنا يعلم أن المطر ينزل من السماء ، ولكنّ القرآن يؤكّد أن الله هو الذي ينزله منها ، وكلّنا يعلم أن الأرض تخضرّ في فصل الربيع ، أما القـرآن فيركّـز على أن الله هو الذي يقوم بهذا .

إنها آية جامعة تشمل الظواهر غير الحية والنبات والحيوان ، ومع قطعنا بتأثير العوامل الطبيعية في هذا المضمار فإن الآية تقول : إن الله هو الفاعل لهذه الأمور .

﴿ إن الله فالق الحب والنـوى ﴾(٣) .

---

(١) سورة غافر (المؤمن) : الآية ٦٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٦٤ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٩٥ .

تريد هذه الآيات أن توحي إلينا أنّ أقلّ حركة أو تغيير في العالم هي من عند الله ، وهل هناك ما هو أبسط من سقوط حبة حنطة أو نواة نخل في أرض رطبة فتنتفخ وتنشقّ قشرتها ، إنه أمر طبيعي جداً ، ولكن القرآن يقول : إن الله فالق الحب والنوى .

﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾[1] .

أياً كان معنى إيلاج الليل في النهار فإن له عاملاً طبيعياً، ومع هذا ينسب القرآن هذا الأمر إلى الله .

وهناك آيات تتعلق بأفعال الإنسان الاختيارية ، مثل قوله تعالى :

﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾[2] .

فللهداية والضلال عوامل معينة ، وهي تحصل بوساطة الأعمال الحسنة أو السيئة للإنسان ، ومع هذا فالآية تقول : إن الله هو الذي يهدي وهو الذي يضلّ .

وفي مورد القتال يقول تعالى :

﴿ فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[3] .

وفي مورد الرزق يقول تعالى :

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾[4] .

﴿ والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق ﴾[5] .

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٣٩ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ١٧ .

(٤) سورة الرعد : الآية ٢٦ .

(٥) سورة النحل : الآية ٧١ .

مع أننا نعلم أن بذل جهد الإنسان مؤثّر في رزقه .

ونستخلص من هذا كله أن القرآن ينسب جميع الآثار الصادرة من كل فاعل طبيعي لا حياة له كالشمس والقمر والمطر والأرض ، والآثار الصادرة من كل فاعل حي كالإنسان ، ينسبها جميعاً لله سبحانه .

ونواجه في هذا المضمار بعض الأسئلة التي تراود الأذهان نطرحها باحثين عن أجوبة واقعية لها :

ألا تعني نسبة هذه الآثار إلى الله تعالى سلب نسبتها عن المؤثّرات القريبة لها ؟

الجواب : نحن نعلم جميعاً أن القرآن ينسب أفعال الإنسان لنفسه ويرغّب بعض الناس في أعمالهم وينفّر آخرين ، ولو كانت نسبتها إليهم غير صحيحة لما جاء بها القرآن ، إذن نسبتها لفاعلها القريب الطبيعي ولفاعلها غير الطبيعي (فاعل الفاعل) نسبة صحيحة من وجهة نظر القرآن . ونرى من اللازم أن ننبّه هنا على أن الأفعال التي ننسبها إلى الإنسان ـ أي تلك المفاهيم التي نستعملها بحقه ـ على نوعين :

١ ـ المفاهيم الدالّة على الوجود والإيجاد مل خلق الطير على يد عيسى (ع) .

٢ ـ المفاهيم الملحوظ فيها نسبتها إلى فاعل ماديّ كالأكل الذي يعني شخصاً له فم ويستطيع ابتلاع مادة خارجية يهضمها في معدته . فالنوع الأول يمكن نسبته إلى الله بخلاف النوع الثاني فإنه لا تصحّ نسبته إليه تعالى ، لأنه مفهوم يشتمل على العدم والنقص ، وملحوظ فيه أمر ماديّ . ولدينا سؤال آخر :

إذا كان هو الذي يفعل كل شيء فنحن إذن لا دور لنا ، ألا يعني هذا أننا مجبورون ؟

وإذا كان الله هو الذي يخلق العالم ويخلق كل ظاهرة فيه ، ألا يعني هذا إنكار دور العلل والعوامل الطبيعية ؟

ألا يلزم من هذه المعرفة أن نصبح مثاليين منكرين للواقعيات الخارجية ولقوانين هذا العالم ؟

وللجواب على هذه الأسئلة سوف نبيّن معياراً عامّاً ، يكون مفتاحاً لحلّ كثير من المشكلات التي يتعسر حلها في مجال ارتباط الأشياء بالله :

إن ارتباط ظاهرة ما بعاملين أو فاعلين له عدّة صور :

أحياناً يتوقف وجود ظاهرة ما على توفّر عدة أشياء ، كل واحد مها له دور معينّ في إيجاد تلك الظاهرة أو إعطائها شكلها الخاص ، ومجموع هذه الأشياء يسمى بالعلّة التامة ، ولو لم يكن واحد منها لم تتحقق تلك الظاهرة ، ولا يعني هذا أنّ هذه جميعاً مساهمة في إيجادها ، وإنما لكل واحد منها دور خاص في ظهورها وتحققها مثلاً : هذه الزهور التي تشاهدونها في الحدائق ، إنها لم تكن بهذه الصورة نتيجة عامل واحد ، وإنما هناك عوامل متعددة تكاتفت لتخرج لنا زهرة يفوح عبيرها ، لا بدّ من وجود بذرتها أو فسيل شجرتها ، ولا نريد أن نفصّل قصة البذرة أو الفسيل ، فإن هناك عوامل عديدة لتكوين هذه البذرة أو هذا الفسيل ، ولا بد من زرع البذرة أو غرس الفسيل في الأرض ، وأحياناً تهبّ الريح فتزرع البذور كما يحدث بالنسبة للزهور الصحراوية ، ولكن هذا غير كاف ، وإنما هي تحتاج إلى الماء ينزل من السماء فترطب الأرض به ، وإلاّ فإنها لا تنمو في الأرض اليابسة ، ولا بد من وجود فلاّح يرعاها ويتعهدها كما يحدث بالنسبة للزرع والأشجار الأهلية . إذن لا يمكن نسبة ظهور الزهرة إلى عامل بعينه ، فلا يمكن القول إنّ الفلاح هو المنمّي لها وحده ، كما لا يمكن القول إن الأرض وحدها أو المطر بمفرده قد أوجدها ، وكذا القول بالنسبة لأشعّة الشمس أو الهواء أو المواد الغذائية ، لا بدّ من توفّر هذه جميعاً وإلاّ فإنّ الزهرة لا تنمو .

والإنسان في مثل هذه المواقف لا يحسب حساب العوامل المتوفرة عادة وإنما يؤكّد على العوامل التي تظهر أحياناً لتكتمل بها الشروط اللازمة ، فالأرض دائماً موجودة ، وأشعة الشمس متوفّرة ، والهواء موجود ، لهذا لا تذكر هذه الأمور في الحساب ، وعندما يسأل : من الذي نمّى هذه الوردة ؟ فإننا نذكر

الفلّاح الذي يوجد أحياناً ولا يوجد أحياناً أخرى ، ولكننا إذا أردنا معرفة الو[illegible] فلا بدّ من ذكر الفلاح والأرض وأشعة الشمس والماء ، وعوامل كثيرة أخرى تضافرت حتى كوّنت هذه الوردة . وكل هذه العوامل مؤثّرة فيها ولكن لا على أساس أن يكون أحدها بديلاً عن الآخر ، فلا الشمس تغني عن المطر ولا الهواء عن الفلاح . وإذا قيل هنا إنّ عللاً أو عوامل عديدة ساهمت في وجود هذه الظاهرة فإنه قول واقعي لا غبار عليه .

وأحياناً يتوقّف وجود ظاهرة ما على عاملين بحيث إن أحدهما يكون بديلاً للآخر ، أي إما هذا أو ذاك ، فإذا أثّر أحدهما فالثاني لا يؤثّر ، ونحن نستطيع هنا أن ننسب هذه الظاهرة إلى هذين العاملين ، والواقع أن أحدهما بديل للآخر ، مثل فلاحين يتعهّدان بالتناوب حديقة ، فأحدهما لا بد أن يزرع هذه الوردة .

وأحياناً يتوقف وجود ظاهرة معينة على عاملين يؤثران طولياً ، وتنسب الظاهرة إليهما ، لكن لا على أساس أنهما يكوّنان مجموعة واحدة ، وكل منهما يؤمّن بعداً من أبعاد تلك الظاهرة ، وإنما هما يؤثّران طولياً ، أي أن أحدهما يؤثّر في الآخر ، وذلك الثاني يحمل أثر العامل الأول وينقله بشكل خاص إلى المعلول ، ولهذا أمثلة في الأشياء الطبيعية والأمور الاعتبارية وقضايا ما وراء الطبيعة ، ففي الأمور الاعتبارية قد ينسب عمل واحد إلى شخصين ، مثلاً : تحدث جريمة نتيجة لصدور أوامر من مدير شرطة مجرم إلى شرطته فينفّذونها ، وعندئذ يصحّ نسبتها إلى مدير الشرطة ، وإلى من باشر في تنفيذها ، وإلى رؤسائهم . وكذا الحال بالنسبة لأعمال الخير ، فإذا أمر أحدهم شخصاً بإحسان فإنّ عمل الخير هذا ينسب إلى الآمر وإلى المنفّذ ، وهذا العاملان لا يؤثّران عرضيّاً وإنّما طوليّاً ، وليس تأثيرهما على أساس التبادل والتناوب . وقد يقال أحياناً إن تأثير مصدر الأوامر أقوى من الفاعل المباشر ، فجريمته تصبح أشدّ . ومثل هذا يوجد في أمور ما وراء الطبيعة ، أي أن تأثير الفاعل غير الطبيعي ليس في عرض الفاعل الطبيعي ، وإنما في طوله ، أي أنه يوجد الفاعل الطبيعي ، وهذا الأخير هو الذي يقوم بالعمل فيوجد ظاهرة طبيعية أخرى .

إذن نسبة ظواهر العالم إلى العوامل الطبيعية وإلى الله ليست في مستوى واحد ، فهذه النسبة لا تعني أن الله والطبيعة يتعاونان على أداء هذا العمل ، لأن الله عندئذ يصبح محتاجاً ، وعلاوة على هذا فإن القول بذلك شرك ، لأنه قول بتأثير عامل آخر إلى جانب الله وهو ليس محتاجاً إليه . إن الله لا يعمل في عرض العوامل الطبيعية ولا يعمل كبديل لها وإنما يعمل في طولها ، مثلاً : ظاهرة الليل والنهار وتعاقبهما ، فالله لا يؤثّر في عرض الشمس والأرض وإنما يؤثّر في مستوى فوق ذلك ، إنه يوجد العالم بأجمعه ، الأرض والشمس والقمر والنجوم وحركاتها ، كلها توجد بإرادته ، فإرادته مؤثرة في ظهور النهار بنفس المقدار الذي تؤثر في ظهور الشمس والأرض وغيرهما ، فدوام العالم بأجمعه مرهون بإرادته ، ولا يعني هذا أن الله يحتلّ مكان الفلاح في إنماء الزهور ، وإنما هو الخالق للفلاح والزهرة وسائر الظروف المطلوبة ، ولو انصرفت عنها إرادته لم يبق لها وجود .

إذا قلنا : منّ الله على مريض بالشفاء ، فليس معناه نفي تأثير العوامل المادية في شفائه ، وإذا قلنا : منح الله فلاناً رزقاً ، فإنه لا يعني إنكار دور العوامل الطبيعية في توفير هذا الرزق بحيث يكون نازلاً من عالم آخر ، كلّا ، إن الله يمنح الرزق بهذه الصورة ، وهي أن يقوم الفلاح بزراعة القمح ، وتهطل الأمطار عليه وتشرق الشمس فينضج ، ويحمل إلى أجهزة خاصة تطحنه ، ثم يخبزه الخباز ونأكله أنا وأنت ، هذا هو معنى إعطاء الرزق ، وليس معناه أنه لا وجود لشجرة ولا فلاح ولا شمس ولا بحر ولا أرض ولا قمر ولا مطر ولا سحاب ولا ريح ، إن معنى منح الرزق هو تربية هذه الظواهر بشكل يؤدي إلى تأمين ما احتاج من غذاء فهو نظام منسجم ينتهي إلى هذه النتائج .

إذن كيف ننسب ظاهرة معينة إلى الطبيعة وإلى الإنسان وإلى الله ؟ هل في هذا تناقض ؟ أم أن كل هذه الأمور مجتمعة هي المؤثرة ؟ أم أن بعضها يحلّ محل الآخر على سبيل التناوب ؟ كلا ، لا تناقض هنا ، وليس المجموع هو المؤثر ، ولا تبادل في هذا الأمر ، وإنما الواقع هو أن لهذه العوامل دوراً في التأثير ، ولكنها جميعاً تكتسب من الله وجودها وقوّتها وطاقتها ونظامها وانسجامها ، فلو لم

يشأ الله لم تكن ، ولو لم يشأ لم تستمر . إذن كل رابطة بين موجود وآخر هي رابطة بينه وبين الله في مستوى أرفع ، فهو سبب من قبل الله ، لأن الله هو الموجد للسبب وهو الذي يجعله سبباً .

ولا بد من الإشارة إلى أنه أحياناً قد تحلّ الأسباب غير الطبيعية محلّ الأسباب الطبيعية ، كما في حالات الإعجاز من قبيل شفاء المرضى أو إحياء الموتى على يد عيسى بن مريم (ع) ، إن هذه الأمور لم تتمّ طبقاً للعوامل الطبيعية وإلّا لم تكن إعجازاً . إذن أحدهما هنا أصبح بديلاً للآخر .

أما مقصودنا من الرابطة بين الله وجميع الظواهر فهو ليس من هذا القبيل ، لأنها لا تقبل بديلاً ، فإن فوق جميع العوامل الطبيعية وغير الطبيعية توجد فاعلية الله وربوبيته ، ولا يمكن أن يحلّ محلها أيّ عامل آخر ، ولكن هذا لا يعني نفي تأثير أي شيء آخر في طول فاعلية الله ، فالله سبحانه يجعل بعض الأشياء سبباً يتحقق عن طريقه بعض التأثيرات الحقيقية في العالم .

والقرآن الكريم يحاول أن ينقل إلينا هذه المفاهيم بصورة تدريجية ، ولهذا فهو ينسب ظاهرة ما إلى عامل طبيعي فيقول مثلاً :

﴿ فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض﴾(1) .

فهو ينسب الإنبات إلى الأرض ، وأحياناً ينسبه إلى ماء المطر :

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾(2) .

وأحياناً أخرى ينسبه إلى الله تعالى :

﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾(3) .

وتوهّم بعض الناس ممّن اكتسحهم التفكير المادي أن الطبيعة هي الله ، فإذا قلنا في مكان : الله هو الذي ينبت الزرع ، وفي مكان آخر : ماء المطر هو الذي ينبته ، وفي مجال ثالث : الأرض تنبته ، إذن الله هو المطر وهو الأرض ،

---

(1) سورة البقرة : الاية ٦١ .

(2) سورة الأنعام : الآية ٩٩ .

(3) سورة الحجر : الآية ١٩ .

وإلّا لزم التناقض في كلام القرآن ، وللفرار من هذا التناقض نضطرّ للقول إن الله هو الطبيعة . وإذا رأينا في القرآن مثلاً أن الله هو الذي يحقّق النصر ، وفي مكان آخر منه المؤمنون هم الذين يحققونه ، إذن يعرف من هذا أن الله ليس شيئاً سوى المؤمنين .

وهؤلاء لا يستقرّون على رأي ، فتارة يقولون : إن المقصود من الله هو النظام الكلّي للعالم ، وتارة أخرى يقولون : المقصود منه سير الطبيعة حسب قوانين معينة ، وأخرى يقولون : هو حركيّة الطبيعة . . .

وهذه كلها انحرافات في معرفة الله ومعرفة علاقته تعالى بمخلوقاته ، فالله ليس هو الطبيعة ولا روحها ولا هو عين الإنسان ، والله غير الطبيعة وغير الناس ، وليس هو قوانين الطبيعة ، لأن القوانين صيغ كلية تستقر في أذهان الناس ، بينما الله سبحانه ليس موجوداً ذهنياً ولا مفهوماً انتزاعياً وإنما هو موجود حقيقي خارجي تتحقق كل الموجودات بإرادته ، ولا معنى لهذه التخرّصات بأن الله هو عين الناس أو عين الطبيعة ، فالعالم بأجمعه وعلى طول مرّ الزمان ـ سواء أكان الزمان متناهياً أم غير متناه ـ نسبته لوجود الله تعالى أقلّ من نسبة قطرة إلى محيط ، لماذا ؟ لأن القطرة إذا أضيفت إلى ماء المحيط فإنها تزيد في كميته وحجمه ، أما العالم بأجمعه فهو لا يزيد شيئاً في وجود الله ، فكيف يقال إن الله هو روح الطبيعة أو هو الإنسان أو المجتمع ؟

وصدق الله سبحانه في قوله :

﴿ وما قدروا الله حقّ قدره ﴾[1] .

أو أن نسبة الله إلى العالم كنسبة روحنا إلى بدننا . أيصحّ هذا عند من عرف الله ؟ إن روحنا إذا انفصلت عن بدننا يبقى موجوداً ولا ينعدم ، فهل يمكن بقاء العالم من دون وجود الله ؟

أتكون علاقة الله بالطبيعة مثل علاقات أشياء هذا العالم ؟

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩١ .

إن علاقات أشياء عالمنا لا تشبه تلك العلاقة وإلّا تعدّدت الآلهة ، ونحن عاجزون عن فهم كنه تلك العلاقة ، ولكننا نستطيع أن نفهم أنه لولا إرادة الله لم يبق أيّ شيء في ساحة الوجود ، وهذا يعني أننا نعترف بفاعلية الله في أعلى المستويات ، وبفاعلية الوسائط في مستويات أدنى ، ولا يعني هذا إنكار الفاعلية في المستويات الدنيا ، فالنار هي التي تحرق والماء هو الذي يطفىء الظمأ ، ولكن الاحتراق لا يتمّ إلا إذا كان لدينا نار وقطن وهواء ، وهذه الأشياء كلها قائمة بالذات الإلهية المقدسة ، ولا يشبه هذا الارتباط ما بين النار والإحراق من ارتباط ، لأنها رابطة أعمق وأرفع ، ولا بد أن نروّض انفسنا على أن لا نقيس الله في تأثيره وفاعليته بما يوجد بين الموجودات الأخرى من فاعلية وتأثير ، وحتى في حالة تحقق الإعجاز على يد النبي أو الإمام كما مر معنا في قصة عيسى حيث كان يحيي الموتى ، فهذا الإحياء يختلف عن إحياء الله من الأرض إلى السماء ، لأن إحياء النبي أو الإمام لا يكون إلّا بإذن الله وليس النبي إلا واسطة لا تملك من ذات نفسها شيئاً ، أما إحياء الله فهو ينتسب إلى فاعل هو المانح للوجود . ومثل هذا يجري في الأمور المعنوية ، لماذا بعث الله النبي (ص) ؟ إنه أرسله ليهدي الناس ، ولكنه سبحانه يقول :

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[1] .

أي ليس كل شيء تحت تصرفك وإنما أفاض الله عليك قدرة محدودة في ظروف معينة ، فهي قدرة الله أعارك إيّاها ، ولا يقتصر هذا عليك وإنما الناس جميعاً مثلك في هذا الأمر ، ولهذا فإن الحقائق لا تتبع رغبتك . ولا يقتصر الأمر على أن إرادة الله إذا تعلقت بشيء فهي لا تتخلف فحسب ، وإنما إرادتك أنت أيضاً إذا استقرت في مجرى إرادة الله فإنها تتحققّ لأنها إرادة الله ، وأما إذا لم تجر في هذا المسير فإنها لا تكون منشأ لأيّ أثر على الإطلاق .

ونحن عندما نقول إن فاعلية الله تكون في مستوى أرفع ، وفاعلية الإنسان في مستوى أدنى منها ، فنحن لا نقصد بالأرفع والأدنى العلو والدنو

---

(١) سورة القصص : الآية ٥٦ .

المادي وإنما هو إشارة إلى حقيقة لا ندرك كنهها ، ونقصد منه أن التأثير الحقيقي المستقل هو لله ، وتـأثيره أصيـل إلى حدّ أنـه لا يمكن اعتبار أي شيء في هـذا المستوى مؤثّراً ، ففي ظله توجد العوامل الأخرى وتصبح منشأ للآثار وإلّا فإنها لا تملك شيئاً من ذات أنفسها .

ولتقريب الموضوع إلى الذهن نذكر مثالاً من حياتنا العادية لنسبة الفعل إلى فاعلين أو أكثر طولياً ، مع التنبيه على أن المثال عاجز عن بيان حقيقة الأفعال الإلهية : ﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ :

عندما تريدون كتابة مقالة ، فإذا لم تكونوا موجودين أو لم تكن الروح في بـدنكم أو لم تكن لكم إرادة وشعور وإدراك ، أو كنتم تتمتعـون بهذه الأمـور ولكن ما كانت لكم يد سالمة ، أو أنكم لا تملكون قلماً ، فإن المقالة لا تكتب . فهنا توجد عـدّة واسطات ، ويمكننا نسبة الكتابة إلى كل واحد منها فنقـول : اليد كتبت ، أو القلم كتب ، أو أنا كتبت ، وكل نسبة من هذه حقيقية ، وكل واحد منها فاعل ولكن طولياً . والله سبحانه يؤدي جميع الأفعال ، ولا يعني هذا أن جميع الظواهر تصدر منه مباشرة ، وإنما هو يؤدّيها عن طريق وسائط محسوسة أو غير محسوسة .

ونستطيع أن نجد لهذا أمثلة في القرآن الكريم ، مثلاً موضـوع تصويـر الإنسان في القرآن فالله سبحانه يقول :

﴿ **هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء** ﴾[1] .
﴿ **هو الله الخالق البارىء المصوّر** ﴾[2] .

بينما نجد في الروايات أن تصوير الإنسـان ينسب إلى ملك بعينه يفعـل ذلك بإذن الله ، ونجد من ناحية أخرى أن العلم يثبت كون تصويـر الإنسان تابعاً لمجموعة من العوامل الطبيعية هي التي تعين صورة الجنين ، مثل الجينات

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦ .

(٢) سورة الحشر : الآية ٢٤ .

الموجودة في بويضة الأم ، والحيوان المنوي للأب وغذاء الأم و. . .

فهل في هذا تناقض ؟

العلم يقول مثلاً : إن عين الطفل الفلاني قد أصبحت نرجسية بسبب وجود الجينات الموروثة ، والرواية تقول : إن الملك هو الذي جعلها كذلك ، والآية تقول إن الله فعل ذلك ، فهل تكون هذه الأقوال متناقضة ؟

الجواب : في مثال كتابة المقالة إذا لم يمكن نسبتها إلاّ إلى عامل واحد فقط فإنه لا يصحّ كذلك نسبة لون العين هذا إلاّ إلى واحد من هذه العوامل ، ولكن النسبة هناك كانت صحيحة وحقيقية لعدة عوامل في طول بعضها ، فكذلك هنا تكون صحيحة ، ونستطيع نسبة لون العين إلى جميع هذه العوامل في طول بعضها .

كان أحد الأطراف في هذ المثال هو القرآن ، والطرف الآخر هو الرواية ، والطرف الثالث هو العلم ، ولدينا مثال من القرآن يثبت وجود أكثر من فاعل واحد طولياً ، يقول تعالى :

﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها ﴾[1] .

وفي آية أخرى يقول :

﴿ قل يتوفّاكم ملك الموت ﴾[2] .

وملك الموت هذا هو الذي يسمى في الروايات بـ « عزرائيل » .

وفي آية ثالثة يقول :

﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ﴾[3] .

قد يخيل للبعض أن بين هذه الآيات تناقضاً ، ولكن الواقع أنها تتحدّث عن رابطة طولية ، فالمؤثّر الحقيقي هو إرادة الله ، والآخرون كلهم مجارٍ لتحقق

(١) سورة الزمر : الآية ٤٢ .

(٢) سورة السجدة : الآية ١١ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٦١ .

تلك الإرادة ، فإرادته تتحقق عن طريق ملك الموت ، وملك المـوت يؤثّر عن طريق أعوانه الذين يشاركونه في أداء هذه المهمـة ، وحينئذٍ يصـحّ نسبة قبض الروح إلى الملائكة وإلى ملك الموت وإلى الله سبحانه . وجميع هذه التأثيرات لا تلغي تأثير الطبيعة ، فهي لا تعني أن القلب لا يقف عن العمل وأن المعدة لا تستهلك وأن الكبد لا ينهار عند الموت ، فكل هذه وغيـرها كثـير يحدث عنـد الموت ولكنها تتمّ بتدبير مبدأ أرفع وأعظم .

ومثال آخر من الحياة العادية : سائق يقود سيارته ، هل الموّجه هو الذي يهدي السيارة أم السائق ؟ كلاهما ، لأنه إذا لم يكن الموّجه لا تتجه السيارة نحو اليمين أو الشمال ، وإذا لم يكن السائق فإن السيارة أيضاً لا تميل نحو أحدهما ، وإذا لم يكن عقل السائق وإرادته فإن يديه لا تتحـركان ، والاعتـراف بوجـود القوانين الميكانيكية والفيزيائية إلى حركة السيارة أو تبديل المادة إلى طاقة لا يعني بـأيّ حال من الأحـوال إلغاء دور السـائق . والإنسان عـادة يحصر اهتمـامـه بالعوامل الطبيعية ولا يعير بـالاً للعامـل الذي هـو فوق الـطبيعة وهـو متسلط عليهـا ، وقد جـاء الأنبياء لكي يفتحـوا أعين النـاس ليـروا مـا يكمن خلف الستار ، وليشاهدوا يد الله في كل مكان .

ويطرح في هذا المجال سؤال يقول :

هل أن تأثير الله في وجود الظواهر هو بصورة أمر فقط أم أكثر من ذلك ؟

إذا كان تأثيره ينحصر في الأمر فقط إذن لا تحتاج الأشياء إليه تعالى بعد صدور أمره ، وفي القرآن آيات كثيرة تربط أفعال هذا العالم بإذن الله ، فتدبيره إذن يقتصر على إذنه ، ونحن بحاجة إلى الله في حدوث العالم فقط لا في بقائه واستمراره .

ولكن هذا الظنّ لا تؤيّده الآيات القرآنية ولا البراهين العقلية .

فالقرآن ينقل عن اليهود مثل هذا التصور ويهاجمهم بعنف :

﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يـداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٤ .

أما من ناحية الأدلة العقلية فمن الثابت كون ممكن الوجـود محتاجـاً إلى العلة في جميع شؤون وجوده ولا يستغني عنها إطلاقاً ، وهكذا نتصاعد في العلل حتى نصل إلى واجب الوجود الذي يفيض عنه الوجود دائماً لكلّ موجود .

وقد يتوّهم البعض أنه يلزم من قولنا هذا القول بالجبر ، لأنه إذا كان الله هو الموجد لإرادتنا حسب التصاعد الطولي ، إذن ليست أفعالنـا إلاّ أفعالـه في الواقع ، نحن آلة فقط لتحققها ، وهذا هو الجبر بتمام معناه .

إن الجواب على هذا سوف يـأتي في الفصل الخـاص بمعرفـة الإنسان ، ولكننا هنا نذكر له جواباً مختصراً :

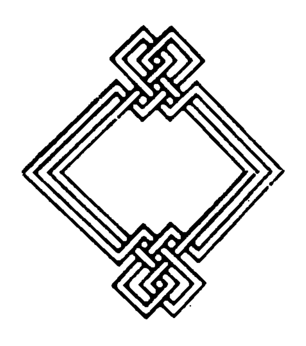
إن هذا لا يعني الجبر بأيّ شكل من الأشكال ، فأفعال الله تتحقق عن طريق الإرادة والشعور ، والله أراد أن يتحقق هذا الفعل عن طـريق إرادتنا ، ولو أراد الله لهذا الفعل أن يتحقق بدون إرادتنا لأصبح جبراً ، أما وقد أراد أن يتحقق بإرادتنا فلا جبر . وبعبارة أوضح : إن الله أراد أن أكون ذا إرادة وأن أعمل بإرادتي ، والله خلقني وخلق ما أملك من طاقات وقدرات ، ولـما كانت هذه جميعاً مخلوقاته فهي تنسب إليه .

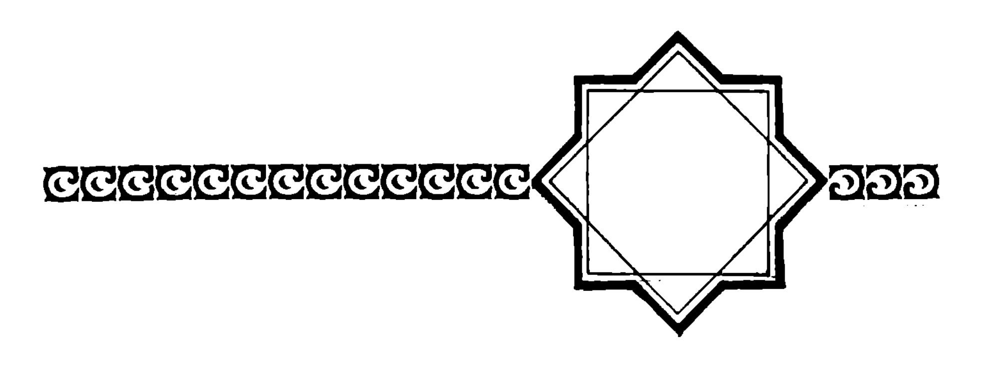
ويذكر العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه مثالاً لتقريب هذا الموضوع إلى الذهن :

تصوروا في أذهانكم شخصاً يرغب في تناول الطعام ثم يذهب بـإرادته ليأكل منه ، هل ذهب هذا الشخص إلى الطعام وتناوله بإرادته أم بإرادتكم ؟ إنـك تصوّرتم إنسـانـاً ذا إرادة ، فـإذا قلتم إنـه أكـل بـلا إرادة فهـو مخـالف لتصوركم ، إذن قد تناول الطعام بإرادته ، ولكن وجود هذا الإنسان يتـوقّف على إرادتكم ، فأنتم أردتم إيجاد إنسان ذي إرادة في أذهانكم .

فهذا العالم بكل ما فيه من إنسان وإرادتـه واختياره وأفعـاله الاختيـار بالنسبة إلى الله تعالى مثل عالم الذهن بالنسبة إليكم ، مع التأكيد على أن هـ مثال للتقريب ولا يحكي الحقيقة تماماً .

ولا يذهبنّ الوهم بأحد فيتصوّر أننا مثاليون نؤمن بأقوال هيجل بأن العالم ذهني محض ، كلّا ، فنحن نقول بأن العالم أمر خارجي واقعي ، وهو بواقعه ـ منسوباً إلى الله ـ يشبه الصورة الذهنية منسوبة إلى الإنسان ، فهو إذن تشبيه لا أكثر .





كيفية الإيجاد

من المواضيع التي لا بدّ من دراستها فيما يتعلق بحكمة الأفعال الإلهية موضوع « كيفية الإيجاد » ، ومعناها أن الله عندما يريد خلق شيء فكيف يوجده ؟

وقبل الدخول في صميم الموضوع نرى من اللازم ذكر بعض المقدمات :

المقدمة الأولى : كما أن العقل لا يستطيع إدراك كنه الذات الإلهية ولا كنه صفات الله تعالى فهو لا يستطيع أيضاً أدراك حقيقة الفعل الإلهي ، أي أنّ العقل عاجز عن إدراك حقيقة ارتباط فعل الله بمخلوقاته ، لأن عمل العقل هو إدارك المفاهيم ، ولا يمكنه أن يعكس حقيقة المصداق ، اللهمّ إلاّ أن يكون الإنسان قد أدرك هذا المصداق من قبل ، ثم يجعل هذا المفهوم علامة عليه .

وقد قلنا في باب الصفات الإلهية إن العقل بنفسه لا يمكنه إدراك حقيقة صفاته تعالى ، والذين وفقوا ليعرفوا الصفات الإلهية بالعلم الحضوري هؤلاء فقط يستطيعون أن يجعلوا المفاهيم العقلية حاكية عما وجدوه حضورياً ، ويبيّنوا بالمفاهيم حقيقة صفاته تعالى ، والمقصود من عباد الله المخلصين الوارد في الآية الكريمة هم أولئك الذين نالوا الحظوة ووصلوا إلى المعرفة الشهودية ، فهم يستطيعون أن يصفوا الله جلّ وعلا .

ويصـدق الشيء نفسه بـالنسبة لـلأفعال الإلهيـة ، لأن العلاقـة بين الله ومخلوقاته لا يوجد مثلها بين جميع المخلوقات وإلّا كان شركاً في الخالقية ، ونحن كلما ضغطنا على عقولنا لنفهم كيف يصدر الفعل من الله فإننـا لا نستطيـع أن نفهم حقيقة ذلك . نعم يستطيع العقل أن يستعمل المفـاهيم لتعكس الأفعال الإلهية كما كان يستعملها في مورد الذات والصفات الإلهية ، فهو يأخذ المفاهيم من المصاديق الإنسانية الخاصّـة ، ثم يجرّدهـا من العدم والنقص ، ويعممهـا بحيث تشمل الذات الإلهية المقدسة .

مثلاً بالنسبة لوجود الله ، نحن ندرك وجود أنفسنا بالعلم الحضوري ، ونأخذ مفهوماً من ذلك يحكي عن وجود ناقص ممكن طفيلي ، ثم نحذف هذه القيود ليكون صالحاً للانطباق على وجود الله تعالى ، ولكن هذا المفهوم لا يمكن أن يبين حقيقة وجود الله . وكذا الأمر في مورد القـدرة والعلم والحياة الإلهيـة وسائر صفاته جلّ وعلا .

ويجري مثل هذا في مورد الأفعال الإلهية ، فهناك أفعال تصدر منا ونحن ندرك علاقتنا بتلك الأفعال ، مثل الصورة الموجودة في أذهاننا فـإنّ لها عـلاقة بالنفس (هذا إذا اعتبرنا الصورة فعلاً للنفس) ونحن ندرك أنفسنا وأفعالها ثم نأخذ مفهوماً من هذه العلاقة هو مفهوم الفاعلية أو التأثير أو الإيجاد . وتكون هذه العلاقة محدودة لأننا لا نستطيع القيام بذلك إلا في ظروف معينة ، فنحن محدودون وأفعالنا محدودة ، ثم نقوم بحذف القيود ونقول : كل لون من ألوان التأثير ومن أي فاعل فإنّ اسمه فعل ، وكل موجود يحتاج بنحو من الأنحاء إلى موجود آخر فهو معلول ، وكل موجود يؤمّن حاجة موجود آخر بأيّ شكلٍ من الأشكال فهو علة .

فإذا قمنا بهـذه العملية وحـذفنا الخصـوصيات من المفهـوم فإن مفهـوم الخالق ، الفاعل ، العلة وأمثالها تصبح صالحة للانطباق على الله تعالى . فالله فاعل ، أي أن الأفعال محتاجـة إليه ، خـالق للعالم ، أي أن العـالم لا يوجـد بدونه ، علّة للأشياء ، أي أن الأشياء تحتاج إليه . وعلى هذا الأساس نقول إن الله فاعل والعالم متعلّق فعله ، الله مؤثّر وهذه جميعاً آثاره . ولكن ما هي حقيقة

خلق الله ؟ وكيف يـوجد الأشيـاء ؟ نحن لا نستطيـع إدراك ذلـك مـا لم نكن واجدين له بـالعلم الحضوري (نحن نـدرك نموذجـاً لذلـك في أنفسنا ، وهـو الصورة العقلية في أذهاننا ، فبمجرد أن نصرف النظر عنها فهي تنعدم ، وليس هذا إلّا تشبيهاً ناقصاً ، ولله المثل الأعلى) .

ولعلّ قصة إبراهيم (ع) : « ربّ أرني كيف تحيي الموتى » تشير إلى هذا الموضوع ـ حسب ما مرّ بيانه ـ ، فإبراهيم كان مؤمناً بالخلق وما كان له أي شكّ فيه ، ولكنه كان يريد أن يرى كيفية الإحياء ، وقد أجراها الله على يده ، وبهذا قد ظفر إبراهيم (ع) بالشهود في الإحياء وبالرؤية القلبية : « ليطمئنّ قلبي » ولم يحصل هنا على العلم الحصولي ، وكل من يرتفع إلى هذه المنزلة فإنه سوف يرى ملكوت العالم :

﴿ وكـذلك نري إبـراهيم ملكوت السمـاوات والأرض وليكـون من الموقنين ﴾[1] .

وتتحققّ عنـدئذٍ الأفعـال الإلهية عن طـريق إرادته فيفهم حقيقـة الفعل الإلهي . أما نحن الذين لم يتيسّر لنـا مثل هـذا فيجب أن لا نطمـع في إدراك حقيقته .

المقدمة الثانية : إن الخلق والإيجـاد والفاعليـة والتأثـير وما يشبههـا هي مفاهيم انتزاعية لا تحكي عن حقيقة خـارجية (مثـل جميع المعقـولات الثانيـة الفلسفية) ، أي أن هناك في الخارج الذات الإلهية المقدسة وذات المخلوقات ، ولا توجد حقيقة خارجية ثالثة تسمى بالإيجاد ، وإلاّ إذا كانت موجودة فلا بدّ من السؤال عن الإيجاد حينئذٍ هل هو خالق أم مخلوق ؟ بالتأكيد ليس خالقاً لأنه يلزم منه الشرك ، فلا بدّ أن يكون مخلوقاً ، وإذا كان كذلك فلا بد أن يوجده الله ، ويجري البحث في هذا الإيجاد الجديد ، وهلمّ جرّاً .

المقدمة الثالثة : العناوين الانتزاعية تتبع طرفي انتزاعها ومنشأه ، أي إذا أردنا إثبات صفة حقيقية لعنوان انتزاعي فإنه يكون بلحاظ الصفات الموجودة في

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٥ .

منشأ الانتزاع ، وإلاّ فإن العنوان الانتزاعي ليس أمراً حقيقياً حتى نثبت له صفة حقيقية ، إذن : عند وصف هذه العناوين الانتزاعية لا بدّ من أخذ طرفي الانتزاع بعين الاعتبار . وبلحاظ الطرفين نثبت وصفاً لها .

مثلاً : بالنسبة لأفعالنا توجد ذاتنا وتوجد ذات فعلنا ، ومن الطبيعي أن يكون فعلنا محدوداً من حيث الزمان أكثر منّا ، فعندما نريد ، تكون إرادتنا واقعة في زمان محدود بينما نحن موجودون في زمان أوسع ، وبعد ملاحظة ذات الفاعل (النفس) وذات الفعل (الصورة الذهنية) ننتزع عنوان الفاعلية لأنفسنا وعنوان المفعولية للصورة الذهنية ، والعلاقة بينهما هي الفعل والتأثير .

وهنا نتساءل : في أي زمان تتحقّق هذه العلاقة ، ولأي زمان ينسب هذا الأداء (العنوان الانتزاعي) للفعل ؟

إذا أردنا تعيين زمانه فلا بدّ من الرجوع إلى منشأ انتزاعه ، أي إلى الذات والفعل ، فالزمان المشترك بين الفعل والفاعل هو زمان تلك العلاقة . وقد يعمّر الفاعل ستين عاماً ، ولكن الزمن المشترك بينه وبين الفعل كان عشر دقائق ، إذن هذه الدقائق العشر هي زمان أداء الفعل (في الواقع هي زمان الفعل وتنسب للأداء بالعرض) .

فإذا كان طرفا النسبة غير زمانيين أيصحّ لنا القول إن « التأثير » المنتزع من موجودين غير زمانيين يتحقّق في ظرف الزمان ؟

قلنا إن العنوان الانتزاعي تابع لمنشأ انتزاعه ، ومنشأ الانتزاع هنا لا زمان له ، إذن كيف يمكن القول إن هذا التأثير واقع في زمان ؟

أما إذا فرضنا أن الله ـ الذي هو غير زماني وخالق للزمان ـ قد خلق مخلوقاً زمانياً مثل أشياء العالم الطبيعي فماذا نقول هنا ؟

إن عنوان الفاعلية عنوان ذو طرفين ، وأحد طرفيه هنا شيء غير زماني والطرف الآخر شيء زماني ، أحد طرفيه ذات الله تعالى ، والطرف الآخر هو المخلوق المادي ، فهل تكون العلاقة بين هذين زمانية أم غير زمانية ؟

من الطبيعي أن يكون لها اعتباران ، فهي تتصّف بالزمان بلحاظ تعلقها بالشيء الزماني ، وهي أيضاً غير زمانية بلحاظ تعلقها بالله سبحانه .

ويطرح هنا هذا السؤال :

كيف يمكن أن يكون لشيء واحد طرف زماني وآخر غير زماني ؟

الجواب : لو كان هذا شيئاً خارجياً لصحّ فيه الإشكال ، ولكننا قلنا إن العلية والإيجاد و . . . هي مفاهيم انتزاعية ينتزعها العقل ، إذن يمكن أن نلاحظها مرتين باعتبارين .

ومن هذه المقدمات ننتقل إلى صميم الموضوع : عندما نستعرض القرآن الكريم نجده ينسب أفعالاً متنوعة لله سبحانه ، فهو ينسب إليه المادّيات والمجّردات ، الخلق والتدبير ، إذن من ناحية أن الله تعالى ارتباطاً بجميع موجودات العالم ، بينه وبين كل واحد منها ، وبينه وبين مجموعها فإن رابطة الفاعلية تكون موجودة . ونلاحظ أن القرآن أحياناً يبين هذه الأفعال بشكل زماني ، وذلك لأننا نعرف الفعل مقترناً بأحد الأزمنة الثلاثة ، وإذا أراد الله أن يبين علاقته وعلاقة أي مخلوق غير زماني فإنه لا بدّ أن يبينه بلفظ الفعل ، وهو يدّل عندنا على الزمان بينما تلك العلاقة ليست زمانية ، إذن لا بدّ من الالتزام بأن هذا الفعل منسلخ عن الزمان كما مرّ معنا خلال دراسة الآداب العربية من أن قوله تعالى : ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ (كان) يعتبر منسلخاً عن الزمان .

ولما كانت الأفعال المستعملة في مورد الله منسلخة عن الزمان فلا بدّ أن لا تكون تدريجية (لأن الزمان لا يمكن أن يكون بلا تدرّج) ، وتوجد في هذا الخصوص آيات تدّل على أن فعل الله لا تدّرج فيه ولا تأخير :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[1] .

(إذا) تدل على الزمان وقد قلنا إن ذات الله لا زمان لها ، إذن يكون هذا الزمان بلحاظ تحققّ الفعل ومتعلق الإرادة لا بلحاظ الذات الإلهية نفسها ، فـ « أراد » زماني بلحاظ الانتساب إلى متعلق الإرادة لا بلحاظ الذات الإلهية .

---

(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

ومن ناحية أخرى توجد آيات تصرح بأن فعل الله قد امتد عدّة أيام ، كما ورد قوله تعالى في موضوع خلق السماوات والأرض :

﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾[1] .

إذا كان الله أراد شيئاً فهو يقول له كن فيكون ؛ فلماذا استمر ستة أيام ؟

الجواب : إذا دقّقنا فيما قلناه سابقاً يتّضح لنا طريق الجمع بين هذه الآيات ، ونحن نرفض ما قاله بعض المفسرين من أن الآيات الدالّة على الدفعية تتعلق بالموجودات غير الزمانية، وقد حمل بعضهم « الأمر » الوارد في الآيات على عالم المجرّدات ، ولكننا لا نتفق معهم على هذا لأن للآية الكريمة إطلاقاً ونلاحظ أحياناً استعمال « الأمر » في مصاديق مادّية ، ولا يوجد أيّ دليل على أن « الأمر » يستعمل في القرآن بمعنى عالم المجرّدات . أما وجه الجمع الذي نراه صحيحاً فهو : إن الفعل الإلهي من ناحية انتسابه إلى الله تعالى فهو ليس تدريجياً ، وأما الطرف الآخر فهو تابع له إن كان زمانياً فسيصبح هو زمانياً وإلاّ فلا ، مثلاً إذا كان الخلق والأمر متعلقاً بالمجرّدات التامة إذن كلا الطرفين سيكونان غير زمانيين ، وأما إذا تعلقا بالموجودات الزمانية فسيكونان زمانيين بهذا اللحاظ . فإذا قلنا : الآن خلق الله ، فهذه « الآن » من جهة انتساب الفعل للمخلوق لا للخالق ، وعليه نقول : إن الله أراد خلق السماوات والأرض فقال لهما كونا فكانتا ، ولكن وجود السماوات والأرض كان في ستة أيام ، أي هذه الأيام ظرف للمخلوق لا لله .

إذن فالآيات الدالة على الزمان تكون بلحاظ تعلقها بالزمانيات ، والآيات الدالة على غير الزمان تكون بلحاظ العلاقة الموجودة مع الله سبحانه وتعالى .

فإذا لاحظنا صدور الأشياء المادّية من الله فلا تدريج ولا زمان ، وبهذا اللحاظ نقول إن الله يخلق جميع الأشياء وحتى المادّية بدون زمان ،

---

(٢) سورة السجدة : الآية ٤ .

وعملية الخلق التي يقوم بها الله تتعلق به ، فلا زمان لها ، فهي إرادة منهوقول « كن » فإذا تعلقت إرادته بشيء فإنه يتحقّق إنساناً كان أم موجوداً مجرّداً ، فإرادته لا تقع في زمان ، ثم ماذا يوجد عندما يريد ؟ يوجد شيء يشكّل الزمان أحد أبعاده ، فالموجود المادي له أبعاد متعدّدة هي الطول والعرض والعمق والزمان ، وكما أن لكل شيء طولاً خاصاً به فله زمان خاص به وله عرض مختصّ به ، وقد بيّن هذا الموضوع صدر المتألهين رضوان الله عليه وهو يختلف عن الموضوع الذي اشتهر به « أنشتاين » من أن الزمن هو البعد الرابع ، وليس ههنا مجال تفصيل هذا . فالزمان يوجد مع العالَم كما أن الطول والعرض يوجدان معه ، عندما يخلق الله شيئاً ماديّاً متى يوجد طوله وعرضه ؟ قبل وجود الشيء أم بعد وجوده ؟ إن هذا الشيء معناه ما له طول وعرض ، فإيجاده يعني إيجاد طوله وعرضه وعمقه وزمانه ، وهذه الأشياء ليست منفصلة عنه ، وإيجاده أيضاً يعني إيجاد زمانه ، لأن الزمان بعد من أبعاده ، ويتّضح بهذا أن فعل الله من ناحية انتسابه له تعالى لا يقع في ظرف الزمان ، لأن الشيء لم يخلق بعد فزمانه أيضاً غير موجود ، وإنما هو يخلق معه كالطول والعرض تماماً . أما كيف يتم ذلك ؟ إن الله يقول للعالم « كن » فيوجد . وأيّ عالم يوجد ؟ يوجد العالم ذو المليارد عام مثلاً ، كما أنه ذو المليارد كيلومتر فرضاً . وعندما يريد الله أن يخلق الطول أيلزم أن يكون الله حالاً في مكان ؟ كلا فالله لا يحدّه مكان ، وكذا الحال فيما إذا أراد الله خلق شيء زماني فإنه لا يلزم أن يكون تعالى في الزمان، فلا ذات الله سبحانه ولا فعله يحلاّن في الزمان ، ولكنه من ناحية انتساب فعله تعالى إلى المخلوق الزماني فإنه يتصف بالزمان . يقول الله تعالى :

﴿ **إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] .

وأيّ أمر ؟

كلّ أمر ماديّاً كان أم مجرّداً .

وحاول بعض المفسرين حمل هذه الآية على الأشياء غير المادية ، ولكن هذا الفهم لا ينسجم مع إطلاق الآية : « إذا أراد شيئاً » ، بينما فهمنا يتلاءم

---

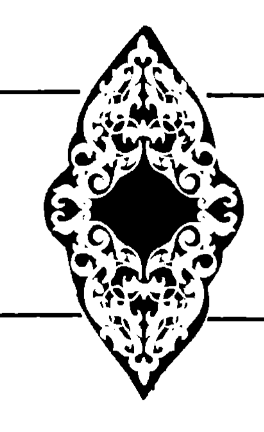
(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

مع إطلاقها ، ونقول خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ، أو خلق الله الإنسان خلال تسعة شهور معناه : أن الله خلق شيئاً وبعد وجوده ستة أيام أو تسعة شهور ، كما أن له طولاً وعرضاً وعمقاً معيناً .

فإذا قال لموجود عمره مليون سنة « كن » فهو يوجد ، وماذا يوجد ؟ يوجد الشيء الذي يستمر مليون عام ، وهذا لا يعني أنه تعالى حالّ في زمان لأنه محيط بكل الأزمنة ، ولا يعني أيضاً أنه حالّ في مكان .

* * *





إرادة الله وكلامه

إرادة الله

تحدّثنا فيما مضى عن هذه الآية الكريمة :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[1] .

وهو حديث عن إرادة الله وكلامه ، ونواجه هنا هذا السؤال : ما هو معنى إرادة الله ؟ أيكون الله مثل الموجودات الأخرى يفكر في الأفعال ثم يتّخذ قراراً بالقيام بها ثم يقول « كن » ؟

وقبل الجواب نذكر مقدمة تعيننا في فهم الموضوع :

إن صفات الله سبحانه تكون على قسمين : صفات الذات وصفات الفعل . صفات الذات هي التي ينتزعها العقل من الذات المقدّسة نفسها مع قطع النظر عن مخلوقاته تعالى ، وهي واردة في الشرع وعلى لسان الوحي مثل مفهوم الحياة (صفة من صفات الله) :

﴿ الله لا إله إلاّ هو الحي ﴾[2] .

فالحياة صفة لذات الله ولا علاقة لها بالمخلوقات وجدت أو لم توجد ،

(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

فهي تنسب للذات بلحاظ الذات نفسها من دون نظر إلى أي شيء آخر ، وكذا علم الله فهو سبحانه ذات عالِمة وجد شيء غيره أم لم يوجد ، وكذا قدرته فهو ليس عاجزاً ، وحتى لو أقحمنا مفهوم الاختيار في القدرة فهو يعني أنه موجود يعمل متى شاء وليس مجبوراً على أمر ولا يمكن الضغط عليه لأداء عمل ، فالقدرة صفة تنتزع من الذات الإلهية مع قطع النظر عن متعلقها ، أي أننا لا نلتفت إلى أن قدرته على أيّ شيء تكون ، هذه صفات للذات . وتوجد مجموعة من الصفات لا يمكن أن تنتزع وتنسب لله إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار مخلوقاً ، وتسمى هذه بصفات الفعل كالخالق والرازق والمدّبر وأمثالها ، وهي تحكي عن الأفعال الإلهية وكيفيتها ، فما لم نأخذ بعين الاعتبار مخلوقاً لا يمكن أن يقال إن الله خالق ، وما لم نأخذ بعين الاعتبار مرزوقاً لا يمكن القول إن الله رازق .

ثم اختلف العلماء والمتكلمون بعد هذا التقسيم في بعض الصفات هل أنها صفات للذات أم صفات للفعل ؟ أي هل أنها تنتزع من الذات المقدسة أم من فعله تعالى ؟ ومن جملتها صفة الإرادة وصفة الكلام اللتان تنسبان إلى الله تعالى ، فمن البحوث الغارقة في القدم هو هذا الموضوع :

هل كلام الله حادث أم قديم ؟

ولعلّ تسمية علم الكلام قد جاءت من مناسبة البحث عن كلامه عزّ وجل . وهل كلامه ينتزع من ذاته أم من مخلوقاته ؟

وامتدّ البحث إلى القرآن الكريم هل أنه حادث أم قديم ؟

وارتفعت حدّة النزاع بين المتكلمين من أهل السنة : الأشاعرة والمعتزلة ، فالأشاعرة يعتقدون أن القرآن كلام الله وهو قديم ومن صفات الذات . وعارضهم المعتزلة بشدّة واعتبروا كلام الله حادثاً والقرآن مخلوقاً ، وأدّى هذا الخلاف العنيف إلى تكفير بعضهم بعضاً . واستمرّ الخلاف حول كلامه تعالى وإرادته : أهما من صفات الذات أم من صفات الفعل إلى زمان نضج الفلسفة الإسلامية .

كانت هذه إشارة عابرة إلى تاريخ هذه المسألة وما حدث فيها من اختلاف بين العلماء والمفكّرين ، والآن نعود إلى السؤال الذي طرحناه في أول هذا الموضوع وهو : ما هو معنى إرادة الله ؟أيكون الله مثل الموجودات الأخرى يفكّر في الأفعال ثم يتخذّ قراراً للقيام بها ثمّ يقول « كن » ؟

إن البراهين العقلية والأدلة النقلية قائمة على أن الله تعالى ليس مثل الإنسان يفكّر ويدبّر وتعرض عليه هذه الأعراض ، وإنما الذات الإلهية المقدسة ببساطتها واجدة لجميع الكمالات ، وعلمه تعالى محيط بكل شيء ، وهو جلّ وعلا لا يصبح عالماً عن طريق التفكير ولا يتخذ قراراً بعد المقارنة ، لأن هذه من شؤون الموجودات الجاهلة الناقصة العاجزة ، ومن أعراض المخلوقات المادية ، والله تعالى منزّه عن أن يكون محلاً للحوادث والأعراض والكيفيات النفسانية ، إذن كيف تكون إرادة الله ؟

اختلف الفلاسفة والمتكلمون في الجواب على هذا السؤال ، فوقف الفلاسفة في جانب ووقف في مقابلهم كثير من المتكلمين .

فالمتكلمون يدّعون ـ مستندين إلى ظواهر الكتاب والسنة ـ أن إرادة الله أمر حادث يوجد في زمان خاص وظروف معينة ، ويشكل عليهم الفلاسفة بأن هذا القول يستلزم بعض المستحيلات ، فيلزم منه مثلاً أن تكون ذات الله سبحانه مثل الجوهر الذي تعرض عليه الأعراض ، بينما وجود الله أرفع من الجوهر والعرض . وذكروا إشكالات أخرى لا يمكننا ذكرها تفصيلاً لأن دراستنا قرآنية ، لذلك نشير بشكل سريع إلى أهمّ ما ذكروه .

يقول الفلاسفة للمتكلمين : إنكم تدّعون أن الإرادة حادثة لله ، فهل تكون هذه الإرادة عين ذاته تعالى أم خارجة عنها ؟

من المؤكّد أنكم تقولون خارجة عنها ، لأنها لو كانت عين الذات لم تكن حادثة ، ولما كانت خارجة عنها فهي إذن مخلوقة ، وهنا نتساءل : أتكون هذه الإرادة المخلوقة صادرة من الله بإرادته أم بدون إرادته ؟

إن كانت صادرة منه بدون إرادته فيلزم من ذلك أن يكون الله فاعلاً مجبوراً ، بينما أنتم تتّهمون الفلاسفة بأنهم يعتبرون الله فاعلاً مجبوراً وأنكم تعتبرونه فاعلاً مختاراً ، وإن قلتم إن الله خلق الإرادة بإرادة أخرى فإنه يلزم منه التسلسل .

وللفرار من هذا المحذور أعادوا الإرادة الإلهية إلى علم الله ، فاشتهر بين الفلاسفة المسلمين أنّ إرادة الله هي العلم بالأصلح ، وبهذه الصورة فقد أعادوا الإرادة إلى الذات وقالوا بأنّها من صفات الذات ، وتختلف عن العلم بأن العلم أعمّ منها ويتعلق بأي شيء ، بينما الإرادة هي العلم بالأصلح .

ووقف المتكلمون ـ ولا سيما المتعبّد منهم بالشرع أكثر ـ موقفاً معارضاً قائلين : إن ظاهر الآيات يدّل على كون الإرادة أمراً حادثاً :

﴿ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[1] .

ولو كانت الإرادة من صفات الذات لم يصحّ صياغتها في جملة شرطية أو زمانية ، فمثلاً لا يصحّ القول : عندما تكون لله حياة فإنّه يؤدي الفعل الكذائي ، لأنّ صفة الحياة عين ذاته ولا يمكن إدخالها في جملة شرطية زمانية ، ولا يصحّ القول : إذا قدرنا ، لأن القدرة عين الذات . إذن لو كانت الإرادة من صفات الذات لم يصحّ جعلها مدخولة لأداة دالّة على الزمان . وعلاوة على هذا فإن الفعل « أراد » دالّ بنفسه على الزمان .

وهو إشكال قوي يبدو أنه ليس له جواب ، وأقصى ما يستطيعون قوله هو : إننا نؤوّل هذا الظاهر لقيام البراهين العقلية ضدّه ، إذن النزاع ليس حول البرهان العقلي وإنما حول هذه الظواهر ماذا نعمل بشأنها ؟ هؤلاء يقولون : كما أن البرهان العقلي ألجأنا لتأويل **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** و **﴿ جاء ربك ﴾** فهنا نعمل نفس الشيء .

ونحن نرى أنفسنا ملزمين بالتأكيد على شيئين :

---

(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

١ ـ إنّ إعادة الإرادة إلى العلم ـ حسب قول الفلاسفة ـ ليس لها وجه واضح لأن هذين المفهومين مختلفان ، ويكون هذا مثلما لو أعدنا مفهوم القدرة إلى العلم متعللين بأن قدرة الله مقترنة دائماً بالعلم ، وهو كلام لا يمكننا قبوله .

٢ ـ إذا قالوا بأن مصداق هـذه الأمور في الله واحـد فإننـا نجيب : بأنّ مصداق الصفات الإلهية واحد أيضاً ، ولكنه لا يلزم من هـذا انطبـاق مفهوم صفة على صفة أخرى بحيث يكون مفهوم الصفات جميعاً شيئاً واحداً .

ولكننا نستطيع أن نعيد الإرادة إلى معنى يتنـاسب مَع الـذات بحيث لا تكون في هذه الإعادة مخالفة للعرف .

أ ـ بالمعنى المعروف وهو اتخاذ القرار :

﴿ فلمّا أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما ﴾[١] .

ب ـ ولكنها تستعمل فيها أحياناً بمعنى الرغبة والحب :

﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾[٢] .

و « يريد » هنا بمعنى يحب ويرغب وليس بمعنى يتخـذ قراراً ، لأن هـذا يتعلق بالفعل ولا معنى لأن يتخذ الإنسان قراراً سِلَعَ الدنيا . ومعنى الآية هو : إنكم تتخيلون الدنيا شيئاً مهمّاً ولهذا تحبّونها ، ولكن الله يعلم أن الآخـرة أهمّ منها لهذا فهو يحبّها لكم .

فهل هذان المعنيان متباينان أم يلتقيان في شيء ؟

نحن نرى أن الحب واتّخاذ القرار متقاربـان ، حيث إن الإنسان عنـدما يصمّم على القيام بعمل لا بدّ أن تكون له رغبة في القيام به ، وإذا كان الإنسان لا يحبّ عملاً بأيّ عنوان فإنّه لا يقدم عليه .

وقد تعترضون علينا بأن الإنسان يتناول الدواء مـع أنه لا يـرغب فيه ،

(١) سورة القصص : الآية ١٩ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٧ .

وجوابنا هو أنه يرغب في السلامة وهذا هو الطريق إليها ، أو أنه يحبّ استئصال عضو من أعضائه من أجل أن تحتفظ سائر الأعضاء بسلامتها .

إذن بين المحبة والإرادة علاقة السبب والمسبب ، لهذا يقال للمحبة إرادة لأنها علة وجودها ، بل يمكن القول إن الإرادة هي تبلور تلك الرغبة الباطنية .

وإذا كان من اللازم إعادة الإرادة إلى معنى آخر فأنسب ما يكون هو إعادتها إلى حبّ الله ، وهو عين ذاته (صحيح أنهم لم يعدّوا المحبة من صفات الله ، ولكن البراهين العقلية تجيز لنا نسبة المحبة لله ، فهو تعالى يحبّ ذاته وكمال مخلوقاته وآثاره و. . .) .

إذن يمكن عدّ الإرادة بأحد الاعتبارات صفة للفعل ، وباعتبار آخر صفة للذات ، فإذا كانت بمعنى التصميم على أداء عمل فهي من صفات الفعل ، وإذا كانت بمعنى المحبة والرغبة فهي من صفات الذات .

وما هو موقفنا من ظاهر الآيات والروايات الذي يدّل على أن إرادة الله أمر حادث ؟ هل نؤوّلها أم هناك سبيل آخر ؟

وللجواب نذّكر القارىء الكريم بما مرّ معنا في الفصل السابق من المفاهيم ذات الطرفين ، أحد طرفيها يرتبط بموجود مجرّد لا زمان له ، والطرف الآخر مرتبط بالموجودات الزمانية المحدودة ، ومثل هذه المفاهيم يمكن نسبة الزمان إليها ويمكن تجريدها من الزمان ، والإرادة أيضا من هذا القبيل ، وهي أمر بين المريد والمراد ، فبالنسبة إلى المراد تكون زمانية ، أما بالنسبة للمريد (وهو الله تعالى) فهي غير زمانية .

وبعبارة أخرى : نحن نوافق على أنّ الإرادة من صفات الفعل كما يدّل عليه ظاهر الآيات ، وفي هذه الصفات لا بدّ من ملاحظة شيئين : ١ ـ الذات الإلهية ٢ ـ متعلقها ، ولما كانت منتزعة من طرفين فإذا لاحظ العقل هذا المعنى وهو أنّ الله ليس مجبوراً في أداء فعله ولا توجد قدرة في مقابل قدرته سبحانه وإنما الله يؤدي أفعاله حسب رغبته (وكل مجبور فهو ناقص) وهو تامّ الاختيار في أعماله فالعقل يلاحظ صدور فعل أو تحققّ مخلوق من قبل الله ، بحيث لا

يكون الله مجبوراً في إيجاد هذا المخلوق ، وعندئذٍ ينتزع العقل مفهوم الإرادة وينسب المريد لله والمراد للمخلوق .

وكل صفات الفعل هي ذات طرفين كالخالقية والرازقيّة وغيرهما .

ولكن هذا لا يمنعنا عن إثبات الإرادة التي هي من صفات الذات أيضاً ، ولو كنا لا نجد تعبيراً في الآيات والروايات يتحدّث عن الإرادة الذاتية ، لأن العقل لا يمنع انطباق هذا المفهوم (الإرادة بمعنى المحبة) على ذات الله . فكما أن العقل يثبت العلم للذات الإلهية بقطع النظر عن الأدّلة التعبديّة فهو يثبت المحبة لها أيضاً ، وإذا كانت المحبة تتعلّق بالفعل فإن عنوان الإرادة يصدق عليها .

ويتلخّص ما ذكرناه في أنّ الإرادة على قسمين :

١ ـ الإرادة الفعلية التي تنتزع من مقام الفعل ، وهي أمر ذو طرفين فمن ناحية أنها متعلقة بالله لا زمان لها ، ومن جهة تعلقها بالمخلوقات تكون زمانية .

٢ ـ الإرادة الذاتية التي تنتزع من الذات ، وهي بمعنى المحبة ، أي أن الله عندما يؤدّي أعماله ليس مجبوراً ولا ضغط عليه وإنما هو يحبّ فيعمل كما يحبّ .

كلام الله :

ثم ننتقل إلى الموضوع الثاني وهو كلام الله :

﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن (يقول) . . ﴾ .

﴿ وكلّم الله موسى تكليماً ﴾(١) .

بالنسبة للكلام الإلهي في بعض الموارد التي يوجد فيها مخلوق يتمتّع بالقدرة على الفهم والإدراك والسمع فإنه إذا كلّمه الله بشيء وفهم معنى كلامه يمكن القول إنّ الله قال له وهو سمعه . وما نعرفه نحن عن السماع يتعلق بالأذن ، فشخص يتكلم والآخر يسمع صوتاً ، فإذا خلق الله صوتاً يهزّ طبلة الأذن فإنه يمكن القول إن الله تكلّم مع الإنسان ، كما يحدث في كلام الإنسان

---

(١) سورة النساء : الآية ١٦٤ .

مع الإنسان ، فهو يوجد موجات صوتية في الهواء تخترق طبلة الأذن ، وتحدث ارتعاشاً داخل الأذن وتنتقل من هناك إلى المخ فيفهم الإنسان شيئاً ، فإذا خلق الله صوتاً مثل الصوت الإنساني يحدث موجات في الهواء تهتزّ لها طبلة الأذن وتنتقل إلى مخه فيفهم منها المعنى المتعارف فإننا نستطيع القول إن الله تكلم معه . ولست أدّعي أنه يقيناً بهذا الشكل ، ولكني أقول إذا كان الأمر كذلك فإنه يصدق عليه كلام الله ، كما لو فرضنا أن موسى عندما كان في جانب الطور وتحت الشجرة قد سمع صوتاً ماديّاً يقول :

﴿ إنّي أنا الله ربّ العالمين ﴾[1] .

فاهتزّت بهذا الصوت طبلة أذن موسى ، ففي هذه الحال يصدق أن الله قد كلّم موسى .

وقد يكون كلامه تعالى بشكل آخر ، فقد تكون هناك موجودات أخرى لا تتفاهم بالصوت والأذن والأمواج الصوتية ، فكل موجود يتكلم ويسمع بشكل يتناسب مع تكوينه ، مثلاً : الملائكة ، فإنّهم لا يسمعون بالأذن الجسمية ولا يكون الهواء وسيطاً في سماعهم وإنما هم يسمعون بشكل آخر لا نعرفه نحن لأننا لم نحط بهم علماً ، ولهذا فنحن لا نستطيع أن نفهم كيفية كلامه تعالى مع الملائكة ، فهو يقوم بشيء يفهمهم ما يريد ولكنه ماذا يعمل ؟ لسنا ندري ، لأننا لا نفهم الله ولا الملائكة حقّ الفهم . وأقصى ما نستطيع فهمه هو أنّ الله يقوم مع كل مخلوق بعمل يفهمه به مقصوده ، وفي مورد الإنسان يخلق صوتاً له ، ولا بدّ أن يكون في هذه الحال مستمع قادر على إدراك الموضوع ثم يتلقّاه في ظروف معينة وعندئذٍ نقول إن الله تكلم وهو قد استمع .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة ﴾[2] .

وهم استمعوا لهذا القول ، أما كيف ؟ فالله ليس له فم لأنه ليس جسماً ، إذن نحن لا نعلم بالضبط كيفيّة هذا الحدث ، ولا يوجد ما يشير إلى أننا نعلم كل شيء .

---

(١) سورة القصص : الآية ٣٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾[1] .

إذن لا بد أن نعلن عدم علمنا في كل مجال لا نعلم فيه شيئاً .

أما بالنسبة لهذه الآية :

﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن ﴾[2] .

فالشيء الذي يريد الله إيجاده ليس موجوداً حتى الآن ، فكيف يقول له الله ؟ وإذا كان موجوداً فهو ليس بحاجة إلى إيجاد . إذن كلام الله هنا يختلف عن سائر الموارد ، فكلامه تعالى مع الملائكة أو مع موسى يتمّ بأحد السبل التي مرّ ذكرها ، أما هنا فكيف يتمّ كلامه مع شيء غير موجود حتى الآن ؟ إنّ هذا الكلام ليس أمراً حقيقياً ، ولا يعني وجود متكلم وسامع ووسيط لنقل الصوت ، فإذا وجد قائل ـ وحتى لو كان له صوت ، ولكنه لا وجود لمستمع ـ فهل يصدق عليه « التكلّم » حقيقة ؟ افرضوا أنكم جالسون في غرفتكم وتتصوّرون موجوداً سوف يوجد بعد مائة عام ، فهل يصحّ أن تقولوا إننا تحدثنا مع من سيوجد بعد مائة عام ؟ إنه ليس موجوداً الآن حتى تتحدّثوا معه إلاّ أن يكون بصورة حديث مع النفس ، ولكنّ هذا ليس كلاماً حقيقياً ، لأنه لا وجود لمستمع يفهم ما تقولون . فالآية الكريمة : ﴿ أن يقول له كن فيكون ﴾ لا تقصد القول الحقيقي ، وإنما هو تعبير من باب الاستعارة أو الكناية يقصد منه أنه لا وجود لأيّ شرط ولا لأية فاصلة بين إرادة الله وتحقّق الشيء المراد ، فإذا أراد الله شيئاً فهو سيوجد من دون تأخير ، ولا يتوّقف فعل الله على شيء ، وهو ليس بحاجة إلى الأسباب والوسائل .

وعندئذٍ نواجه هذا السؤال :

هل أن الله يخلق أشياء هذا العالم بدون وساطة أم بوساطة ؟ لا شك أن أشياء عالمنا توجد في ظل نظام محكم من العلّيّة والمعلولية ، فالحرارة توجد بوساطة الشمس ، والمطر يوجد بوساطة السحاب ، ولو لم يكن سحاب فإن المطر لا ينزل ، والسحاب لا يتحرّك إلا بالرياح ، وهكذا كل ظواهر عالمنا

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

(٢) سورة يس : الآية ٨٢ .

خاضعة لنظام الأسباب والمسببات . فهل يمكن أن تكون هذه غير مشروطة بالأسباب ؟ أيمكن مثلاً أن يوجد إنسان من دون أب وأم ما عدا الفردين الاستثنائيين وهما آدم الذي جاء إلى الوجود من دون أب ولا أم ، وعيسى (ع) الذي جاء من دون أب ؟ كلا إنّ الإنسان عادة يجيء إلى الحياة من أبوين ، ومن المؤكّد أن للأبوين دخلاً في تحقّق الوليد . إذن يوجد الله الوليد عن طريق الأبوين ، وبناء على هذا يصبح فعل الله مشروطاً بوجود الأبوين ، والحرارة مشروطة بوجود الشمس ، ويلزم من هذا أن يكون الله سبحانه محتاجاً إلى الوسائل والوسائط ، وإلاّ فإن فعله لا يتحقّق ، فأصبح الله تعالى محتاجاً وفعله مشروطاً .

الجواب : إن تحقّق المعلول يتوقف أحياناً على بعض الشروط ، وهي على قسمين : فئة منه تكون شروطاً لفاعلية الفاعل ، أي ما لم تتحقق هذه الشروط فإن الفاعل غير قادر على أداء العمل . وفئة أخرى هي شروط لقابلية القابل ، فالأستاذ عندما يريد إلقاء محاضرة في موضوع معين، فإنّ هذا مشروط بكون الأستاذ متقناً لهذا الموضوع . من هو المدرّس ؟ هو الأستاذ فهو الفاعل . ما هو الفعل ؟ هو التدريس . متى يتحقق التدريس ؟ يتحقق عندما يكون الأستاذ محيطاً بموضوع الدرس بشرط أن يكون قادراً على البيان . ما هو هذا الشرط ؟ إنه شرط لفاعلية الفاعل ، فلكي يكون هذا الإنسان أستاذاً فإنه محتاج لتعلّم هذا العلم ، ويتحقّق هذا الشرط فإن وجود ذلك الإنسان يصبح أكثر تكاملاً . ولكنّه أحياناً يكون التدريس لمجموعة كبيرة من الطلاب تجتمع في صفّ واحد ، ولهذا فإنه لا يتمّ إلا بوساطة مكبّر للصوت ، وإذا لم يوجد هذا المكبر للصوت فإن التدريس لا يتمّ ، لأن الطلاب الجالسين في مؤخّرة الصف لا يسمعون ما يقوله الأستاذ . وهذا المكبّر للصوت لا يزيد في قدرة الأستاذ على التدريس ، فقدرته عليه باقية كما هي ، ومتوقفة على مدى إحاطته بالموضوع وتسلطه على البيان ، ولكنه يُحتاج إلى هذه الوسيلة لكي يستفيد الطالب من الدرس لا الأستاذ ، فهذه الوسيلة تزيد في قابلية القابل لا فاعلية الفاعل ، لأنها لا تضيف كمالاً إلى وجود الفاعل ، وإنما هي توفّر شرطاً لتحقّق كمال الطالب .

ولا بدّ أن نشير هنا إلى أنّ المثال لا يجب أن يطابق الموضوع المذكور له من جميع الجهات ، فالمثال مقرّب من جهة ومبعد من جهات ، ولهذا لا ينبغي أن يعترض أحد قائلاً إن الأستاذ إذا لم يصل صوته إلى الطلاب فذلك بسبب نقصه هو ، لأنّه لا يستطيع أن يرفع صوته أكثر من ذلك ، فنحن لم نتكلم عن صوت الأستاذ وإنما كان حديثنا عن قدرته على التدريس ، ومكبّر الصوت لا يضيف إليها شيئاً ، وعلاوة على هـذا فإن مكبّـر الصوت لا يـرفع صـوت الأستاذ في الواقع ، بـل يبقى صوتـه كما هـو ، ويكون هـذا المكبّر وسيلة لنقـل الأمواج الصوتية للآخرين ، فمحلّ شاهدنا ليس هو وجود النقص في صوت الأستاذ ، وإنما هو قدرته على التدريس والتفهيم ، ولا يوجد نقص في هذا المجال حسب الفرض ، ومع وجود هذا فـإن التدريس لا يتحققّ بـالنسبة للبعيـدين عنه إلا بوساطة مكبّر الصوت ، فهذا هو شرط لقابلية القابل .

ومثل هذا يصدق فيما إذا أريد تحويل التراب إلى إنسان ، فإنه لا بدّ أن يقطع مراحل وتتوّفر فيه شـروط ، فلكي تتحوّل الخضـروات واللحوم إلى دم يجري في عروقكم لا بدّ أن تجتاز مراحل معينة ، وتحصل فيها بعض التغييرات حتى تصبح دماً ، ثم يبني ما يحتاج إليه الجسم .

لأي شيء يعود هذا الشرط ؟ إنه شرط للمادة ، فالفرض هو أنّ المادة لا تصل إلى هذا الحد ما لم تقطع هذه المراحل . فالشرط هنا للمادة ولا علاقة له بالله سبحانه ، وإذا أراد الله تحويل التراب إلى إنسان فلا بـدّ من تمريـره بهذه المراحل حتى يصل إلى هذه النتيجة . كما أن الذي يريد الانتقال من بلدٍ إلى آخر فإنه لا بد له من قطع هذا الطريق المعيّن حتى يصل إلى هدفه . وأما القول بأن الله يستطيع أن يوصل المادة إلى إنسان من دون قطع هذه المراحل فإن فرضه متناقض ، لأن الفرض هو أن المادة شيء متحول ، ولا بد من مرورها بالوسائط حتى تصل إلى النهاية ، وصحيح أن الله يستطيع أن يوجد شيئاً من دون أن يمرّ بهذه المراحل ومن دون أن يكون مشروطاً بهذه الشروط ، ولكنه حينئذٍ لا يكون موجوداً مادياً وإنما هو موجود مجرّد ، وفي العالم من هذه الموجودات ما لا حدّ له ولا حصر ، ولكنها لا تشبه موجودات العالم المادي الذي نعرفه ، حيث تتحقق

فيه الأشياء عن طريق التحوّل والانتقال من مرحلة إلى أخرى ، بل وجود تلك المجرّدات يكون دفعيّاً ، وكمالاتها موجودة فيها بالفعل . فإذا أراد الله أن يخلق عالماً مادياً ، فالعالم المادي يعني ما هو متحرّك ويتميز بالأبعاد الزمانية والمكانية ، وأما إذا خلق الله شيئاً من دون هذه الخصائص فلن يكون عالماً مادياً ، وهو مناقض للفرض .

ويطرح أيضاً هذا السؤال :

إذا كنا لا نفهم حقيقة كلام الله مع الملائكة لأننا لا نعرف حقيقة الملائكة أنفسهم ، فهل نستطيع أن نفهم حقيقة كلام الله مع الإنسان (النبي) ؟

الجواب : صحيح أننا نفهم النبي بما أنه إنسان مثلنا :

﴿ **قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ** ﴾[1] .

ولكنه لا يلزم من هذا أن نكون قادرين على إدراك حقيقة الوحي ، وأقصى ما نستطيع أن نقوله هو أنّ الوحي غالباً ما كان يتمّ بوساطة جبرئيل ، ولكنه كيف كان جبرئيل يوصل الوحي إلى النبي ؟ لسنا نعلم ، لأننا لا نعرف حقيقة جبرئيل ، ولهذا فإننا لا نعرف طريقة تفهيمه ، ونحن نقرأ في القرآن الكريم :

﴿ **نزل به الروح الأمين * على قلبك** ﴾[2] .

فنحن نفهم من هذه الآية أن جبرئيل يحمل رسالة إلى قلب النبي ، وقد يستفاد أحياناً أنّ الوحي كان بصورة مكتوبة تنزل على النبي بوساطة الملائكة ، ولكننا نجهل تماماً وجود الملائكة وكيفية هذه الكتابات وكيفية قراءة النبي (ص) لها . أو أنه (ص) كان يسمع ما يلقى إليه ، أما ما هي حقيقة ذلك الصوت أهو مادي أم لا ؟ إن ذلك غيب ينبغي لنا السكوت في مقابله ، والاعتراف بأننا لا نعلم .

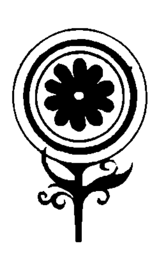
فهل كلام الله من ذاته أم هو خارج عن ذاته ؟

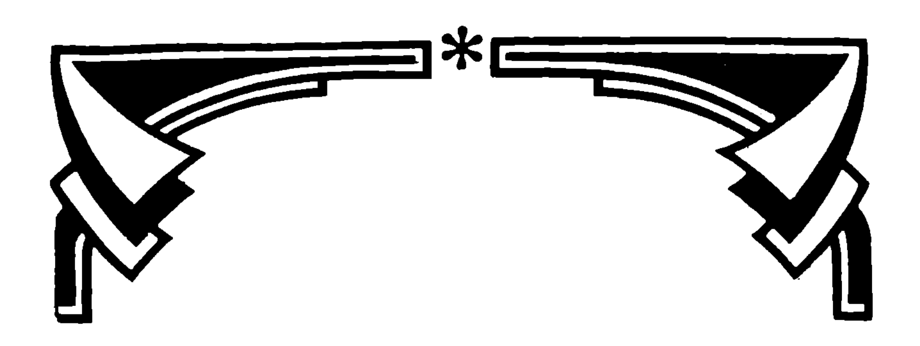
---

(١) سورة فصلت : الآية ٦ .

(٢) سورة الشعراء : الآيتان ١٩٣ ـ ١٩٤ .

لا شكّ أنّ ما نفهمه من الكلام هو أمر حادث لا يمكن إطلاقاً أن يكون هـو الذات المقـدسة ، وأمـا إعادة كـلامه إلى علمـه تعالى فهـو مخالف للفهم العرفي ، لأن التوّسع في معنى الكلام لا بدّ أن يكون في حدود ما يقبله العرف ، وإعـادة الكلام إلى الـذات لا يتقبلها العـرف . ولكنه لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن ما ينسب إلى الله له جهتان جهة انتسابه إلى الله وهي لا زمانية وجهة أخرى تتعلق بالمخلوقات وهي حادثة وتتصف بالزمان .





علاقة أصل العلية بالتوحيد الأفعالي

انتهينا فيما سبق إلى أنّ جميع ظواهر الوجود متوقفة على إرادة الله ، ولا يستغني عنها أي موجود في أيّ زمان وأيّ مكان وفي أيّ شأن من شؤون وجوده . وقد يتوّهم البعض من هذا أنه يعني نفي تأثير أية علة أخرى في ظهور الأشياء .

وقبل تصحيح هذا الوهم وبيان العلاقة الصحيحة بين أصل العلية والتوحيد في الأفعال ، نرى من اللازم شيئاً من التوضيح حول مفهوم العلة والعلية :

للعلة في الفلسفة اصطلاحان أحدهما أعمّ من الآخر ، فالأعمّ يطلق على كل شيء يتوقف عليه شيء آخر ، سواء أكان المتوقف عليه فاعلاً أم سبباً أم شرطاً أو معدّاً أم أي لون من ألوان التوقف ، فكتابة الرسالة تتوقف على شخص الكاتب ، فهو علة ، وتتوقف على يده ، فهي أيضاً علة . وتتوقف على سلامة عقله ، فهي علة ، وتتوقف على الورق والقلم والدواة ، فكل واحد منها علة أيضاً .

والاصطلاح الخاصّ يعني الفاعل ، وتقسم العلة الفاعلية إلى قسمين :

١ ـ ما منه الوجود .   ٢ ـ ما به الوجود .

والعلة الفاعلية الحقيقية هي ما منه الوجود ، فهي التي يفيض منه الوجود .

وبعد هذا التوضيح نتساءل :

هل يقبل القرآن أصل العلية (تأثير شيء في آخر بمعنى الفاعلية أو بمعنى مطلق التوقف) ؟

وإذا قبلها فكيف تكون علاقة أصل العلية بالتوحيد الأفعالي ؟

أيمكن قبول التوحيد الأفعالي وأصل العلية في وقت واحد ؟ أم لا بدّ من اختيار أحدهما وردّ الآخر ؟

إذا أخذنا العلية بمعناها الخاص (الفاعلية) فإنها ليست مورد قبول القرآن فحسب وإنما التوحيد في الأفعال مبنيّ عليها ، وبراهين وجود الله قائمة على أصل العلية ، ولدينا برهان مشهور على وجود الله يسمى برهان علة العلل ، فالله علة جميع الظواهر ، أي أنها جميعاً محتاجة إليه . فالعلية بهذا المعنى لا تتنافى مع التوحيد الأفعالي بل هي عينه .

أما إذا أخذنا العلية بمعناها العام الذي يعني مطلق توقف شيء على آخر ، فلا بد من دراسة ألوان العلل المنتشرة في عالم الوجود ، والرجوع إلى القرآن الكريم لمعرفة هل أنه يعترف بها أم لا ؟

أي هل أن القرآن يوافق على توقف بعض الظواهر الطبيعية على البعض الآخر ، فبعضها علة مادية للبعض الآخر ، وبعضها معدّ للآخر ، وبعضها شرط تحقق البعض الآخر ؟ أم لا ؟

عندما نستفتي القرآن نجده يثبت هذه العلاقة بين الظواهر ، سواء أكانت بين السبب والمسبب ، أم بين الشرط والمشروط ، أم بين المعدّ والشيء المحتاج إلى إعداد . فجميع هذه الموارد يقبلها القرآن ، وهناك آيات متضافرة على هذا الموضوع ، وسوف نذكر من كل باب آية باعتبارها نموذجاً على الموضوع (ولكل منها نظائر كثيرة) .

١ ـ العلّية المادية :

وهو اصطلاح فلسفيّ يعني تكوّن موجود مادي من موجود مادي آخر بحيث تبقى المادة المشتركة بينهما محفوظة وتتغير صورتها فقط ، وبقبول الصورة الجديدة يظهر موجود جديد .

والقرآن يعترف بمثل هذه العلية ، فهناك آيات تدّل على أن السماء والأرض كانتا بصورة دخان ثم أصبحتا بهذا الشكل الحالي :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾[1] .

بعضهم فهم من الآية أن المادة توجد نتيجة لتراكم الطاقة ، واعتبروا الطاقة مصداقاً للدخان . وقال البعض الآخر إن الوجود كان في بداية الأمر بشكل غاز ثم ضغط فتحوّل إلى جامد . وعلى أي تفسير فإنه مادة هذا العالم .

بالنسبة للموجودات الحيّة :

يقول الله تعالى :

﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[2] .

إذن الماء علة مادية لظهور الموجودات الحية .

وبالنسبة للنار :

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾[3] .

فالشجر علة مادية للنار .

وبالنسبة لخلق الإنسان :

﴿ إنّا خلقناهم من طين لازب ﴾[4] .

فالطين علة مادية لوجود الإنسان .

وبالنسبة لخلق الجن :

---

(١) سورة فصلت : الآية ١١ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

(٣) سورة يس : الآية ٨٠ .

(٤) سورة الصافات : الآية ١١ .

﴿ والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم ﴾[1] .

ففي هذه الآيات استعملت كلمة (من) للدلالة على العلة المادية ، ومنها نعرف أن القرآن يعترف بالعلة المادية . وهناك آيات عديدة تستعمل باء السببية للدلالة على لون من التأثير المادي :

﴿وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾[2] .

فالماء سبب وجود المواد الغذائية للإنسان . وفي القرآن تعبير آخر عن الماء بأنه يوجب التطهير :

﴿ وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به ﴾[3] .

وهي تتعلق بغزوة بدر .

وكل هذه الآيات تتحدّث عن العلل الطبيعية التي لا تملك إرادة ولا شعوراً في إيجاد الظواهر الأخرى ، وإنما كل واحد منها علة مادية تتحدّ مع الظاهرة وتكون منشأ لوجودها .

٢ ـ عليّة الملائكة :

وهو لون من العلية الفاعلية المجهولة لدينا ، لأننا لم نجدها في حياتنا ولكننا نؤمن بها عن طريق الوحي ، فلو لم يتحدّث القرآن عن الملائكة لم نؤمن بوجود هذه المخلوقات فضلاً عن تأثيرها في الأشياء . والله سبحانه يثبت في القرآن رسالتين للملائكة : إحداهما في الأمور التكوينية والأخرى في الأمور التشريعية ، أي أنهم يكونون وسطاء في تحقيق أمور تكوينية ، ووسطاء لإيصال رسالات الله إلى الأنبياء ، قال الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾[4] .

فالقدر المتيقّن كونهم رسلاً في الأمور التشريعية ، ولكن الآية بإطلاقها

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ١١ .

(٤) سورة فاطر : الآية ١ .

تشمل الأمور التكوينية أيضاً . وتوجد آيات تصرّح بأن الملائكة يتدّخلون في الأمور التكوينية ، منها ما ورد في قصة مريم (ع) عندما أراد الله أن يمنحها عيسى (ع) :

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوّياً * قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً * قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّا ﴾[1] .

ولا يهمنا هنا أن يكون المقصود من الروح هو جبرئيل لأنه يسمى في الآيات بـ « الروح » و« الروح الأمين » ، أو يكون المقصود منه أي ملك آخر ، وإنما محل شاهدنا هو « قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » فرسالة هذا الروح هي أن يهب لمريم (ع) وليداً زكياً ، فتأثير هذه الرسالة يكون في المجال التكويني .

٣ ـ عليّة الشياطين :

فالقرآن ينسب لها لوناً من التأثير بإذن الله في بعض شؤون العالم :

﴿ ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً ﴾[2] .

﴿ ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[3] .

فهذه ليست علة تامة وإنما هي لون من العلة المعدّة .

٤ ـ عليّة الإنسان :

إن أفراد الإنسان يؤثّر بعضهم في بعض من وجهة نظر القرآن :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع . . . ﴾[4] .

يأمر الله المؤمنين بالقتال مع المشركين لدفع شرّهم . وتوجد آيات تؤكّد مساعدة الناس بعضهم لبعض ، فالله يخاطب موسى (ع) :

---

(١) سورة مريم : الآيات ١٧ ـ ١٩ .

(٢) سورة مريم : الآية ٨٣ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٣٦ .

(٤) سورة الحج : الآية ٤٠ .

﴿ قال سنشدّ عضدك بأخيك ﴾[1] .

فهو عون من الله يتمّ بوساطة هارون (ع) .

أو في موضوع العذاب :

﴿ قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ﴾[2] .

فهو عذاب الله يتم بأيدي المؤمنين .

هذه ألوان من السببية يؤكّدها القرآن للأمور المادية الطبيعية أو لأمور ما وراء الطبيعية كالملائكة ، وهناك ألوان أخرى من السببية تتعلق بالأمور المعنوية ، وربما تتناول علاقات لا ندركها ، مثلاً يقول الله تعالى عن القرآن إنه وسيلة للهداية :

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ﴾[3] .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[4] .

ويعدّ الأعمال السيئة للإنسان سبباً لظهور الفساد :

﴿ ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾[5] .

ويقول إن الكفر يجرّ على صاحبه اللعنة الإلهية :

﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم ﴾[6] .

﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أُحلّت لهم ﴾[7] .

إذن أفعال الإنسان لها تأثير حتى على الأحكام الإلهية :

﴿ وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾[8] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٣٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٤ .

(٣) سورة المائدة : الآيتان ١٥ ـ ١٦ .

(٤) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٥) سورة الروم : الآية ٤١ .

(٦) سورة النساء : الآية ٤٦ .

(٧) سورة النساء : الآية ١٦٠ .

(٨) سورة الأنعام : الآية ١٢٩ .

ويعتبر القرآن الأفعال الحسنة للإنسان سبباً في وفور النعمة :

﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[1] .

ويقول إن بعض الأمور الروحية للإنسان يستلزم بعض الأمور المعنوية :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾[2] .

ويعدّ أعمال الإنسان موجبة للجزاء الأخروي :

﴿ إنّي جزيتهم اليوم بما صبروا أنّهم هم الفائزون ﴾[3] .

إذن عرفنا أن علاقة السببية في هذا العالم ليست منحصرة في الظواهر المادية بل تمتد لتشمل الظواهر المعنوية . وعلاوة على هذا فإن القرآن يثبت علاقة السببية بين هذا العالم والعالم الآخر ، ومن هنا نعرف أن مجال العلية في القرآن واسع جداً سعة لا يدركها أكثر الناس .

وعندئذٍ يطرح أمامنا هذا السؤال :

كيف يمكن الجمع بين هذه الآيات وآية « كن فيكون » ؟

فآية « كن فيكون » تقول:بمجرّد أن يقول الله « كن » فإنّ المخلوق يوجد ، بينما هذه الآيات تقول:إنّ وجود مخلوق ما يتوقف على مجموعة من الأسباب والشروط ، فهل يكون وجود الإنسان بأمر الله من دون أن يتدخّل أي شيء آخر ، أم للأشياء الأخرى دخل في ذلك ؟

الجواب : في جميع هذه الموارد توجد علاقة المعلول بالفاعل الذي منه الوجود،فوجود أيّ موجود مع جميع ظروفه الوجودية وعلاقاته بالموجودات الأخرى كلها مفاضة من قبل الله سبحانه ، وليس لدينا أي موجود آخر يمنح الوجود ، ولكن هذا لا ينفي أن يكون هناك مخلوق يتوّسط في انتقال صفة أو أثر ، وكل ما لدى المخلوق فهو من الله :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٦ .

(٢) سورة يونس : الآية ٩ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ١١١ .

﴿ يا أيّها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾[1] .

إذن آية « كن فيكون » ناظرة إلى ناحية إفاضة الوجود .

وأما الآيات التي تصرّح بالأسباب المادية فهي تذكر العلاقات السائدة بين الظواهر ، والتي تؤدّي إلى تعيّنها وتشخّصها ، أي أنه لا يمكن تشخّص الأشياء المادية بدون هذه الأمور ، فمثلاً عندما يريد الله إيجاد إنسان مادي لا مجرّد :

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾[2] .

فإن فرض مثل هذا الموجود هو فرض للمادة التي يخلق منها ، وهو فرض للأسباب والشروط التي توفّر إمكانية وجوده .

مثلاً:إذا أراد الله لشخص أن يصبح والداً فمعناه أن وجود الولد مرتبط بوجود الوالد ، فوجود الولد يعني أن له علة مادية .

وهذه الشروط لا تتعلق بتأثير الله ، وإنما هي شروط لتحقق هذه الظاهرة التي تكتسب وجودها من الله . إن الإنسان الذي يريد أن يوجد على الأرض لا بد أن تكون هناك أرض حتى يوجد عليها ، فهذا شرط للمخلوق ، وليست هي شروطاً لفعل الله .

أما ما نجده أحياناً في كلام بعض الفلاسفة من « أن هذه الماهية لها هذا المقدار من الاستعداد لا أكثر » فهم يقصدون به هذا المعنى ، أي أن هذا الموجود لو لم تكن له هذه العلاقات بالموجودات الأخرى فإنه لا يتشخّص .

ولتقريب هذا إلى الذهن نذكر هذا المثال : تصوّروا في أذهانكم شجرة تغرس فتنمو وتثمر ثم تذبل وتجفّ ، فهذه الشجرة التي تصورتموها قد غرست في الأرض وامتصبت الماء واستفادت من أشعة الشمس ، فأورقت وأزهرت وأثمرت ، فهل بين الأرض والشجرة المتصورة توجد علاقة ؟ نعم بالتأكيد ، فلو لم نتصوّر أرضاً لما نمت الشجرة ، وكذا بينها وبين الحرارة والماء و. . .

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٥ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٥ .

ولكن هـذه الأسباب جميعاً متحققة بـإرادتكم ، والعـلاقـة التـي بـين الشجرة واالأرض والشمس المتصوّرة لم تمنع من توّقف الشجرة على إرادتكم ، فلو لم تكونوا أنتم لم توجد هـي ، فهي أسباب مرتبة طولياً .

فهل يستطيع الله أن يخلق شجرة من دون أن تغرس في أرض ؟

الجواب : نعم يستطيع ، ولكنها لا تكـون عندئـذ شجرة أرضيـة ، بل تكون ـ مثلاً ـ من أشجار الجنة .

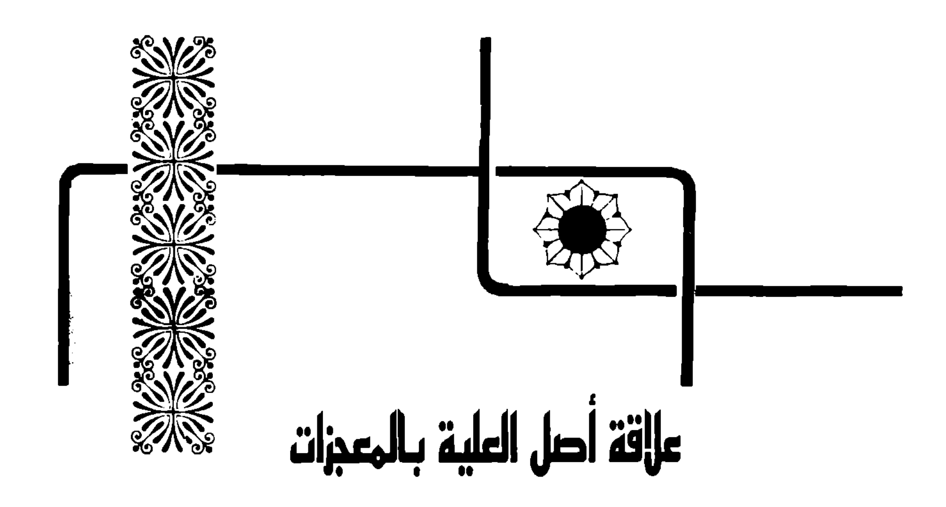
فلكلّ موجود مادي تعينّ خاص ويستلزم هذا التعينّ علاقات معينة مع الموجودات الأخرى ، مثلاً : كل عدد له تعينّ خاص وعلاقات محدّدة بالأعداد الأخرى ، فالعدد (٢) تعيّنه في أنه يأتي بعد العدد (١) وقبل العدد (٣) ، فإذا أراد االله أن يخلق (٢) فلا بد أن يكون بعد العدد (١) وقبل العدد (٣) ، لأن تعينه يكون بهذه الصورة ، أمـا إذا خلق شيئاً بعـد العدد (٣) فلن يكـون هو العدد (٢) وإنما يكون هو العدد (٤) .

أما الموجودات المجـرّدة فهي مستغنية عن الأسباب المادية ، لأن وجودها لا يستلزم ذلك .

فالقيود تعود إلى المخلوق لا إلى الخالق ، إن الله يخلق الأشيـاء الزمـانية والمكانية ، ولكن عملية خلقه ليست واقعة في زمان ، أما الموجـودات الجزئيـة لهذا العالم فهي تتعين بنسبتها إلى الزمان الذي قبلها وبعدها ، فـالظاهـرة التي توجد في يوم السبت غير الظاهرة التي توجد في يوم الأحد .

وإذا نظرنا إلى العالم المادي نظرة شاملة هـل خلقه الله من مـادة قبلية ؟ كلّا ، لأن العالم بمجموعه ليس آتياً من مادة قبلية ، وهل خلق العالم بكل أبعاده (الشاملة للزمان) في زمـان معينّ ؟ كـلّا ، لأن الفرض أنّ الـزمان خلق مـع العالم ، نعم الموجودات الجزئية لا بدّ من تعيين زمانها .

* * *



علاقة أصل العلية بالمعجزات

سبق لنا إثبات أن أصل العلية مقبول من وجهة نـظر القرآن الكـريم ، ويحسن أن نشير أيضاً إلى أن القرآن ليس كتاباً علمياً ولا دراسة فلسفية ، وإنما هو يضمّ مواضيع من سنخ المواضيع العلميـة والفلسفية ، فنحن نستـطيع أن نقول إن التناول القرآني ينسجم مع الموضوع العلمي أو الفلسفي الفلاني ، لا أنّ القرآن يتناول موضوعاً فلسفياً وينتهي به إلى نتيجة الموضوع أصل العلية ، بل تكون آيات القرآن بشكل لا يمكن تفسيرها إلاّ على أساس أصل العليـة ، أي أن نظرته تنطلق من قبوله هذا الأصـل . وأثبتنا أيضـاً أن أصل العليـة لا يتنافى مع الاعتقاد بتأثير الله ، فهذه الأسباب مرتّبـة طوليـاً . ونحاول في هـذا الفصل معالجة مشكلة أخرى تتعلق بأصل العلية وهي :

هـل يستفاد من آيـات القرآن الكـريم أنّ قانـون العلية قـانـون حتمي ضروري لا يشذّ عنه شيء ، أم هو شـامل لبعض المـوارد ولا مانـع من وجود موارد لا يشملها ؟

وبعبارة أخرى : هل يؤيّد القرآن أنّ كل معلول لا يوجد من غـير علته

الخاصة ، أم يعترف بأنه أحياناً يوجد المعلول عن طريق علّته وأحياناً أخرى قديوجد من دون علة ؟

ولعلكم مسبوقون بأصل « دترمينيسم » المطروح في الفلسفة الحديثة ، وفيه يتساءلون :

أمن الحتم والضروري أن يوجد كل معلول من علته الخاصة ، أم قد لا يمكن إثبات العلة الخاصة لبعض الظواهر ؟

توجد نظريات مختلفة تجيب على هذا السؤال يمكننا تلخيصها في ثلاث نظريات :

الأولى : يعتقد أصحابها بأنّ كل ظاهرة لا بد أن تكون تابعة لأصل العلية بشكل حتمي ضروري .

الثانية : يعتقد أصحابها بأنّ أصل العلية ليس ثابتاً في أي مورد من الموارد على الإطلاق .

الثالثة : يقوم أصحابها بالتفصيل بين ظواهر الفيزياء النووية وظواهر الفيزياء الكونية ، فيخضعون الثانية لأصل العلية ، ويعتقدون بأن ظواهر الفيزياء النووية غير خاضعة لهذا الأصل .

مثلاً في داخل الذرة لا نعلم أي الالكترونات يخرج من مداره ، فأحدها يخرج صدفة من دون أن يمكن التنبؤ به سلفاً . فادّعوا أنه في هذه المجالات لا يسيطر أصل العلّية .

والصحيح من وجهة نظر الفلسفة الإسلامية هو أنّ أصل العلية أمر ضروري يرفض أيّ استثناء ، وإذا لم نستطع في بعض المجالات أن نصل إلى علة ظاهرة معينة فذلك يعود إلى نقص تجاربنا لا أنها لا علة لها ، بل لها علة ولكننا لم نعرفها بعد . وتفصيل كل هذا يذكر في الدراسات الفلسفية ، وقد أشرنا إليه هنا بمقدار الحاجة . إذنَ هل نقبل أصل العلية بصورة القضية الموجبة الكلية (أي قانون حتمي ضروري) أم بصورة القضية الموجبة الجزئية (أي في بعض الموارد دون بعض) ؟

وتتضح أهمية هذا البحث عندما نلتفت إلى علاقته بموضوع الإعجاز ، فنحن نعلم أن جميع الأديان السماوية ولا سيما الدين الإسلامي الحنيف تصرّح بأن كثيراً من ظواهر هذا العالم لا توجد نتيجة للتأثير والتأثر المادّيين ، وإنما هناك أشياء مسيطرة على هذا العالم غير الأسباب والعلل المادية ، وهي ليست معروفة للناس ولا خاضعة لإرادتهم . فمن ميزات النظرة الدينية الإلهية قبول مسألة الإعجاز التي يرفضها الفكر المادي ، ويرفعها علماً للتنديد بالأديان الإلهية متّهماً إياها بنقض أصل العلية ، حيث يقولون : إذا اعترفنا بأصل العلية فلا بدّ أن توجد الظاهرة من طريق علتها الخاصة وشروطها المعينة ، وإلّا إذا قلتم بوجودها من دون وجود أسبابها المادية فقد نقضتم أصل العلية ، ويعدّون هذا علامة ضعف في الأديان الإلهية . ولعلكم لاحظتم في الكتب الماركسية قولهم إن الإلهيين يقولون بالصدفة ، ومقصود الماركسيين من هذا هو قول الإلهيين بالإعجاز . والحقيقة أن الماديين هم القائلون بالصدفة بمعناها الباطل ولا مفرّ لهم من ذلك ، ولكنهم يغمضون أعينهم عن أنفسهم ويتهمون الإلهيين بالقول بالصدفة لأنهم يقولون بالمعاجز والظواهر الاستثنائية .

فهل قانون العلية أمر ضروري وحتمي ؟

وإذا اعترفنا بحتميته ، أيلزم من ذلك إنكار المعجزات أم الحقيقة شيء غير هذا ؟

نجيب على السؤال الأول بالإيجاب . فقانون العلية أمر حتمي ضروري لا يقبل أي استثناء ، ونترك تفصيل هذا والاستدلال عليه للدراسات الفلسفية .

أما الجواب على السؤال الثاني فيتطلب منا استعراض المواقف المختلفة بالنسبة للمعجزات :

١ ـ ظنت فئة من الناس أن المعجزات خرافات انحدرت إلينا من عهود الأساطير ، وبقيت ترسباتها في أعماق الفكر البشري في مرحلة الدين التي جاءت بعد مرحلة الأساطير ، وفي هذه المرحلة الجديدة عرفت باسم

المعجـزات ، فهي أساطـير لا واقع لهـا . هذا هـو موقف المـاديين والعـابدين للعلم . وهم يتعاملون مع المعجـزات كما يتعـاملون مع أسـاطير ربّـة الجمال ـ مثلاً ـ في الأساطير اليونانية ، ومن هنا فهم ينكرون الأديان من أساسها ، لأن من ميزات الدين السماوي قبوله للمعجزة ، ولا سيما القرآن الكريم الذي لا يدّخر وسعاً في التصريح بهذا الأمر ، ولهذا فإن إنكار الإعجـاز يساوي إنكـار القرآن ، فالأمر دائر بين أن يكون القرآن كتاباً إلهياً حقاً فالمعجـزة تكون حقـاً أيضاً ، أو أن القرآن ـ والعياذ بالله ـ كـاذب لأنه يضم المعجـزات ، ولا يمكن أبداً الإيمان بالقرآن وإنكار المعجزات :

﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بـين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً ﴾[1] .

وأحاديث القرآن بالنسبة للمعجزات صريحة جدّاً لا تترك مجالاً للشك ولا للترديد ، ولهذا عندما يجدهـا المادّيـون بهذه الصـراحة فـإنهم يرفضـون الدين الإسلامي متعللين بأن الحق لا يتضمن مثل هذه الخرافات ، كالقول بأن موسى عندما واجه صنيع سحرة فرعون :

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾[2] .

إنها أساطير يتضمنها القرآن ، فهو إذن ليس كتاباً سماويّاً .

أو القـرآن يقول إن عيسى قـد ولد من غـير أب حيث تمثـل روح لأمـه فحملت به ، إنّ العلم يرفض هذه الأمور .

ويقول القرآن أيضاً إن عيسى قد تكلم وهو في المهد :

﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فـريّاً * يـا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمك بغيّاً * فـأشارت إليـه . قالـوا

---

(١) سورة النسـاء : الآيتان ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٠٧ .

كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً * قال إنّي عبد الله . آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً . . . . ﴾[1] .

فهو يتكلم في المهد ليجيب على الأسئلة الموّجهة إلى أمه ، بل يدّعي لنفسه أثناء كلامه النبوة . وهؤلاء يقولون إن العلم يقول باستحالة هذه الأمور فهي خرافات ، ولما كان القرآن مشتملاً عليها فمصيره مصيرها .

٢ ـ ووقفت فئة أخرى من الناس موقفاً آخر ، فهم في الظاهر مسلمون ويعلنون أنهم من أتباع القرآن والمدافعين عنه . وهم في الواقع إما جاهلون بالإسلام أو منافقون يظهرون غير ما يبطنون . وقد اعتقدوا مسبقاً بضرورة وحتمية القوانين الطبيعية ، ومن ثمّ انطلقوا لتأويل ما ورد من آيات في الإعجاز . ولم يكونوا سواء في التأويل ، فبعضهم قال : صحيح أن هذه أساطير ولكن القرآن أوردها ليستغل فوائدها ونتائجها ، كما يقوم علماء الأساطير بتحليلها وفهم ما يكمن وراءها .

وقال بعضهم : إن الظواهر الخارقة للعادة لا يمكن أن تتحقق أبداً ، وما يبدو من الآيات أنها تتحدّث عن ظواهر خارقة للعادة فذلك بسبب أن العلة الطبيعية لهذه الظاهرة لم تكن معروفة ، فهي موجودة لكن الناس لا يعرفونها ، مثلاً يتحدّث القرآن عن موسى(ع) أنه عندما سار ببني إسرائيل من مصر وانتهوا إلى البحر جفّ البحر فعبروه ، ولما وصل فرعون ومن معه ضمهم البحر في جوفه فغرقوا . إن هذا حدث طبيعي لم يعرف علته الناس ، ولكن موسى (ع) كان يعرفها وهي عبارة عن استغلال ظاهرة الجزر والمد ، فموسى تعلّم في بلاط فرعون علم الهيئة ، وهو يعرف بدقّة أوقات حدوث الجزر والمد ، ويعلم عن مكان في البحر مرتفع ينحسر عنه الماء أثناء الجزر فعبر منه ، أما فرعون فقدكان غافلاً عن ذلك فغرق .

أو في مورد عيسى بن مريم (ع) عندما كان يشفي المرضى ، فهو ملمّ

---

(١) سورة مريم :الآيات ٢٧ ـ ٣١ .

بعلم الطب ويعرف طرق المعالجة ويعالجهم بالطرق الطبيعية ، والناس يتخيلون أنه أمر خارق للعادة . وفي بعض المجالات التي لم يستطيعوا فيها الحمل على مثل هذه المعاني فقد ارتكبوا تكلفات وتلاعبوا بالألفاظ بشكل مثير للسخرية .

وفي تفسير السيد أحمد خان الهندي نماذج كثيرة من هذا القبيل ، واقتفى أثره بعض المفسرين المصريين ، وبعض الذين كتبوا تفسيرهم باللغة الفارسية .

ومن الواضح أن هذا مسخ للقرآن ، وإذا جاز لنا التلاعب بالألفاظ إلى هذا الحد بحيث نفسّر الألفاظ حسب ما نحب فلا يمكن الاعتماد عندئذٍ على أيّ كلام ، ويمكن إعطاء تفسيرين متناقضين لكلام واحد ، وإذا كان الأمر كذلك فمن الأفضل ترك القرآن جانباً ، لا أن نقدّم له تفسيراً مثيراً للضحك . ومن يعرف اللغة العربية يدرك أن هذه التفاسير أقبح من إنكار القرآن نفسه .

٣ ـ وذهب جماعة إلى أنه يوجد إعجاز ، ولكنه ليس بمعنى أن شيئاً خارقاً للعادة قد حدث في الخلقة ، وإنما هو إعجاز يتعلق بالعلم والمعرفة ، أي كانت هناك علة طبيعية مجهولة لم يكن أحد يعرفها إلا الله ، وقد علمها سبحانه للأنبياء ليثبتوا بها صدق رسالتهم . فالمعجزات أسرار من الطبيعة كشفها الله للأنبياء . ففي عالم الطبيعة لم يحدث شيء مخالف لقانون العلية ، وإنما منح الله للأنبياء علماً خارقاً للعادة ، فالإعجاز واقع في التعليم لا في السبب والمسبب الخارجيين . مثلاً تعلمون أن الفعل والانفعالات كثيرة في الكيمياء ولها نتائج مثيرة للإعجاب ، فالذين يعرفون المعادلات الكيمياوية ويجيدون تركيب المحاليل والعناصر الكيمياوية يستطيعون إنتاج أشياء ينالون بها إعجابنا ، فالناس يتصوّرون أن الماء والنار لا يجتمعان ولكن الكيمياوي يجري تجربة بسيطة يحدث فيها ناراً على سطح الماء ومثل هذا كثير في المختبرات العلمية . والذين لا يعرفون شيئاً عن الكيمياء يتصورون أن هذه الأمور إعجاز وخرق للعادة .

وحتى أنهم اندفعوا للقول بأنه من الممكن أن يكون شيء ما في زمان معجزاً وفي زمان آخر ليس بمعجز، فعندما يكون الناس غير عالمين بأسبابه والله

يعلمها لأنبيائه فإن ذلـك الشيء يكون معجـزاً . ولكنه عنـدما يعـرف الناس الأسباب فإنه يخرج عن كونه معجزاً . مثلاً قبل اختراع الراديو والتلفـزيون ، إذا تكلم شخص في هذا الجانب من العالم وسمعه آخـر في الطرف الثـاني من العالم فإنه يعدّ إعجازاً لأن سبب ذلك لم يكن يعرفه أحد . أما الآن وقد عرف الناس أسباب ذلك فهو ليس بإعجاز . فالإعجاز في الواقع أمر نسبي ، وهو لا ينقض القانون الطبيعي ، ويتمسكون أحياناً بآيات من قبيل :

﴿ فلن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾[1] .

ونحن نعلم أن سنة الله جارية على وجـود المعلولات الماديـة عن طريق عللها المادية ، فإذا تحقق أمر عن غير المجرى الطبيعي فمعناه أن سنة الله قـد تبدلت والآية الكريمة تنفي هذا بشدّة .

فهل صحيح ما يقوله هؤلاء ؟

أما المنكرون للإعجاز والأمور الخارقة للعادة فهم منكرون للقرآن بوعي منهم أم بدون وعي ، لأن دلالة القرآن على وقوع المعجزات واضحة إلى حد أنّ أي منصف لا يمكنه إنكارها ، ويصرّح القرآن بأن الأنبياء قد قاموا بمعاجز بناء على طلب أممهم ، أو هم جاؤوا بها ابتداء ، مثل قوم صالح حيث طلب منـه قومه أن يأتيهم بناقة فحققّ ذلك لهم ، أو ما فعله مع إبراهيم قومه حيث أعدّوا له ناراً هائلة وألقوه فيها ، فجاء الخطاب الإلهي :

﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾[2] .

وخرج إبراهيم (ع) منها سالماً .

وكذا قصة ولادة عيسى (ع) وكلامه وهـو في المهد ، فكـل هذه الأمـور أشياء خارقة للعادة ، توجد عن طريق إرادة الأنبياء والأولياء الذين منحهم الله علماً خاصاً وقدرة متميزة ، فهو لم يتفضّل عليهم بالعلم فحسب ، وإنما أعطاهم قدرة حاكمة على القوى الطبيعية . والفرق بين الإعجاز وما يفعله المرتاضون هو

---

(١) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٦٩ .

أن فعل المرتاضين يمكن نقله بوساطة التعليم بخلاف الإعجاز فهو ليس قـابلاً للتعلم والتعليم ، وإنما هوموهبة إلهية تعطى لمن يريد الله وبالمقدار الذي يحبّ . وإنكار المعجزات في الواقع إنكار للقرآن ورسالة النبي الأكرم (ص) إلاّ إذا كان من دون وعي .

ثم نطرح هذا السؤال :

هل أنّ قبول الإعجاز يعني إنكار أصل العلية أم لا ؟

للجواب على هذا السؤال لا بدّ من ذكر مقدّمة :

هناك فرق بين قبول أصل العلية وقبول العلل الخاصة في كل مورد ، ثم حصر العلة فيما نعرفه من علل ؛ فلدينا بحثان :

الأول : يوجد في الفلسفة أصل يسمى بأصل العليـة ، وهو بـديهيّ لا يمكن إنكاره ، ومفاده : إن في عالم الوجود موجـودات محتاجـة إلى موجـودات أخرى وهي لا توجد بدونها كالإرادة فهي محتاجة إلى النفس . فالموجود الفقير المعلول الرابط هو ممكن الوجود ومحتاج إلى موجـود يرفـع حاجتـه ، فإذا رأينـا موجوداً محتاجاً قد ارتفعت حاجته علمنا أن هنـاك علة رفعتها . هـذه قاعـدة بديهيّة لا يمكن الشك فيها ، وعلى هذا الأساس يبحث العلماء في كل علم عن علة الظاهرة ، وكل محاولات العلماء على مرّ التاريخ ـ للبحث عن علل الظواهر ـ مبنية على الاعتراف المسبق بأن المعلول لا يوجد من دون علة ، وكل ما حققه الإنسـان فهـو بفضـل هـذا الأصـل المهم . وهـذا يختلف عن معـرفـة العلل الخاصة ، أي أننا بعد قبول كون المعلول لا يـوجد من دون علة (وهـو أصل ميتافيزيقي ما فوق التجربة) يصل الدور إلى معرفة العلل الخاصة للمعلولات المعينة ، وليس هذا من واجبات الفلسفة وإنما هو من أعمال العلم ، فالقانون الفلسفي يقول: المعلول يحتاج إلى علة . ثم يبيّن الصفات العامة لها ، ولكنه لا يبـيّن علة معينة لمعلول خـاص ، فهذا لا بـدّ من معرفتـه بالعلم والتجـربة ، وطريق معرفة العلة هو وضـع ورفع الشـروط ، أي تغيير ظـروف التجربـة ، فالعالم في مختبره يخلط أشياء ، يزيد أو يقللّ ، يركّب أو يحلّل ، يصل أو يفصل حتى يكتشف العلة الخاصة .

وأحياناً لا يصلون إلى معرفة علة ظاهرة مادية ، أو لا يوجد في مجال التجربة ما يبين كيفية وجود هذه الظاهرة فيتوّهمون أن قانون العلية ليس سارياً في هذه الموارد . وفي عالمنا اليوم نجد بعض علماء الفيزياء في الغرب لمّا لم يعرفوا علة بعض الأحداث التي تجري داخل نواة الذرة فإنهم اندفعوا للقول بأن هذه لا علة لها ، واعتقدوا أن قانون العلية قد نقض في هذه المجالات ، غافلين عن أنّ قانون العلية الفلسفي لا تنقضه التجارب ، وهم في تجاربهم يبحثون عن العلة الخاصة ، فإذا لم يصلوا إليها عرفنا أن تجاربهم كانت ناقصة .

الثاني : هل نستطيع أن نعرف العلة المنحصرة بالتجربة أم لا ؟

أي إذا جرّبنا في ظروف خاصة وعرفنا أن شيئاً معيناً يوجد بعد شيء آخر ، مثلاً : إذا وصلنا مفتاح الكهرباء فإن المصباح يضيء عرفنا أن علة الضياء في المصباح هي الكهرباء ، ولكن أيحقّ لنا في هذه الحال أن نقول إن ظهور الضياء في العالم لا يحدث إلا عن طريق الكهرباء ؟ هل تثبت لنا التجربة مثل هذه النتيجة ؟

أم أن التجربة تثبت لنا فقط أنه في ظروف معينة يكون هذا الضياء معلولاً للمصباح الكهربائي ، لا في كل مكان ولا في جميع الظروف . فالتجربة لا تثبت حكماً عاماً إلّا إذا تمّت تجربة كل ظواهر العالم التي لا عدّ لها ولا حصر ، وهل باستطاعتنا القيام بهذا العمل ؟

كلّا ، إذن : التجربة لا تستطيع أن توصلنا إلى العلة المنحصرة .

وبعد هذه المقدّمة نصل إلى الجواب على ذلك السؤال :

إنّ قبول الإعجاز لا يعني إطلاقاً إنكار أصل العلية أو الاستثناء فيه ، لأن الإعجاز أولاً يستند إلى الله سبحانه ، إذن له علة مفيضة للوجود ، فالتسليم بالإعجاز تسليم بعلّيّة الله .

أما بالنسبة إلى العلل الطبيعية فإذا وجد معلول من دون علته الطبيعية أيعني هذا أنّ قانون العلية قد نقض ؟

إذا رجعنا إلى ما ذكرناه في المقدّمة عرفنا أننا لا نستطيع الادّعاء بكون هذه العلة الطبيعية لوجود المعلول منحصرة بما عرفناه ، ولا يوجد سبيل آخر لوجود هذا المعلول الطبيعي ، فلعلّ في موارد الإعجاز توجد علل غير الله وفي طول وجود الله ، ونحن جاهلون بها .

وبالإضافة إلى هذا فإن علية الأمور غير الطبيعية للأشياء الطبيعية لا تنفى بقانون العلية ، بل لا يكفي عدم النفي وإنما يتمّ إثبات مثل هذه الأمور ، فالذين يروضون أنفسهم ويكتسبون قوى نفسية خاصة يستطيعون القيام ببعض التصرّفات ، وإيجاد بعض الظواهر التي لا تتيسر عن طريق الأسباب الطبيعية . ولا يشكّ اليوم أحد في حدوث هذا الشيء ، فقد نقل بالتواتر ما يقوم به المرتاضون ، وشكلت لجان علمية تضمّ علماء من تخصصات شتى لدراسة أعمالهم ومعرفة قوانينها الطبيعية ، ولكنهم يعترفون في النهاية أن القوانين الطبيعية لم تكن سائدة في هذه المجالات .

فإذا كان للمرتاضين مثل هذه القدرات الهائلة التي سمعنا جوانب منها ، فكيف نستطيع إنكار معاجز الأنبياء مدّعين أنها من المستحيلات ؟

إنّ قبول هذه المعاجز معناه أن الظواهر المادية قد تكون لها علل غير مادية ومجرّدة ، وعليه فمن الممكن أن تؤثّر نفس النبي وإرادته في إيجاد ظاهرة ما ، ولا يستطيع أيّ قانون علمي نفي هذا الشيء ، لأن للقوانين العلمية أن تقول فقط : إن في مجال عملي لا وجود لمثل هذه الأمور ، أما ما وراء ذلك أيوجد شيء أم لا يوجد فإن القوانين تجيب : لا أعلم .

إذن وجود الظواهر الخارقة للعادة لا تنقض قانون العلية الفلسفي ولا تصطدم بالقوانين الطبيعية .

وقد يسأل بعضهم :

إذا كان الله قادراً على إنجاز عمل عن طريق الأسباب الطبيعية العادية وعن طريق الأسباب غير الطبيعية ، فلماذا يختار أحياناً الأسباب غير العادية ، وأحياناً (وهي الأكثر) الأسباب العادية لأداء فعل ما ؟

الجواب : يوجد جواب عام وهو أن مصالح تلك الفئة من الناس أو تلك البيئة تقتضي أن يتمّ هذا العمل بشكل طبيعي ، وفي الموارد الاستثنائية تقتضي أن يوجد بشكل غير عادي ليزداد إيمان الناس بما وراء الطبيعة ، وهذه أشياء تحدث عندما تقتضيها حكمة الله ، ونحن لا نستطيع تعيين الزمن الذي تقتضي فيه المصلحة أمراً خارق العادة أولا تقتضيه ، لأننا لسنا محيطين بالمصالح والمفاسد والحكمة الإلهية ، ولكنه لما كان الله لا يفعل شيئاً عبثاً فنحن نعرف أنه قد أدّى الفعل حسب المصالح .

وقد ذكرنا فيما سبق أن القائلين بعدم إمكانية الاستثناء في القوانين الطبيعية استدّلوا ببعض الآيات ، وقالوا إن قبول حدوث الأمور الخارقة للعادة يتنافى مع الإيمان بهذه الآية :

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ .

لأن الشيء الخارق للعادة ناقض للسنة الإلهية .

ولدينا جوابان :

١ ـ جواب نقضي : ماذا كانت السنّة الإلهية قبل اكتشاف القوة الكهربائية وقبل اختراع الآلات الميكانيكية؟كانت السنّة الإلهية على اكتساب النور من الشمس وأحياناً من المصابيح النفطية ، أما الآن حيث انتشر استعمال القوة الكهربائية أيكون هذا نقضاً للسنّة الالهية ؟

إذا كان هذا نقضاً لها فذلك نقض لها أيضاً ،وإن لم يكن نقضاً ففي الموردين سواء .

٢ ـ جواب حليّ : ليس المقصود من الآية هو ما قلتموه ، فالآية لا تقول إن الحوادث الطبيعية تجري على هذا المنوال ، ولا يفهم منها أن الضياء لا يأتي من الكهرباء لأن السنة الإلهية كانت تقتضي أخذ الضياء من النار ، ولا أن مدى صوت الإنسان هو مسافة أمتار معدودة ، ولا يمكن انتقاله بفضل الهاتف عبر آلاف الكيلومترات :

أولاً : لأن آيات السنة الإلهية تتعلق بالمجتمعات البشرية ، وتؤكد أن

الناس عندما يعصون ربهم ويكذّبون بـآياتـه فهو سينـزل عليهم البلاء ، وإذا وصل الفساد في مجتمع إلى حدّ ينسا. فيه طريق الحق والصلاح فإن الله يهلكهم بعذاب من السماء والأرض . فهذه الآيات لا علاقة لها بالقوانين الطبيعية .

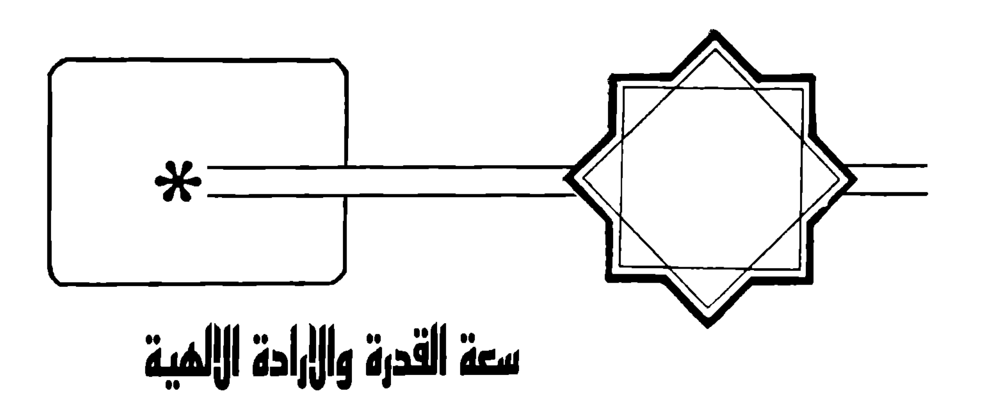
ثانياً : وعلى فرض أن نقول إن الآية يمكن تعميمها بحيث تشمل جميع قوانين العالم، فهل تكون قوانين الله هي تلك التي نعرفهـا فقط دون ما نجهله منها ؟

إن القانون الذي بحسبه تتحوّل القوة الكهربائية إلى نور كان موجوداً قبل اكتشافه من قبل الإنسان ، ولكننا كنا نجهله ولا نعرف طريقة استغلاله وعندما اكتشفناه تخيلنا أنه سنة جديدة ، بينما كانت تحدث بحسبه ظاهرة البرق والرعد منذ العصور الغابرة .

إذن : من سنن الله أنـه عندمـا تقتضي المصلحة إنجـاز عمل عن غـير المجرى الطبيعي فهو يوجد بشكل خـارق للعادة ، ولا تستـطيع الفلسفـة ولا العلم إثبات أن الظواهر الطبيعية لا بدّ من وجودها عن طريق علتها الطبيعية . والعالم مليء بالآيات والمعجزات ، فالإعجاز بنفسه سنة من سنن الله .

وإذا أردنا صياغة هذا في عبارة أصولية قلنا لا يجوز التمسك بـالعام في الشبهة المصداقية ، أي إذا ثبت أن هذا سنة فهو لا يتغير ، ولكن كيف نستطيع إثبات أن السنة الإلهية جارية على وجود الظواهر من طريق عللها الماديّة ؟

* * *



سعة القدرة والإرادة الإلهية

تـدّل كثير من الآيـات الشريفـة على أنّ الله إذا أراد شيئـاً فهو يفعله ، وحينئذٍ يثار هذا السؤال :

أيستطيع الله أن يريد شيئاً مستحيلاً ويفعله ؟

لو كان يستطيع لزم من ذلك تحقق المستحيل ، وإن لم يكن يستطيع لزم منه كون القدرة الإلهية محدودة بينما نحن نعلم ﴿ **أن الله على كل شيء قدير** ﴾ ؟

نبدأ أولاً بالإشارة إلى بعض الآيات التي تؤكّد قدرة الله ونفوذ مشيئته :

﴿ **إن الله يفعل ما يريد** ﴾[1] .

﴿ **إن الله يفعل ما يشاء** ﴾[2] .

وهناك آيات تتحدّث عن التفاصيل وتجعل الأشياء تابعة لمشيئة الله :

﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء** ﴾[3] .

﴿ **والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾[4] .

---

(١) سورة الحج : الآية ١٤ .

(٢) سورة الحج : الآية ١٨ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٧٣ .

(٤) سورة النور : الآية ٤٦ .

﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾[1] .

﴿ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء ﴾[2] .

﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾[3] .

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾[4] .

وفي مورد تدبير الإنسان والعالم يقول تعالى :

﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ﴾[5] .

فأنتم تعيشون في زمانٍ معين وتستفيدون من نعم الله ، كل هذا تابع لمشيئته ، ولو شاء لأفناكم وأحلّ مكانكم قوماً آخرين ، إذن توجد المجتمعات البشرية بمشيئة الله .

وفي مورد الهداية يقول تعالى :

﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾[6] .

ولكنّ إرادته لم تتعلق بهدا لأنه أراد أن يكون الناس مختارين .

وفي مورد الأحكام التشريعية :

﴿ إنّ الله يحكم ما يريد ﴾[7] .

ونواجه عندئذٍ هذه الأسئلة :

أتكون قدرته تعالى شاملة للأمور المستحيلة ؟

أي هل يستطيع أن يخلق المستحيل ؟ هل يستطيع أن يفني نفسه ؟ هل يستطيع أن يخلق شريكاً له ؟ هل يستطيع أن يدخل هذا العالم بعظمته في بيضة من دون أن يصغر العالم أو تكبر البيضة ؟

إذا كان يستطيع القيام بهذه الأمور فإن معناه اجتماع النقيضين وهو مستحيل ، وإن كان لا يستطيع فقدرة الله إذن محدودة ، ويصبح هذا تخصيصاً للآيات القائلة : ﴿ إنّ الله على كل شيء قدير ﴾ .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٣٩ .

(٤) سورة الرعد : الآية ٢٦ .

(٥) سورة النساء : الآية ١٣٣ .

(٦) سورة الأنعام : الآية ٣٥ .

(٧) سورة المائدة : الآية ١ .

قبـل أن نجيب على هـذا نرى من الـلازم توضيـح المقصـود من كلمـة « المستحيل » ، يستعمل « المستحيل » في ثلاثة موارد :

١ ـ **المستحيل الذاتي** : وهو الذي يشتمل نفس فرضه على التنـاقض ، مثل أن نفرض أن جبلاً في نفس الوقت الذي يكون فيـه جبلاً فهـو ذرة ليس أكثر . هذا معناه اجتماع النقيضين لأنه يعني أنه جبل وفي نفس الـوقت ليس جبلاً . أو الضياء الذي هو ظلام ، إن فرض هذا فرض متناقض لأن الضياء وعدم الضياء لا يجتمعان .

٢ ـ **المستحيل وقوعاً** : وهو الذي لا يشتمل فرضه عـلى تناقض ، بـل تحققه ووجوده في الخـارج يستلزم تناقضـاً ، مثل وجـود المعلول من دون علته الخاصة ؛ فوجود المعلول لا يكون إلاّ عن طريق علتـه الخاصـة ، فإذا لم تكن علته وهو يريد أن يوجد ، هذا تناقض ، ففرض المعلول (مثل الإنســان) لا يشتمل على تناقض ، وإنما وجود الإنسان من دون علة هو محتاج إليها في وجوده هذا هو المستحيل ، لأن الفرض أنه ماهية ممكنة الوجود ولها لوازم من المستحيل أن تتحقق بدونها .

٣ ـ **المستحيل العادي** : والمقصود منه أن لهذه الظاهرة المعينة علة توجد عن طريقها عادة ، ولكن لعلّ لها علة أخرى قد توجـد عن طريقهـا في بعض الحـالات الاستثنائيـة . فإذا لم نجـد علتها العـاديـة تخيلنـا أنـه من المستحيـل وجودها ، فهذا ليس من المستحيل ذاتاً ولا وقوعاً .

وبعد هذا التوضيح نسأل :
هل يستطيع الله أن يوجد المستحيل ؟
ويكون الجواب على كل واحد من المستحيلات على حدة :

أما المستحيل الذاتي : ففرضـه يشتمل عـلى تناقض ، وحينئـذٍ لا يصحّ السؤال بأنّ هذا الشيء يتحقّق أو لا ؟ لأنه اجتماع للنقيضين ولا يمكن تحققه ، فكيف نسأل هل يستطيع أحد أن يحققه ؟ إنه سؤال متناقض . مثل أن نقول : هل يستطيع الله أن يخلق إلهاً آخـر مثله ، لأن معنى الإله كـونه غـير مخلوق ،

فيصبح السؤال متناقضاً لأنه سؤال عن خلق شيء لا يمكن أن يكـون مخلوقاً ، وبمجرّد أن يخلق الله شيئاً فهو مخلوق ولا يمكن أن يكون إلهاً .

أما المستحيل وقوعاً : وهو الذي لا يستلزم فرضه تناقضاً وإنما نضمّ إليه فرضاً آخر فيصبح مستحيلاً ، مثل أن لا يوجد المقتضي أو يوجد المانع ومع هذا نريد منه أن يوجد ، هذا أيضاً يستلزم تناقضاً ، لأننا فرضنا أن المعلول لا يوجد من دون تحقق علته المنحصرة ، والمعلول ممتنـع إذا انعدمت علتـه المنحصرة ، وحينئذٍ نسأل : هل يوجـد الله مثل هـذا ؟ هذا السؤال متنـاقض ، لأن معنى قولنا : هذه علته المنحصرة وإنه لا يوجد من دونها ، فإذا سألنا هل يوجد من دونها فهذا يستلزم تناقضاً .

نعم قد نتصوّر أن معلولاً له علة منحصرة وهو ليس في الواقع كذلك ، وبناءً على هذا التصوّر نتخيل أنه من المستحيل أن يتحقق من دون هذه العلة ، ولكنّنا نعرف بعد ذلك، أن للعلة بديلاً ، مثل أن نتصوّر أن تبديل العصـا إلى ثعبـان مستحيل لأن العلة المنحصـرة لوجـود الثعابـين هي بيوض الثعـابين ، غـافلين عن أن وجود بعض المعلولات الـطبيعية قـد يكون لـه علل فيـها وراء الطبيعة ، فهنـا لم يوجـد المعلول من دون علة وإنما كـانت له علة أخـرى غير معروفة لنـا ، وتصوّرنـا أن العلة منحصرة بمـا هو معـروف لدينـا ، فقلنا من المستحيل وجوده بدونها ، ثم بدا لنا خطأ تصوّرنا وحكمنا .

ويبقى عندنا المستحيل العادي : وهو يوصف بالمستحيل تسامحاً ، لأننـا فرضنا أنه له حالات استثنائية قد يوجد فيها عن طريق غير عادي ، فهـو إذن ممكن الوقوع وتتعلق به قدرة الله ، والمعجـزات جميعاً من هـذا القبيل ، فهي ظواهر لا تتحققّ عن طريق العلل العادية ، وإنما توجد عن طـريق العلل غير العادية التي لا تقع تحت تصرّفنا . ونذكر مثالاً لتقريب هذا إلى الذهن : وهو أن كثيراً من الظواهر كان الإنسان إلى زمن قريب يجهل عللها ويظنّ وجودهـا مستحُيلاً ، وبعد ذلك اكتشف أن هذه الظاهرة توجد من هذا الطريق ، فقبل فترة من الزمن لو قيل لشخص إنك إذا تكلمت فسوف يسمع صوتك من يبعد عنك آلاف الكيلومترات لأجاب بأن ذلك مستحيل ، لأنه يجهل أسباب ذلك ،

أما الآن حيث عرفت الأسباب واستغلت فقد عرف الإنسان أنّ ذلك ليس مستحيلاً ، فله سبب كان مجهولاً لدينا ، وكذا الأسباب فوق الطبيعية فهي سبل لتحقّق الظواهر ، ولكننا نجهلها ولا تقع تحت تصرّفنا . فهذا المستحيل العادي تتعلق به قدرة الله ويفعله سبحانه ، وهو الذي نسميه بخارق العادة .

وإذا قلنا إن لله قدرة على فعل شيء فهذا يعني أنه متى شاء فعله ومتى لم يشأ لم يفعله . إذن عندما نقيس مفهوم القدرة إلى مفهوم الإرادة نجد أن موارد القدرة أوسع من موارد الإرادة ، ونضرب لهذا مثلاً بأن كل واحد منا يستطيع في لحظة واحدة أن يتكلم وأن يسكت ، أي لكل واحد منا القدرة على الكلام إذا شاء وعلى السكوت إذا لم يشأ ، فقدرتنا تشمل الكلام والسكوت ، أما الذي نريده فهو أحد هذين ، إما إرادة السكوت وإما إرادة التكلم ، ولا نستطيع إرادة الاثنين معاً . فالقدرة تتعلق بالفعل والترك ، أما الإرادة فهي إما أن تتعلق بالفعل وإما بالترك . فيصحّ القول إن لإنسان ما قدرة على فعل شيء معين وعلى تركه ، ولكنه لا يصحّ إذا قلنا إنه في لحظة واحدة يريد فعل شيء ولا يريده ، فهو يريد وجوده ويريد عدمه . وإرادة الله وقدرته أيضاً كذلك ، أي أنه لا يريد كل ما تمتدّ إليه قدرته لأنه أحياناً يلزم منه الجمع بين الفعل والترك وهو مستحيل لاستلزامه التناقض ، أي لأن فرضه مستحيل فإن الإرادة لا تتعلق به ، كما لو فرضنا تعلق إرادته بوجود الشمس وفي نفس الوقت بعدمها ، فهذا الفرض مستحيل ذاتياً . وهناك أشياء ليست مستحيلة ذاتياً ولكن الله سبحانه لا يريدها أبداً ، فما الذي يمنع تعلق إرادة الله بهذه الأشياء ؟

ولعلكم قد طرق أسماعكم قول العلماء من المتكلمين أن صدور الفعل القبيح من الله مستحيل ، وهو ممكن الوقوع منا ولكنه مستحيل على الله تعالى ، فلماذا لا يفعله الله ؟ هل أنه لا يستطيع أو لا يريد ؟

إذا كان لا يستطيع فقدرته إذن محدودة ، وإن كان يستطيع ولكنه لا يريد فمعناه أن إرادته لا تشمل كل شيء،لماذا لا يريد ؟

وما الذي يمنع إرادته أن تتعلق بالفعل القبيح ؟

قال الأشاعرة إن الحسن والقبح ينتزعان من فعل الله ، فكل فعل يفعله فهو حسن تكوينياً لأنه هو الذي فعله ، وكل شيء يأمر به فهو حسن تشريعيّاً لأنه هو الذي أمر به ، وكل ما لا يفعله فهو قبيح تكوينياً وكل ما ينهى عنه فهو قبيح تشريعياً . فالحسن والقبح يدوران مدار إرادة الله ، وبناء على هذا يكون الجواب على السؤال القائل : أيفعل الله القبيح ؟

هو : كل ما لا يفعله الله فهو قبيح ، ولا يصحّ هذا السؤال لأن الحسن والقبح تابعان لفعل الله ، فما دام لم يفعل فلا نزاع وإذا فعل فهو حسن .

وقال بعض أصحاب العدل (أو ظاهر كلامهم هذا) : إن كل ما يعتبره العقل قبيحاً فالله لا يفعله وهو تابع لحكم العقل ، وقدرته تتعلق بالفعل القبيح لأنه يستطيع أن يفعله ولكنه لا يقدم على هذا الفعل لأن العقل ينهى عنه ، فأفعاله تعالى أضيق مما يقدر عليه ، لأن قدرته تتعلق بالأفعال الحسنة والقبيحة ، أما إرادته فهي لا تتعلق إلا بالأفعال الحسنة .

وتشمّ من هذا الكلام رائحة الاستخفاف بالله سبحانه ، لأن معناه أن الله يأتمر بأوامر العقل الذي هو أحد مخلوقاته فهو مطيع له ، وهذا يستلزم حاكمية المخلوق على الخالق ، وهو نقض لألوهيته جلّ وعلا .

واستدرك بعضهم بأنّ المقصود من العقل هو عقل الله لا عقل الإنسان ، فعقله تعالى يأمره ، وعندئذٍ لا يأتي الإشكال بحاكمية المخلوق على الخالق .

ويبدو هذا الجواب مقبولاً لأول وهلة ، فإذا كان للإنسان عقل أيصح أن لا يكون لله عقل ؟ إذن هو يمتثل أوامر عقله ، ولا إشكال فيه .

ولكننا إذا تعمقنا في الموضوع نجد أنه لا يمكن فرض التعدّد في الذات الإلهية ، فلا يمكن أن نفرض وجود قوة في الذات الإلهية تسمى العقل وقوة أخرى تمتثل أوامر هذا العقل ، وهذا في الواقع نسبة الصفات الإنسانية لله ، وهو لون من التشبيه . ويمكن تصوّر هذا فقط في الموجودات المادية التي يمكن في وجودها لون من ألوان الكثرة ، أما الله سبحانه فهو بسيط من جميع الجهات ولا يمكن فرض حيثيتين في وجوده هما حيثيتا العاقل والعامل .

وبالإضافة إلى هذا فإن ما نفهمه من العقل هو تلك القوة المدركة للمفاهيم ، والمفاهيم هي من قبيل العلوم الحصولية،والعلم الإلهي لا يشبه العلم الحصولي من قريب ولا من بعيد . فهذا أيضاً يستلزم نسبة صفات المخلوقين للخالق سبحانه من ناحية أخرى ، لأنه لا بدّ حينئذٍ من فرض ذهن له ، بينما علمه تعالى عين ذاته ، وهو ليس من قبيل الصور والمفاهيم والعلم الحصولي .

إذن ليس من المناسب القول بأنّ لله عقلاً ، لا بمعنى أنه فاقد للعقل وفيه نقص ، وإنما بمعنى أنه فوق العقل ، ولهذا لا نجد القرآن ولا الروايات تنسب العقل لله تعالى ، فهي تقول إنه عليم ولا تقول إنه عاقل .

وعلاوة على هذا كله فإنّ عمل العقل هو إدراك المفاهيم فقط وليس إصدار الأوامر ، فهذا الجواب أيضاً ليس مقنعاً .

وقال بعض العلماء إن قدرة الله تتعلق بالقبائح ولكن الذي يحدّد قدرته في مقام العمل هو صفة الحكمة الإلهية،فالصفات تختلف من حيث السعة الضيق ، ويستطيع بعضها أن يضيق دائرة صفة أخرى ، فإذا كانت هناك صفة ذات حدود واسعة وضممنا إليها صفة أخرى فإن تلك تضيق حدودها عملياً . مثلاً : رحمة الله لا نهائية . ومن هنا فهي تقتضي العفو حتى عن الشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين (ع) ، ولكن الله سبحانه لا يعفو عنه عملياً لأن ذلك يخالف صفة الحكمة أو العدالة الإلهية . ويؤيّد هذا ما ورد في بعض الأدعية : « ربنا عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك » . إذن يمكن أن يحدّد العدل فضل الله ، ويمكن أن تقف حكمته تعالى في وجه رحمته ، ولما كانت كلتا الصفتين إلهيتين إذن لم يتدّخل عامل خارجي في تحديد مشيئة الله .

ولا بدّ هنا من توضيح مفهوم الحكمة والعدل الإلهي ، وكيفية تحديد صفة لصفة أخرى ، فنتساءل :

هل العدل والحكمة من صفات الفعل أم من صفات الذات ؟

من الواضح أن العدل من صفات الفعل :

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾[1] .

وكذا الحكمة ، فهي على أحد التفاسير تتعلق بالفعل لأنّ الله يؤدي عمله بحكمة ، وقد قلنا في صفات الفعل إنها مفاهيم تنتزع من مقام الفعل ، أي أنها ليس لها ما بإزاء في الخارج ، فلا يوجد شيء خاص في الخارج يسمى الحكمة ، فذات الله بسيطة من جميع الجهات ، وفي الخارج توجد ذات الله البسيطة والفعل الذي يتحقق في ظروف معينة وكيفيات خاصة . فهو مثلاً يرسل الشمر إلى جهنم ويبعث بالمؤمن إلى الجنة ، فالمتحقّق في الخارج هو الله والجنة والمؤمن وجهنم والشمر ، وعندما يلاحظ عقلنا أن هذا الفعل قد تحقّق بهذا الشكل ، ويقيس علاقة هذا بالأشياء الأخرى فهو يقول إنه عمل حكيم ، فالحكمة ليست شيئاً خارجياً تماماً مثل الرزق والهداية وغيرهما من صفات الفعل .

وحينئذٍ نسأل هؤلاء : هل تعتبرون العدل والحكمة من صفات الفعل أم من صفات الذات ؟

إن كانتا من صفات الفعل فمعناه أنّ عقلنا عندما يقيس الفعل الإلهي إلى الذات الإلهية وارتباطه بسائر الأمور فإنه ينتزع هذا المفهوم . إذن لا بد أن يكون الفعل قد تمّ بتفاصيله قبل الانتزاع ، ثم يأتي الانتزاع في مرحلة لاحقة ، وهل يصحّ عندئذ أن نقول إن هذا المفهوم الانتزاعي اللاحق يأتي ويحدّد دائرة الفعل الذي تحقق قبله ؟ كيف يستطيع أن يحدد الفعل وهو تابع له ؟

وموضوع البحث هو : لماذا كان هذا الفعل بحيث ننتزع منه مفهوم العدل والحكمة ، ولماذا لم يكن بشكل بحيث ننتزع منه صفة الظلم ؟

ما هو السبب الذي يقتضي صدور أفعال الله كلها بشكل ينتزع منها عقلنا عنوان الحكمة والعدالة ؟ لماذا كان منشأ الانتزاع محدوداً ؟ لماذا لا تتعلق قدرة الله وإرادته بفعل ينتزع منه عقلنا مفهوم القبح ؟

---

(١) سورة يونس : الآية ٤٤ .

وإذا كان هذا هو السؤال فلا مجال للقول بأن هذه المفاهيم تحدّد قدرة الله .

وإذا ادّعى أحد بأنها من صفات الذات ، فعلاوة على كون هذا أمراً مخالفاً للواقع فإنّ معنى صفة الذات هو أنها عين ذات الله سبحانه ، فذاته تعالى عين العلم والقدرة والعدالة والحكمة ، وعندئذ ماذا يعني قولنا إن صفة للذات تحدّد صفة أخرى للذات ؟ أتكون الذات فاعلة ومنفعلة في نفس الوقت ؟ أتكون الذات مؤثّرة من ناحية كونها حكيمة ومتأثّرة من جهة كونها رحيمة ؟

من الواضح أنه لا يوجد تأثير وتأثر في ذات الله ، لأنه يلزم من التأثير والتأثر المادّية من جهة ، والتركيب من جهة أخرى .

والشيء الوحيد الذي يمكن قوله هو أنّ عقلنا ينتزع من الذات الإلهية حيثيّتين ومفهومين ، والمفهومان يختلفان من حيث السعة والضيق ، مثل أن ننتزع من الذات الإلهية صفة كونه فياضاً وصفة كونه رحمانا (على فرض كونهما من صفات الذات) وصفة الحكمة والعدالة ، ومعنى هذا هو أن عقلنا يأخذ بعين الاعتبار جهة خاصة (لا أن في ذات الله جهات متعددة) وهذا المفهوم الذي يلاحظه العقل أضيق من ذلك المفهوم ، ويعود هذا إلى كون المفاهيم التي ننتزعها تتصف بالسعة والضيق بالنسبة لبعضها ، وإلا فإن المصداق هو الذات الإلهية البسيطة . إذن هذا الجواب ليس بصحيح .

فما هو جواب هذا السؤال :

لماذا لا يفعل الله القبيح ؟

ولماذا لا تتعلق قدرته أو إرادته بالفعل القبيح ؟

وأخيراً ألا يعني هذا محدودية في القدرة أو الإرادة الإلهية ؟

في البداية لا بد أن نتعمق في مفهوم القدرة والإرادة لنعرف ما يقتضيه هذان المفهومان ، وبعد ذلك ننظر هل أنّ الفعل القبيح لا يصدر من الله تعالى بلحاظ ضيق المفهوم أم بلحاظ أمر خارجي .

مفهوم القدرة :

فسره المحققون بأنه كون الفاعل بحيث إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل . فإذا تعلقت إرادة الفاعل بفعل وأنجزه فمن المؤكد كونه مقدوراً لـه ، لأنه إذا شاء فعل وهنا شاء وفعل ، وما هو مصير ترك ذلك الفعل ؟ أيمكن فرض عدم ذلك الفعل الذي تحقق ؟ كلّا ، لأنه اجتماع للنقيضين وهو مستحيل ، وفي هذه الحال أيكون ترك الفعل مقدوراً أم لا ؟ كلّا ، لأن الترك مستحيل في حالة تحقق الفعل ، ولكننا نقول إن تركه مقدور له أيضاً ، أي أن ترك الفعل في حدّ نفسه تتعلق به قدرته ، لماذا ؟ لأنه إذا لم يشأ لم يفعل ، فالترك مقدور له أيضاً ، إذن ليس معنى القدرة هو تحققه يقيناً وإنما معناها أنه إذا شاء تحققه فإنه يتحقّق وينتفي الترك ، وإذا لم يشأ تحققه فهو يتركه ولا يتحقق الفعل ، ولكن الفعل والترك مقدوران له ، لأن هذه القضية الشرطية صادقة في هذا المجال : إذا شاء الله الفعل القبيح فعله ولكنه لم يشأ ولم يفعل ولا يشاء ولا يفعل ، ومع هذا لا يعني أنه ليس قادراً عليه لأن القضية الشرطية صادقة أيضاً .

وبهذا نعرف أن دائرة الفعل الذي يؤدّى بالإرادة أضيق من دائرة القدرة ، فالقدرة تتعلق بالطرفين المتناقضين ، أما الإرادة فهي تتعلق بأحد الطرفين المتناقضين إمّا الفعل وإمّا الترك ولا تتعلق بهما معاً ، لأنه يلزم منه اجتماع النقيضين وهو مستحيل ، فقدرته تعالى تتعلق بأداء الفعل وبتركه ، ولكن إرادته إما أن تتعلق بأداء الفعل وإمّا بتركه ، وطبيعة المفهوم تقتضي هذا الأمر .

فإذا لاحظنا أن إرادة الله لا تتعلق بما تتعلق به قدرته فلا يعني هذا أن إرادته أضعف من قدرته وإنما معنى الإرادة هو هذا . ونقول إن قدرة الله تتعلق بالفعل القبيح (وهو لا يفعله لأنه لايريده) ولكن إرادته أبداً لا تتعلق به . ويقول العلماء إن صدور القبيح من الله مستحيل ، فالقضية الشرطية صادقة « وإذا لم يشأ لم يفعل » ولكنه لا يشاء ولا يفعل أبداً ، فهل يعني هذا أن إرادته محدودة ؟

لا بد أن نلتفت إلى أن معنى قولنا « صدور الفعل القبيح من الله مستحيل » ليس هو المستحيل الذاتي ، وإنما هو الممتنع بالغير . فالشيء الممتنع بالذات هو المشتمل فرضه على تناقض ، بينما فرض صدور الفعل القبيح ليس مشتملاً على تناقض ، وكذا نفس صدوره من فاعل ما فهو لا يستبطن تناقضاً ، والشيء المستحيل هو صدور القبيح من فاعل معين ، فالامتناع إذن ليس من ناحية ذات صدور القبيح وإنما من ناحية فاعل خاص . إذن يكون امتناعه بالغير ، وعلة امتناعه جهة في ذات الله تمنع هذا الفعل ، لا أن نفس الفعل ممتنع على الله وهو عاجز عن القيام به ، فهذا الامتناع لا ينفي قدرته لأنه هو الذي يضفي الامتناع على الفعل . كما أن وجوب الفعل بالغير لا ينفي اختيار الفاعل ، فكل فعل يتحقق فهو واجب بالغير (الشيء إذا لم يجب لم يوجد) ، أيستلزم هذا كون الفاعل له مجبوراً ؟ كلّا ، لأن هذه الضرورة قد أضفيت عليه من قبل الفاعل . الامتناع بالغير مثله تماماً ، فالفاعل هو الذي يحكم عليه بالامتناع ، وهذا لا يعني نفي الاختيار عنه ولا كون قدرته محدودة .

نعود إلى السؤال : هل تتعلق قدرة الله بالفعل القبيح ؟

كلّا ، لأنه مستحيل وامتناعه بالغير ، وهو لا يستلزم كون إرادة الله محدودة . إذن ماذا يعني ؟

لا بدّ من التأمل في الإرادة قليلاً :

مفهوم الإرادة :

نحن نأخذ مفهوم الإرادة من فعل أنفسنا (لا يهمنا الآن كون الإرادة من أفعال النفس أو من الكيفيات النفسانية) فنحن نجدها في ذاتنا ، فما هي الإرادة ؟

قلنا فيما مضى إن للإرادة استعمالين فتارة تستعمل بمعنى الرغبة وأخرى تستعمل بمعنى اتخاذ القرار ، والثاني هو محلّ بحثنا .

فما هي حقيقة الإرادة بالمعنى الثاني ؟

إنها أمر وجوديّ يظهر فينا وهو قائم بأنفسنا .

أيظهر هذا من ذات نفسه بلا نظام ولا حساب ؟

كلّا ، فالواحد منا لا تظهر في نفسه إرادة ليستريح في كرة المريخ ، لأن مبادىء هذه الإرادة غير متحققة في أنفسنا ، فالإرادة لا تحدث جزافاً ولا تنبع دفعة ، وإنما لها مقدمات لا بدّ من توفرّها قبلها ، وبعض مقدماتها من سنخ العلوم وبعضها من سنخ الكيفيات النفسانية .

أي أننا عندما نريد الإقدام على فعل شيء لا بدّ أولاً أن نتصوّره ثم نتصور فوائده ثم نصدّق بها ، فكل هذه من سنخ العلوم . وإلى جانب هذه تتحقق في أنفسنا كيفية نفسانية وهي الرغبة فيه ، وتكون هذه الرغبة أحياناً بلا معارض أي لا توجد رغبة أخرى تتعارض معها ، مثلما لو جعت فأنا أرغب في أكل الخبز ولا معارض لهذه الرغبة . ولكنه أحياناً تعارض هذه الرغبة رغبة أخرى ، فإذا أردت أكل الخبز فإني سوف أحرم من الصلاة في أوّل الوقت ، فهاتان الرغبتان متعارضتان ، وأيهما ترجح عندي فهي التي أختارها ، وهذا الاختيار هو المعتبر في القيمة الأخلاقية ، وبعد هذا الاختيار يأتي العزم على أداء الفعل . هذا هو تحليل الإرادة عند الإنسان . فكيف تكون إرادة الله ؟

قلنا إن الإرادة الإلهية ليست كيفية نفسانية ، فالله ليس جوهراً تعرض عليه الأعراض ، « لم يسبق له حال حالاً » ، وهو لا يقع معرضاً للحوادث ، بل معنى إرادته تعالى هو أن عقلنا عندما يلاحظ الذات الإلهية ويلاحظ الفعل الصادر منها ويلتفت إلى أن أحداً لم يجبره على أداء هذا الفعل فهو قد قام به مختاراً عالماً فهو يقول : إن هذا الفعل تمّ بإرادة الله .

فإرادته سبحانه مفهوم ينتزع من مقايسة الفعل إلى الذات الإلهية ، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم العوامل التي يمكن أن تضغط عليه في هذا المجال . فإذا قلنا إن الله لا يريد أن يفعل القبيح ، فماذا تعني الإرادة هنا ؟ هل هي أمر جزافي ؟

قلنا إن إرادتنا ليست جزافية ، فكيف يمكن أن تكون إرادته ـ جلّ وعلا ـ جزافية ، لو كانت كذلك لأصبح فعله لغواً من دون حكمة :

﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً ﴾[1] .

﴿ ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ﴾[2] .

إذن : فعله تعالى ليس جزافاً ولا باطلاً ، وإنما لإرادته سبحانه حساب ونظام ، والأفعال التي تصدر منه لها لون من التناسب والسنخية مع الذات الإلهية ، وبالتعبير الفلسفي نقول : إن ذات الله وجود محض لا نقص فيه ، ولهذا فهو لا يتناسب مع العدم المحض ، فلو لم يخلق الله أيّ شيء ، أي لو تعلقت إرادته بعدم العالم ، فإن هذه الإرادة لا تتناسب مع الذات الإلهية ؛ لأنه وجود وخير محض ولا يتناسب مع عدم إيجاد الخير ، إذن لا تتعلق إرادته إلا بالخير ، وفي مقابل هذا يقف العدم والشر ، والله منزه عنهما ، وهذا هو معنى سبحان الله ، فهو منزّه عن النقائص والعيوب .

فتعلق إرادته إذن ينحصر بالخير ، وهذا هو مقتضى العلية ، فمعنى العلية هو وجود متقوّم بمرتبة أعلى من الوجود ، والعدم لا يتقوّم أبداً بالوجود ، والوجود الناقص أيضاً لا يتقوّم مباشرة بالوجود الكامل ، فهذا ما تقتضيه مراتب العلية ، فالوجود الكامل يصدر منه ما هو خال من النقص عدا كونه مخلوقاً وإلّا كان مثل الله ، فهو إذن ناقص بالنسبة إلى الله لأنه مخلوق ، ثم تأتي المخلوقات الأخرى وتتعدّد الوسائط .

فالإرادة تتعلق بما يتناسب مع الفاعل ، فالإنسان لا تتعلق إرادته بالتحليق في الفضاء مثل النسور ، لأنّ جسم الانسان لا يتناسب مع الطيران (نعم لا إشكال في تحليقه بالوساطة كطيرانه بوساطة الطائرات أو المركبات الفضائية) . ولّما كانت الإرادة متناسبة مع كيفية وجود المريد فإن الله تتعلق إرادته فقط بالكمال دون النقص ، لأن وجوده تعالى كمال محض .

إذن مقتضى قاعدة العلية وصفات الله الكمالية أن لا يكون في المخلوقات نقص عدا ما تقتضيه مرتبتهم في الوجود :

(١) سورة المؤمنون : الآية ١١٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٩١ .

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾[1] .

﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾[2] .

ولما كان كل شيء من المخلوقات حسناً ومتقناً فإن نظام المخلوقات بأجمعه سوف يكون حسناً ومتقناً . وما يقوله الفلاسفة من أن نظام العالم هو النظام الأحسن الأتقن ليس مخالفاً للقرآن الكريم .

فهذا هو ما تقتضيه الذات الإلهية ، وهو أن يصدر منها الحسن والخير والكمال .

ونعود إلى قولنا : من المستحيل أن تتعلق إرادة الله بالفعل القبيح ، لنؤكّد أن معناه هو كون الله تعالى من جهة أنه فاعل كامل لا يتناسب أبداً مع النقص والعدم والشر ، والنقص ليس في إرادته ، وإنما النقص في المراد ، فالفعل القبيح ناقص ، لا أن إرادة الله محدودة ، وإنما استحالة صدوره من ناحية الله هو امتناع بالغير ، فهو تعالى الذي يضفي الامتناع على الفعل القبيح ، أي لو فرضنا صدور القبيح منه للزم أن يصدر من دون علة ، وهو مستحيل . فالنقص إذن ليس في القدرة ولا في الإرادة الإلهية ، ويستحيل صدور القبيح من الله من باب الامتناع بالغير ، ولا يلزم من هذا تسلّط شيء على إرادة الله .

وقد يتوّهم البعض من قولنا إن فعل الله حكيم وموافق للمصلحة كون المصلحة شيئاً مستقلاً عن وجود الله ، ويتحتم على الله أن يراعي جانبه لئلاّ يفعل ما يخالف المصلحة ، وإذا سألنا عادة لماذا لم يفعل الله هذا الشيء أجابنا عامة الناس : لم تكن فيه مصلحة ، ويطرح عندئذ هذا الإشكال : ولماذا لم يخلق الله المصلحة ؟ أهو عاجز عن ذلك ؟

أجل ، إن هذا التعبير يجرّ هذا الإشكال . والجواب الصحيح هو أن المصلحة ليست شيئاً منفصلاً عن الله ويتحتمّ على الله أن يراعي جانبها عندما

---

(١) سورة السجدة : الآية ٧ .

(٢) سورة النمل : الآية ٨٨ .

يخلق ، وإنما المقصود من المصلحة هو أن يتحقق الفعل بشكل يكون فيه متّصفاً بأفضل كمال يتناسب مع مرتبة وجوده . ونحن أحياناً ننظر إلى مخلوق غير آخذين بعين الاعتبار علاقاته بالأشياء الأخرى ، مثلاً : نقول إنه من الأفضل للإنسان أن تكون له عينان لا عين واحدة ، فمصلحته في وجود عينين له ووجود عقل له وتمتعه باستقامة القامة و. . . ولكننا في أحيان أخرى ننظر إلى العالم بأجمعه وبما تشتمل عليه أجزاؤه من علاقات ، ولما كانت أشياء العالم المادي غير منفصلة عن بعضها ، وإنما هي مرتبطة بعلاقات مثل علاقات العلة والمعلول وغيرهما ، فإذا نظرنا إلى علاقاتها فيما بينها وعلاقاتها بما وراء المادة فإننا نستطيع أن ننسب المصلحة لجزء ما ، أو لعلاقته بسائر أجزاء العالم ، وعندئذ قد يتزاحم كمال شيء مع كمال شيء آخر ، فمثلاً مصلحة الأغنام والأبقار تقتضي أن تبقى مشغولة بالرعي لا أن تقطع رؤوسها ، ولكننا إذا قارنا مصلحة الأغنام بمصلحة الإنسان في نظام عام فإنه يحق لنا عندما تزاحم مصلحة الإنسان أن نضحي بمصلحة الأغنام من أجل مصلحة الإنسان . أو أن مصلحة الحنطة تقتضي أن تبقى محفوظة في المخازن ، ولكننا إذا قسناها إلى مصلحة الإنسان فإنه لا بد من التضحية بها . فماذا نفعل في هذا المجال ؟ أنستطيع أن نبقي على الأغنام ومع ذلك يصل الإنسان إلى كماله الذي لا بد أن يصل إليه من هذه الجهة ؟ كلا ، لأن العالم مكان للتزاحم ، فماذا يفعل الله في هذا المجال ؟ إنّه ينظّم العالم بشكل يبقى فيه الأكمل عند التزاحم ، فيسلّط الإنسان على الأغنام بحيث يستطيع الاستفادة من لحومها ، ولو أن الله خلق مكان الأغنام ذئاباً لما امتدّ الزمان حتى تأتي على الناس جميعاً ولا تترك لهم أثراً ، فالنظام الأحسن يقتضي أن يكون الإنسان بشكل يستطيع فيه التغلّب على الذئاب وتأنيس الأغنام . وبهذا تتضرّر الأغنام شئنا ذلك أم أبينا ، ويظهر الشر . وههنا يظهر سؤال آخر : من هو خالق الشرّ ؟ وإذا كان كلّ شيء تحت إرادة الله فالشر أيضاً تتعلق به إرادة الله ، فكيف تقولون إن إرادته تعالى لا تتعلق بالشرّ ؟

الجواب : أحياناً تتعلق الإرادة بالشيء بالذات ، وأحياناً تتعلق به بالعرض أو بالتبع (إذا كان أمراً عدمياً فهو بالعرض ، وإن كان وجودياً فهو

بالتبع) أي أن هدفكم في الحياة ابتداء القيام بفعل ولكن هذا الشيء لا يتحقق من دون شيء آخر ، فذلك الشيء الآخر اللازم للهدف الأساسي تتعلق به إرادتكم ولكن بالعرض ، أو بالتبع . فعندما تقطعون رؤوس الأغنام فإرادتكم تتعلق بأكل اللحم لا بموت الأغنام ، ولو أمكنكم أكل لحمها من دون أن تموت لما حرصتم على موتها ، إذن موت الأغنام لا تتعلق به إرادتكم أصالة ، ولكنه بدون موتها لا يتحقق هدفكم الأصلي ، لهذا تتعلق إرادتكم بموتها بالعرض . والله تعالى تعلقت إرادته بوجود الإنسان ووجود الأغنام أولاً ، ولعلّ إرادته تعالى اقتضت إيجاد الأعنام للإنسان كما يستفاد من الآيات :

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[1] .

إذن : الهدف الأساسي هو الإنسان ، وتتعلق إرادته بالتبع بالأشياء التي ينتفع منها الإنسان ، وانعدام الأشياء الأخرى تتعلق به الإرادة ، ولكن بالعرض ، فالله تعلقت إرادته بأن يستفيد الإنسان من لحوم الأغنام ، ولازم هذا أن تموت الأغنام .

فالشرور التي يتوهّمون نسبتها إلى الله لا تتعلق بها إرادة الله بالذات ، بل هي بالتبع أو بالعرض . وجميع النقائص المنبثّة في أطراف العالم من زلازل وسيول وموت وقتل وأحداث مؤلمة كلها تتعلق بها إرادة الله بالعرض ، وما يتعلق به إرادته أساساً وذاتاً إنما هو الكمالات الموجودة في هذا العالم .

وإذا تعمقنا أكثر عرفنا أن إرادة الله لا تتعلق بخلق الناس جميعاً في مستوى واحد ، لأن بعض أفراد الإنسان يجرّون البؤس على أنفسهم بأيديهم فيستحقون العذاب الإلهي ، والله سبحانه لم يخلق أحداً للعذاب « سبقت رحمته غضبه » ، وقد تعلقت إرادة الله بخلق الناس الذين يصلون إلى الكمال بإرادتهم ، فإرادته تعالى تعلقت بالذات بالوجود والكمال ، وإرادته تعالى انصبّت على وجود عالم مادي وأناس يتوالدون ويتناسلون . والأفراد الذين يصلون إلى العذاب هم مرادون بالتبع ، والمراد بالذات هو الكمال .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٩ .

ويطرح في هذا المضمار سؤال آخر :
ما هو معنى الآية الكريمة :
﴿ لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون ﴾[1] .

فهو لا يستجوب عن أعماله ، وكل من عداه يُستجوب عن أعماله .
وقد تصوّر البعض أن هذه الآية دليل على كون إرادة الله أمراً جزافياً لا ضابطة له ، فهو يفعل ما يريد دون أن يستطيع أحد أن يقول له لماذا ، ولو تعلقت إرادته بالفعل القبيح وما يخالف الحكمة لما استطاع أحد أن يقول لماذا . وقد تمسك الأشاعرة بهذه الآية لتأييد موقفهم في موضوع الحسن والقبح في الأفعال الإلهية .

ولكي يتضح الموضوع لا بد من التأمل في الآية نفسها ، والسؤال في اللغة العربية يستعمل في ثلاثة موارد :
١ ـ بمعنى الاستعطاء .
٢ ـ بمعنى الاستعلام .
٣ ـ بمعنى المؤاخذة .
فأيّ واحد منها هو المراد في الآية الكريمة المتقدّمة الذكر ؟
١ ـ أما السؤال بمعنى الاستعطاء فالله هو الذي يأمر أن نستعطيه :
﴿ واسألوا الله من فضله ﴾[2] .

إذن آية « لا يسأل عما يفعل » لا تقصد الاستعطاء ، وبالإضافة إلى هذا فإن السؤال بمعنى الاستعطاء متعدّ بنفسه وله مفعولان والمفعول الثاني تقديره « واسألوا الله شيئاً من فضله » بينما السؤال في آية « **﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾** متعدٍّ بـ « عن » .

٢ ـ وأما السؤال بمعنى الاستعلام ، أي أن يسأل أحد ربّه لكي يعلم بشيء مجهول لديه فهذا أيضاً لا قبح فيه ، ولم ينه عنه في القرآن ، وقد جاء في قصة آدم أن الملائكة سألوا الله :

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٣ .
(٢) سورة النساء : الآية ٣٢ .

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾[1] .

ولم يوبّخهم الله على سؤالهم ، وكذا الآخرون فإنّهم لا يستحقون توبيخاً إذا ما سألوه عما يجهلون .

٣ ـ إذن ينحصر المقصود في المعنى الثالث ، أي أن الله لا يستجوب عن أعماله ، فلا تعقد محكمة له ولا يستنطقه أيّ قاض .

لماذا لا يستجوب الله ؟

تخيل بعضهم أن عظمته تحول دون استجوابه ، فكل شيء في الحضرة الإلهية خاضع خاشع ، ولا يجرؤ أحد على الكلام أمام الله .

ولكن هذا المعنى غير ظاهر من الآية الكريمة ، وليس صحيحاً في حدّ نفسه ، لأنه قد يوجد أناس لا يدركون عظمة الله فهم يجرؤون على الكلام ، وبالإضافة إلى هذا فإن مضمون الآية هو أن فعل الله يكون بشكل بحيث لا يقع مورد الاستجواب ، وليس معناها أن الله لا يسمح لأحد في أن يستجوبه .

وقال بعضهم : إن المقصود هو لما كانت أفعال الله كلها على أساس الحكمة فلا مجال للسؤال .

وهذا أيضاً لا يمكننا قبوله ، لأنه قد يوجد من لا يعرف حكمة الله ، وحتى المعترف بحكمته تعالى قد لا يعرفها في بعض الموارد . وظاهر الآية الكريمة أن أحداً لا يحقّ له السؤال ، لا أن عظمة الله تكون بشكل لا يستطيع معه أحد السؤال ، أو أنه لما كانت أفعاله سبحانه كلها حكيمة فلا مجال لأيّ سؤال .

﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴾ أي : لا يحقّ لأحد أن يستجوب الله سبحانه ، بل الله هو الذي له حقّ استجواب الآخرين ، لماذا ؟ لأنه لما كانت جميع الموجودات سوى الله قد اكتسبت كلّ ما لديها من الله فهي لا حقّ لها على الله ، وأما ما يُتوهَّم أحياناً من وجود حقوق ثابتة على الله كما هي

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

موجودة عند الناس فيما بينهم فهو من باب قياس الله على الإنسان ، وهو تشبيه ناب ، فحقوق الناس تنشأ نتيجة للعلاقات الاجتماعية ، والطرفان كل منهما يحتاج إلى الآخر ويمدّ له يد العون ، وبإزاء هذا يظهر له حقّ في عنقه ، ولا وجود لمثل هذه العلاقة بين الخالق والمخلوق ، فلا أحد يقدّم العون لله ، والله ، ليس بحاجة إلى عون أحد ، ومن المستحيل أن يوصل شخص نفعاً لله حتى يتمتّع بحق عليه .

وبناءً على هذا فلا يستطيع أحد أن يستجوب الله : لماذا فعلت الشيء الفلاني أو لم تفعل الأمر الكذائي ، لأن هذه الأسئلة تصحّ في المجالات التي يكون فيها المستجوب مالكاً لحقّ في عتق المستجوَب ، إمّا بنفسه أو نيابة عن شخص له الحق كالمدّعي العام الذي يستجوب المتهم نيابة عن الناس الذين لهم الحقّ ، ولكن أحداً لا يملك حقاً على الله حتى يستطيع استجوابه ، فكل الوجود منه وهو مالك كلّ شيء ، وحتى تصرّفنا في أجسامنا ، في أعضائنا وأجهزتنا ، وفي النعم التي جعلها الله تحت تصرفنا ، كلها منوطة بإذنه تعالى ، ولو لم يأذن فلا حقّ لنا في التصرف فيها لدينا فضلاً عن الأشياء الخارجة عن وجودنا .

رأي صاحب « المنار » ونقده :

يقول صاحب تفسير « المنار » :

لما لم يكن لأحد حقّ على الله فمن الخطأ القسم على الله بحقّ عباده ، وهؤلاء الذين يفعلون هذا إنّما معرفتهم بالله ناقصة ، وليسوا ملتفتين إلى أنّ أحداً لا يملك حقاً على الله .

ونحن نوافق صاحب المنار على أن أحداً لا يملك حقاً على الله ، ولكننا نختلف معه في موضوع القسم على الله بحقّ عباده . ولنا على دعوى صاحب المنار جوابان :

الأول : صحيح أنه ابتداءً لا حقّ لأحد على الله ، ولكن الله يستطيع أن يمنح الحقّ لأحد ، وفي هذه الصورة يمكننا أن نقسم عليه بهذا الحق ، وحتى أن صاحب الحق يستطيع المطالبة به ، لا من جهة أنّ لي حقاً عليك وإنما من جهة

أنك أنت الذي منحتني هذا الحقّ . وتوجد في القرآن الكريم آيات تدّل على أن الله قد منح أشخاصاً حقوقاً عليه :

﴿ وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين ﴾[1] .

ففي هذه الآية تصريح بأن للمؤمنين حقاً على الله في نصرهم ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما ذكرناه من أن أحداً لا حقّ له على الله ابتداءً عرفنا أن هذا الحق قد منحه الله لهم . وفي آية أخرى :

﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾[2] .

ولما كان الله هو الذي أخذ على نفسه أن يرحم عباده فلعباده أن يطالبوه بالوفاء بما كتبه على نفسه . ويقول جلّ وعلا :

﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقّاً . . . ﴾[3] .

ولا نؤكد هنا على كلمة « حقاً » لأنها صفة « وعداً » ، بل نؤكّد على كلمة « عليه » ، فهو وعد قد أخذه الله على نفسه ، وهو وعد صادق لا بدّ أن يفي به .

فمن مجموع هذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ يستنتج أن لبعض الناس حقوقاً على الله ، وهي حقوق قد أخذها الله على نفسه .

الجواب الثاني : بالنسبة لهذه الآيات يطرح هذا السؤال :

أتكون إرادة الله جزافيّة عندما يأخذ على نفسه حقاً لأحد أو يلتزم بشيء له ؟ أتكون إرادته حسب ضابطة أم هو مثلنا ـ والعياذ بالله ـ نقول شيئاً ثم سرعان ما نندم على قولنا ؟

كلّا ، إن الله ليس له حالات مختلفة ، ولا تؤثّر فيه العوامل الخارجية

(١) سورة الروم : الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١١ .

فتسره أو تحزنه ، والله منزّه عن أن يتأثر بأفعال عباده ، فإرادته ليست جزافية ، أي أن لها منشأ في الذات المقدّسة بحيث إن أفعاله تعالى تتمّ حسب ذلك المنشأ الذاتي ، فذات الله تقتضي الرحمة ، ومن هنا فقد أخذ على نفسه الرحمة لعباده ، وفي ذاته جلّ وعلا منشأ يمنح على أساسه حقاً للمؤمنين بأن ينصرهم . وليس هذا أمراً جزافياً بحيث يمكن أن يرحم وأن لا يرحم ، فكلاهما متساويان بالنسبة إليه ، ولا يوجد في ذاته ما يقتضي أحدهما ، وصدفة اختار أحدهما ، كلاّ ، وإنما صفاته العليا وأسماؤه الحسنى تقتضي أن يؤدّي بعض الأفعال في بعض الموارد ، أو يمنح حقوقاً لبعض الأفراد .

ونحن نبيّن هذا بلغة الاعتبار ، وعلاقة المخلوقات بالله ليست علاقة اعتبارية ، لأن موضوع الحق بين الناس أمر اعتباري تقتضيه الحياة الاجتماعية ، والله أيضاً يشرح هذا بلغة الاعتبار ، لأنه يواجه مخلوقات تدار حياتهم بهذا الأسلوب .

إذن معنى الآيات هو أن الذات الإلهية تقتضي فعل ما فيه حسن ، ولما كانت كتابة الرحمة على نفسه أمراً حسناً ، أي متناسباً مع صفاته الرفيعة ، فهو يقوم بها ، ولما كان تعذيب الأشخاص الذين يعاندون الحق ـ وهم يعلمون ـ أمراً حسناً فهو يؤدّيه .

وصحيح أن هذا الموضوع قد بيّن بلغة الاعتبار السائدة في الحياة الاجتماعية ، ولكن وراء هذا الاعتبار تكمن حقيقة هي الرصيد لهذا الاعتبار . وبعبارة أخرى : إن هذا الأسلوب مناسب للإنسان ، ففي كثير من الموارد اختار الله من باب الشفقة على عباده التحدّث إلى الناس بلغتهم ، ولكن وراء هذا الاعتبار واقعاً يعتمد عليه ، وحتى أن لسان القرآن في الأجر والجزاء كان بلغة الاعتبار : ﴿ **فلهم أجر غير ممنون** ﴾ .

فيبدو من هذا الكلام أنه حكم اعتباري محض ، كما يقول المالك للمستأجر اجلس في بيتي وأعطني هذا المقدار من المال ، فهذه ليست علاقة تكوينية ، ويُتوّهم مثل هذا في الجزاء الأخروي . ولكن الواقع ليس كذلك ،

ـ لما كنا لا ندرك مثل هذه العلاقات فالله بيّنها لنا بلسان الاعتبار الذي نفهمه ، وهذا لا ينافي وجود واقع وراءه ، فبين أفعالنا والجزاء الأخروي رابطة تكوينية ، فالجزاء نتيجة أفعالنا كما تكون الثمرة نتيجة غرس الشجرة .

وظنّ بعض الذين أعشى أبصارهم بريق الحضارة الحديثة أن هذه العلاقة هي من قبيل تحويل الطاقة إلى مادة . وهذه سطحية في التفكير ، فعلاقة أعمالنا بنتائجها ليست علاقة فيزيائية تتبدل فيها الطاقة إلى مادة ، ولو كانت كذلك لما اختلف العمل السيىء عن العمل الطيّب ، لأن الطاقة التي تنفق على الذكر وعلى الكفر واحدة ، فلماذا تتحوّل إحداهما إلى عذاب والأخرى إلى سعادة ؟

إذن العلاقة بين أعمالنا ونتائجها الأخروية ليست فيزيائية ، وإنما هي لون آخر من العلاقات ، ولا نستطيع أن نقيس علاقات هذا العالم بالعالم الآخر بما نعرفه من العلاقات الدنيوية ، وإلّا كان العالم الآخر جزءاً من الدنيا ، بل للآخرة نظام آخر ، فليس فيها اختيار ، وهي ليست مكاناً للغرس وإنما هي مكان للحصاد . وإذا كان عقلنا لا يستوعب هذه العلاقة فلا بدّ أن نستعين بالآيات والروايات ، وهي لا تقول إنها علاقة فيزيائية ولا هي تحوّل الطاقة إلى مادة ، فالطاقة لا تفرّق بين الإخلاص والرياء فتعطي لذلك الثواب ولهذا العقاب .

وقد يقال : إن الله يعلم في أيّ طريق تصرف هذه الطاقة ، فإذا صرفت في طريق الخير فهو يحوّل هذه الطاقة إلى مادة جيدّة ، وإن أنفقت في طريق الشر فهو يحوّلها إلى مادة سيئة .

ونجيب : بأن هذه سوف تكون علاقة اعتبارية لا تكوينية ، ولو كانت تكوينية للزم أن يقتضي العمل بذاته لا أن الله يفرّق بين الموارد .

وأفضل آية تدل على أنّ الله قد بيّن الأمور التكوينية بلغة الاعتبار هي :

﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ .

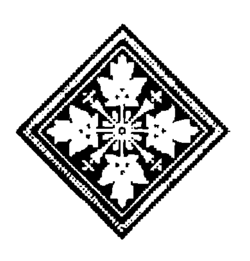
فهل كان هناك واقعاً بيع وشراء ، فالنفس هي ملك لله فكيف يشتريها ؟
أو آية :

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدّلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله . . . ﴾[1] .

فهل هناك تجارة حقيقية ؟ وهل إيماننا نعرضه للبيع والله يشتريه ؟

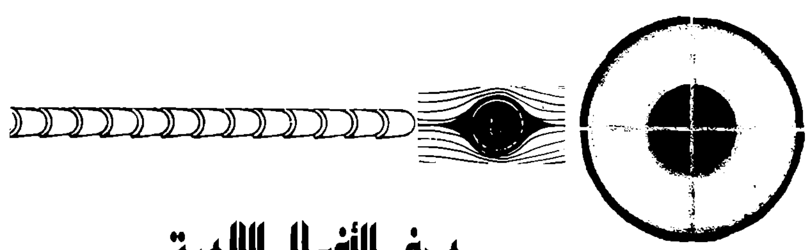
لا شكّ أنه لا بيع ولا شراء ، وإنما جاء هذا التعبير ليرغبنا في الإيمان ونتائجه .

* * *



(١) سورة الصف : الآيتان ١٠ ، ١١ .

هـدف الأفعـال الإلهيّـة



هدف الأفعال الإلهية

يطرح سؤال يتعلق بالأفعال الإلهية وهو :

أ لله هدف من أفعاله أم لا ؟

وإذا كان له هدف فما هو ؟

قبل الجواب لا بدّ من ذكر بعض المقدّمات :

المقدّمة الأولى : إنّ الهدف في اللغة يعني تلك العلامة التي يوّجه إليها الرامي سهمه . وقد تسمى أيضاً بـ « الغرض » .

ويطلق الهدف اصطلاحاً على الشيء الذي يقصد إليه الفاعل المختار من وراء عمله ، وهي الفائدة المترتّبة على فعله ، وهو ينظر إليها قبل قيامه بالعمل ثم يجعل العمل وسيلة للظفر بتلك الفائدة ، فكأن الفاعل رامٍ وهدفه تلك الفائدة وهو يؤدّي عمله للظفر بتلك الفائدة ، وهذه الفائدة تصبح هدفاً وغرضاً للقيام بالفعل .

وبهذا المعنى تكون منطبقة على ما يسمى في الفلسفة بـ « العلة الغائية » التي يتصوّرها الفاعل المختار في البدء ثم يصدّق بها ثم يقوم بالفعل من أجل تحقيقها .

وأحياناً يلاحظ شيء أكثر من هذا في مفهوم الهدف ، فيقصد منه الفائدة القيّمة التي يرضاها العقل ، ويراها العقلاء تستحقّ ما ينفق من أجلها من جهود وأتعاب ، وعلى هذا فإذا قام شخص بفعل ليس له هدف عقلائي فهم يقولون إنه عمل عابث ، ويتسامحون في التعبير أحياناً فيقولون إنه من دون هدف ، أي أنه ليس له هدف ذو قيمة ، مثلاً : إذا رأينا شخصاً يذرع الغرفة ذهاباً ومجيئاً وسألناه : ما هو هدفك ؟ لأجاب : لا هدف لي من المشي ، ولكنه في الواقع له هدف وهو الاستقرار الروحي مثلاً ، ولكنه لما كان المشي عادة للوصول إلى مقصد معين فإذا لم يكن للإنسان هذا الهدف العاديّ وكان يقصد من المشي الترفيه فإنهم يقولون لا هدف له من المشي ، أي ليس له الهدف المتعارف منه .

المقدّمة الثانية : إننا عندما ندقّق في أهداف وغايات أفعالنا نجد أن المقصود منها ـ إذا كانت عقلائية ـ هو رفع حاجة أو أكثر من حاجاتنا ، إما لرفع حاجة جسمية أو عاطفية أو عقلية أو غير هذه من الحاجات ، فنحن نأكل لكي نرفع حاجة بدننا ، ونعاشر الأصدقاء لكي نرفع حاجة عاطفية ، ونبحث عن العلم لنؤمّن حاجتنا العقلية .

ولعل بعضهم يتصوّر أن الإنسان يقوم أحياناً بأفعال لا ترفع أيّ حاجة من حوائجه ، وإنما هو يقوم بها لرفع حاجات الآخرين ، كما إذا لقينا شخصاً أعمى فاندفعنا لمساعدته ، فهذا العمل قمنا به من أجل رفع حاجة الآخرين . أو يقوم الإنسان بعمل من أجل الله أو من أجل الوطن ثم يقول : لست أقصد منه إلى مصلحة شخصية ، ولكننا في الواقع إذا تعمقنا قليلاً فسوف نجد الدافع الأساسي في جميع هذه الأمور هو تأمين مصلحة ذاتية ورفع حاجة نحسّها في أنفسنا ، ففي حالة لقاء الشخص الأعمى توجد فينا حالة العطف عليه وهي حاجة عاطفية تتطلب الاستجابة لها ، وصحيح أن في هذا الفعل نفعاً لذلك الأعمى ، ولكنّ فيه نفعاً لنا أيضاً بصورة غير مباشرة ، وكذا في حالة عبادة الله أو خدمة الوطن أو قيام الأمّ بشؤون طفلها ، فالوالدة تنهض من نومها في منتصف الليل لتؤمّن له ما يحتاج أو ترفع عنه الفزع ، فهذه الأمّ ترفع حاجة

لغيرها (الطفل) ولكنها في نفس الوقت ترفع حاجة لنفسها أيضاً ، لأن عواطفها متعطشة لهذا الأمر ولا تهدأ إلّا بهذا العمل ، فهي تحقّق به هدفين .

ففي جميع هذه الصور تظهر حاجة نفسية عند القائم بالعمل ، وهي لا تشبع إلا بالقيام به . وحتى الذي يعمل من أجل أن يظفر برضا الله فإنه يقدم على ذلك ليرفع حاجة من حوائجه ، لأنه يعتقد بأن من يعمل لرضا الله فستعود لعمله قيمة وفضيلة أكبر ، وهو بحاجة إلى هذه الفضيلة ، فلهذا يقوم بهذا العمل ليحقق تلك الفضيلة .

إذن الهدف الأصلي في هذه الموارد جميعاً هو تأمين المصالح الشخصية للفاعل ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إلّا إذا وصل الإنسان إلى منزلة ينسى فيها نفسه ولا يرى فيها استقلالاً لذاته أمام العظمة الإلهية ، حينذاك يصبح له حساب آخر .

والمؤمنون الذين يعملون لكسب رضا الله تعالى ليسوا على مستوى واحد وإنما هم على درجات ، فبعضهم يعمل للثواب الأخروي وللنجاة من عذاب جهنم ، وهذا هو الدافع عادة للمؤمنين المتوّسطين ، فالهدف النهائي في هذه الحالة ليس هو رضا الله وإنما هو تأمين حاجتنا إلى الجنة والفرار من النار . وهناك من وصل إلى منزلة من الإيمان يكون فيها رضا الله هدفاً له ، أي لأنه يحب الله فهو يطلب رضاه ، وبلا تشبيه ، فنحن نلاحظ في حالات الحب العادي إذا كانت لأحد الأشخاص علاقة وطيدة بشخص آخر ثم يعرف أنه يحب شيئاً ما فإنه يقوم به بكل جدّ ليسعد محبوبه ، ولا هدف له من وراء هذا التعب سوى إرضاء محبوبه ورؤية ابتسامة على شفتيه ، ومن البلاهة أن نظنّ أن هذا الشخص يتوقع من محبوبه جزاءً مادياً ، فهو مستعدّ لينفق كلّ ما لديه من مال من أجل أن يظفر برضى محبوبه . فإذا كان هناك شخص يشعر بمثل هذا الحب لله سبحانه وتعالى فإنه لا يهتمّ بنعم الدنيا ولا بجزاء الآخرة ، لأن الله هو هدفه ، وقد ورد في مناجاة منسوبة للإمام السجاد (ع) :

« يا نعيمي وجنّتي ، يا دنياي وآخرتي » .

فالوصول إليه والظفر برضاه هو هدفه وليست نعم الدنيا ولا الجنة هدفاً له . وحتى إذا وصل الإنسان إلى هذه المنزلة فإنه يقصد إلى تأمين حاجته من وراء هذه الأهداف الرفيعة ما دام ملتفتاً إلى ذاته ، فإذا سئل : لماذا تريد الوصول إلى الله ولماذا تحرص على الظفر برضاه ؟ لأجاب : إنه أرفع كمال يستطيع الإنسان الحصول عليه ، إذن هو يقصد إلى كماله من وراء كسب رضى الله تعالى ، وهو مصلحة ومنفعة ذاتية .

إلا إذا وصل الإنسان إلى منزلة من المعرفة لا يلتفت فيها إلى ذاته ، وكأنها لا وجود لها ـ ومثلي لا يستطيع أن يدرك حقيقةِ هذه المنزلة ـ ويستغرق في ذكر الله إلى حدّ نسيان نفسه ، لا كما نحن ننسى أنفسنا ، وإنما هم ذائبون في حبّ الله ، فإن أمرهم يختلف حينئذٍ ، ولما كنا غير واصلين إلى هذه المنزلة ولا نملك تصوّراً واضحاً لها فلهذا نتركها لأهلها .

أما الأشخاص الضعيفون في الإيمان ـ أو المتوسطون فيه ـ فإنهم عندما يعملون لرضى الله وبدافع من حبه تعالى فهم يقصدون إلى كمالهم من وراء رضاه سبحانه ، إذن فالهدف النهائي في أفعال أمثالنا ـ بل وأفعال كثير ممن هم أرفع منا ـ هو تحقيق المصالح والكمالات الذاتية .

المقدّمة الثالثة : نحن أحياناً نأخذ بعين الاعتبار هدفاً معيناً ونجد في أنفسنا الدافع للعمل على تحقيقه ، ولكننا عندما نصل إلى مقام العمل نجد أننا لا نستطيع الوصول إلى ذلك الهدف إلا بتحقيق شيء آخر ، أي أن ذلك العمل يحتاج إلى مقدمات ، ومن هنا فإن ذلك الهدف النهائي والدافع الأساسي يوّلد دافعاً آخر وإرادة أخرى لتحقيق المقدّمات ، مثلاً : عندما يريد الإنسان الذهاب إلى حجّ بيت الله الحرام فإن هدفه أداء مناسك الحجّ ، ولكنه ينظر فيجد أن هذا لا يتمّ إلا بمقدمات من قبيل الحصول على جواز سفر وتذكرة الطائرة و. . . فتنشأ من إرادة الذهاب إلى الحج إرادة أخرى هي إرادة توفير لوازم السفر ، فهو يذهب ـ مثلاً ـ إلى دائرة الجوازات ، وإذا سألته : لماذا يذهب إليها ؟ لصحّ له أن يجيب : إنني ذاهب إليها للحصول على جواز سفر ، وصحّ له أيضاً أن يقول : إنني أريد الذهاب إلى الحج . فها هنا في الواقع عدّة

أفعال واقعة في طول بعضها ولكل منها هدف خاص به، والهدف الذي يتحقق في النهاية هو الغاية القصوى ، وكل ما يتحقق في الأثناء فهو من الأهداف المتوسطة ، والشيء الذي يتحقق أولاً هو المقدّمة الأولى والهدف الابتدائي .

والأهداف المتوسطة لا أصالة لها ، فلو كان يمكن الذهاب إلى الحج من دون أخذ تذكرة الطائرة لما كانت للتذكرة قيمة عند هذا المسافر ، ولكنه لما كان الحصول عليها مقدّمة للسفر لذا فهو يجدّ في الحصول عليها . والهدف المتوسط هدف للحركة السابقة عليه ووسيلة للهدف النهائي . وعلامة الهدف المتوسط أنه يمكن السؤال عنه بـ « لماذا ؟ » حتى نصل إلى شيء لا يمكن السؤال عنه بـ « لماذا ؟ » ، مثلاً يقال : لماذا تشتري تذكرة الطائرة ؟ فيجيب : لأني أريد الذهاب إلى الحج . لماذا تذهب إلى الحج ؟ لأني أطلب الثواب من الله . ولماذا تحرص على ثواب الله ؟ لأن من يمنحه الله الثواب فإنه يكون سعيداً إلى الأبد . وها هنا لا يصحّ أن نسأله : لماذا تطلب السعادة ؟ لأن البحث عنها من ذاتيات الإنسان ، فهذا هو الهدف النهائي ، وعلامته أنه لا يصحّ السؤال عنه بـ « لماذا » لأنه ذاتي ، والذاتي لا يعلّل . مثلاً بالنسبة للإنسان الذي يحب الله إذا سألته : لماذا تصلّي ؟ لماذا تترك مضجعك في قلب الليل لتناجي ربك ؟ أجابك : لأن مناجاة المحبوب تؤنسني . عندئذ لا يصحّ لنا أن نسأله : ولماذا تبحث عما يؤنسك ويلذّ لك ؟ لأن هذا من طلبات الإنسان الذاتية ، فالهدف النهائي للعاشق أن يأنس بمعشوقه .

وبعد بيان هذه المقدمات نطرح هذا السؤال :

هل للأفعال الإلهية هدف وغرض بهذا المعنى الذي مرّ شرحه ؟

الجواب : كلاّ ، لأن ذلك يستلزم أن يكون الله سبحانه فاقداً لأشياء هو محتاج إليها ، ثم يحصل عليها بوساطة هذه الأفعال ، كما أنا نفقد بعض الكمالات ونسعى بأفعالنا للحصول عليها ، بينما الله ليس كذلك ، إنه الكمال المطلق ، وليس بحاجة إلى أي شيء ، وكل ما لدى غيره من وجود فهو منه مكتسب . وحتى أنه لا يمكن فرض كون الله قد ضاق بوحدته قبل خلق العالم فخلق المخلوقات لتخرجه من وحدته ، فهو يأنس بالنظر إليها ، فالله لا

يستوحش من وحدته ، وهو يبقى على هذه الوحدة في ذاته حتى عندما يخلق المخلوقات ، وهذه الوحدَة كماله سبحانه ، ولكننا لا نستطيع أن نفهم هذه الأمور على حقيقتها ، وكل ما نستطيع أن ندركه هو أن الله بريء من كل نقص ، ولو كانت المخلوقات تؤنسه وتخرجه من وحدته لأصبح محتاجاً إلى مخلوقاته ، بينما المخلوقات هي المحتاجة إليه في جميع شؤونها . وعلاوة على هذا فإنه في بعض الأحيان يلزم منه كون الله عاجزاً ، ففي مثال الذاهب إلى الحج قلنا إنه محتاج إلى بعض الأهداف المتوسطة ، منها ركوب الطائرة ، لأنه لا يستطيع أن يقطع المسافة التي تفصل بين بلده والبلد الحرام بخطوة واحدة ، ولو كان الله مثل هذا الإنسان محتاجاً إلى الأهداف المتوسطة لأصبح عاجزاً مثله ، بينما الله سبحانه قادر على كل شيء ، وهو منزه عن العجز .

وهذا هو مقصود القائلين بأن الأفعال الإلهية غير معللة بأغراض ، أي أن الله ليس مثل الإنسان يقصد إلى هدف خارج عن ذاته ، فهو يفقد هذا الكمال ثم يعمل لكي يصل إليه .

ونواجه عندئذ هذا السؤال :

أيعني هذا أنّ الأفعال الإلهية لا هدف لها ؟

كلا ، فنحن ننفي عن الله الهدف الموجود في الأفعال الإنسانية ، أي ذلك الهدف الذي يؤمّن للإنسان حاجته وهو خارج عن ذاته . وهذا لا يعني نفي مطلق الهدف عن أفعاله تعالى ، وإنما يكون لها هدف بمعنى ألطف ، فقد سبق لنا القول في الصفات الإلهية : إن كثيراً من المعاني المستعملة في المخلوقات نستعملها أيضاً في مورد الله تعالى ، ولا يعني هذا اشتراك الخالق والمخلوق في الصفات بل لا بدّ من تجريد هذه المفاهيم من الخواص المادية واللوازم العدمية ، ثم ننسب هذا المعنى المجرّد من جهات النقص والعدم إلى الله سبحانه ، ومثل هذا يجري في الهدف والغرض ، فنحن ننسبه إلى الله بعد تجريد معناه من جهات النقص والعدم . مثلاً : الهدف في أفعالنا من أجل رفع حاجتنا ، وفي الأفعال المترتّب بعضها على بعض (الأهداف المتوسطة) يكون من أجل القدرة على الفعل الذي يأتي بعده ، فإذا قمنا بحذف جهات النقص

هذه ـ لأن قدرة الله ليست محدودة ، وهو تعالى غير محتاج ـ حينئذٍ يصح لنا القول إن لأفعال الله أهدافاً . ومن الواضح أنه لا يمكن نسبة الأهداف الطولية لأفعاله سبحانه ، لأنه لا يمكن القول إنه تعالى لا يستطيع أن يؤدي عملاً إلّا بوساطة عمل معيّن ، وقد مرّ معنا فيما مضى أن الشروط اللازمة لوجود الممكنات تعود إلى نقص المخلوقات لا إلى نقص في قدرة الله ، فهي شروط لقابلية القابل لا لفاعلية الفاعل ، فإذا كان لا بدّ من خلق الإنسان من تراب فهذه الجهة تعود لكون الإنسان موجوداً ترابياً ولا تعود إلى قدرة الله ، وكذا بالنسبة للأهداف المتوسّطة ، فإذا قام الله بفعل من أجل أن يؤدّي من بعده فعلاً آخر فليس ذلك لكون قدرة الله محدودة ، وإنما لأن الفعل الثاني مشروط بتقدم الفعل الأول ، أي أن فرض تحقّق الفعل الثاني يكون في حالة قد تحقق فيها الفعل الأول ، ولتقريب هذا الموضوع إلى الذهن نذكر مراتب العدد ففرض العدد (٣) هو فرض يأتي بعد العدد (٢) ، وأما إذا كان قبل العدد (٢) فلن يكون هو العدد (٣) .

فإذا قمنا بحذف جهات النقص وقلنا : الهدف هو عبارة عن ذلك الشيء الذي يؤدّى الفعل من أجله من دون أي قيد آخر ، أو هو الشيء المترتّب على الفعل الاختياري ، والفاعل ملتفت إليه أثناء القيام بالفعل وهو يريده ويرضاه ، حينئذٍ يصحّ نسبة الهدف بهذا المعنى إلى الله .

إذن نستطيع الجمع بين القولين ، بين ما يدّل على أن لله هدفاً وما يدّل على أن أفعال الله غير معللة بأغراض ، وحاصل الجمع هو أن الأفعال الإلهية غير معللة بأغراض خارج ذاته ، وهذا هو نفس ما يقوله الفلاسفة من أن العلة الفاعلية والغائية في الفعل الإلهي واحدة ، ولا نريد هنا أن نذكر البرهان على ذلك فقد أثبت ذلك الفلاسفة بالبرهان في محله .

وبناءً عليه نستطيع أن نقول : إن الله سبحانه يقوم بأفعاله من أجل نفع المخلوقات ولا يعود عليه نفع منها . وإيصال النفع إلى المخلوقات وإن كان شيئاً خارجاً عن الذات ولكنه هدف متوسط لأنه يصحّ السؤال عنه : لماذا يوصل النفع إلى مخلوقاته ؟ فهو إذن ليس هدفاً نهائياً ، والهدف النهائي هو

ذات الله جل وعلا ، فإذا قلنا : خلق الله الشمس والقمر ليستفيد منهما الناس ، فإن هذا السؤال يطرح : ولماذا يخلق ليستفيد منه الناس ؟ الجواب : لكي يصلوا إلى كمالهم ، ولماذا لا بدّ أن يصلوا إلى كمالهم ؟ الجواب : لأن ذات الله تقتضي ذلك ، وبعدئذٍ لا يصحّ أن نقول : لماذا ؟ لأن الله يعني ذلك الموجود الذي يريد النفع لمخلوقاته ، فهذه من لوازم الألوهية ، فوجوده تعالى وجود يقتضي إيصال النفع للآخرين ، ولهذا الأمر مبدأ في الذات الإلهية ، فالله رحمان بشكل مطلق ، والفياضية من خواصه ، ولا يمكن السؤال عنه بـ « لماذا ؟ » ، إذن الهدف النهائي يعود إلى لوازم الذات الإلهية وما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا ، ويعبّر عن هذا باللغة الفلسفية : بأن الهدف هو نفس الذات ، وباللغة العرفانية : إن الله يحب لصفاته أن تتجلى ، فهو تعالى يوجد الأشياء من أجل ذاته ، لأنه يحب ذاته ويحب آثاره ، فهل يعني هذا أنه محتاج ؟ كلّا لقد فرضنا أن الله سبحانه غير محتاج من جميع الجهات فهو لا يمكن تشبيهه بالأمّ التي ترضع طفلها لترفع حاجته وترضي عاطفتها ، فالله سبحانه لا يحتاج حتى إلى الأمور العاطفية ، وإنما هو يحب ذاته وآثاره ويحب أن تتجلى أسماؤه وصفاته ، وهذا هو مقصود الفلاسفة من قولهم : إن العلة الغائية والفاعلية في أفعال الله واحدة ، فالهدف هنا لا يولد من الفعل وإنما هو مقدّم عليه .

وبغضّ النظر عن الهدف النهائي الذي هو نفس الذات ، فإنه يمكن القول بوجود علل متوسطة خارجة عن الذات ، وهي علل غائية للمخلوقات وليست غايات لله ، وهي منافع تعود للمخلوقات فتحقّق لها كمالاتها وهي تجليات لكماله تعالى ، والعلة الغائية في ذاته هي كماله الذاتي .

هذا هو التحليل الفلسفي للموضوع .

أمّا من وجهة نظر القرآن :

فالآيات القرآنية لا تكتفي بنسبة الهدف للأفعال الإلهية ، وإنما هي تؤكّد على أن لها هدفاً قيّماً وحكيماً . ويمكننا تقسيم الآيات إلى فئتين : إحداهما تثبت الهدف للأفعال الإلهية بشكل عام ، والثانية تعين هدف كل منها . ففي القسم

الأول نستعرض بعض الآيات التي تدّل على أن أفعال الله ليست عبثاً ومن دون هدف وإنما لها هدف يتصف بالحكمة . ولكن ما هي هذه الأهداف ؟ إنها تعين في القسم الثاني .

فالآيات التي تثبت الهدف بشكل عام للأفعال الإلهية . . منها ما يشتمل على اسم الحكيم الذي يعني أن أفعاله ليس لها هدف فحسب وإنما هو هدف لائق يرضاه العقل .

وبقسمة أخرى نستطيع تقسيم هذه الآيات إلى عدّة فئات :

الأولى : تلك الآيات التي تصف الأفعال الإلهية بأنها « حقّ » .

الثانية : الآيات التي تنفي عنها الباطل والعبث واللهو واللعب .

الثالثة : هناك آيات تبين بالتفصيل علل الأفعال الإلهية من تكوينية أو تشريعية ، فتتحدث عن علّة أصل الخلقة وعن سبب خلق الإنسان وخلق ما في الأرض من نعم ، وحتى عن سبب أصل التشريع ، بل وحتى عن سبب تشريع كل واحد من الأحكام على حدة .

ونذكر من كل فئة نموذجاً :

﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾[1] .

﴿ ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾[2] .

وبالنسبة لخلق الإنسان يقول تعالى :

﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً ﴾[3] .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ﴾[4] .

ففي مقابل الحق يكون الباطل ويكون اللعب أيضاً .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٩١ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ١١٥ .

(٤) سورة الدخان : الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتّخذ لهواً لاتّخذناه من لدنّا إن كنّا فاعلين ﴾[1] .

فخلق السماء والأرض ليس لعباً ولا لهواً ولا عبثاً ، وإنما هو حق ، أي أنه فعل له هدف متّصف بالحكمة .

وفهم هذه الآيات يتوقّف على معرفة معنى الحق والباطل واللهو واللعب والعبث .

الحـق :

الحقّ في اللغة يعني الثبات ، ويستعمل بمعنى الصفة أي الثابت ، ويستعملها العرف في معانٍ مختلفة قد لوحظ فيها لون من ألوان الثبات ، ولكن لكل منها ميزة خاصة ، فهي تشبه المشترك اللفظي :

١ ـ تستعمل أحياناً في مورد الله تعالى فيقال : إن الله حق ، وهو يعني ما يعبَّر عنه في الفلسفة بوجوب الوجود بالذات ، أي لله تعالى ثبوت من ناحية ذاته ، ولا سبيل للعدم والبطلان إلى ذاته ، فحقّ هنا يعني أنه ثابت بالذات .

٢ ـ تستعمل أحياناً في مورد الوجود الدائم ، وإن كان بالغير لا بالذات ، وذلك في مقابل الوجود الزائل الذي لا يدوم ، فالثبات الملحوظ هنا من حيث الزمان لا من حيث الذات .

٣ ـ ويطلق أحياناً على الاعتقاد فيقال : الاعتقاد الحق ، في مقابل الاعتقاد الباطل ، والمقصود منه الاعتقاد المطابق للواقع ، فالاعتقاد بأنّني أكتب الآن هو مطابق للواقع فهو اعتقاد حق ، والاعتقاد بأنني غير مشغول بالكتابة الآن هو اعتقاد باطل لأنه غير مطابق للواقع .

٤ ـ ويوصف به الكلام في بعض الأحيان فيقال : الكلام الحقّ في مقابل الكلام الباطل ، أي أن ذلك الكلام مطابق للواقع ، فهنا الحق يساوي الصدق .

---

(١) سورة الأنبياء : الآيتان ١٦ ، ١٧ .

٥ ـ ويطلق أحياناً على الوعد ، وهو ليس له مطابق خارجي الآن ولكنه إذا تمّ الوفاء به في موعده فهو وعد حق ، وإذا لم يتمّ الوفاء به في حينه فهو وعد باطل ، وجاء في القرآن الكريم : ﴿ **إن وعد الله حق** ﴾ .

٦ ـ ويستعمل في مورد الأفعال بصور مختلفة منها :

أ ـ تارة في مورد الأفعال الاختيارية نقول : إنه فعل حق ، ومقصودنا أنه ينتهي إلى ما يرمي إليه الفاعل من هدف ـ كائناً ما كان هذا الهدف ـ في مقابل الباطل وهو الفعل المنقطع عن الهدف والذي لم ينته إلى نتيجة .

ب ـ وتارة أخرى يلحظ فيه أنه يصل إلى هدف حكيم يرضاه العقل ويتناسب مع كمالات الفاعل ، فهذا هو الفعل الحق .

٧ ـ إلى هنا كنّا نستعمل الحق في الأمور الحقيقية والتكوينية ، أما في هذا المورد فنحن نستعمله في الأمور الاعتبارية ، في المفاهيم القانونية والأخلاقية القيميّة . فهو في هذه الموارد يختلف عما سبق ، فنقول مثلاً : حقّ الملكية ، أو حق الزوجية ، فهذا لا يعني أن هناك شيئاً متحقّقاً في الواقع وإنما هذا الحق أمر اعتباري ، أي أنه ليس شيئاً ثابتاً بقطع النظر عن القريحة الإنسانية . بل هذه القريحة هي التي تعتبره لتسير على أساسه الحياة الاجتماعية . وكذا سائر المفاهيم القانونية مثل حق الوالد على ولده ، حق الولد على والده ، حق الرعية على الحاكم ، حق الحاكم على الرعية . ومثلها المفاهيم الأخلاقية ذات الدلالة القيمية . ولسنا هنا في مجال يسمح لنا ببيان الفرق بين المفاهيم القيمية والمفاهيم القانونية والمفاهيم الواقعية فهو يذكر في الفلسفة ، ولكننا نجد أنفسنا ملزمين بالإشارة إلى أن كثيراً من الناس ـ وحتى من فضلائهم ـ يخلطون بين هذه المعاني ، فهم يستعملون لفظاً بأحد المعاني ثم يستنتجون منه معنى آخر ، وهي مغالطات تقع نتيجة الاشتراك اللفظي ، مثلاً يقولون : إن الله حق ، هذه هي المقدمة الأولى ويعتقد بصحتها كل مسلم ، ثم يذكرون المقدمة الثانية وهي :

إن كل إنسان هو باحث عن الحق ، أي إذا سألت أي إنسان : هل أنت تطلب الحق أم الباطل ؟ فإنه سيجيب بفطرته أنه طالب للحق ، ولا يقول إنه

طـالب للباطـل ، إما واقعـاً وإما لخـداع الآخرين ، ومن هـاتـين المقـدّمتـين يستنتجون : أن كل إنسان هو باحث عن الله . إن هذه مغالطة ، فالحق الذي تبحث عنه فطرة الإنسان مفهوم قيميّ ، وهو يعني أن الإنسان يحبّ أن تسـود العدالة في المجتمع ويصل الناس إلى حقوقهم ، أو يعني أن الإنسان يريد دائماً أن يفهم الحقيقة بمعناهـا الفلسفي أي الاعتقاد المـطابق للواقع ، وكـلا هذين المعنيين يختلفان عن الحق في المقـدمة الأولى : إن الله حق ، فهـو هنا لا يعني مفهوماً قيمياً ولا قانونياً وإنما يعني أن ثبوته تعالى من ذاته ، ولا علاقة لهذا بكون فطرة الإنسان تحبّ العدالة وتنفر من الظلـم ، وحينئذٍ لا يصحّ أن نستنتج تلك النتيجة ، ونحن لا ننكر صحة المقدمتين والنتيجة كلاًّ منها على حدة ، ولكنها غير مترابطة منطقياً ، ونعترف بأن الإنسان يطلب الله ولكنه ليس بهذا الدليل فإن فيه مغالطة وسوء استغلال للاشتراك اللفظي .

وعلى أية حال فالآيـة الكريمـة تقول : نحن خلقنـا السماوات والأرض بالحق لا بالباطل ، فما هو الذي تعنيه ؟

هل تعني أن ثبوتهما من ذاتهما ؟

كلا ، لأن الفرض أنهما من مخلوقات الله فكيف يمكن أن يكون ثبوتهما من ذاتهما ؟

هل تعني أنّ لهما دواماً ؟

كلاّ ، لأنه سبحانه يقول :

﴿ أو لم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجلٍ مسمّى ﴾[1] .

ولما كان لهما أجل ونهاية فهما ليسا دائمين .

هل تعني الآية أنهما اعتقاد مطابق للواقع ؟

كلاّ ، لأنّ الحديث ليس عن الاعتقاد حقاً كان أو باطلاً .

هل تعني أنهما كلام مطابق للواقع ؟

---

(١) سورة الروم : الآية ٨ .

كلا ، فالحديث ليس عن الكلام ، وإنما هو عن الخلق ، وأنه حق وليس باطلاً ، فنحن لا نريد أن نجعل شيئاً حاكياً عن شيء آخر حتى نقول إنه يطابقه أو لا يطابقه .

هل المقصود أنّهما وعد حق ؟

كلا ، إنه أوجد حقيقة في الخارج لا أنه يعد بإيجاد شيء .

هل الحق هنا بالمعنى الأخلاقي ؟

كلا ، لأن الأعيان الخارجية لا تتصف بالمفاهيم الأخلاقية ، وإنما أفعال الإنسان الاختيارية هي التي تكون موضوع المفاهيم الأخلاقية .

هل تعني أن لله حقاً ـ بالمعنى القانوني ـ أن يفعل هذا الشيء ؟

كلا ، لأنه لا يمكن تشكيل محكمة لله سبحانه حتى يعرف أنه كان له حق أم لا .

إن الآية الكريمة تقصد إلى شيء آخر هو أحد معاني الحق ، وهو الفعل ذو الهدف القيم اللائق بالفاعل . وتؤيّد هذا شواهد من الكتاب الكريم حيث ورد الحق في الآيات في مقابل اللهو واللعب والعبث :

﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلاّ بالحق ﴾[1] .

فالحق إذن في مقابل اللهو واللعب والباطل والعبث . وسوف يتّضح الموضوع أكثر إذا ما عرفنا معنى بقية الكلمات :

العبث :

إن الفاعل المختار الذي يعمل بإرادته ومن شأنه أن يقصد إلى شيء معين من وراء فعله ، إذا سلك هذا سلوكاً آخر ولم يقصد إلى هدف صحيح من فعله فإنّ فعله يوصف بالعبث .

الباطل :

إن الباطل في مقابل الحق تماماً في جميع معانيه ، وفي كل مجال له معنى ،

(١) سورة الدخان : الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

وهما متضايفان ، فلا يمكن الاستفادة من كلمة الباطل هنا لمعرفة معنى الحق .

اللهـو واللعـب :

إنهما مفهومان متقاربان أو متصادقان ، فالله تعالى يقول :

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتّخذ لهواً لاتّخذناه من لدنّا إن كنّا فاعلين ﴾[1] .

وهذا معناه أن شيئاً واحداً يكون مصداقـاً للعب ومصداقـاً للهو وإلاّ لم تكن الآيتـان منسجمتين ، وهـذا المصداق الـواحد إذانـظرنا إليـه من ناحيـة قلنا إنه لهو ، وإذا نظرنا إليه من ناحية أخرى قلنا إنه لعب . ومن هنا فإن الدنيا من وجهة نظر القرآن لعب ولهو :

﴿ إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾[2] .

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب ﴾[3] .

إذا أصبحت الحياة الدنيا هدفاً للإنسان فهي لهو ولعب ، أما إذا كانت مقدّمة لهدف وراءها فذلك الهدف المعقول هو الذي يمنحها قيمة ، وإلاّ فإنها في حدّ ذاتها عـذاب وبؤس وآلام ، تضيع في خضمّهـا الأمـور الحبيبـة إلى قلب الإنسان ، وأما إذا أصبحت مقـدّمة لهـدف قيّم هو الآخـرة فسوف يكـون لها معنى .

فما هو معنى اللعب ؟

هو عبارة عن مجموعة من الحركات المنـظمة التي تؤدى من أجـل هدف يرضي خيال الإنسان لا عقله ولا بدنـه ، فالأطفـال يتحلقون ليلعبـوا : هذا سارق وذاك ملك وذلك وزير وهكذا . . .

أو يتسابق الناس في الأمور الجائزة شرعاً فيغلب أحدهم ويخسر آخـر ، كسباق الخيل ، فهي حركات منظمة تتمّ حسب أصـول وقواعـد ونتيجتها أن

(١) سورة الأنبياء : الأيتان ١٦ ، ١٧ .

(٢) سورة محمد : الآية ٣٦ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٦٤ .

يعتبر فلان رابحاً وفلان خاسراً ، وليس لها نتيجة عينية واقعية . ولما كان اللعب حركات ترضي الخيال فنتيجته لا تناسب تلك الحركات ، إلا أنه قد يوجد لعب له هدف عقلائي ، كسباق الخيل ، فهو يشجع الناس على تعلم هذا الفن لتحقيق النصر في الحروب ، حيث كانت الحروب في الماضي تجري بهذه الأساليب ، أما اليوم فقد تجعل مسابقات بالطائرات لكي نحصل على طيارين ماهرين ، فهذا لعب ولكنّ له هدفاً معقولاً . وكذا الحياة الدنيا فهي لعب ، ولكنها يمكن أن يجعل لها هدف وراءها بحيث لا تكون لها الأصالة ، وإنما هي مندكّة في ذلك الهدف . ويصدق هذا على مسابقات كرة القدم فقد يقوم بها الإنسان لتقوية بدنه ، وفي الواقع فإن قوة البدن تحصل نتيجة لحركات هذه اللعبة لا لنظامها ، وشاهده أنه إذا أدّى هذه الحركات في بيته فسيصل إلى نفس الهدف ، أما نظام هذه اللعبة ، كم شخصاً يكون من كل فريق ، وأين يقف كل واحد منهم ، وكم هي المسافة بينهم ؟ فهذه أمور يتفق عليها ولا دخل لها في تقوية البدن ، وإنما هي تحقّق في النهاية الفوز لفريق والخسران للفريق الآخر . وهذا أمر خيالي .

وما هو اللهو ؟

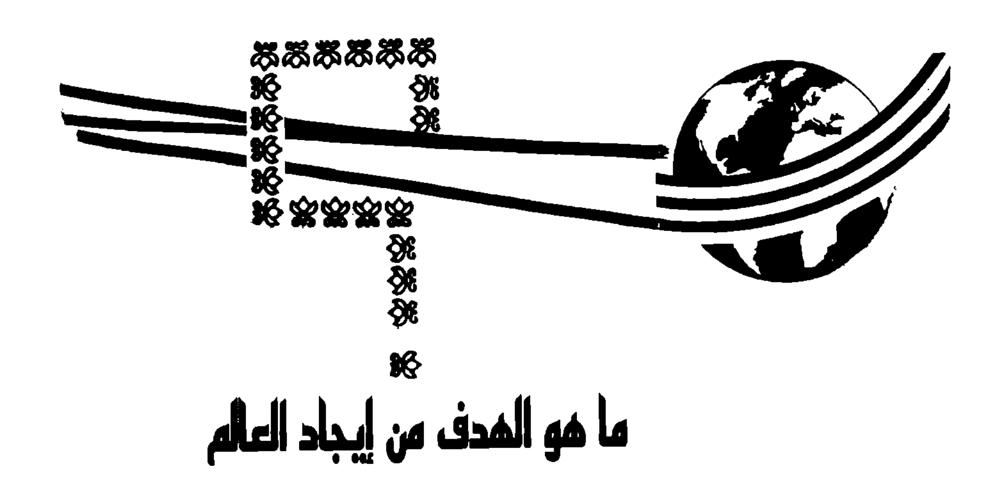
إذا كان على الإنسان أن يقوم بعمل ليظفر بشيء أخلاقي أو تكويني ثم يعرض عنه لينشغل بشيء آخر ، كما لو حدث شيء طبيعي يتطلب منا التفكير لايجاد حلّ له ، ولكن هذا التفكير متعب لنا لا تميل إليه قلوبنا فنتشاغل عنه بجدول المربعات في الصحيفة لننقذ أنفسنا من عناء التفكير ، هذا هو اللهو . أو نريد أن نفرّ من مسؤولية أو نريح أنفسنا من محاسبة الضمير على عمل قمنا به وهو يعذّب ضميرنا فنتشاغل بشيء آخر لننصرف عن تلك الأمور فهذا لهو أيضاً .

وقد خلق الإنسان لأهداف رفيعة ، ولكي يصل إلى السعادة الأخروية الأبدية ، ويتطلب هذا منه أن يقطع طريقاً طويلاً صعباً مليئاً بالمسؤولية ، والإنسان بطبعه لا يميل إليه ، بل يحبّ أن يكون حراً غير مقيّد ، وباب كل شيء مفتوح أمامه ، بحيث لا يقول له أحد افعل هذا ولا تفعل ذاك لكي

تصبح من أصحاب الجنـة ، ولكي يبتعد عن هـذه الأمور ويتخفف من هـذه المسؤوليات ولا يؤذي نفسه بالتفكير فيها فإنه يتشاغل عنها بأشياء أخرى . ومن خواص الدنيا إذا أصبحت هدفاً للإنسان أن تشغله عن الآخرة ، فتحرمه من الهدف الذي خلق من أجله وكان ينبغي له أن يبذل كل جهده للظفر به .

وفي مقابل اللهو واللعب يكون الفعل الحق الذي له هدف قيم يتناسب مع منزلة الفاعل ، وإذا كان الفاعل محتاجاً فهـو يؤمّن له تلك الحـاجة . إذن الآيات التي تقول : إن خلق العالم بالحق معناها أن له هدفاً يتناسب مع المكانة الإلهية ولم يخلق عبثاً لا هدف له ، بل وحتى أنه لم يخلق لهدف غير متناسب مع المقام الإلهي ، فالهدف منه يتناسب مع الفاعل ، ولما كان الفـاعل هنـا كمالاً مطلقاً فهدفه لا بدّ أن يكون كمالاً أيضاً .





ما هو الهدف من إيجاد العالم

بعد أن عرفنـا أن الله سبحانـه يؤدّي أعمالـه من أجلِ أهـداف تتصف بالحكمة ، والهدف النهائي لأفعاله هو ذات الحقّ تعالى ، فإنّ له صفات وهي تتجلّى بهذه الأفعال ، فهو يمنح الوجود للمخلوقات لأن ذلـك مقتضى صفاتـه العليا ، نواجه هذا السؤال :

بغضّ النظر عن الهدف النهائي لجميع المخلوقات أهناك هـدف متوّسط لكل فعل أو لكل مخلوق من مخلوقاته تعالى ؟

وهل للمخلوقات جميعاً هدف متوسط وغائي في مستوى واحد أم هناك فرق بينها ؟

إذا لاحـظنا المخلوقـات بأجمعهـا فإنها تكـون قـد خلقت لتنـال الفيض الإلهي ، وهذا الهدف يعـود للذات ، أما إذا لاحـظناهـا كلاً منهـا على حـدة وحسب مراتبها فإنه يكون لبعضها أهداف متوسطة .

ومخلوقات الله إما أن تكون مجرّدة أو مادية أو مجردة متعلقة بالمادة ، وهذا التقسيم بحسب الفرض العقلي ، أما إثبات وجودها فإنه موضوع آخر يذكر في محلّه . فإذا كان المخلوق مجرّداً تاماً فإنه يتمتع بجميع كمالاته الوجودية ، وليس

له حالة منتظرة ، وهو فوق الزمان والمكان ، فهو إذن لا تحوّل فيه ولا تغيير ولا انتقال ، وليس له نضج ولا تكامل ، فمنذ البدء قد منحه الله كلّ ما يمكنه من وجود .

ويقوم البرهان العقلي وتدلّ ظواهر الكتاب والسنة على وجود مثل هـذه المخلوقات . والهدف من وجودها ليس خـارجاً عن ذاتهـا فهي لم تخلق لكمال آخر وإنما أوجدت لتنال الرحمة الإلهية بمقدار ما تتحمله مرتبة وجودها ، وليس لها استعداد وإنما كلّها فعلية ، ووجودهـا ليس تدريجيـاً وإنما هـو دفعي . وقد خلق الله أعداداً هائلة من هذه الموجودات المجرّدة ولكننا نحن لا علم لنا بها . ولعلّ الملائكة لون من هذه المجرّدات ، فلها كلّ كمالاتها منذ البداية ، وهي لا تعرج من منزلة إلى منزلة أرفع ، ولعل في هذه الآية الكريمة إشارة إلى هذا حيث ينقل الله تعالى عن لسان الملائكة أنهم يقولون :

﴿ ما منّا إلاّ له مقام معلوم ﴾[1] .

ويظهر من هذه الآية أن لكـل منهم منزلة لا يستطيع أن يتجاوزها ، فهو هكذا خلق وسيبقى على هذه الصورة حتى النهاية .

وقد ورد في نهج البلاغة للإمام علي (ع) وهو يتحدث عن الملائكة :

« منهم ركّع لا يسجدون ومنهم سجّد لا يركعون » .

أي أن أيّ تغيير لا يحدث في وجودهم .

وفي مثـل هذه المـوجودات لا معنى لأن نفـرض أنها قد خلقت لتكسب كمالاً أعظم ، لأن وجودها واحد منذ البدء وحتى النهاية ، فكلّ ما كان يمكنها أن تناله من كمال فقد أعطيت إيّاه مرة واحدة ، ولا تتحمل ظرفية هذا الموجود أكثر من ذلك . إذن لا يمكن القول إنّ لها أهدافاً متوسطة ، فقد خلقت لتتمتع بالرحمة الإلهية ، ولماذا يفيض الله عليها رحمته ؟ لأن ذلك هو مقتضى ذاته .

إذا انتهينا من عالم المجرّدات فإن الدور يصل إلى عالم المادة ، فهل يخلق الله هـذا العالم أم لا ؟ إذا خلقـه فإنّ من لـوازمه التـدرّج والتكامـل والتغيـير

---

(١) سورة الصافات : الآية ١٦٤ .

والتزاحم ، وإذا لم يخلقه فإن جانباً من العالم الذي كان من الممكن وجوده يبقى محروماً من نور الوجود والرحمة الإلهية المطلقة ، وهذا لا يتناسب مع ما تقتضيه ذاته ، فإن رحمته تقتضي أن يمنح الوجود لكلّ ما يمكنْ وجوده .

وهذه المادّيات والمجردات المتعلقة بالمادة مثل روح الإنسان فهو بذاته مجرّد ولكنه يتكامل في ظل ارتباطه بالمادة ، ولهذا فإن روحه لا يكون على مستوى من الكمال منذ وجوده وحتى انفصاله عن البدن ـ هذه الماديات ومتعلقاتها قابلة للتغيير والتحوّل والتكامل ، ولهذا تكون لها أهداف متوسطة ، فنقول إنها خلقت في ظرف التغيير والتكامل لتكسب كمالاً أعظم يليق بها وتصبح مستعدّة للظفر بفيض أكبر .

إذن يمكن السؤال عن الهدف من خلق العالم المادي بما يضم من زمان ومكان وتغير وتحول غير الهدف النهائي . والجواب العام هو أنه قد خلق للتكامل وليصبح معدّاً لكمالات أكثر .

والأهداف المتوسطة إذا كانت حكيمة فلا بدّ أن تكون بشكل يضمن لهذا الموجود كمالاً أكبر في المراحل اللاحقة ، فلو فرضنا أن الله سبحانه يخلق إنساناً يتمتع بالحدّ الأقصى من القوة والذكاء والعقل وسائر كمالات الإنسان روحياً ومادياً ، ثم يتنازل هذا الموجود تدريجياً فيفقد علمه وإيمانه ، وتنحدر قوته البدنية ، فإن هذا الإنسان قد تغيّر وتحول ولكنه لم يتكامل ، ومن الواضح أن هذا عمل لا يتصف بالحكمة ، والفعل الحكيم هو الذي يهيّىء الجو لتكامل أكبر وظهور موجود أرفع . مثلاً لو أجرى أحدهم تغييرات على بعض المعادن القيمة أو الأحجار الكريمة فحوّلها إلى أشياء أقلّ قيمة ألا يعتبر هذا عملاً خالياً من الحكمة ؟ إذن لا بدّ من أن يكون التغيير بشكل يؤدّي إلى ظهور موجود أكمل ، وكذا القول في تحوّلات هذا العالم ، فلكي تكون حكيمة لا بدّ أن تكون الأفعال والانفعالات الواقعة فيه سائرة نحو الكمال من حيث المجموع ، وقد تكون في هذا التيار بعض الموجودات التي تسير في طريق الانحطاط بسبب التزاحم الموجود في العالم الطبيعي ، ولكن هذا النظام أمر واحد ترتبط أجزاؤه ارتباطاً عضويّاً ، وهو بمجموعه يؤدّي إلى ظهور موجودات أكمل وأرفع ، وإن

حدث في الأثناء بعض السقوط أو الانحطاط ، وهذا هو الفعل الحكيم ، ولما كنّا مؤمنين بالحكمة الإلهية ـ كما أثبتنا ذلك من طريق العقل وبالآيات القرآنية ـ فنحن نعتقد بأن العالم الطبيعي يسير نحو التكامل ، أي أن مجموع عالم الطبيعة قد خلق بشكل يكون فيه مستعداً لظهور موجودات أكمل نتيجة لما يحدث فيه من تغيرات وتحولات على مرّ الزمن ، ونحن لم نعتقد بهذا عن طريق التجربة ، لأن التجربة لا تستطيع أن تتحدّث عن مبدأ الكون ونهايته ، وإنما هي تبين زماناً محدّداً وظروفاً معينة ولا تستطيع أن تثبت كون العالم دائماً يسير في طريق التكامل ، ولكننا نستطيع إثبات ذلك عن طريق العقل والبرهان الفلسفي حيث نقول : لما كان الله حكيماً لا يقدم على اللغو والعبث فلا بدّ أن يكون مسير الموجودات نحو الكمال ، إذن العالم الطبيعي مخلوق للتكامل ، ونقصد بالتكامل هنا معناه الفلسفي لا المعنى المقصود في علم الأحياء (أي تبدّل الأنواع) ، فنحن نؤمن أن العالم الطبيعي مخلوق بشكل ترتبط فيه أجزاؤه ويحدث بينها الفعل والانفعال والتأثّر والتأثير وتهيّىء هذه جميعاً الأرضية لظهور موجودات أكمل . مثلاً يعتقد العلماء أن الأرض عندما خلقت لم تكن معدّة بعد لظهور موجود حيّ ، لأن الحرارة فيها شديدة والأمطار غزيرة والسيول جارفة ، وهناك روايات ونصوص من نهج البلاغة تؤيّد هذه النظرية العلمية ، ثم تعرّضت الأرض لتحوّلات كثيرة خلال مدة لا يعلم مقدارها إلاّ الله ، لأننا لا نملك على ذلك دليلاً علمياً ولا تعبدّياً قطعياً ، فأصبحت الأرض مهيأة لظهور النبات والحيوان وفي النهاية لوجود الإنسان . أما كيف وجد الإنسان فتلك مسألة أخرى ، فالقائلون بتبدّل الأنواع يعتقدون أنه جاء من تغيّر حيوانات أخرى ، والمعتقدون بثبات الأنواع يقولون إن الإنسان نوع مستقل قد خلق في ظروف خاصة ، ولا نريد أن ندخل في التفاصيل لأن هذا موضوع يتعلق بعلم الأحياء ، ولكننا نعلم إجمالاً أن التحولات في الأرض قد تمت بشكل تكاملي ، حيث انتهت بظهور موجودات أكمل آخرها الإنسان .

إذن لكل واحد من موجودات هذا العالم التي ظهرت قبل الإنسان هدف متوسّط هو إيجاد الأرضية لظهور موجود أكمل هو الإنسان . فلخلق السماوات والأرض هدف متوسط ـ علاوة على الهدف النهائي ـ هو توفير شروط وجود

الإنسان . والإنسان أيضاًمن جهة كونه موجوداً مادياً فهو يتحول ويتغير مادياً وروحياً ، وعلى هذا نستطيع القول إن الإنسان خلق لينال كمالات أكثر ويكتسب رحمة أعظم .

وقد يعترض بعضهم بأنه إذا كان هدف الله سبحانه من الخلق هو الرحمة فلماذا لم يمنح الإنسان منذ البدء كلّ ما يمكنه استيعابه ؟ ولماذا لم يخلّد آدم وحواء وأبناءهما في الجنة لئلا يتورّطوا في هذه المفاسد ؟

إن هذا الاعتراض ناشىء من تصوّر أنه من الممكن إعطاء أيّ لون من الكمال لأيّ موجود ، فكأنّ هذا الموجود كأس خال يمكن ملؤه في كل وقت ، غافلين عن أن الرحمة النهائية التي أعدّها الله للإنسان ـ ونحن لا نستطيع الآن إدراك حقيقتها ـ تتطلب ظرفية خاصة ، لا بدّ أن يعيد الإنسان من أجلها صياغة نفسه ، وهي لا تتحقق إلاّ عن طريق اختياره وانتخابه ، وأما إذا منحت له بالإجبار فإن تلك الملكة لا تحصل له .

والآن ما هي حقيقة تلك الملكة ؟

نحن عاجزون عن إدراك حقيقتها ، ولكننا نحاول تقريبها إلى الذهن بمثال :

لو فرضنا أنهم صنعوا جهازاً يشبه تمثال الإنسان يوضع عند باب الدار وبمجرّد فتح الباب فإنه يبتسم ويحرّك رأسه ويقول : السلام عليكم ، فهل هذا يساوي قيمة ما إذا حيا صاحب الدار بنفسه صديقه القادم إليه ، أم هما مختلفان ؟

لا شكّ أن الأول لا قيمة له لأنه صوت صادر من تمثال بلا إرادة منه ولا اختيار ولا شعور ، والضيف القادم لا يعدّه احتراماً حقيقياً ولا تكون له قيمة حقيقية إلا إذا كان القائم به قادراً على الاحترام وقادراً على الإعراض ، فإذا احترمه كانت لاحترامه قيمة حقيقية ، إذن بعض الأشياء تتوقف تماماً على الاختيار الواعي . وكذا الرحمة التي أعدّها الله جزاءً للأعمال الاختيارية ، فهو لا يفهم كنهها إلا إذا قطع ذلك المسير بإرادته .

ولنضرب مثالاً آخر : إذا كان هناك شخصية مهمة جداً ، وهـو يشغل منصباً حساساً ولديه مشاغل كثيرة تمنعه حتى من لقاء أصدقائه ، فإنه لا يسمح إلا لبعض الناس بالذهاب إليه مراعياً الأهم فالمهم في الأمور التي يذهبون إليه بشأنها ، فإذا احتاج بعض الشخصيات الذهاب إليه لمعالجة مشكلة مهمة وعيّن له وقت لمقابلته بعد شهرين مثلاً ووصل الموعد المقرر فإنه يشعر بلذة خاصة لهذه المقابلة ، بينما يوجد كثير من الناس الذين يشرفون على تسيير أعمال بيت ذلك المسؤول المهمّ وتنظيم شؤون مكتبه وهم يلقونه في اليوم عدة مرات ولكنهم لا يدركون منزلته ، فلهذا لا يشعرون بـأيّ لذة لهـذا اللقاء ، فـإذا أردنا مقـارنة اللقاءين من الناحية الطبيعية والتكوينية فإنهما لا يختلفان ، ولكنهما يختلفان كثيراً من الناحية المعنوية التي تتعلق بـالشعور والـوعي . والشيء نفسه ينـطبق على موضوعنا فلو أننا أبقينا في الجنة لما أدركنا من عظمتها شيئاً ، ولما فرقنا بين نباتها الرائع والحشائش التي تنمو في الصحراء،فاللذائذ التي فيها لا يدركها كل موجود وإنما هي تتطلب سعة خاصة ، ولا تحصل هـذه إلا نتيجة للعمـل الاختياري الواعي للإنسان ، فالإنسان بسعيه الإرادي تتسع ظرفيته لاستقبال رحمة خاصة لم يكن يتمتع بها من قبل ولا يعرفها . ومثل هـذا كثير في الحيـاة الإنسانيـة ، فالعاشق الذي يتعسر عليه لقاء محبوبه يبذل كل جهده ويضحّي بكل ما لـديه من أجل أن يلقاه ، وقد كتب الأدباء قصصاً كثيرة تتحدّث عن الحب ومعاناة العاشقين ، ولا أريد أن أقول إنها جميعاً واقعية ، ولكني أقول إن هذا الأمر واقع لا شك فيه ، فبعد سنين طويلة من الفراق يتمنى أن يلقى حبيبه وعلى شفتيـه ابتسامة تمحو كل آلامه ومعاناته ، ولا يمكن أن تقاس هذه اللذة بـأي مقياس طبيعي ، بينما يوجد مع هـذا الحبيب فلّاح حـديقتهم ، وهو يصبـح مع هـذا الحبيب ويمسي ويشاهد من ابتساماته الكثير ، ولكنه لا يشعر بهذه اللذة الطافحة التي تكاد تقلع قلب محبه من مكانه ، أمـا العاشق ـ فبسبب الآلام والمشقـات والفراق الذي تحمّله ـ فإن نظرة واحدة من الحبيب أو ابتسامة رقيقة منه تكفي لتمسـح العذاب منـه ، وهي عنده ذات قيمـة لا يمكن أن تقـاس بـالمقـاييس المادية . فهو ما لم يقطع تلك المراحل فإنه لا يصل إلى هذا الحب والشوق ، ولا يستطيع أن يتمتع بهذه اللذة العميقة .

هذه أمثلة متعدّدة كـل واحد منهـا يبين جـانباً من المـوضوع ، وحقيقـه الموضوع أرفع من هذا بكثير . إذن لو أنّ الإنسان خلّد في الجنة لما كان مستعداً لإدراك النعم الإلهية واللذات المعنوية ، والحدّ الأقصى له حينئذٍ أن يلتذ كما يلتذّ الحيوان ، فالإنسان خلق في هذا العالم المادي ليتكامل إلى الحد الذي يكون فيه مستعداً لإدراك الرحمة الإلهية الرفيعة .

الأهداف المتوسطة من لسان القرآن :

يتلخص مما مضى أن للعالم بمجموعه هدفاً هو نيل الرحمة الإلهية ، وللعالم المادي ـ علاوة على الهدف النهائي ـ أهدافاً متوسـطة يمكن ضمها تحت عنـوان عام هو التكامل . ونريد هنا أن نستمع إلى الآيات القرآنيـة التي هي في مقام تحليـل الأفعال الإلهيـة وتوضيـح الحكمة من خلق العـالم والإنسـان ، وتبيـين الأهداف المتوسطة من إيجادهما . يقول الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً ﴾[1] .

في هذه الآية الكريمة تعبيرات لا بدّ من إلقاء الضوء عليها ، منها أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، فالظاهر أن القرآن الكريم يقصـد من السماوات والأرض مجموع العـالم المادي ، وتؤيّـد هذا الفهم القـرائن وموارد استعمال هذا التعبير . والآن ما هو المقصود من اليوم في الآية ؟

لا شك أن المقصود ليس هو اليوم الناتج من حركة الأرض ، لأنّ الزمان الذي خلقت فيه السماوات والأرض لا يمكن قياسـه بالحـركة التي تجيء بعـد دوران الأرض لتكوين الليل والنهار ، فقبل خلق الأرض لم يكن هناك يوم بهذا المعنى . وإذا رجعنا إلى نصوص اللغة العربيـة وجدنـاها تستعمـل اليوم بمعنى المرحلة الزمانية ، فـالآية الكـريمة إذن تـريد أن تبـين لنا أنّ خلق السمـاوات والأرض قد تمّ في ست مراحل من الزمان ، أما ما هو مقدار كل مرحلة منها ؟

---

(١) سورة هود : الآية ٧ .

فهـذا ما لا تـوضحه الآيـة نفسها ولا الـروايات المـوثوق بهـا ، وهنـاك بعض الاحتمالات ولكنها لا ترتفع إلى مستوى اليقين ، فلسنا نعرف هل هي متساوية أم لا ؟ وبأيّ معيار قسمت إلى ست مراحل ؟ إنها نقاط مبهمة في الآية ، ولا يحقّ لنا أن نفرض على الآية شيئاً من عندنا ، فما يستفاد من الآية نبيّنـه وما لا يستفاد منها نقـول : لا نعلم ، ولسنا ملتـزمين بـأننا نفهم كـل آيات القـرآن وجمله ، بل هناك أشياء غامضة علينا ، ولعلّ علماء المستقبل يتعمقون في الآيات والروايات أكثر منا فيصلون إلى نتائج لم نصل إليها نحن .

وفي الآية جملة أخرى هي ﴿ وكـان عرشـه على المـاء ﴾ ، فما المقصـود منها ؟

لعلها إشارة إلى أنّ المرحلة التي تمّ فيها خلق السمـاوات والأرض كان الماء فيها طاغياً ، أي أنّ الحالة السائدة عند ذاك هي حالة السيلان والميوعة ، كما توجد إشارة في آية أخرى إلى مرحلة أخرى حيث كانت الحالة السائدة هي الحالة الغازية :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾[1] .

وسوف نتناول هذه الأمور بالتفصيل في « معرفة الكون » .

والجملة الأخيرة من الآية الكريمة هي محل شاهدنا حيث يقول :

﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ .

إنّها تبين الهدف من الخلق ، فالله سبحانـه خلق السماوات والأرض في ست مراحل ، وكانت حالة السيولة هي السائدة ، والهدف من هذا هو اختبار الناس ليظهر من هو أحسن عملاً . وهذه العلاقة بـين الفعل والغـاية يغلفهـا الإبهام ، فكيف خلق العالم ليختبر الإنسان بينما لم يكن هناك إنسان عندما تمّ خلق العالم ؟

إن هذا واحد من الأساليب البيانية للقرآن الكريم ، فهو يستعمل الإيجاز في كثير من الموارد ، أي عندما تكـون بعض جوانب المـوضوع واضحـة فإنـه

---

(١) سورة فصلت : الآية ١١ .

يحذف بعض الجمل ليضع يده على الجانب الذي يريده ، ويشيع هذا الأسلوب في قصص القرآن .

نعود إلى الآية التي هي محلّ شاهدنا فنقول : مرّ علينا فيما مضى أن بعض الأفعال الإلهية لها مقدّمات ، لا بمعنى أن الله تعالى محتاج إلى تلك المقدّمات وإنما لأن المرتبة الوجودية للفعل متأخرة عن المقدمات ، أي أنها شرط للفعل لا للفاعل . فالله سبحانه تعلقت إرادته بخلق إنسان مختار ، وهذا هو مقتضى حكمته ، والله يعلم أن مثل هذا الموجود لا بدّ أن يكون مادياً ، لأن هذا الاختيار المقوّم لإنسانيته والمؤدّي إلى تكامله لا بدّ أن يكون في عالم المادة، فلا بدّ إذن أن يوجد عالم مادي ليصبح مقدمة لخلق الإنسان ، فلكي يستطيع الإنسان الاختيار لا بدّ أن يقف على مفترق طريقين ، وإلا لم يصل إلى الكمال الذي يجب أن يصل إليه عن طريق اختياره . إذن خلق العالم مقدّمة لخلق الإنسان ، وقد خلق الإنسان لكي يقف على مفترق طريقين ويؤدّي امتحانه ، والنتيجة أن العالم قد خلق ليمتحن الإنسان . وامتحان الإنسان أيضاً مقدّمة لهدف آخر ، ولكن المقصود هنا هو التأكيد على موضوع الامتحان ليفهم الإنسان أنّ خلقك وخلق العالم أيضاً كان لاختبارك ، فهل تتوقع أن لا حن ؟!

فالقرآن يوجز بحذف الجمل الواضحة ليبرز جانباً من الموضوع ويؤكّد أهميته ، إذن الهدف من إيجاد العالم هو اختبار الإنسان ، فما هو معنى اختبار الإنسان ؟

سوف يأتي تفصيل هذا في فصل « معرفة الإنسان » بإذن الله ، ولكننا هنا نتعرّض له بشكل مجمل ، فالاختبار عبارة عن توفير الأرضية لتحقق شيء ما بشكلين أو أكثر ، ويمكن أن تكون لهذا أهداف متنوعة . فالعالم الذي يجرّب في المختبر يقوم ببعض الحركات وينظم بعض الأشياء بشكل يؤدّي إلى وجود ظاهرة جديدة . لماذا يقوم بهذا الشيء ؟ تارة يفعله لأنه يجهل ماذا يحدث لو خلطنا هذه المادة الكيمياوية بتلك بهذه النسبة المعينة ، فهو يقوم بهذه التجربة ليرفع الجهل عن نفسه . وتارة أخرى يفعله ليعلم الآخرين ، فالأستاذ يقوم

بالتجربة ليري الطلاب وإلا فإنه يعلم من قبل . وأحياناً يفعله لأهداف أخرى . مثلاً اختبار الأستاذ لطلابه ، فهو يوجّه لهم سؤالاً ويطلب منهم الجواب إما سلباً أو إيجاباً ، أو يكون للجواب عدّة وجوه أحدها صحيح والبقية باطلة ، أو بعضها أصحّ من بعض ، فهو يوّفر للطالب أرضية ليختار الطالب من بين هذه ما يشاء . والهدف من هذا الاختبار تارة يكون معرفة الأستاذ لمستوى الطالب العلمي من خلال إجابته ، وتارة أخرى يكون الأستاذ عالماً بمستوى تلميذة من خلال تعامله معه خلال فترة الدراسة ، فهو يستطيع أن يقدّر درجته قبل أن يلقي نظرة على ورقة امتحانه ، ولكنه يريد هذه الورقة وثيقة يسكت بها من لعلّه يعترض أو يشكك ، أو لأهداف أخرى .

فما هو معنى الابتلاء والاختبار الوارد في الآية الكريمة ؟

لا شك أن الله سبحانه ليس جاهلاً بعباده ، بل علمه محيط بهم ، ولا يختلف الماضي عن الحاضر والمستقبل بالنسبة إليه لأنّ وجوده ليس زمانياً وإنما هو محيط بجميع الأزمنة والأمكنة ، وهو لا يخفى عليه شيء ، إذن اختباره للناس لا يهدف منه إلى العلم بما لا يعلم وإنما هو يوفّر لهم الأرضية ليثبتوا أنفسهم ويجسّموا ما في باطنهم بشكل عملي ، ويوصلوا استعدادهم إلى مرحلة الفعلية فللإنسان استعدادات متعدّدة وتتجلى هذه الاستعدادات في ظروف خاصة بأشكال متنوعة ، والله سبحانه هيّأ المجال في هذا العالم لكل إنسان أن يحققّ استعداداته ويفرغ ما في ذاته ، فإما أن يختار الطريق الصحيح أو الطريق المنحرف ، سبيل التكامل والرّقي أو سبيل الانحطاط والنزول ، قال الله تعالى :

﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً ﴾[1] .

ولسنا هنا بصدد تفسير هذه الآية ، ولكن المعنى هو أننا خلقنا الإنسان من نطفة مكوّنة من عناصر مختلفة لكي « نبتليه » ونختبره فأعطيناه السمع

---

(١) سورة الإنسان (الدهر) : الآيتان ٢ ، ٣ .

والبصر ولم نكتف بهذا بل أوضحنا له الطريق المستقيم ، لماذا ؟ ليختار أحد الطريقين : إما شاكراً وإما كفوراً .

وقد تكرّرت هذه الحقيقة في القرآن مراراً ، قال تعالى :

﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً ﴾[1] .

فكل ما على الأرض خلق ليكون زينة لها ، ولو كانت الأرض خالية منها لما كانت فيها جاذبية للإنسان ، فما على الأرض من نبات وحيوان وأشياء تظهر نتيجة للفعل والانفعالات بشكل لوحة جذّابة للإنسان ، ولو كانت الأرض يابسة لا ماء فيها ولا عشب ، ومتشابهة ، كلها جبال أو كلها سهول لما أحبها الإنسان ولا رغب في هذه الحياة ، ولكن هذه الغابات والجبال والسهول والبحار و. . . هي التي جعلت الأرض جذّابة للإنسان . لماذا جعل الله ما على الأرض زينة ؟

﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ .

فالهدف من خلق الظواهر الموجودة على الأرض هو امتحان الإنسان وجاء في سورة الملك ـ الآية (٢) قوله تعالى :

﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾

وفي تفسير هذه الآية وجوه مختلفة : خلق الأشياء الميتة والحية ، أو الموت والحياة للناس ، أو موت وحياة كل إنسان ، والحاصل أن الهدف من العالم (الموت والحياة فيه) هو امتحان الإنسان . إذن في القرآن الكريم ما يدّل على أن الهدف من خلق العالم والظواهر الأرضية التي تزينه والموت والحياة إنما هو لاختبار الإنسان . أي أن العالم الحي وغير الحي مقدّمة لظهور الإنسان وامتحانه . وهناك آيات متضافرة تدّل على أن كل شيء قد خلق لكم :

﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[2] .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٩ .

وقد سبق لنا القول إن للعالم المادي أهدافاً متوسطة ، فالهدف من الأشياء غير الحية في الطبيعة هو تهيئة الجوّ لظهور الموجودات الحية التي هي أكمل منها من حيث المرتبة الوجوديّة ، أي كل ما لدى الموجودات غير الحية موجود لدى الأحياء بإضافة شيء آخر يسمى « الحياة » يجعلها أكثر تكاملاً منها . وحسب ما وصل إليه علمنا ويستفاد أيضاً من الآيات القرآنية أن الإنسان هو أكمل الموجودات . أما أنّه بعد هذا سوف يخلق موجود أكمل منه أو لا ، أو أجيال هذا الإنسان سوف تكون في المستقبل أكثر تكاملاً أو لا ، فهذا موضوع آخر لا ينفي احتماله القرآن .

وهل هناك موجود آخر غير الإنسان قد خلق مختاراً ؟

الجواب بالإيجاب ، فالجنّ يشترك مع الإنسان في هذه الميزة ، ويستفاد من ظاهر الآيات الكريمة أن الجن موجود مادي مخلوق من النار المادية وهو مكلف ، وفيهم المؤمن والكافر ، ولهذا يخاطبون في آيات عديدة :

﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم . . . ﴾[1] .

فهم يُسألون أيضاً يوم القيامة .

إذن الهدف المتوسط من خلق كل ما سوى الإنسان في العالم المادي هو تهيئة الظروف لظهور موجود يسمى الإنسان ، وهو أكمل الموجودات ، ولا يهمنا تشاؤم بعض الفلاسفة من القدماء أو من المحدثين حيث يقولون إن الإنسان يعشق ذاته ويدّعي لنفسه شرفاً يتجاوز الحقيقة ، فليس من المعلوم أنه يمتاز على الحيوانات الأخرى . فنحن نستطيع أن نثبت للمنصفين بالبرهان العقلي أن الإنسان أكمل بكثير من الموجودات الأخرى ومن جميع الحيوانات ، وتؤيّد هذا الموضوع الآيات القرآنية . ولكن الإنسان يكون أشرف المخلوقات بما منحه الله من كمالات ، وإلاّ فإن هذا الإنسان بجميع ما عنده من كمالات يقف على مفترق طريقين : فإما أن يحسن الاختيار فيرتفع حتى على الملائكة

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٣٠ .

أحياناً ، وإما أن يسيء الاختيار فيهبط حتى عن مستوى أدنى الأحياء في بعض الأحيان :

﴿ إن شرّ الدّوابّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾[1] .

فالذين لا يخضعون للحق ولا يؤمنون بالله أحطّ من أدنى الأحياء وأحقر من كل حيوان ، ولهذا فإن القرآن يوجب قتل كثير من الناس بينما هو لا يجيز قتل أي حيوان ما لم يصل إلى حدّ إيذاء الإنسان وتعريض حياته وسلامته للخطر

فالإنسان إذن أشرف المخلوقات ، وجميع المخلوقات الأخرى مقدّمة لوجوده ، وهو يستطيع أن يستفيد منها ويخطو في الطريق الصحيح ، وقد خلق الإنسان ليختبر ويقف على مفترق طريقين أو عدّة طرق ليختار منها الطريق المستقيم ، فهل كل الطرق التي يختار من بينها الإنسان مقصودة بالأصالة ، أم واحد منها فقط هو المراد أصالة ؟ أي أن الله عندما خلق الإنسان ومنحه القدرة على اختيار طريق الخير أو طريق الشر ، فهل يكون اختيار أيّ منهما محققاً لهدف الوجود على نفس المستوى ، أم أن أحدهما هو المحقق لهذا الهدف وهو اختيار طريق الخير فهو المقصود بالأصالة ، أمّا طريق الشر فهو مراد بالتبع ؟

الذي يستفاد من القرآن الكريم أن الهدف هو أحدهما وهو المقصود بالأصالة ، وهو أن يختار الإنسان سبيل الله ، ويحقّق النجاح في الامتحان ، يقول الله تعالى :

﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾[2] .

فذكر الجن والإنس معاً يؤيّد أنهما مشتركان في الاختيار والتكليف ، ولم يقل : وما خلقت الملائكة ، ومنه يعرف أن عبادة الملائكة تختلف عن عبادة الناس ، فالملائكة حياتهم التسبيح ، بينما الناس يقفون على مفترق الطرق ليختاروا بأنفسهم طريق العبادة أو طريق الكفر .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٥ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

والآيـة الكريمـة تقول إن الهـدف من خلق الجن والإنس هو العبـادة ، والقرآن الكريم يعتبر عبادة الله هي الطريق المستقيم :

﴿ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ .

أما كيف تكون عبادته هي الطريق المستقيم فذلك من مواضيـع فلسفة الأخلاق ، حيث يبحث هناك عن معيار الخير والشر والاستقامة والانحراف ، ولكننا نوجز القول هنا بأن الطريق المستقيم من وجهة نظر القرآن الكـريم هو العمل المصطبغ بصبغة العبوديّة ، وهو حركة في مسير تكامل الإنسان ، أما ما لا يصدق عليه عنوان العبادة فهو إما أن يكون مراوحة في المكان وإما تقهقراً إلى الخلف وسقوطاً في الهاوية ، فالإنسان بين أحد أمرين : إما أن يختار عبادة الله أو عبادة الشيطان :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾[1] .

فعبادة الله هي الطريق المستقيم في نظر القرآن الكريم ، وجميع السبـل الأخرى منحرفة وكلها عبادة للشيطان . إذن يمكن القـول إن الهدف من خلق الإنسان هو أن يعبد الله ، لماذا ؟ لأنّ تكامله يتوقف على هذا الأمـر . وما سنّ الله العبادة لأنه محتاج إليها ، كلاّ فهو الغنيّ مطلقاً ، ولا يمكن حتى تصوّر أنه يفرح عندما يشاهد هذه الأعداد الغفيرة من مخلوقاته وهي ساجدة على التراب إجلالاً له ، وإنما لأنّ تكامل الإنسان معنوياً لا يحصل إلاّ بتذلله أمام الله .

إذن لا بد من عبادة الله ، لماذا ؟ لكي نصبح مؤهّلين لإفاضة رحمـة الله علينـا ، تلك الـرحمـة التي لا نـرتفـع إلى مستـوى إدراكهـا إلا بسلوك هـذا الطريق .[2]

---

(١) سورة يس : الآيتان ٦٠ ، ٦١ .

(٢) من أحب التوسع فليرجع إلى كتاب « معرفة الذات من أجل صياغتها » للمؤلف .

ويظهر من آية أخرى أن الهدف من خلق الإنسان هو الرحمة :

﴿ ولا يزالون مختلفين * إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم ﴾(١) .

أي أن الناس يختلفون دائماً من حيث السلوك والحركة ، ولم يحدث أبداً أنّ الناس قد اختاروا جميعاً طريق الخير ، أو أجمعوا على طريق الشر ، وإنما هم مختلفون إلا الذين نالتهم رحمة الله ، فإنهم لا ينحرفون عن طريق الحق بل هم متمسكون به . ثم يقول تعالى : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ وقد اختلف المفسرون في مرجع « لذلك » ، بعضهم قال إنها ترجع إلى الاختلاف فهو الهدف من خلق الناس ، أي لمّا كان الإنسان مخلوقاً يختار طريقه بحريته فإن لازم ذلك الاختلاف ، فيختار بعضهم طريق الخير ، ويسلك آخرون طريق الشر ، ولما كان اختياره الحرّ في صياغة مصيره مستلزماً لوجود الاختلاف فإنه يمكن القول بأن الإنسان قد خلق للاختلاف . وذهب البعض الآخر إلى أن « لذلك » ترجع إلى الرحمة المستخلصة من قوله تعالى : ﴿ إلاّ من رحم ربك ﴾ ، فالهدف من خلق الإنسان هو الرحمة ، أي أنه نتيجة لأعماله الاختيارية يصبح مؤهّلاً لرحمة الله الخاصة بعباده الصالحين ، فيكون الهدف من خلقه هو وصوله إلى أرفع درجات الرحمة الممكنة للمخلوقات . هذا هو هدف المخلوق ، أما هدف الخالق فهو تجلّي صفاته وأسمائه .

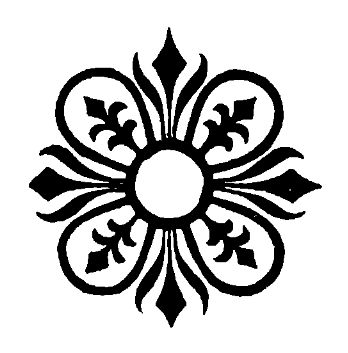
والآن إذا ألقينا نظرة على هذه الأهداف بأجمعها وجدناها مرتبة بشكل طولي وليست هي في عرض بعضها ، فالإنسان أذا أراد نيل تلك الرحمة الخاصة التي أعدّها الله لأوليائه فلا بدّ له من أن يختار طريق عبادته تعالى ، والعبادة الحرة لا بدّ أن تتمّ عن طريق الاختيار ، ولا بدّ أن يكون هناك طريقان : طريق الله وطريق الشيطان لكي يمتحن الإنسان . فالاختيار مقدّم على عبادة الله وعبادته تعالى مقدّمة على الرحمة . إذن يمكن القول إن الإنسان خلق ليبتلى ، ليؤدّي العبادة الاختيارية ، ليصل إلى رحمة الله الأبدية الخالدة . فهذه أهداف طولية وليست متعارضة ، ولعلّ هناك من لم يألف أسلوب القرآن

---

(١) سورة هود : الآيتان ١١٨ ، ١١٩ .

فيظن أنّ هذه في عرض بعضها فتكون متناقضة مثلاً ، ولكنّ الواقع أنها أهداف طولية وفي كل مجال يوجد ما يقتضي التأكيد على واحد منها بالخصوص .

* * *





مراتب الفعل الإلهي

إنّ لأفعال الإنسان الإرادية والاختيارية مقدمات ومراحل حتى تصل إلى مرحلة التحقّق الخارجي ، فإذا أردنا القيام بعمل ما لا بدّ أولاً من تصوّره في أذهاننا ثمّ نقوم بتقييمه ، ما هي أضراره ومنافعه لنا وللآخرين ، ومع أيّ شيء يتعارض ، ثم نصدّق بفائدته وبعد ذلك تولد الرغبة في أنفسنا للقيام بذلك الفعل . ومن الواضح أنّ إنجاز هذا الفعل يتطلب تحقّق شروط ومقدّمات خارجة عن وجودنا ، أي أنّ إرادة الشيء لا تكفي لتحققه ، بل لا بد من القيام بحركة خارجية على المادة وتوفير بعض الشروط . فإذا أردنا السفر إلى مكان معيّن فلا بدّ أن نرى بوساطة أيّ شيء سوف ننتقل إلى هناك ، وماذا نحتاج في الطريق أو في المكان المقصود ، إذن لا بدّ أن يكون لدينا مخطط عن طريقة القيام بالفعل . ثم إذا اتّخذنا القرار بالإقدام عليه فبأيّ صورة سوف نؤديه ؟ لعلّ بعض الظروف التي أجرينا حساباتنا على أساسها قابلة للتغيير ،مثلاً كان السفر بوساطة الطائرة ويحتمل أن يتغير موعد إقلاعها ، وهذا يعني أن التنبؤ بشكل قاطع في مثل هذه الأمور غير ممكن ، فلا بدّ إذن من إدخالها في الحساب .

إن مجموع هذه الأفكار والميول والدوافع والمقارنات تعتبر مراتب ومبادىء للفعل الإرادي بالنسبة للإنسان .

ونواجه عندئذٍ هذا السؤال :

هل تمرّ أفعال الله تعالى بهذه المراحل والمراتب أم لا ؟

عندما نتأمل قليلاً في هذه المقدّمات نجدها ناشئة من جهلنا وقصورنا ، فنحن لا بدّ أن نفكر في هذا العمل هل فيه مصلحة أم لا ، لماذا لا بدّ أن نفكر ؟ لأننا لم نكن نعلم من قبل ، ولو كنا عالمين بأنّ فيه مصلحة لما احتجنا إلى التفكير . لماذا لا بدّ لنا من المقارنة بين منافع الشيء ومضاره ؟ لأننا لا نعلم ما هو الراجح منها . ولا شك أن هذه الأمور الناشئة من الجهل والقصور لا تمتدّ إلى الساحة الإلهية ، فالله إذا أراد فعل شيء فإنه لا يفكر هل فيه مصلحة أم لا ، والتفكير من ميزات الإنسان الجاهل ، والله سبحانه عالم بكل شيء ، ولا تنبعث في ذاته تعالى رغبة لم تكن من قبل لأن معنى هذا أنه كان فاقداً لها ثم عرضت له ، وهذا مستحيل بالنسبة لله جلّ جلاله ، وقد ورد في نهج البلاغة أنه :

« لم يسبق له حالٌ حالاً » .

بينما نحن تتغيّر أحوالنا ، فتارة نكون راضين وأخرى غاضبين ، أما الله سبحانه فلا يمكن أن نفرض أنّ رغبة تولد في ذاته ثم تشتد فتصبح شوقاً ثم تتحوّل إلى إرادة . إذن ماذا نقول وكيف يتمّ فعل الله ؟ هل يتمّ بصورة جزافية ومن دون علم ولا مقارنة ولا حساب ؟

إذا قلنا إنه يتمّ بمقارنة وحساب يلزم منه أن يكون الله قد فكر وقاس ثمّ اتّخذ القرار ، ومعنى هذا عروض الحوادث على ذات الله وهو مستحيل .

وإذا قلنا إنّ هذه غير موجودة في فعل الله لزم منه أن يكون فعله تعالى قد تمّ من دون علم ولا حساب وبشكل جزافي ، والله سبحانه منزّه أيضاً عن القيام بشيء من دون علم ولا حساب . إذن ما هو الحل ؟

الحل هو أن نقول في الأفعال مثل ما قلناه في الصفات الإلهية ، فنحن ندرك ابتداءً المفاهيم المتعلقة بصفاتنا وأفعالنا فنجد أنها ناقصة وفيها جهات عدمية ، فنقوم بحذف جهات النقص والعدم ثم ننسبها إلى الله تعالى . وقد

قلنا في باب الصفات إننا ندرك في البدء مفهوم العلم والقدرة والحياة في أنفسنا ، وهي مصاديق محدودة متناهية لهذه المفاهيم لا يليق أن تنسب للمقام الإلهي ، ولكي تصحّ نسبتها لله تعالى فنحن نقوم بحذف جهات النقص والعدم فيها فنقول : علم الله ليس محدوداً كعلمنا بل هو علم لا نهائي ، وهو ذاتي غير اكتسابي . وإن كنا نحن لا نفهم شيئاً عن العلم غير الاكتسابي لأننا لا نجده في أنفسنا ، ولكننا نوسّع المفهوم لكي يشمل هذا العلم أيضاً . ومثله يقال بالنسبة للأفعال الإلهية ، أي أن المفاهيم التي تصدق على أفعالنا الاختيارية ملازمة للنقص والجهات العدمية ، ولهذا فهي بهذا الشكل لا يمكن نسبتها إلى الله تعالى ، ولكننا نستطيع تجريد وحذف جهات النقص والعدم من هذه المفاهيم بحيث تكون صالحة لنسبتها إلى الله سبحانه .

وفي باب الصفات : بعد أن نسبنا هذه المفاهيم الكمالية لله تعالى فإن العقل أقام برهاناً على أن مصداق هذه الصفات ليس متعدداً في مورد الله ، بل جميع هذه الصفات هي عين ذاته ، وتؤيّد هذا النصوص من الكتاب والسنة ، وكذا الأمر في باب الأفعال الإلهية ، فمراتب الفعل هذه التي ننسبها إلى الله ليست مرتبة على طول الزمان ، ففي أنفسنا يكون في هذه المراتب تقدّم وتأخر زماني ، أما عندما نقول إن الله يعلم ويريد ويحب أن يؤدّي هذا الفعل فليس معناه أنه في زمان ما كان يعلم ولكنه لم يرد بعد ، ثمّ في زمان بعده أراد ، وهكذا . . . لأن ذات الواجب لا يتطرّق إليها الزمان ، والزمان مختص بالموجودات المادية . ومن ناحية أخرى يلزم منه أن تعرض الحوادث على الله بينما نحن قد أثبتنا أنه : « لم يسبق له حال حالاً » ، إذن مراحل الفعل الإلهي ليست مترتبة بحسب الزمان ، وهذا يعني أن أول ما نقوم به لكي تصح نسبة هذه المفاهيم للفعل الإلهي هو تجريد مبادىء الفعل من التقدم والتأخر الزمانيين . ثانياً لا بدّ أن نلتفت إلى أن هذه المفاهيم انتزاعية ينتزعها عقلنا من المقارنة بين ذات الله ومخلوقه ، وإلا فإنه لا يوجد في الخارج شيء ثالث غير ذات الحق تعالى من جهة ، ومخلوقاته من جهة أخرى . فعندما ينظر العقل إلى أن صدور هذا الفعل وظهور هذا المخلوق من الله قد تمّ بوساطة الإرادة الإلهية من دون أن يكون الله سبحانه مجبوراً في خلقه ، فإن العقل يقول إنّ الله يؤدي هذا

الفعل بإرادته ، فالإرادة أمر انتزاعي وليست أمراً عارضاً على ذات الله ، لأن الله تعالى لا يعرض له تغيير ، وهذا يشبه ما قلناه في صفاته عزّ وجل ، فقدرته لا تعني أنّ له عضلات وسواعد ، وإنما العقل عندما يـلاحظ أن الله قد خلق هذا العالم بهذه العظمة فهو يقول إنه لا يمن أن يكون عاجزاً ، فلا بدّ من نسبة القدرة إليه ، فالذات الإلهية بسيطة لا تعدّد فيها ، وهذه كلها مفاهيم ينتزعها العقل لا أكثر . وكذا الأمر في مورد الأفعال الإلهية ، فلا يوجد شيء خارجي غير ذات الله والفعل الصادر منه (مخلوقاته) يسمى بـ « الإرادة » أو « المشيئة » أو « الإذن » أو « القضاء » أو « القدر » ، وإنما هذه مفاهيم انتزاعيـة ينتزعهـا العقل ويعتبرها مراحل للفعل الإلهي ، ففي الخارج توجد ذات الله بعنوان أنه فاعل ، وذات العالم بعنوان أنه فعل الله ، والعقل ينتزع مفاهيم إضافية ذات طرفين ، أحدهما ينتسب إلى الله ، والآخر إلى المخلوق ، ومصداق الجميع هو واحد وهو فعـل الله ، كما مـر علينا في مـوضع تعـدّد الصفات بينـما المصداق واحد . ويستطيع العقل أيضـاً أن يقول بـالترتّب بـين هذه المفـاهيم ، لا أنها علاقات بين مصاديق متعددة ، فنقول إن الله عندما يريد أن يفعـل شيئاً فهـو يعلم أنه يريد أن يفعل ، ولا يفعل من دون علم ، هذا شيء ، والشيء الآخر أنه عندما يريد أن يؤدي فعلاً فإنه لا يقوم به مجبوراً ومن دون رضاه ورغبته . هذان مفهومان ، فأيهما مقدّم عندما ينسبان إلى الله ؟ لا شك أن العلم مقـدّم على الرغبة والإرادة ، فما لم يعلم لا مجال لأن يريد ، فالإرادة بعد العلم ولكنها ليست « بعديّة » زمانية وإنما مرتبة هذا المفهوم تسبق مرتبة المفهوم الآخر . ولا إشكال في هذا الترتّب بين مبادىء ومراحل الفعل الإلهي .

ماذا يقول القرآن في هذا الصدد ؟

هل ينفي القرآن هذه المراتب عن الفعل الإلهي أم يثبتها له أم هو ساكت إزاءها ؟

إذا رجعنا إلى القرآن وجدناه يبـين انتساب العـالم ـ الذي هـو فعل الله حقيقة ـ إلى الله بعدة صور تنطبق على مراحل ومراتب الفعل ، وقد ذكرت في مناسبات مختلفة ، وقد تناولت الروايات هذه الأمـور ورتّبتها بشكـل خاص ،

ففي بعض الروايات أنّ تحقّق العالم يعتمد على أربعة أمور : العلم ، والإرادة ، والتقدير ، والقضاء ، وفي رواية أخرى ذكرت سبعة أمور حيث تضاف إلى تلك:المشيئة والكتاب والأجل .

ولا توجد آية في القرآن تتناول هذه الأمور مرتّبة ، ولكنها موجوْدة بصورة متناثرة في الآيات المختلفة ، بحيث يفهم منها أنها قد اعتبرت مراتب للفعل الإلهي ، ولا بدّ من الالتفا ت إلى أن ترتّب هذه الأمور هنا ليس زمانياً ولا يلزم منه عروض شيء على ذات الله ، وإنما هي مفاهيم ينتزعها العقل من العلاقة بين الله والعالم .

ومن جملة هذه المفاهيم العلم في مقام الفعل . ونعيد إلى الأذهان ما قلناه في باب الصفات الإلهية من أن العلم هو أحد الصفات الذاتية لله ، وهذا العلم هو عين الذات ، وسواء أوجد العالم أم لم يوجد فالله هو عين العلم فهو عالم بذاته ، هذا هو لون من العلم .

فهل ينسب القرآن لله سبحانه لوناً آخر من العلم ؟

أجل ، فنحن نواجه آيات تدّل على أن لله علماً يتحقق في زمان معين ، مثلاً قوله تعالى :

﴿ الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً ﴾[1] .

فالمسلمون في صدر الإسلام كانوا مكلّفين بأن يقابل كل عشرين منهم مائتين من الخصم :

﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾[2] .

ولكنّه بعد ذلك خفّف عنهم هذا التكليف :

﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٦ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٥ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٦٦ .

وشاهدنا هو قوله : « الآن خفف . . . وعلم » ، فظرف الزمان للتخفيف وللعلم .

وفي آية أخرى يقول تعالى وهو يتحدّث عن الشيطان :

﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ﴾[1] .

فالشيطان يوسوس للإنسان ولا يستطيع أن يجبر أحداً على المعصية ، وقد جعلناه وسيلة لاختبار الناس لنعرف من منهم يؤمن بالآخرة ومن لا يؤمن بها ، فظاهر أن هذا العلم يظهر بعد خلق الشيطان ووسوسته .

وهناك آية أخرى في هذا المضمار :

﴿ ولَنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾[2] .

حيث يبدو من الآية أن هذا العلم يحدث بعد الابتلاء والاختبار .

فهل يعني هذا أن الله سبحانه لم يكن له علم قبل ذلك ؟

كلاّ ، لأن العلم يستعمل بالنسبة لله تعالى بأشكال مختلفة ، فهو تارة صفة لذات الله ، وهو علم يرفض التغيير ، وليس زمانياً بل هو محيط بجميع الأزمنة والأمكنة ، ويستعمل تارة أخرى صفة لفعل الله ، وحينئذٍ يصدق عليه كل ما يصدق على صفات الفعل الإلهي ، وقد سبق لنا القول إن الإرادة والمشيئة وسائر صفات الفعل التي ينتزعها العقل من المقارنة بين ذات الله وفعله هي أمور ذات طرفين ، فباعتبار انتسابها إلى ذات الله هي أمور لا زمانية ، وباعتبار انتسابها إلى المخلوق الزماني المحدود تكون حادثة وزمانية ، فكما أنّ الخلق يقع في زمان معين أي أن المخلوق زماني لا أن هناك تغييراً قد حدث في ذات الله، فكذا العلم بالمخلوق، فإن العقل عندما يقيس المخلوق إلى خالقه هل أنه صدر منه عن علم أم بدون علم ؟ فإنه يجيب أن الله يعلم به ، وهو علم حادث، بمعنى أنه قبل هذا الزمان لم يكن هناك موضوع لصفة الفعل حتى يتمّ إثباتها أو نفيها ، فقبل خلق آدم (ع) لا مجال لهذا السؤال : هل أنه خالق لآدم (ع) أم لا ؟ لا بد من كون آدم موجوداً ليصحّ البحث عن خالقه ، وكذا

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢١ .

(٢) سورة محمد : الآية ٣١ .

العلم المنتزع من مقام الفعل فهو زماني بلحاظ متعلقه ، ولكي يتضح الموضوع أكثر نجعل مكان مفهوم العلم مفهوم الرؤية أو السمع ، ففي بعض الموارد لا تكون لدى أحد الموجودات قوّة البصر ثم تظهر له في زمان معين ، وتارة أخرى تكون له قوة البصر ولكنه لا يوجد أمامه ما يبصر ، فهذا لا يقال له إنه رأى إلاّ إذا وجد أمامه ما يبصر ، حينئذٍ تتمّ الرؤية ، فقوله تعالى : ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً** ﴾ أي الآن حدث الضعف فيكم فعلمه الله . وقوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾ أي حتى يوجد فيكم الجهاد والصبر فيعلمهما الله .

وكذا قوله تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها** ﴾[(١)] .

فقبل وجود قولها لا يمكن أن يسمع قولها ، فلا بدّ أن يكون هناك صوت حتى يصدق السمع ، ولكن هذا لا يعني أن شيئاً قد حدث في ذات الله لم يكن من قبل موجوداً ، فالله كان يعلم من قبل بما سوف يقع ، ولكن السمع لم يكن لأن المسموع لم يكن موجوداً .

علم الكتاب :

من يتأمل في آيات القرآن الكريم يجدها تنسب لوناً آخر من العلم لله سبحانه يختلف عن العلم الذاتي والعلم المنتزع من مقام الفعل ، وهو علم منعكس في كتاب :

﴿ **قال علمها عند ربّي في كتاب لا يضلّ ربّي ولا ينسى** ﴾[(٢)]

فما هي حقيقة هذا العلم ؟ إنه ليس من لون العلم الذاتي لأنه في كتاب والكتاب مخلوق لله ، وهو أيضاً غير منتزع من مقام الفعل لأن ذلك العلم مقارن للفعل نفسه ، إذن يفهم من هذا أن الله قد خلق شيئاً يسمى « الكتاب » وهو يعكس المخلوقات الأخرى بحيث إن كل من ينظر فيه يصبح

---

(١) سورة المجادلة : الآية ١ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٢ .

مطّلعاً على أحوال المخلوقات الأخرى ، فهو علم الله منعكس في هذا الكتاب . وفي آية أخرى :

﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ، إنّ ذلك في كتاب ﴾[1] .

ويقول تعالى :

﴿ لا يعزُب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ﴾[2] .

وعندما يلاحظ العقل هذا يعتبر هذا العلم المنعكس في كتاب مرتبة من تجلي العلم الإلهي .

ولكي يتّضح الموضوع أكثر لا بدّ من دراسة الآيات الواردة في هذا المضمار ، وتتأكّد أهمية هذه الدراسة إذا عرفنا أن الروايات تقول : كل ما يتحقّق في الخارج فهو مسبوق بعدّة أشياء : العلم ، الكتاب ، الإذن ، الأجل ، القدر ، القضاء ، وتضاف المشيئة في بعضها ، فهذه مراحل تحقّق الفعل الإلهي . وقد أنهينا دراسة موضوع العلم ، وهنا نحاول إلقاء الضوء على مرحلة الكتاب ، فالكتاب يستعمل في اللغة العربية بمعنى المكتوب ، ولكن موارد استعماله في القرآن الكريم مختلفة :

١ ـ يستعمل في مورد الأحكام التشريعية :

﴿ إن الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾[3]

فالكتاب هنا بمعنى أنه حكم تشريعي في أعناق الناس المؤمنين .

٢ ـ يستعمل في مورد الكتب السماوية :

﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾[4] .

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٠ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٣ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٠٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾[1] .

أما لماذا أطلق عليها اسم الكتاب ، هل يعني ما من شأنه أن يكتب ، أو أنه مكتوب في عالم آخر ، أو أن جميع الكتب السماوية تنزل بوساطة الملائكة على الأنبياء بشكل ألواح مكتوبة كما في التوراة ؟

هذه وجوه قد ذكرت لهذه التسمية ، ولكننا نعلم على كل حال أن القرآن الكريم سواءً أكان مكتوباً أم محفوظاً فهو يسمى كتاب الله ، ونعلم أيضاً أن ما أنزل على الأنبياء مما يضم الحقائق والمعارف والأحكام يطلق عليه اسم الكتاب .

٣ ـ ويستعمل أيضاً في مورد صحيفة الأعمال ، فالقرآن ينص على أن لكل إنسان صحيفة أعمال يكتب فيها الملائكة أعماله بأمر من الله سبحانه ، لكي تعطى لهم يوم القيامة :

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك ﴾[2] .

ولا علاقة لهذه الموارد الثلاثة بموضوع بحثنا .

٤ ـ يستعمل للدلالة على أن لله كتاباً تنعكس فيه جميع الأشياء ، وهذا هو محل بحثنا :

﴿ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتاب مبين ﴾[3] .

وقد تصور البعض أن المقصود بالكتاب المبين هنا هو القرآن الكريم ، والظاهر أنه ليس كذلك فالآية الكريمة بدل أن تقول الاّ في علم الله فهي تقول إلّا في كتاب ، فالكتاب متعلق بالعلم .

وفي آية أخرى يقول تعالى :

﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾[4] .

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الإسراء : الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

(٤) سورة ق : الآية ٤ .

أي حافظ لما فيه أو بمعنى محفوظ من الفناء .

ويقول سبحانه :

﴿ وإنّه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم ﴾[1] .

فالتعبير بأمّ الكتاب يوحي بأن هناك كتباً متعدّدة أحدها هو الأصل والباقي فروع له ، وتؤيّد هذا الفهم الروايات الواردة ، وهذا الكتاب الأصل فيه كل شيء عن كل حادثة في أي زمان ومكان ، وحتى القرآن الكريم فيه أيضاً : **﴿ وإنه في أمّ الكتاب ﴾** .

وفي آية أخرى :

﴿ إنّه لقرآن كريم * في كتاب مكنون ﴾[2] .

والآن نتساءل : ما هو هذا الكتاب ؟ وما هي حقيقته ؟ وأين هو ؟ وبأيّ شيء قد خطّ ؟

إنها أمور لم يبيّنها القرآن الكريم ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه ، ونعلم إجمالاً أنه موجود خلقه الله ، وهو يعكس الموجودات الأخرى ، وكل من يتمتع بأهليّة الرجوع إليه والاتّصال به فإنه يستطيع إدراك جميع الحقائق الماضية والحاضرة والتي سوف تأتي ، وتشير هذه الآية الكريمة إلى من له هذه الأهلية :

﴿ في كتاب مكنون * لا يمسه إلاّ المطّهرون ﴾[3] .

ومن هم المطّهرون ؟ إنهم المشار إليهم في الآية الكريمة :

﴿ ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً ﴾[4] .

فأهل بيت النبي الأكرم (ص) هم الذين تمتدّ أيديهم إلى اللوح المحفوظ وإلى الكتاب المكنون ، وهو كتاب لا يعرض له التغيير :

﴿ في لوح محفوظ ﴾[5] .

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٤ .

(٢) سورة الواقعة : الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .

(٣) سورة الواقعة : الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

(٥) سورة البروج : الآية ٢٢ .

ولا يستطيع أي عامل أن يؤثّر فيه لأنه « كتاب مكنـون » ، ومن ميزات هذا الكتاب أنه عند الله :

﴿ وإنه في أمّ الكتاب لدينا ﴾ .

﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ .

والله تعالى نفسه يقول :

﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ﴾[1] .

فهو إذن موجود لا يتغير ولا يزول ، وبعبارة أخرى : إنّه من المجرّدات ولا يستطيع عقلنا أن يدرك أكثر مما ذكر .

ونواجه في هذا المجال سؤالاً يقول :

وهل أفعالنا الاختيارية منعكسة في هذا الكتاب ؟

وهل توجد فيه جميع الحوادث التي تصادف الإنسان ؟

ويتصوّر بعض الناس أنّ الجواب على هذين السؤالين بالإيجاب يعني الالتزام بالجبرية ، فلكل إنسان مصير معيّن من قبلُ شاء أم أبى ، ولكنّنا نفهم من القرآن أن أفعالنا الاختيارية وجميع الحوادث التي تمرّ على الإنسان منعكسة في ذلك الكتاب ، والدليل على ذلك إطلاق الآية الكريمة :

﴿ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتاب مبين ﴾[2] .

فهي شاملة بإطلاقها لأفعالنا الاختيارية ، ولا يكتفي القرآن الكريم بهذا المقدار بل يصرّح بأن جميع ما يحدث لأيّ شخص فهو موجود في كتاب قبل وقوعه :

﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك على الله يسير ﴾[3] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٦ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

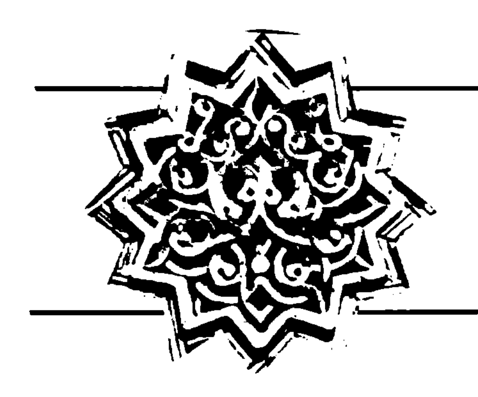
(٣) سورة الحديد : الآية ٢٢ .

وهل يلزم من هذا القول بالجبر ؟

كـلاّ ، لأن هذه الحـوادث مكتوبـة هناك كـما سـوف تحـدث ، أي أنها مسجّلة هناك أنها سوف تحـدث باختيـار فاعلهـا ، لا أنه مجبـور عليها ، ولـو أصبحت جبرية لكانت مخالفة للعلم والكتاب الإلهي .

إذن علم الله بالحوادث قبل وقوعها وكتابته لها بل وحتى إعلانه لها لا يعني الجبر بأيّ شكل من الأشكال ، لأن الله تعالى يعلم أنه سوف يؤديها باختياره ، وسرّ هذا أن وظيفة العلم هي أنـه عاكس للواقـع على مـا هو عليـه وليس هو مغيـراً له ، فكلّ حادثة فهي مدرجة في ذلك الكتاب بـارتباطـاتها ، بـأسبابهـا ومسبباتها .





الإذن الإلهي

لقد أشرنـا فيما مضى إلى أن بعض الـروايات تؤكّـد كون الفعـل الإلهي مسبوقاً بسبعة أشياء من جملتها الإذن الإلهي .

ومفهوم الإذن يستعمله العرف في المجال الذي يريد الفاعل أن يتصرّف فيما يملكه الآخرون . . والقانون لا يسمح له بالتصرّف فيه ، فإذا أراد أن يكون تصرّفه فيه قانونياً فلا بدّ له من أخذ الإذن من مالكه . مثلاً : إذا كان هنـاك كتـاب يملكه شخص مـا وأردنا مـطالعتـه فـلا بـدّ لنـا من « الاستـئذان » من صاحبه . وبهذا المعنى ورد في القرآن الكريم حيث أمر بإلزام الطفل بالاستئذان عندما يريد الدخول إلى غرفة أبويه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغـوا الحلم منكم ثلاث مرات ﴾(١) .

وكذا إذا أراد أحد الدخول إلى بيت غيره فإنه لا يجوز له الدخول إلا إذا أذن له به :

---

(١) سورة النور : الآية ٥٨ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكّرون* فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ﴾[1] .

والإذن بهذا المعنى يعتبر مفهوماً اعتبارياً وقانونياً ، أي عندما نقول : لا يستطيع أحد أن يدخل بيت إنسان إلاّ بإذنه ، فإن ذلك لا يعني عدم قدرته على ذلك من دون إذن المالك ، بل هو يستطيع أن يدخله من دون إذنه ولكن هذا التصرف يعتبر غير قانوني ولا شرعي . وهذا القانون ليس شيئاً خارجياً وإنما هو اعتباري وضع لتحقيق مصالح للناس ، ولو لم يوضع لاختلّ النظام الاجتماعي .

ولكن موارد استعمال الإذن في القرآن الكريم أوسع بكثير من هذا المورد ، فهو يستعمله في الأمور التكوينية ، وفي الأفعال الإنسانية الإرادية ، وفي التأثيرات الطبيعية ، ويعمّمه ليشمل الأمور الدنيوية والأخروية ، فكل هذه منوطة بإذن الله . فمن الموارد التي استعمل فيها القرآن الإذن في الأمور التشريعية الاعتبارية قوله تعالى :

﴿ أذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير ﴾[2] .

فهذه الآية الكريمة تتحدّث عن المسلمين ؛ فهم عندما كانوا في مكة قبل بدء الهجرة لم تصل قوتهم إلى الحدّ الأدنى الذي يستطيعون به أن يشنّوا حرباً على ظالميهم من الكفار والمشركين ، ولهذا فقد أمرهم الله أن لا ينتقموا لأنفسهم حينذاك :

﴿ كُفّوا أيديَكم وأقيموا الصّلاة ﴾[3] .

وامتدّ هذا الوضع حتى هاجر المسلمون إلى المدينة وشكلوا فيها نواة المجتمع الإسلامي ، وقويت شوكتهم بحيث يستطيعون مواجهة الكفار ،

---

(١) سورة النور : الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة الحج : الآية ٣٩ .

(٣) سورة النساء : الآية ٧٧ .

عندئذٍ نزلت هذه الآية :

﴿ أذن للذين يقاتلون . . . ﴾ .

ولعلها أول آية في تشريع الجهاد ، ومعناها أنه لم يكن للمسلمين إذن في الجهاد من قبل والآن سمح لهم به .

وفي آية أخرى يستنكر عمل الذين يضعون القوانين من عند أنفسهم من دون إذن الله فيخاطبهم :

﴿ قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾[1] .

والواقع أن الإذن التشريعي هو نتيجة للاعتقاد بالربوبية التشريعية ، فإذا آمنا أنها مقصورة على الله ، وهو وحده الذي له الأمر والنهي أصالة ، فنتيجة هذا أن لا يضع أحد قانوناً إلّا بإذنه .

ويستعمل القرآن الكريم الإذن في الأمور التكوينية ، ويمكن القول إنه يشترط إذن الله في جميع ألوان التصرفات ، وسوف نذكر هنا من كل باب نموذجاً :

ففي مورد النبات يقول تعالى :

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه ﴾[2] .

فخروج النبات عمل طبيعي ، فإذا ألقيت البذور في أرض مستعدّة لإنباتها وتوفّرت كل الشروط اللازمة فإن هذا النبات ينمو في تلك الأرض بشكل طبيعي ، ولكن القرآن الكريم يقول إنه يخرج بإذن الله ، أي أن العوامل الطبيعية المؤثّرة في نموّه من قبيل الأرض والبذور والماء والهواء و. . . تقوم بأدوارها بإذن الله ، ولو لم يأذن الله للأرض أن ينمو فيها النبات ، ولم يأذن للسحاب أن ينزل مطراً ، ولم يأذن للبذرة أن تنمو فإن النبات لا يخرج . هذا الإذن ليس اعتبارياً قانونياً لأنّ الأرض والشمس والسحاب و. . . لا تملك شعوراً ووعياً حتى يوضع لها قانون ، بل هو إذن تكويني .

---

(١) سورة يونس : الآية ٥٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٨ .

وفي موررد تأثير السحر يقول تعالى :

﴿ **وما هم بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله** ﴾[1] .

وهي تتحدث عن هاروت وماروت حيث كانا يعلّمان السحر ، وتقول الآية إن السحرة لا يستطيعون أن يضرّوا بسحرهم أحداً إلاّ بإذن الله ، والقدر المتيقّن من تأثير السحر هو التغطية على العيون ، فيتصوّر المسحورون أنّ آثاراً واقعية قد تحققت في العالم الخارجي ، بينما الحقيقة أنها غير واقعية ، إذن كان للسحر أثر في الخيال ، يقول الله تعالى في قصة سحرة فرعون :

﴿ **فإذا حبالهم وعصيّهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾[2] .

إذن السحر لا يؤثر إلاّ بإذن الله ، هذا أيضاً إذن تكويني ، لأن السحر لا يعقل حتى يكلف .

وفي مورد الأفعال الإنسانية التي تتمّ بصورة طبيعية يقول تعالى :

﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله** ﴾[3] .

فمع أن الموت ظاهرة طبيعية تحدث عندما تجتمع شروطها الخاصة فإن القرآن يجعلها منوطة بإذن الله .

ويتجاوز القرآن هذه الحدود ليجعل حتى أفعال الإنسان الاختيارية مثل الإيمان والكفر منوطة بإذن الله ، قال تعالى :

﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله** ﴾[4] .

هذا أيضاً إذن تكويني وإلاّ فإنّ الإذن التشريعي شامل للكفار أيضاً .

وفي مورد أفعال الأنبياء (المعجزات) قال تعالى :

﴿ **وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله** ﴾[5] .

وهناك آيات تتناول المعجزات كلاّ على حدة ، ولا سيما معجزات

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٢ .
(٢) سورة طه : الآية ٦٦ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤٥ .
(٤) سورة يونس : الآية ١٠٠ .
(٥) سورة الرعد : الآية ٣٨ .

عيسى بن مريم (ع) حيث يؤكّد فيها أنها قد تمّت بإذن الله ، ولعلّ هذا التأكيد لردّ القائلين بألوهيته مستدلّين بهذه المعجزات .

وكذا في مورد أفعال الأنبياء التي تتعلق بالهداية والإرشاد ، قال تعالى :

﴿ لتخرج النّاس من الظّلمات إلى النور بإذن ربّهم ﴾(1) .

ويتكلم القرآن عن ميزات يوم القيامة فيقول :

﴿ لا يتكلّمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾(2) .

ويتحدّث عن موضوع الشفاعة فيقول تعالى :

﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾(3) .

وبالنسبة لخلود أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار يقول عزّ وجل :

﴿ خالدين فيها بإذن ربّهم ﴾(4) .

وفي مورد أفعال الملائكة يقول تعالى :

﴿ تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾(5) .

ويقول عز وجل بالنسبة لأفعال الجنّ :

﴿ ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه ﴾(6) .

أي بين يدي سليمان (ع) .

وبالنسبة للحوادث التي تصادف الإنسان يقول تعالى :

﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾(7) .

إذن نفهم من هذا أنّ الموجودات الواعية (كالإنسان والملك والجن) وغير الواعية (كالنبات) والأفعال الاختيارية (كالإيمان) وغير الاختيارية (كالموت) كل هذه قد جعلها القرآن منوطة بإذن الله . ونستنبط من مجموع هذه الآيات أن أي حادثة في الدنيا والآخرة تصدر من الإنسان أو من

---

(1) سورة إبراهيم : الآية ١ .

(2) سورة النبأ : الآية ٣٨ .

(3) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(4) سورة إبراهيم : الآية ٢٣ .

(5) سورة القدر : الآية ٤ .

(6) سورة سبأ : الآية ١٢ .

(7) سورة التغابن : الآية ١١ .

الموجودات الأخرى فهي لا توجد إلا بإذن الله . فالإذن هنا أوسع بكثير من المجالات الاعتبارية ، فهو يشمل الإذن التكوينيّ لأنه عندما يقول :

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾ .

فإنه لا يعني أن الموت من دون إذنه غير قانوني حتى يصبح اعتبارياً ، وإنما هو يقصد أن الموت لا يحدث إلا إذا أذن الله .

فهذا الإذن يعكس رابطة حقيقية موجودة بين الحوادث والإرادة الإلهية ، أي أن أيّ حادثة لا توجد إلاّ إذا ارتبطت بالله ارتباطاً تكوينياً . وكيف يمكن أن توجد وحدها مع أن أيّ موجود غير الله لا يتمتع بالاستقلال في أيّ عمل ؟ فكل فاعل وأي عامل يريد أن يقوم بتصرّف أو تأثير فإنه يؤدّي ذلك بالقوّة الإلهية الممنوحة له ، وهذا هو مقتضى التوحيد في الأفعال ، حيث ينحصر الاستقلال في التأثير بالله سبحانه وتعالى ، وكل موجود آخر يريد أن يؤثّر فهو يقوم بالتأثير بوساطة القوة الإلهية المودعة فيه ، وغاية الأمر أننا أحياناً ننسب الفعل إلى الله ، وأحياناً أخرى ننسب الفعل ـ باعتبار أخفض منزلة ـ إلى فاعل يؤديه بإذن الله .

وليس من اليسير فهم التوحيد في الأفعال بمعناه العميق ، فهو بعيد عن الأذهان العادّية لأنه يعني نسبة كل تأثير لله تعالى ، والإنسان لا يستطيع أن يهضم هذا الأمر بسهولة ، فكيف تنسب للإرادة الإلهية الأفعال المخالفة لقوانين الله ، وهذا يعني أن الفرق دقيق بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية بحيث لا يتيسر فهمه لكل أحد ، ولكن توقّف كل شيء على إذن الله لا يصعب فهمه ، فما لم يأذن الله لا يستطيع أحد أن يتصرّف في ملكه . وهذه الآيات الدالّة على أن تحقق أي ظاهرة يكون بإذن الله مبينة لمرتبة منخفضة من التوحيد الأفعالي ، فإذا اعتنقنا التوحيد الأفعالي فإنه لا يصعب علينا حينئذٍ فهم هذه الآيات .

ويريد الله سبحانه أن يفهمنا من خلال هذه الآيات أنّ كل الحوادث والظواهر التي تقع في العالم ليست خارجة عن إرادته واختياره ، فهي إرادته التي تتجلّى في هذا العالم ، ولا يستطيع أحد أن يغالب الله ويصارعه ويحقق شيئاً من

دون إذنه ، والذين يعادون الأنبياء وينفرون من الحقّ ليسوا في الحقيقة في صراع مع الله ، فتارة يغلب الله وأخرى يغلب المخلوق كما تقول التوراة الموجودة بين أيدينا اليوم (حيث يوجد في التوراة أن الله قد ندم على خلق الإنسان ، وأنه نزل من السماء إلى الأرض وصارع يعقوب فتغلّب يعقوب على الله وطرحه أرضاً !!) ، والقرآن الكريم يقف موقفاً مخالفاً لكل هذه التصوّرات التي تنضح كفراً وشركاً ، (ونحن لا نعتقد أن هذه الأمور جزء من التوراة الأصيلة بل هي تحريفات أقحمت على التوراة بمرور الزمان) ويؤكّد القرآن للناس أنّ الأمر لم يفلت من يد الله :

﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾[1] .

فاليهود يقولون إن تدبير العالم وإدارة شؤونه لا تصل إليها يد الله ، والمشركون يقولون إن هذه الأمور متروكة لشركاء الله ، لكن القرآن يقف في مقابل هذه الأقوال موقفاً صلباً ، ويصرّ بأساليبه المتنوعة على أن كلّ شيء خاضع لإرادته تعالى ، بل ويحاول أن يرفع الإنسان إلى مستوى التوحيد الأفعالي ، حيث يربّي الإنسان المؤمن بشكل يجعله يرى الاستقلال في التأثير لله فحسب ، ويشاهد يد الله ممتدة إلى جميع الموجودات وبكل أبعادها .

ولكن ، كيف يصل إلى هذه المرحلة إنسان يرى الاستقلال لنفسه وللطبيعة ولا يحس بحاجته إلى الله ، فهو الذي يتحدث وهو الذي يسمع وهو الذي يقاتل وهو الذي يغزو الفضاء ؟

إن القرآن يربّي المؤمن بشكل يرتفع به إلى مستوى يرى فيه يد الله في كل مكان ، وكلّما رأى يداً أخرى فإنه ينظرها على أنها ظلّ لليد الإلهية ، وإذا التفت إلى يد الله فإنه لا يقيم وزناً لأيّ شيء آخر ، ولهذا فالقرآن يهتم بشكل خاص في أساليب بيانه لنسبة الأفعال لله ، ومن جملتها هذا الأسلوب الذي يجعل فيه وقوع أي شيء منوطاً بإذن الله ، وإذا كان المجال مفسوحاً لبعض المخلوقات في

(١) سورة المائدة : الآية ٦٤ .

أن تصول وتجول لأيام لا تطول ، فإنّ ذلك لا يعني أن زمام الأمور قد أفلت من يد الله وهو لا يستطيع سبحانه أن يمنعهم ، وإنما هي إرادته قد اقتضت إعطاء المجال للإنسان فترة من الزمن لكي يظهر فيها حقيقة نفسه . فإذا تسلّط الطواغيت على الناس فلا ينبغي أن يخطر في البال أنهم معجزون لله سبحانه ، لأنه تعالى بإرادته قد أعطاهم المجال ليختبرهم من ناحية ، وليختبر مجتمعاتهم من ناحية أخرى ، فهم بإذن الله يعملون ولو لم يأذن الله لهم لأهلكهم كما أهلك النمرود بحشرة ضئيلة ، فلا ينبغي أن يتصوّر أحد أن هؤلاء قد غلبوا الله سبحانه ، كما تخيل اليهود أن يعقوب قد غلب الله وطرحه أرضاً ، وخاف الله أن يسفر الصبح فيشتهر أمره بين الخلق ، لذلك أعطى ليعقوب ما أراد ، فحقّق يعقوب لنفسه وبقوّته ما أراده من الله !! .

كلّا ، فالقرآن يعتبر العالم بأجمعه ملكا خالصاً لله ، ولا يمكن أن يقع فيه شيء من دون إذنه ، فالله هو الذي جعل للنار ميزة الإحراق ، وللشمس خاصيّة الإشعاع ، وهو الذي أذن للسحاب أن ينزل مطراً وللبذور أن تنمو نباتاً .

ولا يفوتنا في هذا المضمار الإشارة إلى تعبير ورد في القرآن يتعلق بالإذن حيث يقول تعالى :

﴿ والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾[1] .

فنحن نفهم كيف يكون فعل الآخرين منوطاً بإذنه تعالى ، ولكن ما معنى أن يكون فعله تعالى منوطاً بإذنه ؟

نحن نلاحظ مثل هذا التعبير في المحاورات العرفية ، فإذا سألت شخصاً : بإذن مَن خرجت من بيتك ؟ أجابك : بإذن نفسي . فما معنى هذا ؟ معناه أنّ خروجه لم يكن بإذن أيّ أحدٍ آخر . ونظير هذا التعبير الشائع في الفلسفة :

واجب الوجود بالذات ، وذلك في مقابل واجب الوجود بالغير ، ومعناه

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢١ .

وجوب الوجود بسبب الذات ، بينما الذات ليست علّة لوجوده ، بل لا مجال للعلّية بين الذات والوجود لأنه لا تعدّد ههنا ، والوجوب إنّما هو تأكّد للوجود ، إذن واجب الوجود بسبب الذات يعني أنه لا بالغير . والله سبحانه يقول في هذه الآية إنه يدعو إلى الجنة بإذنه لا بإذن غيره ، وهو في الواقع تأكيد على أن الله في أفعاله لا يحتاج إلى إذن أحد غيره ، وإنما الآخرون هم المحتاجون في أفعالهم إلى إذنه سبحانه .

فمن مجموع هذه الآيات يمكن الاستنباط أن إحدى مراحل تحقق الأفعال الإلهية بعد العلم هي الإذن للفعل الإلهي ، سواء أكان صادراً منه بلا وساطة أم بوساطة شيء آخر .

وبعض الأشياء التي تعلّق بها الإذن التكويني تتمتع بإذن تشريعي أيضاً ، كالأفعال الواجبة والمستحبة والمباحة الصادرة من الإنسان ، أما أفعاله المحرمة والمخالفة للقانون فلها إذن تكويني ، لكنها محرومة من الإذن التشريعي .

والإذن مفهوم انتزاعي ، أي أن العقل عندما يلاحظ أن هذه الأفعال لو كانت صادرة من دون رضى الله لأصبح الله سبحانه مغلوباً لعامل آخر ، ولّما كان الله لا يغلب ولا يؤثّر عليه شيء ، إذن كل شيء في الوجود لا بدّ أن يكون صادراً بإذنه ، ولو لم يأذن لم يوجد ذلك الشيء ، ومن هنا فإن العقل ينتزع مفهوم الإذن .

المشيئة والإرادة :

وبعد الإذن يصل الدور إلى المشيئة والإرادة ، ويستعمل هذان اللفظان في اللغة العربية بصورة مترادفين ، وهناك آيات تقول :

﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾[1] .

﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾[2] .

• وفي بعض الآيات استعملت المشيئة فقط ، وفي البعض الآخر استعملت

---

(١) سورة الحج : الآية ١٨ .

(٢) سورة الحج : الآية ١٤ .

الإرادة فقط ، فهما إما أن يكونا مترادفين أو متقاربين في المعنى .

والفرق بينهما إذا استعملا معاً في بعض المجالات هو أن المشيئة تطلق على مرتبة متقدّمة على الإرادة ، فنحن عندما نريد القيام بفعل قد لا تكون مقدّماته متوّفرة لنا ، أو لا نرى من المصلحة أداؤه، فهنا توجد المشيئة ، ولكن الإرادة لم تتحقّق بعد . والعقل يستطيع أيضاً أن ينتزع هذين المفهومين من الفعل الإلهي ، فينتزع المشيئة من مرحلة والإرادة من مرحلة أخرى ، وليس لهذه المفاهيم ما بإزاء في الخارج ولا ترتّب بينها في الخارج ، فلا يطرأ شيء على الذات الإلهية يسمى الإذن ثم شيء آخر يسمى المشيئة ، وبعد ذلك شيء ثالث يسمى الإرادة ، لأن الذات الإلهية المقدسة ترفض أي تغيير .

أما كيفية انتزاع المشيئة فهي عندما نتساءل : أيمكن أن يتحقق فعل في الخارج من دون أن يشاءه الله ؟

أي أيمكن أن يوجد مع أنه في حالة استواء بالنسبة إلى الله ، لا أنه قد شاءه ولا أنه لم يشأه ؟

والجواب : كلّا ، لأنه يلزم منه أن يخرج ممكن الوجود من حالة الاستواء من دون استناد إلى فاعل ، والعقل يرفض هذا ويقول لا بدّ أنه قد شاءه ثم وجد . وهذا المعنى أدّق من موضوع الإذن ، فهاهنا لا يكفي عدم المانع بل لا بدّ من الإجازة بالتحقّق ، بل أكثر من هذا لا بدّ من وجود رغبة في تحققه تقتضي وجوده على أساس مصالح العالم .

ومن الآداب الشائعة بين المسلمين أنهم عندما يتحدّثون عن المستقبل فإنهم يقرنون حديثهم بقولهم ﴿ إن شاء الله ﴾ وهذا مقتبس من قول الله تعالى لنبيه الكريم :

﴿ ولا تقولنّ لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غداً * إلاّ أن يشاء الله ﴾[1] .

فهل تعلم أنت ما يحدث غداً ؟

(١) سورة الكهف : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

لعلّ مشيئة الله قد تعلّقت بشيء آخر ، مثلاً تعزم على السفر غداً وتحضر في الوقت المحدّد إلى المطار، ولكنه يعلن عن تأخير الموعد المقرّر ، إذن ليس كل شيء تحت اختيارك ، وهل حياتك بيدك ؟ إنك لا تعلم بعد ساعة هل أنت من الأحياء أم لا ، فالموحّد لا يسمح لنفسه بالتصميم على شيء مستقلاً ، ولا يعني هذا سلب الاعتماد من النفس ، فعلم النفس يؤكّد أنه لا بد للإنسان من أن يكون معتمداً على نفسه لا على الآخرين ، أي يجب عليه أن يتمتع بجرأة الإقدام على العمل ، ولا ينتظر الآخرين لكي يعملوا له ، وكل من لا يكون كذلك فإنه سيتأخر عن الركب ويسبقه الآخرون ، أما مسألة الاعتماد على الله والتوكّل عليه فهو شيء آخر أرفع من كل ما مرّ ، فهو لا يعني أنه لا يعتمد على المخلوقين فحسب ، وإنما هو لا يعتمد على نفسه أيضاً ، بل عيناه شاخصتان إلى الله المسيطر على الناس والقوى الطبيعية ، ولهذا فإن هذا الاعتماد يوجد في نفسه قدرة أعظم وطاقة أكبر ، فأنا مثلاً مهما كان عندي من اعتماد على النفس فإن لي قوة محدودة لا توصلني إلاّ إلى مدى معين ، ثم أفقد الأمل ، وحتى إذا اعتمدت على الآخرين فإن قدرتهم لا بدّ أن تصل إلى مجال تتوّقف فيه عن التقدّم ، أما الذي يعتمد على القوة الإلهية اللانهائية فهو لا يفقد الأمل أبداً ، لأنه لا وجود لقوة تصمد أمام القوة الإلهية ، فالتوّكل إذن أرفع من الاعتماد على النفس ، وإذا أراد المسلم أن يعمل شيئاً فإنه يقول ﴿ إن شاء الله ﴾ واثقاً من قوله تعالى :

﴿ وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ﴾[1] .

فالله شاء أن نشاء نحن فمنحنا الاختيار وحريّة الفكر والعمل ، فإذا أردنا أن نعمل فلا بدّ أن تتّجه قلوبنا إلى الله ليمنحنا التوفيق فيه ولِيُنجِح خططنا .

وهناك سؤال يتعلق بالمشيئة هو :

هل تتعلق مشيئة الله بالأفعال المحرّمة التي يقوم بها الإنسان ؟

(١) سورة الإنسان (الدهر) : الآية ٣٠ .

الجواب : أجل إنّ المشيئة التكوينية تتعلق بأفعال الإنسان غير القانونية ، أي عندما يريد الله أن يوجد مخلوق مختار يسمى الإنسان فإنّ من لوازم الاختيار أنه يختار أحياناً المعصية ، إذن معنى هذا أن المعصية من جهة اختيار الإنسان لها قد تعلقت بها المشيئة الإلهية التكوينية الشاملة لكل شيء .

ويبقى علينا في خاتمة المطاف أن نشير إلى كيفية انتـزاع بمفهوم الإرادة ، فنحن نستعمل الإرادة في أفعالنا للدلالة على التصميم القطعي على الإقدام ، فتأمر النفس العضلات فتتحرّك وتنجز العمل ، والله سبحانه أيضاً إذا لم يأمـر فإنّ أي شيء لا يوجد ، ومن هنا ننتزع مفهوم الإرادة الإلهية .

وخلاصة ما مرّ أننا نستفيد من الآيات والروايات أنّ جميع ما في الوجود قد تعلّق به الإذن والمشيئـة والإرادة التكوينيـة الإلهية ، أمـا بالنسبـة للإنسـان والمخلوقـات التي تتميز بـالأفعال الاختيـارية مثله فـإن الإذن والمشيئة والإرادة التشريعية أيضاً تجري بشأنها وتتعلق بأفعالها الحسنة .





ويعدّ أحد مراتب الفعل الإلهي ، وينتزعه العقل من علاقة المخلوقات بموجدها ، وتأتي مرتبته قبل « القضاء » ، وهذا الترتّب بينهما عقلي وليس زمانياً .

وتعتبر مسألة « القضاء والقدر » من المواضيع المعقّدة المفصلة في الإلهيات ، وهي لا تختصّ بالعلماء المسلمين وإنما تتناولها جميع الأديان والمذاهب ، والحديث طويل ومتشابك في هذا الموضوع بحيث حمل بعض العلماء على إظهار العجز عن الوصول إلى نتائج محدّدة . ومن ناحية أخرى فقد ورد في بعض الروايات النهي عن التفكير في هذا الموضوع وجاء في روايات أخرى توضيح للقضاء والقدر ، وهذا يدّل على أن التعمق في هذه المسألة ليس ممنوعاً مطلقاً ولا مجازاً مطلقاً ، بل الناس يتفاوتون ، فالذين لا يتمتعون بالقدرة على التفكير العميق والتحليل العقلي لا ينبغي لهم أن يورّطوا أنفسهم في هذه المواضيع الدقيقة المعقّدة ، لأنها تؤدّي بهم إلى الحيرة والتمزق . وقد ورد في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين علياً (ع) سئل عن القدر فأجاب : « طريق مظلم فلا تسلكوه ، وبحر عميق فلا تلجوه ، وسرّ الله فلا تتكلّفوه »[1] . ولكن الإمام علياً (ع) نفسه ـ في أماكن أخرى ـ وسائر الأئمة (ع) يجيبون بالتفصيل على هذا السؤال .

---

(١) نهج البلاغة ـ تعليق الدكتور صبحي الصالح ـ ص ٥٢٦ .

وعلى أيّ حال فالمسألة معقّدة ، وكلّما طرحت للبحث كانت مغلّفة بلون من الغموض والإبهام . والإشكال الأساسي في هذا المجال هو أنّ قبول القضاء والقدر يلزم منه الجبر ، ولم يستطع هؤلاء الجمع بين القضاء والقدر واختيار الإنسان ، فبعض أنكر اختيار الإنسان مطلقاً والتزم بالقضاء والقدر ، وقد نقل هذا الرأي عن بعض العلماء المسلمين الذين يطلق عليهم اسم « المجبّرة » (وهم القائلون بالجبر في علم الكلام) والأشاعرة الذين ينتسب إليهم الغزالي والفخر الرازي . ولسنا ندري هل هذه النسبة صحيحة أم لا ؟ وكيف يعتبر الإنسان مجبوراً من آمن بالإسلام واعتقد بالقرآن ، بل إن الإيمان بالدين لا ينسجم أساساً مع الجبر بمعناه الفلسفي الدقيق ، ولهذا فنحن نتردّد في نسبة هذا الأمر إلى هؤلاء العلماء .

واندفع البعض الآخر إلى القول باختيار الإنسان منكرين القضاء والقدر ، أو مؤوّلين لهما بشكل لا يتنافى مع الاختيار ، ولهم في ذلك أساليب مختلفة : فمنهم من قال إن القضاء والقدر واقعيّان ولكنهما يختصان بشؤون الإنسان غير الاختيارية ، ومعنى هذا أنهم قبلوا كون القضاء والقدر مستلزمين للجبر ، إلاّ أنهم قصروهما على الشؤون الجبرية للإنسان . أما الأمور الاختيارية فلها مجال آخر ، وهي خارجة عن منطقة نفوذ القضاء والقدر . وبهذا الشكل جمعوا بين الأدلة المثبتة للقضاء والقدر ، والأدلّة المثبتة للاختيار فقالوا : إن الأولى ناظرة إلى الظواهر غير الاختيارية والثانية متعلقة بالشؤون الاختيارية .

ومنهم من فسر القدر بعلم الله بمقدار الأشياء ، وقالوا إن العلم لا يتنافى مع الاختيار . ومن الواضح إن إحدى شبهات الجبريّين تتعلق بعلم الله ، فإن كان الله عالماً من قبل بكل ما سوف يقع فإن جميع الحوادث ستقع بتلك الصورة التي يعلمها الله ، وإلا أصبح علم الله جهلاً ، وهناك بيت من الشعر مشهور في اللغة الفارسية مضمونه : أنا شرّاب خمر ، وشربي الخمر يعلمه الله منذ الأزل ، فلو لم أشربه كان علم الله جهلاً .

والجواب عن هذه الشبهة أمر يسير . ولهذا فإن هؤلاء فسّروا التقدير

بعلم الله ، فالله يعلم بكل ما سوف يقع ، ولكن علمه لا يستلزم نفي الاختيار عنّا . وفسروا القضاء بأنه حكم الله وهو لا يستلزم الجبر ، فإن القاضي عندما يصدر حكمه فإنه لا يسلب اختيار أحد من المتحاكمين . إذن هؤلاء حاولوا الفرار من القضاء والقدر بتفسيرهما بهذا الشكل .

ونحن لو حاولنا تناول هذا الموضوع بشكل فلسفي أو كلامي لكان من اللازم علينا فحص جميع الأقوال والأدّلة والشبهات المذكورة في هذا المضمار ، وهو يتطلب جهداً ضخماً ووقتاً طويلاً ، دون أن نظفر من ذلك بعائد يساوي هذا العناء المجهد ، ولهذا فنحن نحاول أن نتناول هذه المسألة ـ مثل سائر المسائل المطروحة في باب معرفة الله ـ ونحلّ مشكلاتها على أساس البيان القرآني .

ونبدأ بتوضيح لمفهوم القدر والتقدير ، ثم نستعرض الآيات الواردة في هذا المضمار ، ونشير في خاتمة المطاف إلى النتائج الحاصلة من التفسير والتحليل .

أما المفهوم اللغوي للتقدير فهو مصدر من باب التفعيل ، ويأتي مصدره الثلاثي المجرّد بشكلين هما « القَدْر » بتسكين الدال و « القَدَر » بتحريكها .

وله أحد معنيين : أولهما الأخذ بعين الاعتبار مقدار الشيء أو نسبة المقدار لشيءٍ ما ، وثانيهما إيجاد المقدار في شيءٍ ما . وسوف نذكر فيما بعد أنّ كلا المعنيين مقصود في هذا البحث ، أحدهما التقدير العلمي (العلم بمقدار الشيء) وثانيهما التقدير العيني وهو إيجاد الشيء بمقدار معين . ومن المناسب أيضاً أن نشير إلى أن كلمة القدْر التي هي بمعنى المقدار تستعمل أحياناً بمعنى الشرف والمنزلة الرفيعة ، ومن هنا قال بعض المفسّرين إن معنى ليلة القدر هو ليلة الشرف . ولكن الحقيقة هي أن الشرف لازم للقدر في بعض الموارد ، وإلا فإن الشرف ليس جزءاً من معنى القدر . فقدر الإنسان ـ مثلاً ـ هو مقدار ما يتمتع به من وضع اجتماعي وقد يكون شريفاً وقد يكون منحطّاً ، ولكننا قد نعبّر أحياناً فنقول : « لم يراع فلان قدْر الأنبياء » أي منزلتهم الرفيعة ، فهذا

المقام الرفيع خاصّية المصداق وليس جزءاً من المفهوم ، فلأنه استعمل بحقّ الأنبياء (ع) والأنبياء يتمتعون بمنزلة رفيعة كان للّفظ هذا المعنى .

ثم نستعرض بعد هذا بعض الآيات المتعلّقة بموضوعنا ، ومن فوائد دراسة هذه الآيات أننا نعرف في أيّ الموارد يستعمل التقدير ، هل يستعمل في الأمور غير الاختيارية فحسب ، أم هو شامل للأمور الاختيارية أيضاً ؟

ولا ينبغي للمرء أن يبحث الموضوع غيابيّاً ، فيكوّن لنفسه رأياً دون أن يرجع إلى القرآن الكريم لينظر في أيّ الموارد قد استعملته الآيات ، فيقول مثلاً إنّ القدر للموارد غير الاختيارية ، ولو أنه استفتى القرآن لوجده يستعمله في الأمور الاختيارية أيضاً ، ولتبين له أنه قد أفتى من دون تحقيق ، ولهذا كان من الأفضل ذكر بعض الآيات الورادة في هذا المجال ، قال الله تعالى :

﴿ وخلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديراً ﴾[1] .

فكما أن كلّ شيء مخلوق لله فهو أيضاً مشمول للتقدير الإلهي .
ويشبهه قوله تعالى :

﴿ وإنّا كلَّ شيء خلقناه بقدَر ﴾[2].

فهاتان الآيتان تتميّزان بالعموم الشامل لكل شيء ، وصحيح أن العام قابل للتخصيص بدليل قطعي ، ولكنه لا وجود لهذا الدليل حتى نقول بأنه مخصص . بل هناك شواهد تدّل على شمول التقدير لكل شيء ، وذلك بالنص على موارد متعدّدة منه ، مثلاً في مورد الشمس يقول الله سبحانه :

﴿ والشّمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[3] .

ما هو المقصود من جريان الشمس في هذه الآية ؟

هل هو جريانها ـ الذي يبدو للناظر سطحيّاً ـ من المشرق إلى المغرب ؟ أم

(١) سورة الفرقان : الآية ٢ .

(٢) سورة القمر : الآية ٤٩ .

(٣) سورة يس : الآية ٣٨ .

هو حركتها في المجرّة ، وقد ثبت اليوم علميّاً أن للشمس ومجموعتها حركة خاصّة في مجرتنا ؟

إن الآية لا تدّل على أحدهما بشكل قاطع ، وليس لها أيّ أثر على موضوع بحثنا ، فالآية الكريمة تثبت حركةً للشمس ثم تقول إن هذه الحركة هي من تقدير الله .

ونظير هذه الآية قوله عزّ وجل :

﴿ والقمرَ قدّرناه منازلَ حتى عاد كالعُرجُون القديم ﴾(1) .

والعرجون هو عود عِذْق النخلة ، وعندما يجفّ فإنه يصبح كالهلال .

ويشمل التقدير الإلهي ظواهر أخرى منها نزول المطر ، قال تعالى :

﴿ وأنزلنا من السماء ماءً بقَدَر ﴾(2) .

يعني إذا تأملنا في مقدار الماء الموجود على الأرض والذي تبخّره الشمس ، ثم يعود إلى الأرض مرة أخرى بفضل المطر وجدناه مقداراً محسوباً ، فلو كان مقدار المطر النازل من السماء كل عام يفوق هذا المقدار المعين عدّة مرات لغرقت الأرض في الماء ، وتهدّم كل بناء ، ومات كل زرع ، واندفعت السيول في كل ناحية مكتسحة كل شيء ، ولتحولت الأرض إلى مكان لا يمكن السكنى فيه . ولنتأمل في كيفية نزول المطر فهو يهطل قطرة فقطرة ، ولو كان بغير هذه الصورة لأهلك الزرع ، فهذا كله محسوب له حسابه ، والله سبحانه يقول : نحن ننزل المطر من السماء بمقدار وحساب .

وهناك آية تتحدّث عن الطعام في الأرض :

﴿ وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام ﴾(3) .

وتقول رواية مذكورة في تفسير علي بن إبراهيم : إنّ المقصود من أربعة أيام هو فصول السنة الأربعة ، ولما كان سند الرواية غير معلوم الصحة لهذا

(1) سورة يس : الآية ٣٩ .
(2) سورة المؤمنون : الآية ١٨ .
(3) سورة فصلت : الآية ١٠ .

نعطي مضمونها قيمة احتمالية فقط . ولعل المقصود هو أربع مراحل زمنية مرّت على الأرض وقدّرت فيها أقواتها ، وعلى أيّ حال فإن ذلك قد تمّ بالتقدير الإلهي . فلهذه الفصول أو المراحل الزمنية علاقة بتوفير المواد الغذائية في الأرض ، وهذه العلاقة قد عيّنها الله تعالى وحدّد مقدارها .

إلى هنا ذكرنا التقدير المتعلق بالأمور العامة ، وهو يستعمل أيضاً في الحوادث الخاصّة الجزئية ، مثلاً :

١ ـ قصة طوفان نوح ، فبعد أن أنفق نوح (ع) (٩٥٠) عاماً من عمره في الدعوة إلى دين الله والتخويف من عذابه ، فإن قومه لم يستجيبوا له ، إلا بعض الأفراد ممن لا يتجاوز عددهم العشرات ، وأخيراً فقد نزل العذاب وكان بصورة طوفان هائل ، فبدأ المطر ينزل من السماء بغزارة ، وأخذ الماء ينبع من الأرض بتدّفق حتى غطى الماء المنطقة كلها ، والتقى ماء المطر بماء الأرض ، ولم ينج شيء من الماء سوى سفينة نوح وما فيها ومن على سطحها ، ويتحدّث الله سبحانه عن هذا الأمر فيقول :

﴿ **فالتقى الماء على أمر قد قُدِرَ** ﴾[1] .

أي أن هذا الماء بهذه السعة أيضاً قد حسب له حسابه .

إذن القدر يستعمل للأمور الخاصة ولا يختص بالأمور العامة ، وهذا يدحض قول القائلين إن التقدير يعني القوانين العامة للطبيعة ، أو سنن الوجود الكلّية ، فقد استعملت الآية التقدير في الموارد الجزئية .

كل ما مرّ معنا حتى الآن هو التقدير المتعلق بحركة الشمس أو القمر أو نزول الماء من السماء أو تدفقه من الأرض ، وكل هذه لا علاقة لها بأفعال الإنسان الاختيارية ، والتقدير في هذه المجالات لا ينشأ منه أيّ إشكال ، وهنا نتساءل :

هل يمتدّ التقدير ليشمل الأفعال الاختيارية للإنسان ؟

---

(١) سورة القمر : الآية ١٢ .

وهل تكون مشمولة لعموم الايات التي دكرناها في مطلع هـدا البحث **﴿ خلق كلّ شيء فقدّره تقديراً ﴾** ؟

وهل توجد آية تستعمل التقدير بالنسبة للأفعال الاختيارية ؟

الجـواب : نعم ، تستعمل الآيـات التقـديـر في مـورد أفعـال الإنسـان الاختيارية منها :

٢ ـ قصـة موسى (ع) : فنحن نعلم أن مـوسى (ع) بعد حـادثة النـزاع الذي جرى بـين الإسرائيليـين والقبطيّـين ، وأدّى إلى قتل واحـد من الأقباط المؤيدين لفرعون على يد موسى (ع) ، فقد خرج مـوسى من مصر ميمّماً تلقـاء مدين التي كان يسكنها شعيب (ع) ، وهو نبيّ تلك المنطقة ، وبعـد أن أجهد موسى تعب الطريق الطويل الذي يفصل مصر عن مـدين ، وصلها جـائعاً لم يتناول خلال أيام السفر سـوى أعشاب الصحـراء التي يصادفهـا الماشي أثنـاء رحلتـه ، وكانت عـلى مشارف مـدين آبار يقصـدها أهـل المدينـة ليرووا منهـا أغنامهم ، فالناس الأقوياء يسبقون غيـرهم ويفسحون المجـال لأغنامهم لكي ترتوي حتى تكتفي ، ثم يأتي الناس الضعفاء أو من ليس لأغنامهم راعٍ ، فإذا وجدوا فضلة من الماء قد زادت على حاجة الأولين فإنهم يتحفون بها أغنامهم . وفي هذه الأثناء وصل موسى (ع) وجلس مستظلاً تحت شجرة من الأشجار ، فلاحظ فتاتين تتّسمان بالحياء قد وقفتا جانباً مع أغنامهما ولا تتقدمان نحو الماء ، فنهض موسى متّجهاً نحـوهما وسـألهما عن سبب تـوقفهما عن إرواء أغنـامهما ، فأجابتا : ليس عندنا راعٍ لها ، ولا نستطيع منافسة الـرعاة الأقـوياء ، ولهـذا فنحن ننتظر حتى يروي هؤلاء أغنـامهم فنأخـذ ما تبقى من المـاء لنطفىء بـه عطش أغنامنا . فأثار هذا الموقف أريحيّة موسى (ع) فمع أنه كان جائعاً مصاباً بالضعف فقد أسرع إلى بئر وتناول الدلـو وملأه مـاء ثم ناداهمـا : هيا اسقيـا أغنـامكما . وتـدّل هذه المبـادرة من موسى عـلى أنه كـان يتمتع بقـدرة بـدنيـة ضخمة ، فمع أنه كان تعباً جائعاً ولكنه أقدم على عمل ليس باليسـير ، وهذا أمر مثير للإعجاب . فتقدّمت الفتاتـان ورونا أغنـامهما من المـاء ثم عادتـا إلى بيتهما ، فاستغـرب أبوهمـا من عودتهـما اليوم مبكـرتين ، فقصّتـا عليه كـل ما

جرى ، وأغرقتا في الثناء على ما يبدو من موسى (ع) من مروءة وطهارة وعفة ، واقترحت إحداهما على الأب : أولاً أن يعطيه أجر وجزاء هذا العمل ، ثانياً أن يستخدمه لـرعي الأغنام وسقـايتها . فـأمرهـا الأب أن تبحثا عن الشـاب ، والقرآن الكريم يقول في هذا المجال :

﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيـك أجر ما سقيت لنا ﴾[1] .

فامتثل موسى ، لأنه قد وصل توّاً من سفر قد نال منه ما نال ، وهو فارّ من وطنه ولا يملك بيتاً هنا يأوي إليه ، وفجأة تعرض عليه هذه الدعـوة فإنـه يلبّيها ـ لا محالة ـ منتظراً ماذا يفعل الله به ، ولما جـاء إلى شعيب (ع) وحدّثـه بقصته والحوادث التي جرت عليه أمّن عليه شعيب واقترح عليه :

﴿ إنّي أريد أن أُنكِحك إحدى ابنتيَّ هاتين على أن تأجُرني ثمانيَ حِجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾[2] .

فرضي موسى بهذا العرض المغري ، وبقي عنده المدّة التي اتّفقا عليها ، فلما انتهت استـأذن شعيباً في أن يصـطحب زوجه إلى مسقط رأسـه ، وخلال مسيره مرّ بـوادي الطور ، وكـان ظلام الليـل قد خيّم عـلى الأفق ، وأحست الزوج بألم المخاض في هذه الصحراء الموحشة الخالية ، وكان البرد قـارصاً ، فتسلل الاضطراب إلى قلب موسى ، ماذا يعمل في هذا الجوّ البارد المظلم ولا يوجد من يعينه ؟ فقال لزوجه : امكثي قليلاً وأنا ذاهب لأفتّش هنا وهناك لعلّي أجد ناراً تستدفئين بها ، وحينئذٍ شاهد ناراً في الجانب الأيمن للوادي ، أي في جبل طور سيناء ، فتخيّل أن هناك رعاة قـد أوقدوا نـاراً فقصدهم ليستعـين بهم ، فلما اقترب وجد أنه نور عجيب يتلألأ من شجرة ، فبهت موسى من هذا الأمر غير المتوّقع ، وفجأة سمع صوتاً أغرقه في بحرٍ من الاستغراب :

﴿ إنّي أنا الله ربُّ العالمين ﴾[3]

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٢٧ .

(٣) سورة القصص : الآية ٣٠ .

إنه نداء يصل إليه من كل جانب ، ولكنه كان من الواضح أن له علاقة خاصة بهذه الشجرة ، ثم يعلم من الصوت أنه قد أصبح نبياً ، وهو مكلّف بالذهاب إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى الحق . إذن قصد موسى الشجرة باحثاً عن نارٍ ، ولكن الذي ظفر به هو الوحي الإلهي والنبوة ، والتكليف بإنقاذ بني إسرائيل من ظلم فرعون ، إنه أمر لم يتوقعه موسى ولم يهدف إليه ، وإنما كان يبحث عن شيء آخر ، فوجد هذا ، وعندما يتحدث القرآن عن هذه المرحلة من حياة موسى (ع) فهو يقول :

﴿ فلبثتَ سنين في أهل مدين ، ثم جئت على قَدَرٍ يا موسى * واصطنعتك لنفسي * اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تَنِيا في ذكري * اذهبا إلى فرعون إنّه طغى ﴾[1] .

فأنت يا موسى لم تجيء إلى هذا المكان صدفة بل جئت بحساب ودقة ، فلهذا كان عليك أن تخرج من بلدك وتصل إلى هذا المكان لتتلقّى الوحي من جانب الطور الأيمن .

فهذا تقدير يتعلق بأعمال الإنسان الاختيارية ، فالمشي والسفر وما يتعلق بهما أمور اختيارية للإنسان لم يجبر عليها ، ولكن هذه جميعاً قد أدّت إلى نتيجة لم يحسب موسى لها حساباً ، ولم يجعلها له هدفاً ، فالله سبحانه رتّب الأمور ونظّم الحوادث بحيث يصل موسى (ع) في هذه الليلة إلى هذا المكان فيصبح نبياً :

﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ .

٣ ـ ونظير هذا ما حدث في غزوة بدر ، فالمسلمون كانوا يقصدون إلى الانتقام من قريش ، واسترجاع ما نهبوه منهم من أموال ، فصمموا على الهجوم على قافلة قريش التجارية التي يشرف عليها أبو سفيان ، والتي كانت عائدة من الشام إلى مكة ، ولكن الحوادث تنتظم بشكل لم يتوقعه أحد . فقافلة أبي سفيان تتجاوز آبار بدر ، ويستقرّ المسلمون قرب هذه الآبار ، وتصل الأنباء إلى قريش في مكة فتجهز جيشاً ، ويقفون في هذه المنطقة وجهاً لوجه . وما كانت

---

(١) سورة طه : الآيات ٤٠ ـ ٤٣ .

للمسلمين نية الحرب مع قريش ، وإنما كانوا يقصدون مباغتة القافلة وأخذ أموال منها بعنوان المقاصّة مع الأموال التي نهبتها قريش منهم ، ولكن الله سبحانه كان قد قدّر شيئاً آخر . فقد كان من المقدّر أن تقع حرب بينهما في منطقة بدر وينتصر فيها المسلمون الذين لا يحسدون في ذلك الوقت ، لا من حيث العدد ولا من حيث العدّة ، وهم يواجهون عدّواً قويّاً مجهزاً . فالمواجهة المسلحة لا بدّ أن تقع ، ولكن المسلمين لم يحسبوا حسابها ، بل ولم يتصوّروها ، ويتحدّث القرآن الكريم عن هذه الواقعة قائلاً :

﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾[1] .

فحركة المسلمين عمل إنساني اختياري ، يقصدون من ورائه مباغتة قافلة تجارية ، ولكن الحوادث تقع وتتوالى بشكل غير متوّقع ، فالتدبير الإلهي كان قد خبّأ لهم حرباً ينتصر فيها المسلمون .

إذن : إلى هنا تبيّن لنا أنّ التقدير الإلهي لا يقتصر على الأمور غير الاختيارية والأشياء العينية ، بل ويشمل أفعال الإنسان الاختيارية أيضاً .

ويثار في هذا المجال سؤال يقول :

إذا كان كل شيء مشمولاً للتقدير الإلهي فإن الإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئاً مخالفاً لذلك التقدير ، ألا يعني هذا أنه قد أصبح مجبراً وأنّ الجبرية أمر لا مفر منه ؟

قبل الجواب لا بدّ من ذكر مقدّمة له ، وهي أنّ كل ظواهر هذا العالم ـ في أيّ مكان كانت ، وفي أيّ زمان وجدت ، وتحت ظلّ أيّ شروط تحققت ـ فهي ملازمة للحدود والقيود . فإذا تأملنا في عالم الطبيعة لم نجد فيه شيئاً بلا حدود ولا قيود ولا مقدار ولا شرط ، بل كل شيء منها له حدّ ينتهي إليه ، ومقدار يختص به ، وشروط لا يوجد بدونها . فمن الكرات السماوية الهائلة الحجم إلى أصغر مكونّات الذرّة كلها تتميز بهذه الخاصّية وهي أنّ لها حدّاً ، فهي محدودة

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .

من حيث الحجم والبعد صغيرة أو كبيـرة ، ومحدودة من حيث الـزمان وطـول عمرها ، فلا وجود لظاهرة في هذا العالم تتمتع بعمر لا نهائي وإنما هي تستمر إلى « أجـل مسمى » حسب تعبير القـرآن . وكـذا القيـود والارتبـاطـات بـين الظواهر ، فلا توجد في هذا العالم ظاهـرة منفصلة ومقطوعـة الصلة بالأشيـاء الأخرى . ونظيـره شكل وخـواصّ وأعراض الأشيـاء ، فلكل شيء أعـراض ومشخّصات معينة . ونـذكر وجودنا مثـالاً على ذلـك ، فوجـود الإنسان ليس وجوداً غير محدود ، والنوع الإنساني ليس أزلياً ولا أبدياً كما كان يتصوّر بعض الفلاسفة الماضين ، بل قد وجد في مرحلة تاريخية معينة ، إذن من حيث الزمان هو محدود ، أي أن هناك زماناً قبل ذلك لم يكن فيه الإنسان موجوداً . وكذا من حيث المكان ، فقد وجد في مكان خاص هو الكرة الأرضية ، ولا شك أنه غير موجود في كثير من الكرات الأخرى ، ولكن هذا لا ينفي احتمال وجود الإنسان أو أحياء أخرى في بعض الكرات ، ويتردّد العلماء في إثبات شروط الحياة فيها ، ولهذا فإنّ أغلبهم يؤكّـد خلوّها من الأحيـاء . فالإنسـان لا بدّ أن يعيش عـلى الأرض ، ولا يستطيع الحياة في القمر أو في المشتري أو في زحل ، فهو إذن من حيث المكان محدود أيضاً . وأعضاء الإنسان وأجهزته محدودة أيضاً ، فلكل منها حدّ خاص من حيث الحجم والموقع : للعين حجم معيّن يكبر قليلاً أو يصغـر قليلاً ، ولكنه معـيّن من حيث المجموع ، فـلا وجود لعـين بحجم الأهرام . وكذا قلب الإنسان وسائر أعضائه وجوارحه فهي جميعاً محدودة من حيث الحجم ومن حيث الموقع ، فالعين لا تقع في الرجل بل لا بـدّ من كونها في الـرأس ، والقلب لا يحلّ في الجمجمة بل لا بدّ من كونه في الصدر . وكذا الأعمال التي تصدر منّا ، فهي لا يمكن أن تكون بلا قيد ولا شرط ، فكل عمل لا بدّ أن يتمّ عن طريق عضو خاص وجهاز معين ، وضمن شروط وقيود ، فنحن لا نستطيع أن نرى بوساطة آذاننا ، بل لا بدّ أن تتمّ الرؤية بوساطة العين ، ولا يمكننا أن نسمع عن طريق الفم ، بل لا بدّ من أن يكون ذلك عن طريق الأذن ، فكل عضو يقوم بفعل معيّن ، ولا ينتظر من أحد الأعضاء أن يقوم بـوظائف عضـو آخر ، وهذا يعني أنّ أفعالنا محدودة . وحتى هذا الفعل الذي لا بدّ أن يصدر من جهـاز خاص نـراه أيضاً مقيـداً بحدود ، فعيـوننا لا يمكنهـا رؤية الأشيـاء

الضئيلة جداً . والشيء الذي نراه عادة لا نستطيع رؤيته أيضاً في كل وقت ، بل لا بد من توفّر مقدار من الضوء كاف للرؤية ، ولا بدّ أن يكون بعد الشيء المرئي ضمن حدود معينة حتى يرى ، وكلما ابتعد فإنه يصغر حتى يصل إلى حدّ لا يمكن رؤيته فيه ، مثلاً : عندما تحلق الطائرة في الجو فإن الحافلات ترى منها وكأنها بحجم لعب الأطفال ، ثم تتضاءل كلما شهقت الطائرة حتى تختفي عن رؤية الإنسان . وكذا قدرة الإنسان على السمع فهي محدودة بأبعاد معينة . ونظيره تناول الإنسان للغذاء ، فهو لا يمكنه تناوله إلا عن طريق الفم ، وهو لا يستطيع ـ مثلاً ـ أن يأكل الحجر ولا العظام ، إذن جهازه الهضمي محدود ، وهو لا يستطيع أن يأكل من دون انقطاع ، بل لا بدّ أن يكون جائعاً ويشتهي الطعام . وكذا تنفسه ، فهو لا يستطيع أن يتنفّس عن طريق العين ، بل لا بدّ أن يكون عن طريق الجهاز التنفسي ، ولا بدّ أن يكون في الجو الذي يتنفس فيه الإنسان نسبة معينة من غاز خاص ولا بد أن تقع الرئتان في مكانهما المعين وو. . . حتى نصل إلى الخلايا التي يتكون منها كل بدن الإنسان . إذن : أعضاء الإنسان وأنسجته وأجهزته كلها تعمل ضمن حدود وقيود وهي لا تتجاوزها . مثلاً : من أعمال الإنسان الاختيارية التكلم ، وهو يتصوّر لأول وهلة أنه غير مشروط بشيء ، ولكنه عندما يتأمل يجد أن كلامه مشروط بأشياء عديدة ، فلكي يتم الكلام لا بد من وجود الشفتين والأسنان واللسان والقصبة والحنجرة والأوتار الصوتية ، فلو لم يخلقها الله لم نستطع الكلام .

ومن هنا نعلم أن كل ما في عالمنا فهو محدود وله قيود ، وهذا هو المقدار الذي قدّره الله له :

﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[1] .

ومن جملة الأقدار : القدر الزماني ، فلكل شيء أجل معيّن ، ويشير القرآن الكريم إلى الأشياء ثم يقول لها أجل مسمى .

والآن من الذي جعل هذا القدر للأشياء ؟

---

(١) سورة القمر : الآية ٤٩ .

لما كنّا معترفين بأن العالم بأجمعه مخلوق لله فـإن جميع شؤونـه تكون منـه سبحانه ، فعندما خلقنا الله قدّر لنا زماننا ومكاننا ، والله تعالى خلق كل شيء بمقدار معينّ ، ولا يصطدم هذا بأيّ إشكال ، ويأتي الإشكال فقط عندما نعمّم القدر ليشمل أفعال الإنسان الاختيارية ، وعندئذ يتصوّر البعض أنه يلزم منه كون الإنسان مجبراً على أفعاله ، ولكننا قد ذكرنا فيما مضى أن افعالنا الاختيارية كلهـا محدودة فهـل هذه الحـدود باختيـارنا ؟ إنّ أول شـرط لكي تتمّ أفعـالنـا الاختياريةهو كوننا أحياء ، فالميت لا يفعل شيئاً ، فهل الحياة تحت تصرفنا أم هي باختيار الله ؟ لا شكّ أنها باختياره سبحانـه ، وجودهـا ومقدارهـا . إذن مقدّمات الفعل الاختياري أكثرها غير اختياري قد تمّ بإرادة الله وتقديره ، ولا يبقى إلا مجال ضيق يستطيع الإنسان أن يُعمل فيه اختيـاره ، فالقـدر يعني أن الأسباب والمعدّات والظروف اللازمـة لأيّ عمل هي من خلق الله وتقـديره ، وهي تشكـل الأجزاء الغـالبة للعلة التـامة ، ويبقى جـزء من هذه العلة تحت اختيار الإنسان ، فالقدر يتعلق بمرحلة ما قبل الانتخاب .

وفي دائرة أعمالنا الاختيارية قد توجد لها علاقات وارتباطات لم نفكّر بها ولم نتوقعها ، وهذه العلاقات هي التي تشكل القدر الخاص ، مثلاً : أخرج من بيتي باختياري ويخرج صديقي من داره باختياره ، ثم نلتقي عند مفترق الطرق دون أن نحسب لهذا اللقاء حساباً ، فهذا اللقاء لم يكن اختيارياً ولكن مقدّماته اختيارية ، فهذه العلاقـات اللامـرئيّة والمـوجودة بـين أفعالنـا الاختياريـة لسنا مطلعين عليها نحن ، ولا نجري على أساسهـا حسابـاتنا ، ولكن الله يعلمهـا ويحسب على أساسها الحسابات كما مرّ معنا في قصة موسى عندما تحرك من مصر إلى مدين ، ثم عاد ، وفي طريق العودة جرى له ما جرى ، كيف حصلت هذه الروابط بين الحوادث ؟ لا بدّ أن يبدأ موسى (ع) عودته في وقت بعينه ليصل في تلك الليلة إلى قرب الشجرة ، ولا بدّ أن تحسّ زوجه ألم المخاض لكي يبحث لها عن نار و. . . فموسى عاد من مدين باختياره ، وقصد النار باختياره ، ولكن الأشياء الأخرى التي حدثت لم تكن باختياره .

فمن مجرى اختياري واختيار الطرف الآخر توجد أرضية غير اختياريـة

لاختيار ثالث ، فهو سبحانه عالم بكل شيء ، والماضي والحاضر والمستقبل كلها حاضرة لديه ، فهو يعلم أي شيء لا بدّ أن يلتقي بأي شيء وفي أي مكان ليوجد النظام الأحسن . فترتيب المقدمات والوسائل حتى للأفعال الاختيارية إنّما هو من تقديرات الله ، فالله هو الذي قدّرها بهذا المقدار ، وهو الذي نظم روابطها بهذا الشكل من دون أن ينافي هذا اختيار الموجودات المختارة .

ونستنتج من هذا البحث بعض النتائج :

١ ـ ينقسم القدر إلى قسمين : القدر النوعي والقدر الشخصي ، فالله قد قدّر للإنسان أن يعيش على الأرض وفي هذه المرحلة من التاريخ ، هذا هو التقدير النوعي . والله سبحانه أيضاً قد قدّر لفلان أن يولد من هذا الأب ومن هذه الأم وأن يكون بهذا اللون الخاص ، هذه تقديرات شخصية .

٢ ـ ويمكننا تقسيم التقدير من زاوية أخرى إلى تقدير علمي وتقدير عيني ، فالتقدير العلمي يعني أن الله سبحانه يعلم بكل شيء ، وفي أي زمان ومكان يوجد ، وبأيّ شكل يتحقق ، ولا يعني هذا القول الجبريّة ، لأن أحد الأقدار هو أن تصدر الأفعال الاختيارية من الإنسان من مجرى الاختيار ، ولو أنها تحققت من غير مجرى الاختيار لخالف ذلك التقدير العلمي ، فالله يعلم بكل إنسان ماذا يعمل وماذا يختار . أما التقدير العيني فهو يعني أن الله يوجد الأشياء في الخارج بمقدار معين وحدود خاصة . ويعود التقدير العيني إلى إيجاد العلل الناقصة ، أي إيجاد المقدمات التي يتوقف عليها وجود ظاهرة ما ، وهي مؤثرة بنحو من الأنحاء في حدود ذلك الشيء . ولكن العلة التامة لا تسمى بهذا الاصطلاح تقديراً ، وإن كانت مستندة إلى الله ، بل تسمى « قضاء » وسوف يأتي تفصيله فيما بعد . فالعقل عندما يلاحظ أن تعينّ أيّ موجود يتمّ بوساطة موجودات أخرى ، والله سبحانه هو الجاعل لهذا النظام بحيث يوجد كل شيء في ظروف معينة ، فإنّه يسمي ارتباط العلل الناقصة بإيجاد الله تقديراً .

٣ ـ إن للتقدير مراتب ، فأحياناً نقيس ظاهرة ما إلى عللها ومعدّاتها ومقتضياتها المباشرة ، وأحياناً أخرى نقيسها إلى عللها المتوسطة أو البعيدة ، أي

إلى سبب السبب وشرط الشرط ومعدّ المعدّ ، فهذه أيضاً مرحلة من التقدير، فـما لم يوجـد شـرط الشـرط وسبب السبب فـإن الشـرط والسبب القـريب لا يتحقق، فالبعيد أيضاً من مقدرات هذه الظاهرة. مثلاً : الرؤية مشروطة بوجود الضـوء ، ولكن وجود الضـوء نفسه لـه شرط وهـو أن تكون تلك الجهـة من الأرض مواجهة للشمس،ولا ينتهي الأمر عند هذا الحدّ ، وإنما حسب فرضية تبدل المادة إلى طاقة فإنه لا بدّ من تحوّل كمية من مادة الشمس إلى طاقة تشعّ ضوءاً ، وهذا أيضاً مشروط بأن لا يكون هناك مانع يحول دون وصول الضوء إلينا . إذن لكل ظاهرة شروط بعضها متصل بها وبعضهـا بعيد عنهـا وبعضها متوسط في البعد ، والتقدير أيضاً تكون لـه مراتب حسب قـرب أو بعد هـذه الشـروط عن تلك الظاهـرة . وكلما كان التقـدير أبعـد فـإن احتمـال التغيـير والتحول يكون أكبر . وكلما كان التقدير أقرب إلى الظاهرة فإن ذلك الاحتمال يقلّ تدريجياً وتزول عنه حالة الغموض والإبهام ، فإذا نظرنا إلى الضوء عندمـا يشعّ من الشمس وحتى وصوله إلينا فإن له شروطاً كثيرة ، ولكنه بعد وصولـه إلى الأرض فإن تلك الشروط تقلّ .

وكذا سائر الأمور التي تحدث في حياتنا ، فإن لها أسبابـاً بعيدة وأخـرى قريبة ، فإذا قسناها إلى البعيدة كان احتمال التغيير كبيراً ، وهو يقلّ كلما اقتربنا إليها ، حتى نصل إلى آخر أجزاء العلة التامة ، وحينئذٍ تتحقق الظاهرة نفسها ، وفي هذه اللحظة فـإنها لا يمكن أن تتغير ، نعم يمكن أن تتغـير فيها إذا استمّـر وجودها ، فإذا تكلم الإنسان بشيء فإنه لا يستطيع أن يعيده وقد انقطع ارتباطه بفاعله ، نعم يستطيع أن يكفّ عن الكلام منذ الآن ، أو يعمل شيئاً يخفف آثار ذلك الكلام ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل هذا الكلام وكأنه لم يوجد ، فما دامت علته التامة قد تحققت فهو غير قابل للتغيير .

وعلى هذا يكون التقدير قابلاً للتغيير ،لأنه عندما تتوفّر المقدمات البعيدة لشيء ما فإن هناك عدّة وسائط باقية حتى يتحقق ذلك الشيء ، وفي هذه الأثناء قد تحصل موانع فلا يوجد هذا الشيء ، لأن هذه جميعاً لا تشكل العلة التامـة له . وهذا واضح جداً في أفعال الإنسان الاختيارية ، لأن الجـزء الأخير للعلة

التامة في أفعاله الاختيارية هو إرادته ، فحتى لو تحققت كل الشروط ولكن إرادته لم تتعلق به فإن العلة التامة لم تتحقق ، وبناء عليه فإن النتيجة لا توجد . والتقدير كما مرّ معنا يتعلق بمرحلة العلّة الناقصة ، فهو إذن قابل للتغيير . وبالالتفات إلى هذه الملاحظة يندفع ما يحوم من شبهات حول كثير من الروايات التي تتحدّث عن أن بعض أعمال الإنسان يغيّر التقدير ، مثلاً : إعطاء الصدقة يدفع البلاء المقدّر ، فهناك قصة مشهورة تقول إن النبي الأكرم (ص) كان جالساً يوماً بين أصحابه فمرّ عليهم شيخ يهودي ، فالتفت الرسول (ص) إلى أصحابه وقال لهم : إن هذا الشيخ ذاهب إلى الصحراء ليحتطب ، ولكنه لا يعود لأن الموت ينتظره هناك ، ولكنه بعد فترة من الزمان عاد الشيخ وهو يحمل حطبه ، فسأل الأصحاب النبيّ (ص) : كيف عاد حيّاً : فقال لهم : نادوه ، فامتثلوا ، وجاء الشيخ ، فقال له الرسول : اطرح حملك أرضاً وافتحه ، ففتحه فوجدوا في وسطه حية كبيرة ، فقال النبي (ص) : لقد كان من المقدّر أن تلدغ الشيخ هذه الحية ، ولكنه أعطى صدقة في الصباح فدفعت عنه هذا البلاء المقدّر . إذن هذا التقدير قد كان معلقاً ، ومقتضى السير العادي أن الحية تلدغه ، ولكنه قد حدث مانع ، وليس هذا المانع طبيعياً وإنما هو ميتافيزيقي ، أي أن الأثر الطبيعي لإعطاء الصدقة ليس هو منع الحية من اللدغ ، فلا توجد رابطة طبيعية بين هذين ، بل العلاقة بينهما ميتافيزيقية ، أي أن الله قد وفّر الظروف ـ بعد إعطاء الصدقة ـ التي تمنع الحيةمن لدغ ذلك الشيخ .

ونظيره ما ورد من روايات تؤكد على أن صلة الرحم والإحسان للوالدين تغيّر التقديرات لصالح الإنسان ، وأن قطع الرحم وعقوق الوالدين تغيرها لتنتهي إلى ضرره .

ومن هنا نفهم موضوع البداء الوارد في الروايات أنه :

ما عُبد الله بشيء أفضل من البداء . وهو يعني أن الله سبحانه أو المعصوم (ع) يبين شيئاً ولكنه ليس بصورة قطعية ، وإنما هو مشروط بشيء ، ثم يتغير ذلك الشرط والإنسان غير ملتفت إليه فلا يقع المشروط . وإذا اعتقدنا بأن التقديرات حتمية وغير قابلة للتغيير فإنه لا يبقى مجال للجهود الإنسانية ولا

للدعاء لأنه لا أثر لها ، أما إذا اعتقدنا بأن التقديرات معلّقة ومشروطة ، حينئذٍ يصبح مجال للدعاء لكي يكون عاملاً يقف أمام المقدّرات ، ولهذا نلاحظ الذين لا يعتقدون بإمكانية التغيير في المقدرات أنهم محرومون من الدوافع التي تحملهم على الدعاء ، بل ويعتقد البعض أن الإيمان بالتقدير أحد عوامل التأخر والركود والضعف . والرؤية المبنية على التوحيد تخالف هذا الاتجاه ، وتعتبر الأسباب والشروط مؤثّرة في مجالها المعيّن ، ولكن التقديرات لا تنفي الاختيار عن الإنسان ، فالاختيار الإنساني من جملة المقدّرات ، فالأعمال الاختيارية لا بد أن تتمّ عن طريق جهود الإنسان نفسه ، إلّا أننا لا نعلم المصير النهائي الذي يعيّنه الله للإنسان ، وكل من يعمل ما في وسعه ثم يترك النتيجة لله فهو مرتاح الضمير ، سواء أكانت النتيجة إيجابية أم سلبية . وعلى هذا يصبح الاعتقاد بالتقدير عاملاً من عوامل التقدم والحركة وعدم اليأس ، لا أنه عامل الخمول والركود واللامبالاة ، فالإنسان الخامل غير معذور ، وحتى إذا اطمأنّ الإنسان بالنتيجة فإن عليه أن يبذل كل ما في وسعه .

وقد يعترض البعض قائلاً إن التغيير في التقدير ينافي كون علم الله ثابتاً لا يقبل التغيير ، وإذا تغيّر التقدير تغيّر معه العلم الإلهي .

والجواب : لقد سبق لنا القول إن لله ألواناً من العلم ، أحدها العلم المنتزع من مقام الذات ، فالله عالم بالأشياء على ما هي عليه ، وهو علم يرفض أي تغيير ، وكل ظاهرة تحدث في أي زمان ومكان وبشروطها فهي منعكسة في العلم الذاتي . وهناك علم آخر ينتزع من مقام الفعل وهو لا علاقة له بمرحلة ما قبل الفعل ، ولا ربط له أيضاً بالتقدير . ويوجد لون ثالث من العلم يتعلق بمرحلة ما قبل الفعل ، وهو خارج عن الذات ، أي أن الحوادث المستقبلية منعكسة في موجود يسمى « الكتاب » ولهذا الكتاب مراتب متعددة ، فالكتاب الذي لا يطرأ عليه أي تغيير هو « أمّ الكتاب » الذي تنعكس فيه التقديرات الحتمية كما توجد في الخارج . وتوجد كتب أو ألواح أخرى تعكس الحوادث بأشكال متعدّدة ، وفي هذه قد يحدث التغيير :

﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾[1] .

فهي تقديرات تعني العلل الناقصة القابلة للتغيير ، مثلاً : قد يوجد في مثل هذه الكتب أن فلاناً يولد في الزمان الكذائي والمكان الفلاني ، ويعيش سبعين عاماً إلّا إذا قام بالدعاء أو وصل رحمه ، فهذا الشرط في الألواح دون اللوح المحفوظ يمكن أن يتغيّر : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » .

ويؤيّد هذا قوله تعالى :

﴿ وعنده أم الكتاب ﴾[2] .

فكل التنبؤات التي يتحدّث بها الأولياء المعصومون ثم تتخلّف فإنها منقولة عن الألواح التي هي دون اللوح المحفوظ ، وهي قابلة للتغيير .

ولا يختصّ التقدير بالحدود المكانية والشروط والمعدّات ، بل ويشمل الحدود الزمانية للأشياء أيضاً ، فمن تقديرات الموجود زمان مبدئه وزمان انتهائه ، وهو ما يسميه القرآن بـ« الأجل » وينسبه لكل مخلوقات هذا العالم ، قال تعالى :

﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ وأجلٍ مسمّى ﴾[3] .

﴿ وسخّر الشمس والقمر كل يجري إلى أجلٍ مسمّى ﴾[4] .

وبالنسبة للنوع الإنساني يقول تعالى :

﴿ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين ﴾[5] .

وصحيح أنه لم يعبّر بلفظ الأجل ولكن قوله « إلى حين » يؤدّي نفس المعنى .

(١، ٢) سورة الرعد : الآيه ٣٩

(٣) سورة الأحقاف : الآية ٣ .

(٤) سورة لقمان : الآية ٢٩ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٣٦ .

وبالنسبة لكل أمة من البشر يقول تعالى :

﴿ ولكـل أمَّـة أجـل فـإذا جـاء أجلهم لا يستـأخـرون سـاعـة ولا يستقدمون ﴾[1] .

وبالنسبة لكل فرد من الناس يقول جل وعلا :

﴿ ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾[2] .

ومن الآيات التي تدل على أنّ الأجل من مصاديق القدر هاتان الآيتان :

﴿ فجعلناه في قرار مكين * إلى قَدَر معلوم ﴾[3] .

وهما تتحدّثان عن الجنين كيف أنّ له زماناً معيناً . وفي آية أخرى يقول تعالى :

﴿ ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمّى ﴾[4] .

ويستعمل « الأجل » بشكلين :

١ ـ تارة يقصد به طيلة عمر ظاهرة ما أو عمل أو موجود .

٢ ـ وأخرى يقصد به انتهاء عمره .

وقد استعمل الأجل في القرآن بهـذين المعنيين ، ففي قصـة موسى مـع شعيب (ع) يقول تعالى :

﴿ أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ﴾[5] .

فالأجل هنا بمعنى طيلة الفترة . أما الآيات التي تقول :

« إلى أجل مسمّى » فهي تعني نهاية المدّة .

وكل ما قلناه في القدر فهو صادق عـلى الأجل ، فـالأجل قـابل للتغيـير ويسمى الأجل المعلق ، مثل التقدير المشروط ، فهو معلق على شيء إذا تحقّق

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٤ .

(٢) سورة المنافقون : الآية ١١ .

(٣) سورة المرسلات : الآيتان ٢١ ـ ٢٢ .

(٤) سورة الحج : الآية ٥ .

(٥) سورة القصص : الآية ٢٨ .

فإن الأجل يصل في هذا الزمان . وهناك آية تدّل على أن الأجل قابل للتغيير :

﴿ يغفر لكم ذنوبكم ويؤخّركم إلى أجل مسمّى إنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخّر ﴾[1] .

فالأجل الذي لا يتغيّر هو أجل الله الذي قد عيّنه سبحانه ، وهو المرحلة النهائية ، وهذا يعني شيئين :

١ ـ لكل أمّة أجل ، فهي لا تكون من دون نهاية .

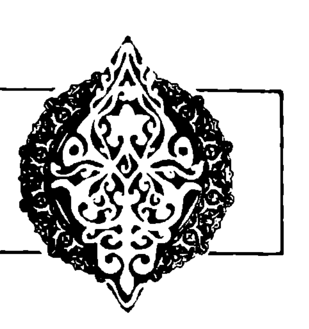
٢ ـ لبعض الأمم أجل ، ولكنّ الله يؤخره نتيجة لإيمانهم ، وهذا هو الذي يرتبط ببحثنا ، وقد تناولت الآيات هذا الموضوع بصور متعدّدة ، فبيّنت أن أجل بعض الأمم يسرع إليها بصورة عذاب يأتي عليهم جميعاً ، كما في قصة طوفان نوح (ع) ، فقد قضي على الأمة بأكملها سوى نوح وأفراد قليلة ، وأما إذا آمنت الأمم فإنهم يعيشون حسب أعمارهم الطبيعية ، ولا يسرع إليهم العذاب .

ولا بدّ أن نشير في خاتمة المطاف إلى أن الأجل إذا كان معلقاً فهو من مراحل التقدير ، وأما إذا كان حتميّاً فهو من مراحل « القضاء » الذي هو موضوعنا اللاحق بإذن الله .

* * *

---

(١) سورة نوح : الآية ٣ .



القضاء الإلهي

وهو من المواضيع التي تدور حول الأفعال الإلهية ، وقد يعتبر العرف في بعض الأحيان القضاء مرادفاً للقدر ، ولكننا نعتبر هذين المفهومين دالّين على مرحلتين من مراحل تحقق الفعل الإلهي ، بحيث تكون مرحلة القدر متقدّمة على مرحلة القضاء .

ولهذه المسألة جذور عميقة في التاريخ الإنساني ، وقد كانت مدار البحث الحادّ بين المتكلمين في صدر الإسلام ، وكان القائلون بالقضاء والقدر يتبنّون عادة المذهب الجبري ، أما الذين يؤمنون باختيار الإنسان فإنهم كانوا منكرين للقضاء والقدر ، أو مؤوّلين إياهما بشكل يتلاءم مع اختيار الإنسان . وتهاجم رواياتنا كلتا الطائفتين وهي تثبت من ناحيةٍ القضاء والقدر الإلهيين ، وتبين من ناحيةٍ أخرى عدم منافاة ذلك لاختيار الإنسان .

فالقدر كما مرّ معنا يعني معرفة المقدار أو إيجاده ، ويتعلق بأجزاء العلة أي بالعلّة الناقصة ، بينما القضاء إتمام الفعل ويتعلق بالعلّة التامّة ، ولهذا كان القدر متقدّماً على القضاء من حيث الترتّب العقلي .

إن القدر يخصّ المرحلة التي لم تصل فيها الظاهرة إلى الضرورة ، بحيث

لا تكون جميع أجزاء العلة التامّة قد تحققت ، ولهـذا فهو قـابل للتغيـير ، لأنّ الجـزء الأخير من العلّة قـد لا يتحقق ، أمـا القضـاء فهـو يعني مـرحلة إتمـام العمـل ، ويطلق عـلى المرحلة التي تكـون فيها جميـع أجزاء العلة التـامّـة قـد تحققت ، بحيث لا توجد أيّ حالة انتظار .

ولكن العرف قد يستعمل القضاء والقدر مترادفين ، وهذا يفسر ما ورد في بعض الـروايات من أن القضـاء على شكلين : أحـدهمـا القضـاء القـابـل للتغيير ، وثانيهما القضاء غير القابل للتغيير ، فالقضاء القابل للتغيـير هنا يعني مرحلة التقدير . ولكننا نـطلق القضاء عـلى مرحلة الضـرورة والحتمية التي لا تقبل التغيير .

ونرى من الضروري استقصاء موارد استعمال القضاء في القرآن الكريم لنفهم المقصود منه ، ولهذا الاستقصاء فائدة أخرى ، وهي إنهاء الصراع القديم ـ الذي كان بين المعتزلة والأشاعرة ـ لصالح الحق ، وذلك لأن المعتـزلة كـانوا يؤوّلون الآيات التي تتحدّث عن القضاء والقدر ، ويحاولون الفرار من القضاء الحتمي ، بينما الأشاعرة كانوا يتبنّون الجبر ، ويرون القضاء شاملاً حتى لأفعال الإنسان الاختيارية ، ولما كان القضاء ملازماً للجبر ، إذن أفعال الإنسان تبدو اختيارية ، ولكنها ليست اختيارية بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما هي جبريـة . ويعارضهم المعتزلة قائلين : لا يمكن إنكار اختيار الإنسان ، ولو أنكرناه لما بقي للدين من معنى ، إذن لا بدّ من تفسير القضاء في أفعال الإنسـان الاختياريـة بشكل لا يلزم منه الجبر ، فقالوا مثلاً إنّ القضاء يعني إصدار الحكم أو الأمر أو البيـان ، والله سبحانـه يقضي ، يعني يبيّن للنـاس أو يأمـرهم ، والناس قـد يطيعون وقد يعصون . وأما إذا استقصينا موارد استعمال القضاء اتّضح لنا أن جهـود المعتزلـة هذه ـ في مقـابل الأشـاعـرة أيضـاً ـ جهـود عقيمـة ولا تـرفـع الإشكال ، ولا بدّ من حلّ القضية عن طريق آخر .

ونبدأ بذكر الموارد المختلفة لاستعمال كلمة القضاء في القرآن الكريم ، ثم نتبعه بالبحث حول القضاء الإلهي .

فالقرآن يستعمل القضاء بمعانٍ متعدّدة منها :

١ ـ بمعنى تشريع أمر مهم وواجب مؤكّد ، قال تعالى :

﴿ وقضى ربّك أن لا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً ﴾[١] .

ففي هذه الآية تشريع أمرين مهمين : أحدهما عبادة الله وحده ، وثانيهما الإحسان بالوالدين ، فهما واجبان مؤكّدان لا استثناء فيهما ، ولا يقبل أي عذر في التخلّي عنهما ، وصحيح أن الواجبات في الشرع الإسلامي كثيرة ، ولكنّ هذين الواجبين مؤكّدان ، ولهذا استعمل لهما لفظ « قضى ربك » ، فالقضاء هنا بمعنى الأمر المؤكّد والقانون المهمّ. ويتمسك المعتزلة بمثل هذه الموارد ليقولوا إن القضاء في أفعال الإنسان الاختيارية يعني الأمر فقط .

٢ ـ بمعنى إصدار الحكم وإنهاء الخصومة ورفع النزاع ، وهو الاصطلاح الشائع في زماننا والمتعلق بالقضايا الحقوقية والقانونية ، قال تعالى :

﴿ والله يقضي بالحق ﴾[٢] .

أي يصدر الحكم بالحق كما يصدر القاضي حكمه .

وأحياناً يستعمل القرآن هذه الكلمة مشربة بمعنى البيان والإعلام ، قال تعالى :

﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفسِدُنَّ في الأرض مرّتين ولَتعلُنَّ علوّاً كبيراً ﴾[٣] .

أي أصدرنا الحكم مقروناً بإعلامهم عن طريق الوحي أنكم سوف تفسدون في الأرض وتتسلطون وتظلمون وتتجاوزون الحدود الإلهية ، وسوف تفعلون هذا مرتين ، فيهاجمكم أعداؤكم ويسحقونكم ، وهي عقوبة إلهية تأتي بعد إفسادكم ، ثم تذكر الآيات تفاصيل الإفساد الأول والثاني ثم يقول تعالى :

﴿ وإن عدتم عدنا ﴾[٤] .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٣ .

(٢) سورة المؤمن : الآية ٢٠ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٤ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٨ .

وهي تحتمل أحد معنيين ، أحدهما : إن عدتم للإفساد عدنا للتنكيل بكم ، والثاني : إن عدتم عن الإفساد أي انصرفتم عنه عدنا عن تعذيبكم .

وتتحدّث هذه الآية عن القصة المعروفة في التاريخ : عندما هاجم نبوخذ نصّر فلسطين وقتل وشرّد بني إسرائيل ، وأذاقهم الذّل والهوان ، وبعثرهم في الأوطان وشتت جمعهم ، فاستقرّت كل فئة منهم في جانب من جوانب الأرض ، ولولا هذا الحدث لاستمرّوا في مكانهم ، لأنهم أشدّ الناس تمسّكاً بالحياة القبلية،ولكن هجوم نبوخذ نصّر فرقهم في بلاد الله العريضة ، وانحدر قسم منهم إلى الجزيرة العربية واستقرّوا في خيبر وأطراف « المدينة » ، ولكنه قبل وقوع هذه الحوادث أوحى الله سبحانه إلى نبيّه ليعلم بني إسرائيل :
﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل . . . ﴾ .

ولا شك أنّ « قضينا » هنا يفهم منها معنى الإعلام ، فهل هي بنفسها تدل على الإعلام أم دلالتها عليه بشكل آخر ؟

إن هذه الآية من الموارد التي يتمسك بها المعتزلة قائلين إن القضاء هنا بمعنى الإعلام ، ولكنّ الحقيقة أن القضاء في الأصل ليس بمعنى الإعلام ، وإنما يوجد أسلوب خاص في اللغة العربية ـ وقد يوجد ما يشبهه في اللغات الأخرى ـ يسمى الإشراب أو التضمين ، وهو يعني إدغام معنيين في لفظ واحد ثم إلحاق الحرف الذي يتعدّى به أحدهما بالثاني ، وذلك ليكون قرينة على هذا الإدغام ، فالقضاء متعدّ بنفسه لا بـ « إلى » ولكنه في الآية : « وقضينا إلى بني إسرائيل » وهذا شاهد على أن « قضينا » هنا قد أشربت معنى آخر يتعدّى لفظه بإلى ، والمقصود من الإشراب هو أن يراد إلى جانب مفهوم مفهومٌ آخر لا يذكر صراحة في الكلام ، مثلاً : بدل أن نقول : نحن قضينا ثمّ أوحينا إليهم هذا القضاء ، فإننا لا نذكر الإيحاء بل نأتي بالحرف الذي يتعدّى به « أوحينا » ونلحقه بـ « قضينا » فيصبح معناها « قضينا موحين » . فالواقع إذن معنى القضاء ليس هو الإبلاغ بل هو مفهوم قد أشرب في هذا اللفظ .

٣ ـ ويستعمل القضاء أيضاً بمعنى الانتهاء وإتمام الأمر ، وقد جاء بهذا

المعنى في قصة يوسف (ع) عندما كان في السجن وسأله اثنان ممن معه في السجن أن يفسّر لهما ما شاهداه في المنام ، وبعد أن فسّر لهما ما أراداه قال :

﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾[1] .

أي أن تفسير الحلم هو هذا ، وقد انتهى وسوف يتحقق حتماً .

وهناك آية تتحدّث عن نزاع بين الشيطان وأتباعه في جهنم :

﴿ وقال الشيطان لمّا قضي الأمر ﴾[2] .

عندما انتهى كل شيء واتّضح حساب كل أحد بحيث لم يبق مجال لأيّ تغيير فإن أتباع الشيطان يهاجمونه بأنك أنت الذي أضللتنا وانتهيت بنا إلى هذه النتيجة ، ولكن الشيطان يدافع عن نفسه قائلاً : لم تكن لي سلطة عليكم وإنما دعوتكم فقط وقد استجبتم لي واقتفيتم خطواتي . فالفعل « قضي الأمر » هنا لا يعني الإعلام ولا إصدار الأوامر بل يعني أن الأمر قد انتهى وأصبح قطعياً .

ونستخلص من استقصاء موارد استعمال « القضاء » أنّ معناه الأصيل هو الانتهاء ، ثم تضاف إليه أمور أخرى في بعض الاستعمالات حتى يصبح مشتركاً لفظيّاً ، ولكن له في جميع الموارد معنى مشتركاً ، فالقضاء القانوني يطلق فيما إذا وقع نزاع بين شخصين أو فئتين على شيء ما ، هذا يدّعيه لنفسه وذاك يزعم أنه له ، فملكيّة هذا الشيء تكون غير واضحة حتى يحكم القاضي بينهما ، وحينئذٍ ينتهي النزاع ، فالقضاء يعني نهاية الخصومة .

وكذا القضاء عندما يستعمل في الأمور التشريعية ، فهو يختص ببعض الواجبات لأهميتها كعبادة الله ، وهو يعني أن هذا الواجب لا ترديد فيه ولا استثناء ولا تغيير فهو تشريع نهائي .

إذن : القضاء يعني الإتمام والانتهاء ، سواء أكان في المجالات التكوينية أم التشريعية ، وهو في الأمور التكوينية يتلاءم مع آخر مرحلة من مراحل

---

(١) سورة يوسف : الآية ٤١ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٢٢ .

تحقّقها . فإذا اكتملت أجزاء العلة التامة لظاهرة ما فإن وجودها يصبح قطعياً لا تغيير فيه ، وأما إذا صادفنا بعض الروايات التي تتحدّث عن قضاء غير حتمي يمكن تغييره فالمقصود منه ما يرادف القدر ، وهو إطلاق عرفي ، ويمكننا أن نقول إنّ العرف يعتبر انتهاء عمل ما له عدّة مراتب ، فنحن عندما نقوم ببناء عمارة وتصبح صالحة للسكنى فيها ثم نسأل : هل تمت العمارة ؟ فإننا نجيب بالإيجاب ، وإذا سئلنا : هل تمّ فيها نصب الأنابيب ؟ أجبنا بالسلب قائلين : إن هذه الأمور الثانوية لم تتم بعد ، ولعلها تنتهي في الأيام القليلة القادمة . إذن للنهاية والإتمام مراتب متعدّدة ، وهي تطلق على المراتب القريبة من الإتمام من باب التسامح . وهذا الشيء في العرف كثير ، فإذا سألت شخصاً : هل تعلم بالشيء الفلاني ؟ أجاب : أجل أعلم به بشكل يقينيّ . أما إذا دققت معه فإنه سيقول : يوجد احتمال بأن ما أعلمه مخالف للواقع ، فإطلاق اليقين هنا عرفي ومن باب المسامحة . ونذكر لهذا مثالاً آخر : إذا عاد شخص من السفر إلى مدينته ؛ فإذا اقترب منها ولم يبق على دخوله إليها إلا بعض الكيلومترات فإنه يقول وصلنا ، وإذا دخل بيته يقول أيضاً وصلنا ، فالقول الأول وصلنا يعني اقتربنا من الوصول. والقضاء أيضاً كذلك، ففي الأصل يعني الانتهاء والإتمام، ولكنه من باب التسامح في التعبير يطلق على المراحل القريبة من المرحلة النهائية . وأما إذا أردنا الدّقة في التعبير وأعرضنا عن التسامح العرفي لوجب علينا أن نطلق القدر على المراحل ما قبل النهائية ، والقضاء على المرحلة النهائية فقط . وأما إذا سايرنا العرف فلنا أن نقول إن للقضاء لونين : أحدهما الذي لا يتغير وهو الذي يعني المرحلة النهائية لتحقق الفعل ، والثاني الذي يتغير وهو القريب من النهاية ، والدعاء مثلاً يستطيع أن يغيّر مثل هذا القضاء كما ورد في بعض الروايات .

وبعد هذا التوضيح اللغوي والعرفي للقضاء نصل إلى صميم موضوع القضاء الإلهي الشامل لجميع ظواهر العالم ، وفي القرآن الكريم آيات عديدة تصرّح :

﴿ **إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] .

وفي آيات أخرى يستعمل « قضى » بدل « أراد » :

﴿ **وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون** ﴾[2] .
﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾[3] .
﴿ **سبحانه إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون** ﴾[4] .
﴿ **فإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون** ﴾[5] .

إذا تعلق القضاء الإلهي بشيء فإنه يقول له : «كن» فيوجد ذلك الشيء ، ومن الواضح أن هذا يختصّ بالمرحلة النهائية للفعل ، فإذا قال الله لشيء « كن » فإن ذلك الشيء لا بدّ أن يتحقق ، ولا يمكن أن يتخلف ، فكل ما في العالم من مخلوقات فهي توجد حسب الأمر الإلهي ، ومتى يصدر هذا الأمر ؟ عندما يصل إلى مرحلة القضاء .

ومن هذه الآيات نفهم أن الإرادة والقضاء مصداقهما واحد ، لأن الآية الأولى تقول ﴿ **إذا أراد شيئاً . .** ﴾ ، والثانية تقول ﴿ **إذا قضى أمراً . .** ﴾ ، ولما كانت الإرادة شاملة لكل ما يقع في العالم كما أثبتنا ذلك من قبل ، إذن : كل ما يقع فيه مشمول أيضاً للقضاء الإلهي .

وعندئذٍ يثار الإشكال المعروف : فإذا كان القضاء عاماً وشاملاً لجميع ظواهر العالم ، وحتى لأفعال الإنسان الاختيارية ، فالله هو الذي يوصل كل شيء إلى مرحلته النهائية ، ويكمل علّته التامة فتتحقق تلك الظاهرة بالأمر الإلهي « كن » ، إذن أين اختيارنا ؟ إنّ لازم هذا القول بالجبر ، وإذا كنا قد لاءمنا بين القدر واختيار الإنسان فذلك لأن التقدير لا يتعلق بالمرحلة النهائية للفعل ، بل يتعلق بالمقدّمات والعلة الناقصة ، وحينئذ يصبح اختيار الإنسان

---

(1) سورة يس : الآية ٨٢ .
(2) سورة البقرة : الآية ١١٧ .
(3) سورة آل عمران : الآية ٤٧ .
(4) سورة مريم : الآية ٣٥ .
(5) سورة المؤمن : الآية ٦٨ .

الجزء المكمّل للعلة التـامة فـلا إشكال ، وأمـا القضاء فـإنه لا يـأتي فيه هـذا التحليل ، لأنه يتضمن أن إرادة الله هي التي تعين المرحلة النهائية لتحقق الفعل بينما نحن فرضنـا أن المرحلة النهـائية هي اختيـار الإنسان ، أفـلا يكون هـذا جبراً ؟

إذا كان القضاء الإلهي يعني أنه تعالى يوجد كل ظاهرة ويوجد مقدّماتها ، وهو أيضاً يوجد حتى المرحلة النهائية منها :

﴿ إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون ﴾ .

إذن لا يبقى مجال لاختيار الإنسان ، والجبريون لا يقولون أكثر من هذا .

ومن هنا فقد التزم الأشاعرة بأن مـدلول الآيـات هو الجبـر ، وخالفهم المعتزلة حيث اعترفوا باختيار الإنسان واتّجهوا إلى هذه الآيات يؤوّلـون القضاء بالعلم والإبلاغ تارة ، وبإصدار الحكم تارة أخـرى ، ومن الواضـح أن الأمر التشريعي لا ينافي اختيار الإنسان،وتعسّفوا في تفسير هذه الآيات ليستخلصـوا منها أنه لا وجود للقضاء الحتمي . وقد كان هذا الأسلوب شائعاً لدى المتكلمين في صدر الإسلام ، فإذ تعسّر عليهم الحلّ الصحيح لموضوع ما فإنهم يلجأون إلى التأويل لينقذهم من حرج الموقف ، ولكن هذا الأسلوب لا يحلّ المشكلات ولا يمكن الاعتماد على التصرّف في الألفاظ لحلّ المشاكل العقائدية .

وقبل الجواب على هذا الإشكال نرى من اللازم ذكر مقدّمة هي :

إننا عندما نحاول البحث عن علل وجود شيء ما وتعيين جميع أجزاء علّته التامة فإننا نفتش عادة عن علله القريبة المباشرة فنقول مثلاً : لكي يوجد الماء لا بدّ من كمية معينة من الأوكسجين ، ومقدار محدد من الهيدروجين ، في ظروف معينة من حيث الضغط الجوّي ودرجة الحرارة ، ثمّ تمرير شرارة كهربائية وسائر الشروط المختبرية ، فإذا تحققت الشروط بأجمعها فإن فعلاً وانفعالاً كيميـائيين يتمّان فتوجد ظاهرة جديدة . ونحن عادة خلال بحثنا عن أجزاء العلة التامـة لهـذه الظاهـرة لا نبحث عمّن صنع المختبـر وهيأ الـظروف المـلائمـة لإجـراء التجربة ، وأعدّ الوسائل اللازمة للسيطرة على الأمر حتى يتمّ كل شيء حسب

ما يرام . فأحياناً تتوفّر هذه الظروف وتوجد هذه الوسائل بصورة طبيعية مثل جوّ الكرة الأرضية ، ففي الفصول المختلفة تواجه الأرض الشمس فتكتسب منها حرارة تشتدّ أحياناً وتضعف أحياناً أخرى ، ولكنها إجمالاً لا تترك أثراً على الانفعال الكيميائي ، ولكنه في بعض الحالات لا تتوفّر الظروف المناسبة ، مثلما لو أردنا إجراء تركيب كيميائي في القطب الشمالي ، فإنه لا بدّ هنا من تنظيم الظروف بشكل خاص ، والجو العادي عندئذ لا ينهض بالمطلوب ، وتنظيم الظروف يحتاج إلى وسائل ، والوسيلة بحاجة إلى صانع وإلى مشرف ، وإذا تعمقنا أكثر وجدنا أن لوجود صانعها شروطاً معينة ، ووجود المشرف عليها بحاجةٌ إلى أب وأم ، والوالدان أيضاً معلولان وهكذا نتصاعد . أو نقول مثلاً إننا بحاجة إلى أنبوبة اختبار زجاجية لكي يتمّ الفعل والانفعال ولكننا لا نتذكر عادة المصنع الذي يصنعها ولا الأشخاص الذين يديرون شؤون أجهزته ، بينما هؤلاء يؤثرون ، ولو لم يكونوا لم توجد هذه الأنبوبة .

إذن نحن نهتمّ في تقصّينا لعلل الأشياء بالعلل القريبة والمباشرة ، ولا نعير أهمية للعلل البعيدة .

وهناك ملاحظة أخرى : وهي أننا خلال البحث عن علل الشيء نفتش عن علله المادية القابلة للتجربة ، ولا نهتمّ بما إذا كانت له علة مما وراء الطبيعة وهي بطبيعة الحال لا تكون قابلة للتجربة الحسية ، فالعلة التي هي فوق الطبيعة (ترانس فيزيك) لا تتجسّم في المختبر . لكننا إذا أردنا تناول الأشياء بشكل دقيق فلسفي بحيث نحيط بها فإنه يتحتمّ علينا الأخذ بعين الاعتبار جميع الأمور التي كان لها تأثير بأيّ نحو من الأنحاء في وجودها ، واستقصاء سلسلة العلل وإن امتدّت وتعدّدت ، وأحياناً نحن نستطيع أن نتصوّر مجموعة العلل في أذهاننا بالتفصيل ، وأحياناً أخرى نتصوّرها بعنوان إجمالي .

وعلى أيّ حال فإن العلل البعيدة علل حقيقية ومؤثّرة ، إلا أنها بصورة غير مباشرة ، وكذا العلل التي هي فوق الطبيعة ، فإذا ثبت أن هناك قوة غير طبيعية قد أثّرت في وجود ظاهرة ما بشكل مباشر أو غير مباشر فإنها علة أيضاً ولا بدّ من أخذها بعين الاعتبار ، بينما نحن نلاحظ أنه حتى العلماء من

المسلمين الملتزمين عندما يحاولون البحث عن علة وجود ظاهرة ما فإنهم لا يذكرون الله سبحانه باعتباره علة حقيقية في طول العلل الأخرى ، فهم يقولون لكي يتمّ هذا الفعل والانفعال الكيميائيان لا بدّ من نسبة معينة من الأوكسجين، وكمية محدّدة من الهيدروجين في ظل ظروف خاصّة ، أما إذا تعمق الإنسان أكثر واتّضحت رؤيته فإنه سيقوم بتحليل أوسع لكيفية وجود هذه الظاهرة ، وعندئذ لا يستطيع أن يقصر اهتمامه على العوامل الطبيعية ولا على العوامل القريبة المباشرة ، وإنما يتغلغل ليعرف العوامل البعيدة والعلل غير الطبيعية ، ولهذا نجد القرآن الكريم يؤكّد على هذه الأمور التي نغفلها ، أو التي تدفعنا ظروف حياتنا اليومية إلى نسيانها لينقذنا من هذه الغفلة ، فالقرآن ينسب حتى الظواهر الطبيعية العادية لله تعالى :

﴿ والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾[1] .

وقد أسلفنا القول إن نسبة هذه الظواهر إلى الله لا تعني نفي العلل القريبة ، وإنما هي تأكيد على أمر يغفل عنه الناس عادة ، فالتربية الإلهية قائمة على أساس تنبيه الناس على أن التقوقع داخل المجالات الطبيعية يحرم الإنسان من الرؤية الواقعية ، إذن يجب عليه أن يهتمّ أيضاً بالعلل غير الطبيعية ، وينسب التأثير الأساسيّ لله سبحانه ، فهو الموجد لكل شيء ، والمبقي لكل شيء إلى الحد الذي تتسع له إمكانياته . والقرآن يخلق جوّاً إلهياً يلتفت فيه الإنسان دائماً إلى الله .

﴿ هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء ﴾[2] .
﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾[3] .

وكل هذه الموارد لا تعني نفي الأسباب المادية ، وإنما هي إلفات إلى العلل التي هي فوقها ، وكذا الأمر في موضوع القضاء الإلهي ، فعندما يقول الله سبحانه : أنا الذي أوصل الأفعال إلى نهايتها والمقدمات إلى المرحلة النهائية

---

(١) سورة النحل : الآية ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٤٩ .

فأوجد الشيء فإن هذا يعني أن الناس قد اعتادوا الاهتمام بالعوامل الطبيعية فقط وأهملوا العامل الإلهي ، فهم لا يشاهدون تلك اليد التي هي فوق جميع الأيدي ، فالقضاء الإلهي لا ينفي الأسباب المتوسطة والقريبة ، وإنما هو يؤكد على السبب الأعلى وهو سبب في طول بقية الأسباب،أي أن الظواهر بجميع أسبابها لا بدّ من نسبتها إلى الله ، فللشيء نسبة في مستواه وهي نسبته إلى أسبابه وشروطه ومعدّاته ، فالولد يأتي من أبيه وأمه ، وهما من الموجودات المادية ، ولولادته شروط خاصة ، فهناك أجهزة معينة قد أعدّت في جسم الأب والأم ، وهي توفّر الأرضيّة لولادته ، هذه كلها نهتمّ بها ، ولكننا لا نلتفت إلى أن وجود الأب والأم والولد تحت إرادة الله ، إذن نستطيع أن نقول إنّ كون المرحلة الأخيرة من المعلول ـ والتي تكمل فيها أجزاء علّته التامة فيوجد المعلول ضرورة ـ بيد الله لا يعني نفي الاختيار ، فالاختيار من أجزاء العلة التامة ، فما لم نرد نحن فإن العلة التامة لا تكتمل ، والفعل الاختياري لا يصدر منا ، ولكنه في نفس الوقت نحن وإرادتنا والظاهرة التي تتحقق بإرادتنا كلها مرتبطة بالله ، فمنه تعالى وجودها ، فأصابع اليد الخمس لها علاقات فيما بينها فهذا على الجانب الأيمن والآخر على اليسار والثالث في الوسط ، وهذه العلاقات في مستوى عرضي ، وهناك رابطة أخرى في مستوى طولي بين أشياء العالم الطبيعي وما وراء الطبيعة ، وهي ليست من ألوان العلاقات الطبيعية ، فاحتياج الإنسان لله ليس من قبيل احتياجه للأب أو للأم ، فهذا الأخير من قبيل الارتباط بين العوامل الطبيعية ، فوجود الوالدين في ظروف خاصة يؤدي إلى وجود الولد ، ولكن الارتباطات الوجودية لا تنحصر في العلاقات الطبيعية ، بل هناك لون آخر من الارتباط بين الطبيعة بأكملها وخالقها ، وهو في طول الارتباطات الأخرى ، ونحن لا نفهم هذه العلاقة ، لأن ما جرّبناه في حياتنا هو من لون العلاقات الطبيعية ، فكيف نستطيع إثبات هذه العلاقة التي تربط بين الطبيعة وما وراء الطبيعة ؟

لتقريب هذا الموضوع إلى الذهن ، ومن أجل أن نفهم أنّ مثل هذا الارتباط موجود نرجع إلى علاقة أنفسنا (أرواحنا) بالظواهر النفسيّة ، وهذا من الجوانب التي يؤكد عليها أولياء الله وأصحاب العرفان ، حيث يدعون

الناس للتعمق في ذواتهم واستبطان أنفسهم ، ويعتبرون هذا أحد الطرق المؤدّية إلى معرفة الحقائق ، وقد جاء في القرآن الكريم :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ ﴾[1] .
ونقرأ في رواية أنه :
« من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

وليس هذا جزافاً : فكثير من مشاكل المعرفة يمكن حلها بمراقبة النفس والغوص إلى باطن الذات ، والتركيز على أعماق الشخصية ؛ وليست النفس من الموجودات الطبيعية المحضة ، وإنما هي موجود مجرّد بالأصالة وإن كان ناشئاً من المادة ومتّحداً معها بمعنى من المعاني ، وشاهد ذلك أنها ليست خاضعة للقوانين الطبيعية ، ولمّا كانت أنفسنا أقرب إلينا من أيّ شيء ، ونحن نستطيع أن نتأمّل ونغوص إلى أعماقها ، إذن يصبح هذا طريقاً لمعرفة شيء ما حول العلاقات غير الطبيعية ، وتكون هذه المعرفة بمستوى نضج شخصيتنا . فعندما نتأمل في أنفسنا ونركّز على علاقتها بالظواهر النفسية نجد أنها ليست من لون العلاقات الطبيعية ، ونضرب لذلك مثلاً صورنا الذهنية ، فنحن الآن نستطيع أن نتصوّر في أذهاننا صورة إنسان ما أو أي شيء آخر ، فبمجرد أن نلتفت ونريد فإن الصورة تحضر في أذهاننا مباشرة ، فما هي علاقة هذه الصورة الذهنية بالمدرك (النفس) ؟ إن هذه الصورة في أذهاننا ليست شيئاً منفصلاً عنا ، وإذا لم تكن لا ينقص منا شيء ، وإذا تصوّرناها لا يضاف إلى وجودنا شيء . وهذه العلاقة لا تشبه علاقة الجنين بأمه ، فنحن نلاحظ أن الأم أحياناً تغادر هذا العالم وتودّع الحياة ولكن الجنين يبقى حيّاً فيستخرج من بطنها ، إذن له استقلال عنها ، بينما علاقة الصورة الذهنية بأنفسنا ليست من هذا القبيل ، فوجود الصورة قائم بأنفسنا ، فلو لم نكن أو لم تكن إرادتنا فإن الصورة لا توجد . وعلاقة الأشياء بالعلل غير الطبيعية هي من هذا القبيل ، وإذا كان اهتمامنا منصبّاً على العلل الطبيعية فإن ذلك لا يعني نفي أيّ لون آخر من العلّية ، وإنما قد جرت عادتنا على الاهتمام بالعلل المادية ، وهناك علل غير

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

طبيعية وفي مستوى أرفع ، ولكنّ همّتنا أحياناً تقصر عن الارتفاع إلى إدراكها .

وخلاصة الحديث هي : أن القضاء الإلهي يبيّن العلاقة بين عالمنا وخالقه ، وهي من قبيل العلاقات فوق الطبيعية (ترانس فيزيك) وليست من قبيل العلاقات التي نشاهدها في حياتنا الطبيعية ، وهي مع ذلك لا تنفي هذه العلاقات وإنما هي مهيمنة عليها وفي طولها ، ولم تجر عادتنا على الاهتمام بهذه العلاقة ، لذا يحاول القرآن الكريم أن يلفتنا إليها . إذن الاعتقاد بالقضاء الإلهي وشموله للأفعال الاختيارية لا يعني نفي الاختيار عن الإنسان ، فالاختيار علاقة بيننا وبين أفعالنا ، بينما القضاء علاقة بين الله وأفعالنا ، وهي علاقة من لون آخر وفي مستوى أرفع . ولكي يتّضح الموضوع أكثر نعود لنذكّر بالمثال الذي ذكره العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه : نتصوّر إنساناً في أذهاننا يذهب باختياره ويؤدّي عملاً طيباً ويوفر له مقدّماته . فمثل هذا الإنسان تصوّرناه وهو يؤدّي جميع أعماله باختياره ، ولكنّه في نفس الوقت محتاج إلينا قائم بأنفسنا ، وإذا لم نكن أو لم نرد أن نتصوّره فإن هذا الإنسان المتصوّر لا وجود له . إن نسبة العالم إلى الله تشبه هذه النسبة ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ ، والعلاقات الطبيعية بين الأشياء محفوظة ، فقد كانت علاقة الفعل بفاعله محفوظة في مورد الإنسان الذهني ، فهو يأكل ويتحرّك ويؤدّي أعماله بإرادته ، ولكنه هو وآثاره وأفعاله وإرادته كلها متوقفة علينا ، فنحن الذين أوجدنا مثل هذا الموجود المختار . إذن : القضاء الإلهي ليس في عرض الأسباب المادية وليس هو بدلاً عنها وإنّما هو فوقها وفي طولها ، وهو لا ينفي الاختيار ، لأن الاختيار ليس في هذه المرحلة ، فإذا كان هناك موجود يعمل شيئاً برضاه فإنه مختار ، وإذا أرغم على عمل شيء فإنه مجبر ، ولكنّ هذين الأمرين يردان في موضوع علاقة الفعل بفاعله الطبيعي أو النفسي ، أما علاقة الفعل بفاعله الإلهي فلا يرد فيها الجبر ولا الاختيار ، فالفعل الاختياري والإجباري كلاهما منتسبان إلى القضاء الإلهي ، فهو يتعلق بعلاقات من مستوى أرفع ، بينما الجبر والاختيار يتعلق بعلاقات الظواهر فيما بينها ، وهي تدور في مستوى أخفض ، فتارة يفكّر الإنسان في شرب الخمر ويقارن ثم يقدم عليه والعياذ بالله ، وتارة

أخرى يقيَّد ويلقى به أرضاً ثم يسكب الخمر في فمه ، ولكنه في الحالتين يتوّقف تصوّره علينا ، فهو على أيّ حال محتاج إلينا (في حالة الإنسان المتصوّر) وكذا ظواهر العالم ، سواء أكانت جبرية أم اختيارية فإنها محتاجة إلى خالقها ، وكل الوجود قائم بإرادته ، وهذا لون آخر من الارتباط ، فارتباط فعلي بالله ليس عوض ارتباطه بي ، فليس الأمر دائراً بين أن يكون الفعل صادراً مني أو من الله ، وإنما هو صادر مني ومن الله وهو ينتسب إليّ في مستوى ، وينتسب إلى الله في مستوى آخر ، فالفعل والفاعل، معاً ينتسبان إلى الله . والإرادة والمريد والمراد تصبح متعلقة لإرادة الله تعالى في مستوى أرفع . ويثار هنا سؤال هو :

إذا كان هذا الموضوع معقداً إلى هذا الحدّ بحيث يصفه الإمام علي (ع) : « بحر عميق فلا تلجوه » .

ولا ينبغي للبسطاء والذين لا يتمتّعون بالقدرة على التفكير العميق أن يتورّطوا فيه ، فلماذا يطرح الله هذا الموضوع للبحث ؟

لماذا يثار مثل هذا الموضوع الغامض الذي يؤدّي بالبعض إلى الانحراف ؟ فنحن نلاحظ أن هذه البحوث قد دفعت البعض للاعتقاد بالجبر فأهملوا في مقام العمل ، وتكاسلوا وأصبحوا طفيليين يعيشون على موائد الآخرين ، ولعل هذا أحد العوامل المهمة التي دفعت بعض الشعوب للخضوع لغيرها ونسيان ذاتها ، فيتسلط القوي وينفّذ ما يريد ، ويساعده الاعتقاد بالجبر على إضفاء صفة الشرعية على أعماله . فإذا كانت لهذه البحوث مثل هذه النتائج فلماذا يطرحها القرآن ؟ ولماذا يتناولها بالبحث الأولياء والمفكّرون الدينيون ؟

الجواب : قد علم مما مرّ من حديث أن لفعل الله مراتب متعدّدة هي : المشيئة والإرادة والقدر والقضاء ، والله سبحانه يريد أن يبيّن للناس هذه المراحل لكي تزداد معرفتهم به ويتكامل توحيدهم له وقد مرّ معنا أيضاً أن أساس القيم الإسلامية هو التوحيد ، وأن منتهى السير المعنوي للإنسان هو نيل حقائق التوحيد ؛ فالإنسان الأكمل هو المدرك للتوحيد أكثر ، فهو يعتقد بالتوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي بمعناه الفلسفي ، ثم يصل إلى معناه

العرفاني خلال سيره وسلوكه ، وهذا هو العارف الذي ينال الكمال الإنساني . وكل من يريد للإنسان أن يقطع شوطاً في طريق كماله فإنه يتحتم عليه أن ينقله من مرحلة من مراحل المعرفة إلى مرحلة أرفع منها ، ولهذا فإن الإسلام يعلمه في البداية توحيداً باهت اللون ، وهو ما يطرح تحت عنوان « الإذن » وعندما يصبح مؤهلاً فإنه لا يكتفي بالإذن بل يضيف إليه « المشيئة » ثم عندما ينضج أكثر يطرح أمامه موضوع القدر والقضاء ، فبيان هذه المراتب هو في الواقع تدّرج في تعليم الإنسان التوحيد الأفعالي . وهناك بُعد آخر لطرح هذه المسألة ، وهو بعد عملي وتربوي ، وقد أشار إليه قوله تعالى :

﴿ ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك على الله يسير ﴾[1] .

في زمان الرسول الأكرم (ص) كان الجو السائد هو العذاب والمصائب والضغط ، في مكة مطاردة المشركين والمقاطعة الاقتصادية والتعذيب والضرب ، وفي المدينة عندما انعقدت نواة المجتمع الإسلامي بدأت الحروب والغزوات ، والكل يعلم أن الحروب تأكل الأخضر واليابس ، وكان بعض المسلمين غير راض باستمرار هذه المشاكل ، لذا كان من اللازم تربية الناس وفتح باب النقاش في هذه المسائل ليتهيأ الناس للرضى بهذه الصعوبات . والآية تقول كل المصائب التي تحلّ بما تملكون أو بأنفسكم إنما هي مسجلة في كتاب ، ولماذا يعلمنا بأنّ مصيرنا معينّ من ذي قبل :

﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[2] .

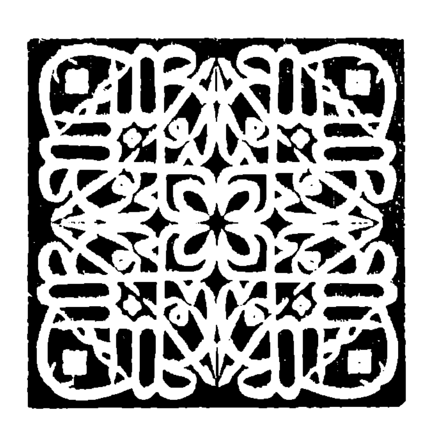
فالإنسان إذا التفت إلى أن هذه الأسباب والمسببات ، هذا النظام العلّي والمعلولي بشروطه الخاصّة إنما هو مورد القضاء والإرادة الإلهية ، وهو مسجل في كتاب ، والقضاء الإلهي تابع للحكمة ، عندئذ لا يشعر بالحزن والأسى على ما يلاقيه من محن ، ولا يصاب بالطيش والغرور عند النصر ، بل في كلتا

(١) سورة الحديد : الآية ٢٢ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٢٣ .

الحالتين يتجه إلى الله ويدرك حاجته إليه . إذن إحدى حِكَم بيان القضاء الإلهي ونسبة الأفعال لله هي هذه النتيجة المؤثّرة في الروحِ الإنسانيـة ، فتنقذها مـن اليأس والطيش ، وتربيّها على التوجّه إلى الله سبحانه .

والله من وراء القصد والحمد لله رب العالمين .



محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة



معارف القرآن

القسم الثاني

في معرفة الله

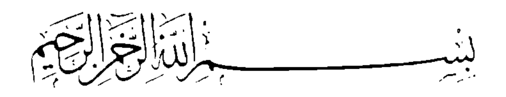
تاليف

الاستاذ محمد تقي المصباح

تعريب

محمد عبد المنعم الخاقاني

الدار الاسلامية





معرفة العالم

لقد قمنا في الجزء الأول من هذا الكتاب بتقسيم المباحث القرآنية إلى عشرة أقسام رئيسية ، وتناولنا في ذلك الجزء (معرفة الله) بالمقدار الذي أعاننا الله عليه ووفقنا له ، ونحاول في الجزء الثاني من هذا الكتاب ـ وهو الذي بين أيدينا الآن ـ أن ندرس الموضوع الثاني . الذي هو معرفة العالم ، بعون الله .

وقبل الدخول في صميم الموضوع ينبغي لنا أن نشير إلى ملاحظتين :

الملاحظة الأولى :

إن البحث حول العالم والطبيعة والإنسان جاء في القرآن الكريم بشكل استطرادي وتطفلي ، ولعلنا لا نجد أي آية تتعرّض لذكر خلق العالم وكيفية وجود السماوات والأرض بصورة مستقلة ومباشرة ، وإنما هو يتناول هذه المواضيع لأغراض أخرى ويذكرها بشكل التطفل :

ففي موارد كثيرة منه يجري الحديث عن خلق العالم وأنواع المخلوقات لإيقاف الإنسان على العظمة الإلهية وما أودع الله في المخلوقات من حكم وأسرار .

وفي بعض الموارد نلاحظ أنه يذكر بالتفصيل نعم الله في السماء والأرض ليكون ذلك دافعاً للشكر ومعرفة الحق . ولعلّه يهدف في جميع الموارد إلى تربية

الإنسان بحيث ينظر إلى العالم من جهة كونه مخلوقاً لله وتحت تدبيره ، فتتفتّح معرفته النظرية وعلمه الحضوري ويقوى ويشتد . وهناك دوافع أخرى يجدها الإنسان في الكتب التي تتوسع في شرح الآيات .

إذن في جميع هذه الآيات يحاول ـ ضمن الإشارة إلى كيفية خلق الموجودات ـ أن يمسك بيد الإنسان ويقوده برفق إلى معرفة الله بحيث يصبح قلبه متعلقاً بالله عز وجل .

وبعبارة أخرى : إنَّ القرآن ليس كتاباً في علم الفيزياء ولا في علم الكيمياء ولا في علم النبات ولا في علم الحيوان ولا في علم طبقات الأرض ولا في علم الفلك ، وإنما القرآن كتاب لتربية الإنسان وصياغته وقد أنزل لكي يدل الإنسان على ما هو في أمسّ الحاجة إليه وهو طريق تكامله الحقيقي (أي التقرّب إلى الله تعالى) .

إذن كل ما يذكر في هذا الكتاب العظيم مما يتعلق بهذه المجالات فإن ذلك بسبب ما له من ارتباط بهذا الهدف وبسبب ما له من تأثير في سبيل تحققه .

وقد حاول بعض الذين لم يتضلّعوا في معرفة القرآن الكريم أو الذين انجرفوا مع التيارات والثقافات الغربية ، حاول هؤلاء أن ينسبوا إلى القرآن ، ومن دون دليل ، أموراً دخيلة عليه ، أو يتوسلوا ببعض آياته لاكتشاف بعض المسائل العلميّة ، حتى انتهى الأمر ببعضهم إلى الادعاء : بأن كل شيء يمكن استخراجه من القرآن الكريم ، قائلاً : إن الغربيين قد استنبطوا جميع علومهم الصناعية من القرآن العزيز !

ونستطيع أن نعتبر تفسير (الطنطاوي)[1] نموذجاً لهذا الاتجاه المنحرف .

إنه عاش في عصر كانت فيه العلوم الغربية قد وردت حديثاً إلى مصر

---

(١) الطنطاوي (١٢٨٧ ـ ١٣٥٨) هـ ق ، أستاذ في دار العلوم بالقاهرة ، وهو شاعر وفيلسوف وكاتب مصري ، وله مؤلفات عديدة ، منها : الأرواح ، أصل العالم ، أين الإنسان ، التاج المرصّع بجواهر القرآن والعلوم ، جمال العالم ، جواهر العلوم ، سوانح الجوهري ، الزهرة ، نهضة الإمامة وحياتها ، و. . . .

وسيطرت الثقافة الأوربيـة على أفكار المسلمين، فهو في كتابه (جواهر القرآن) قد حاول أن يطبق الايات القرآنية على كثير من المسائل العلمية ظنّاً منه أن ذلك يزوّد المسلمين بمناعة تحفظهم من الانخداع بالثقافة الغربية ! ولعلّه إذا سئل : هل يمكن اكتشاف معادلة القنبلة الذرية من خلال آيات القرآن ؟ فإنه لا يعدم الرغبة في الجواب بـ « نعم » ! .

واعتقد بعضهم ـ متأثراً أيضاً بـ بثقافة الغربية ـ أن القرآن يدعو الناس إلى معرفة الطبيعة والحرص على العلوم الطبيعية وهو يريد عن هذا الطريق أن يظفر المجتمع الإنساني بالرقي والتكامل العلمي والصناعي، أما الأساليب القياسية ـ كما يقول هؤلاء ـ فهي ترسبات انحدرت إلينا من الثقافة اليونانيـة ، والقرآن يحاربها لأن أسلوبه استقرائي[1] ، ويؤيد ذلك أنه يحثّ على دراسة الطبيعـة ، وهي لا تتمّ إلّا بالأسلوب التجريبي والاستقرائي[2] .

ويواصلون حديثهم بالقول : إنَّ المسلمين في صدر الإسلام قد تعلمـوا هذا الأسلوب من القرآن وحققـوا بفضله تقدمـاً في بعض المجالات ، ولكنهم شيئاً فشيئاً انسلخوا عنه وسيطرت على عقولهم الثقافة اليونانية فـأبعدتهم عن طريقهم السليم وألقت بهم في المتاهات الفلسفية .

ونحن الآن إذا أردنا العودة إلى القرآن الكريم فلا بد أن نـطرح جانبـاً الأسلوب القيـاسي (والنظري اليـونـاني) ثم نعـود إلى أجـواء القـرون الأولى لـلإسلام فنلزم أنفسنـا بالأسلوب التجـريبي وهو الأسلوب الـذي ينال تـأييد القرآن .

وأحياناً يستدلون على رأيهم بأن القـرآن مليء بـالآيات الـواردة في مجال معرفة الطبيعة ، وحتى أن أسماء سور عديدة من القرآن مأخوذة من الموجودات الـطبيعية مثـل : النحل ، البقـرة ، العنكبوت ، النمـل ، الفيـل ، التـين ، المائدة ، الأنعام ، الرعد ، النور ، الزخرف ، الـدخان ، النجم ، القمـر ،

---

(١) inductive .

(٢) empiric Empirique .

الحديد ، الفجر ، الشمس ، الليل ، الزلزلة ، . . . . وهذا يدل على أن القرآن يريد أن يلفت تابعيه للطبيعة وعالم المحسوسات والتجربة ، وأن يبعدهم عن الفلسفة وأفكارها الانتزاعية لأنها لا تثمر شيئاً سوى التيه والضلال .

وهناك فئة أخرى تقول : إنَّ أسلوب القرآن الكريم هو أسلوب تحققي تحصلي[1] ، وعليه إذا أردنا الاستفادة بشكل صحيح من أسلوب القرآن فلا بد لنا من تبني الفلسفة الوضعية[2] ، ونحن نعلم أن الوضعية ولو كانت فلسفة بالإسم ولكنها في الواقع إنكار للفلسفة .

وحقيقة الأمر هي أن هؤلاء قد امتلأت أذهانهم بمفاهيم الثقافة الغربية قبل تعرفهم على القرآن بشكل حقيقي ، وها هم أولاء يروجون سوق الثقافة الغربية باسم المقاومة ضد الثقافة الغربية بوعي منهم أو من دون وعي ، وشاهد ذلك أننا نلاحظ انحسار الأسلوب الفلسفي والقياسي في الغرب وانتشار الفكر التجريبي والأسلوب الاستقرائي في مؤسسات العلم الغربية ، وقد أثر ذلك على هؤلاء فانساقوا إلى هذا الاتجاه في العقود الأخيرة متمثلين بتلك الأفكار المعلبّة ومطأطئين رؤوسهم لعوامل الثقافة الاستعمارية .

ونحن في هذا المجال المحدود لا نستطيع التحقيق في صحّة الأسلوب التجريبي والاستقرائي ، وإذا كان صحيحاً ففي أي مجال يمكن الاستفادة منه وفي أي مجال يكون عقيماً ، وهل يمكن في كل مجال أن يحل الأسلوب التجريبي محلّ الأسلوب القياسي أم لا ؟ . . .

إن هذا الموضوع بنفسه بحث فلسفي ويتعلق بمسألة المعرفة[3] ونحن نؤكد فقط على هذه الملاحظة وهي أن تشبث هذه الفئة بأسماء سور القرآن مثل التشبث ببيت العنكبوت وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ **إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت** ﴾[4] .

---

(١) (٢) positivism .

(٣) epistemology .

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٤٠ .

إن هذه السور قد سميت بتلك الأسماء بمناسبة القصة المذكورة في كل سورة منها ، فالإسم عنوان للسورة ، وليس الأمر كما ظن هؤلاء من أنه : « علامة حث القرآن على معرفة الطبيعة » . معتمدين في ذلك على الاستحسان والتفسير بالرأي .

فسورة البقرة مثلاً تحتوي على مئتين وست وثمانين آية وليس فيها ما يتعلق بقصة ذبح البقرة من قبل بني إسرائيل إلا بضع آيات ، ولا نجد أي إشارة إلى ماهية البقرة ومنافعها و. . . . خلال هذه الآيات . وكذا الأمر في سورة العنكبوت وو . . .

الملاحظة الثانية :

لما كانت الآيات المتعلقة بالعالم والكون ـ كما ذكرنا من قبل ـ استطرادية وتطفلية فإن القرآن الكريم لم يتناول هذه المجالات بالدراسة المستوعبة ، بل اكتفى في مورد الموجودات بما يحقق هدف القرآن الذي هو هداية الناس ، ولهذا كانت هذه الآيات ـ على العكس من الآيات الأخرى ـ مغلّفة بالابهام بحيث لا يستطيع الباحث أن ينسب للقرآن رأياً يقينياً في هذه الموارد . إذن لا بد أن نحتاط ونتورّع كثيراً في هذه الآيات ونقتصر على التذكير بهذه الموجودات المذكورة في هذه الآيات دون أن نندفع في تفسيرها ونتعسف في معانيها .

ولهذه الغاية لا بد من مراعاة هذه الملاحظة المهمة وهي : « أننا لا بد أن نكون بصدد فهم الآية بشكل حقيقي » ، لا أننا نكون قد قبلنا شيئاً من قبل ثم نحاول تطبيق ذلك على الآيات فنفرض على القرآن المعنى الذي نريده ، سواء أكانت هذه الأحكام المسبقة تتعلق بالمفاهيم الفلسفية أم بالأمور العرفانية أم بالعلوم التجريبية أم بعلم الاجتماع أم بغيرها ، فإن هذا التورّط يعتبر أمراً شديد الخطورة للغاية .

إذن لا بد من الحرص على تفسير القرآن بالأسلوب الذي يدعو إليه القرآن نفسه : فإذا ظفرنا بآية تنطبق ـ حسب قواعد المحاورة ـ على نظرية مّا (فلسفية كانت أو علمية أو . . .) فيا حبذا هذا الوفاق ، وإلا فلا بد أن لا

نتعسف في تطبيق الآيات على النظريات المتداولة في عصرنا ، بل نقتصر على الموارد التي يفهم منها التطابق بشكل واضح بين آيات القرآن ونظريات العصر ، أما خارج هذه الحدود فلا بد لنا من التزام الصمت .

وليس من الضروري أن يكون القرآن قد قدم نظرية معينة بالنسبة لمسألة علمية ، لأن القرآن لا يهدف إلى حل المسائل العلمية ، ولكن كل ما يقوله القرآن فهو حق ، فإذا كانت فيه إشارة إلى ملاحظة علمية بحيث تدل عليها ألفاظ القرآن حقاً فإننا نسلّم بصحّتها ولا نتردد في ذلك على الإطلاق ، وحتى لو فرضنا أن آلاف العلماء قد اختاروا خلاف ذلك ، ولكن روح الحديث هنا فإذا لم يظهر من الآية شيء معين ولم يُشرق من خلالها فلا بد لنا من الكفّ عن فرضه عليها ، ولو اتفق على صحّته جميع الفلاسفة والعلماء (وإن كان هذا الأمر لا يتصور حدوثه) .

ويتفق كثيراً أن يستفيد الفلاسفة المسلمون شيئاً من الآيات القرآنية أو يستظهروه منها أو يطبقوها عليه، ولكن تلك الآية ـ كما مرت الإشارة إلى ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ـ لا تدل على ذلك الشيء ، ومن جملة هذه الموارد قوله تعالى :

﴿ له الخلق والأمر ﴾[1] .

حيث اعتقد كثير من العرفاء المسلمين أن المقصود من **﴿ الأمر ﴾** في الآية هو عالم المجردات ، وقد نبّهنا هناك على أن الآية لا تدل على هذا المعنى .

والأغرب من ذلك أنه أحياناً يوجد اختلاف واضح بين مفهوم الآية والفرضية المقبولة في عصر أمثال هؤلاء المفسرين بحيث لا يمكن تطبيقها عليها ، ولكنهم يطبقونها عليها بمشقّة وعسر ، كما جرى ذلك في « فرضية بطلميوس الفلكية »[2] في علم الهيئة القديم حيث كانت الأرض تعتبر مركز

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٢) بطلميوس ptolemaos منجم وجغرافي يوناني معروف (عاش في القرن الثاني الميلادي) وهو =

العالم وهم قائلون بأن هناك أفلاكاً تسعة تحيط بالأرض :

القمر ، عطارد[1] ، الزهرة[2] ، الشمس ، المريخ[3] ، المشتري[4] ، زُحَل[5] ، فلك البروج[6] ، فلك الأطلس[7] .

= صاحب كتاب المجسطي وآثار البلاد . وقد كان يعتقد بأن الأرض ثابتة وهي مركز العالم وأن الأفلاك تدور حولها .

(١) عطارد mercury أصغر سيارات المنظومة الشمسية ، وهي أكبر من القمر بمرة ونصف ، وهي بالنسبة إلى الشمس مثل القمر بالنسبة إلى الأرض . ومدة حركتها الانتقالية والوضعية (٨٨) يوماً (بسبب صغر حجمها فإنها تدور مرة واحدة حول محورها طيلة فترة حركتها الانتقالية) ، ويكون أحد جوانبها مواجهاً دائماً للشمس فيومه وسنته سواء . ويعتبرها اليونانيون رب النوع للخطابة والتجارة . وقد تصورها القدماء سيارة في الفلك الثاني ، ويسميها الأدباء برئيس الفلك .

(٢) الزهرة Venus: هي السيارة الثانية في المنظومة الشمسية ، وهي مساوية للأرض وأقرب السيارات إليها ولا سيما إذا كانتا معاً في جهة واحدة من الشمس حيث يكون البعد بينهما عندئذٍ (٣٠) مليون ميل . ويمكننا رؤية قرصها بشكل كامل إذا كانت مواجهة للأرض والشمس على بعد (١٦٩) ميلاً . وفترة حركتها الانتقالية (٢٢٥) يوماً ، أما حركتها الوضعية فليست معلومة لحد الآن .

(٣) المريخ Mars ، من سيارات المنظومة الشمسية ، وهي أصغر من الأرض ، فترة حركتها الانتقالية (٦٨٧) يوماً وحركتها الوضعية (٢٤) ساعة و (٣٧) دقيقة . وقد اكتشف وجود الماء في كرة المريخ . ومع أن جوها أشد برودة من جو الأرض (تصل درجة الحرارة فيها خلال النهار إلى (١٥) درجة مئوية فوق الصفر ، وتنخفض خلال الليل إلى (٤٠) درجة مئوية تحت الصفر) بسبب بعدها عن الشمس (بالقياس إلى الأرض) ، ولكن فصول السنة فيها تشبه تقريباً فصول السنة في الأرض . وقد حملت الخطوط الموجودة على سطحها العلماء للقيام بدراسات عديدة وابداء وجهات نظر مختلفة حول وجود الحياة فيها أو عدمها . وتوجد نسبة ضئيلة من الأوكسجين في جو المريخ ، وهي تقارب نسبته على قمة جبال « افرست » . وتعتبر كرة المريخ رب النوع للحرب في اليونان القديمة .

(٤) المشتري jupiter: من أكبر سيارات المنظومة الشمسية ، ويكون الهواء المحيط بأطرافها رقيقاً .

(٥) زُحَل saturne من سيارات المنظومة الشمسية ، وهو يعادل الأرض (٧٠٠) مرة تقريباً . له ثمانية أقمار ويحيط به غلاف نوراني . فترة حركته الانتقالية ٢٩/٥ سنة . وكان القدماء يعتبرونه سابع السيارات والنحس الأكبر .

(٦) فلك البروج : هو الفلك الثامن كما جاء في الصور الفلكية (الحمل ، الثور ، الجوزاء . . .) ، =

لقد كانت هذه الفرضيـة مشهورة ، ولـما كانت هـذه الفرضيـة العلمية مقبولة في تلك الأزمان الغابرة فقد تعرّف عليها المسلمون الأقدمون ، واندفـع بعض المفسـرين ـ متأثـرين بالأجـواء العلمية السـائدة في عصـورهم ـ لاعتبار السماوات السبع الـوارد ذكرهـا في القرآن الكـريم هي تلك الأفلاك السـابقة الذكر ، ولما لاحظوا أن عددها لا ينطبق على عدد الأفلاك التسعة فقد لجأوا إلى هذا التأويل فقالوا : لقد تحـدث القرآن أيضـاً عن العرش[1] والكـرسي[2] ، وعلى هذا فـالكرسي فلك وراء تلك الأفـلاك السبعة وهـو فلك البروج ، أمّـا العرش الذي هو أرفع من الجميع فيعتبر فلك الأطلس .

وقد مرت قرون متوالية وهذا التفسير مقبول عند جميع المحافل العلميـة الإسلامية ، حتى تبين للباحثين أنه لا أسـاس للأفـلاك التسعة ، وأن الأرض ليست مركزاً للعالم ، وأنه لا وجود للفلك بالمعنى الذي يقول به القدماء ، وأن السيـارات ليست هي بعدد مـا كان يـظنـه أولئـك ، وأن الشمس ليست من السيارات . . . فتمزّقت لحمة وسدى تلك الفرضية العنكبوتية .

وهناك فئة من العلماء ـ الذين يتمتعون أيضاً بحسن نيّة ـ عندما وجدت أن السيارات قد وصل عددها إلى السبع فقد ظنت أنها هي المقصودة من تعبير

= ويـسمى جانب منه بمنطقة البروج ، حيث تـستقر عليه البروج الاثنا عشر حـسب ترتيبها ، وهو يأتي بعد فلك زحل وقبل فلك الأفلاك .

(٧) فلك الأطلس : وهو عبارة عن فلك الأفلاك الذي يطلق عليه بلسـان الشرع اسم العـرش . فالأطلس يعني الدرهم غير المسكوك ، فكما أن الدرهم غير المسكوك خالٍ من النقوش فكـذا الفلك التاسع الذي هو العرش فهو أيضاً خالٍ من نقوش الكواكب (غياث اللغات) معجم دهخدا .

(١) العـرش : الجسم المحيط بالعـالم وهو فلك الأفـلاك يسمى بالعـرش ، وفلك الثـوابت يسمى بالكرسي (معجم العلوم العقلية) . يطلق العرش في اللغة على مطلق الكرسي ، فيقال عرش بلقيس ، ويـطلق العرش في الاصـطلاح الشرعي عـلى فلك الأفلاك (كشـاف اصطلاحـات الفنون) .

(٢) الكـرسي : الـسريـر ، العـرش . كـنـايـة عن العلم والملك والقـدرة والتـدبـير لله سبحـانـه ، ج كراسٍ .

القرآن بـ ﴿ **السموات السبع** ﴾ ، ثم ازداد عدد السيارات على السبع فقال هؤلاء أن القرآن لم يحسب حساباً لما لا تراه العين المجردة غير المسلّحة ، وبعد أن أدركوا أن الخصائص المذكورة في القرآن لا تنطبق على هذه السيارات قالوا إن المقصود من السماوات هي المجرّات ، ولما لم يجدوا العدد مطابقاً أيضاً زعموا أن المقصود من ﴿ **السبع** ﴾ ليس هو العدد سبعة وإنما هو مطلق « الكثرة » !

أجل إن ما ذكرناه نماذج من التصرفات المتعجّلة التي قام بها بعض المفسرين أو بعض المتصدين للتفسير (لأن بعضهم ليس مؤهلاً لإطلاق إسم المفسّر عليه) ، وهذا مما يدعو إلى الأسف العميق والألم الممض .

ويبقى علينا نحن أن نتّعظ بهذا الإسفاف وأن لا ننسج على هذا المنوال وأن لا نقيم التفسير على هذه الأسس المهتزّة المضطربة فنتورط في تلك الاشتباهات . فقبل الانصراف إلى التحقيق في القرآن الكريم لا بدّ لنا من القيام بغسل أذهاننا من كل الأحكام المسبقة بحيث نفكر وكأننا لا نعلم شيئاً عن موضوع التحقيق ، ولنُلْزِم أنفسنا بأن السبيل الوحيد لمعرفتنا هو القرآن نفسه ، متمسكين بأسس المحاورة ودلالة الألفاظ ، وليس لنا أن نقيم فهمنا على أساس علم الأعداد وحساب الأبجد و. . .

فالقرآن قد أنزل بلسان عربي مبين . ولا يصدق على الأبله الأميّ القليل المعرفة أنه من أهل المحاورة ، وإنما يصدق على من هو ملّم باللغة وأصول التحاور بحيث يريد أن يفهم شيئاً من القرآن بذوق عقلائي .

ومن الواضح أننا نصادف في بعض الأحيان لفظاً يحتوي ملاحظات دقيقة بحيث لا يتسنى للمطلعين على الألفاظ فهمها إلاّ بعد جهود مضنية ، ولكن هذا لا يصلح عذراً لتفسير الآيات بعيداً عن أصول المحاورة . وهذا الموقف يشبه موقف المفسر السياسي عندما يستمع إلى خطاب أحد السياسيين فإنه يستطيع استخراج ملاحظات دقيقة من ذلك الخطاب لا تخطر على أذهاننا ، وهذا الفهم لا يتصادم مع أسس المحاورة ، ولكن هذه الملاحظات تبقى مخفيّة عنا لأننا بعيدون عن هذه الأجواء .

إن القرآن الكريم يضم إشارات ظريفة جداً وملاحظات دقيقة وكلما كان الإنسان أكثر اطلاعاً على القرآن فإنه يفهمها بشكل أفضل وأعظم ، إذن مقصودنا من التفسير حسب أصول المحاورة هو أن لا نفرض على القرآن آراءنا ورغباتنا .

إذن لا بد لنا من التعمق كثيراً ، ولكنه لا ينبغي لنا أن نضيف إليه شيئاً من أنفسنا .

نأمل أن يلتفت الجميع إلى أهمية هذه المسألة ، ولنضع نصب أعيننا أن مُنزل القرآن ـ العليم بأسراره أكثر من أي أحد سواه ـ سوف يستنطقنا عن أي شيء ننسبه إلى القرآن وذلك في يوم لا تنفع فيه الحسرة ولا الندم .

الآيات المتعلقة بمعرفة العالم

يعلم المطّلعون على لسان القرآن أن هذا الكتاب العظيم عندما يتحدث عن هذا العالم المحسوس (الذي نستطيع التعرّف عليه بشكل أو بآخر) فإنه يستعمل التعبير بالسماوات والأرض :

﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض** ﴾[1] .

وأحياناً يضيف إلى ذلك كلمة ﴿ **ما بينهما** ﴾ للتأكيد ولكي يكون شاملاً لما تحتويه السماوات والأرض :

﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾[2] .

ونواجه هنا بعض الأسئلة :

هل السموات والأرض وما بينهما هي كناية عما سوى الله ، أي هل مقصود القرآن من هذا جميع ما عدا الله من الكائنات الموجودة ؟ أم أن هذا

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الدخان : الآية ٣٨ .

التعبير إشارة فقط إلى هذا العالم الذي نعرفه أو نستطيع التعرف عليه ، وقد تكون هناك عوالم أخرى ولكن هذا التعبير غير ناظر إليها ؟ .

وينحلّ هذا السؤال بنفسه إلى سؤالين آخرين :

١ ـ هل هناك موجودات مادية أخرى غير ما نعرفه قد انصرف عن ذكرها القرآن المجيد فلا يصبح التعبير بالسموات والأرض شاملاً لها ، أم أن هذا التعبير كناية عن العالم المادي بأجمعه ؟ .

٢ ـ وعلى أساس الفرض الأخير ، أي شمول السموات والأرض لكل العالم المادي ، أيكون ذلك بمعنى نفي المجردات ، أم لا يلزم من ذلك نفي العوالم غير المادّية فقد تكون هناك عوالم أخرى ولكن مثل هذه التعبيرات ﴿ **السموات والأرض وما بينهما** ﴾ لا تتضمن الإشارة إليها ؟ .

لعلّه من الأنسب أن نبدأ من معنى السموات والأرض ، فنتساءل هل المقصود من السموات والأرض هي الموجودات المادية فقط أم أن هذا التعبير شامل للمجردات أيضاً ؟ وإذا لم يكن شاملاً للمجردات فإننا نواجه هذا السؤال : هل توجد بين المخلوقات عوالم أخرى غير عالم المادة بحيث تكون مجردة منها وليس في القرآن إشارة إليها ؟ .

لكي نعرف مقصود القرآن من التعبير بالسموات والأرض لا بدّ لنا من دراسة الآيات التي تشير إلى ماهية السماء والأرض : فهل السماء بمعنى الجهة العليا والأرفع ، أي بمعنى « الفوق » أم هي بمعنى الموجود العالي والرفيع كما يبدو من أصل اشتقاق هذا اللفظ الذي هو « السمّو » ؟ .

الظاهر أن القرآن الكريم لم يستعمل لفظ السماء بمعنى « الفوقية » والجهة العليا ، وقد تطلق السماء مجازاً أو تسامحاً ويراد بها الجهة العليا أو الفوق ولكن كلمة السماء ليست هي بمعنى الفوق لأن « الفوق » لا يجمع ، والجهة العليا لا تتعدد ، وما يتبادر إلينا من « الفوق » لا يدل على ذات ما ، بينما نلاحظ أن القرآن الحكيم قد استعمل أولاً : السماء كثيراً بصورة الجمع ، ثانياً : قد ذكر « السماء » بعنوان أنها موجود حقيقي وذات واقعية لا أنها جهة فحسب .

وهنا يأتينا هذا السؤال : هل هذا الموجود وهذه الذات العالية مادية أم مجردة أم هي أعم ؟ لأننا عندما نأخذ بعين الاعتبار كلمة « العلو » فإن المصاديق الحسيّة تتبادر إلى أذهاننا في البداية ، ويكون هذا التبادر بسبب إلفنا للمحسوسات ، ولهذا فهو لا يحدد المعنى الحقيقي ، وعلى هذا فإذا قرأنا هذه الآية الشريفة :

﴿ **وإن الله هو العلي الكبير** ﴾[1] .

فلا يجوز لنا أن نقول أن ظاهر اللفظ يدل على :

« إن الله حالّ في الأماكن العليا جداً » !

هذا التبادر ليس من ذات اللفظ وإنما هو بسبب أنسنا بالمحسوسات ، ولهذا فإنه لا يمكن الاكتفاء به والوصول إلى الحقيقة من خلاله .

وهذه أسئلة أخرى :

هل هذه السموات الموصوفة أحياناً بأنها ﴿ **سموات سبع** ﴾ وأحياناً أخرى مذكورة بالعدد فقط ﴿ **سبعاً شداداً** ﴾[2] هي مادية أم غير مادية ؟ .

إذن أولاً : هل توجد في القرآن إشارة إلى السماء المادية أم لا ؟

ثانياً : هل هذه السموات المذكورة مع الأرض مادية أم غير مادية ؟ .

ثالثاً : هل هي مخلوقة من مادة موجودة من قبل أم لا ؟ وإذا كانت مخلوقة من مادة قبلية فما هي تلك المادة ؟ .

رابعاً : ما هي مصاديق السموات السبع ؟ .

كل ما نستطيع ادعاءه حسب ما وصل إليه فهمنا للقرآن الكريم هو أن السموات السبع ماديّة . ونحن لا ننكر أن السماء قد تستعمل بمعنى غير مادي وقد تكون واردة بهذا المعنى في آيات القرآن العزيز ، ولكن هذه السموات المستعملة مع « الأرض » وعددها سبع سموات إنما هي مادية .

---

(١) سورة الحج : الآية ٦٢ ، وسورة لقمان : الآية ٣٠ .

(٢) سورة النبأ : الآية ١٢ .

ويحتاج هذا الادعاء إلى دليل فلنتأمل في هذه الآية الكريمة :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخـان فقال لهـا وللأرض إئتيا طوعـاً أو كرهاً : قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سـموات . . . ﴾[1] .

« ثم » : تفيد معنى الترتيب سواء أكان ترتيباً زمانياً أم لفظياً .

« وهي دخان » : الظاهر أن الواو هنا حالية ، أي في حالة كون السماء دخاناً ، أو بالتعبير المعاصر في حالة كونها غازاً .

مـا المقصود من هـذه المكالمـة ، هل جـرت مكـالمـة حقيقيـة وسمعتهـا السـموات والأرض ، أم أن هذا التعبير كناية عن انقياد المخلوقات للخالق ؟ .

ليس هذا مورد بحثنا الآن .

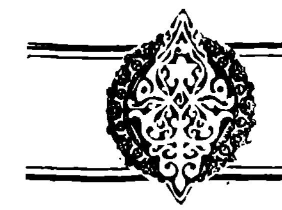
إذن بالتالي خلقت سبع سـموات ، ويظهر من الآية أن ما أصبح فيها بعد سبع سـموات كان في البدء موجوداً واحداً وماهيته أنه دخان (أو غاز) ، والله جل جلاله أخرجه بصورة سبعة موجودات فكانت السـموات السبع .

فلو احتمل أحد أن هذا الدخان (أو الغاز) ليس مادياً ، فلا بد له من اتهام ذهنه حسب الظاهر ! أن الدخان دخان مادي ، وإيجاد سبع سـموات منه تعبير يستعمل في الماديات ، ولا يرد هذا التعبير في المجردات .

إذن قد ظهر من الآية أن السـموات السبع مادية .



(١) سورة فصلت : الآيتان ١١ ـ ١٢ .



السماء والأرض

أ ـ السماء

إن ما استظهرناه من الآية السابقة من كون السماء مادية بسبب كونها دخاناً لا يصلح دليلاً على أن « السماء » في كل مجال هي بمعنى مادي ، فقد تستعمل في بعض الموارد بمعنى العلو في مرتبة الوجود وبمعنى الموجود العالي ، كما في هذه الآية :

١ ـ ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾[١] .

فرزقكم وما توعدون (يظهر أن المقصود منه هو الجنة) في السماء .

وقد يقول بعضهم أن المقصود من كون رزقنا في السماء هو أن الماء ينزل من الماء وهو سبب الحياة ، فالآية تعتبر السماء منشأ للرزق .

ولكن هذا مجاز ، والرزق ليس في السماء حقيقة ، وكان من الأنسب حينئذٍ أن يقول :

﴿ وفي الأرض رزقكم ﴾ .

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٢٢ .

لأن رزق الإنسان في الواقع ليس إلّا في الأرض .

إذن في مورد هذه الآية على أقل تقدير يكون الاحتمال الراجح والأنسب هو كون المقصود من السماء هنا العالم فوق المادي ، وحسب ما يبدو من ظاهر بعض الآيات الأخرى هو أن كل موجودات هذا العالم المادي نازلة من ذلك العالم فوق المادي :

﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه ﴾[1] .

فكل شيءٍ هناك ثم ينزل إلى عالم المادة ، و« رزق » الإنسان أيضاً لا بد أن يكون نازلاً من عند الله .

فالاحتمال قوي في كون المقصود من السماء في هذه الآية هي السماء المعنوية ، وهي قابلة للتطبيق على المباحث العقلية أيضاً ، فالعالم المادي مرتبة نازلة من المجردات ، ويكتسب وجوده من المرتبة الأعلى منه ، ومن جملة ذلك رزق الإنسان فهو لا بد أن يكون نازلاً من تلك المرتبة الوجودية الأرفع .

والظاهر أن كون الجنة في السماء أيضاً هو من هذا القبيل ، أي أن الجنة ليست في إحدى الكرات السماوية حسب الظاهر ـ ولو أن البعض يتخيل الأمر بهذا الشكل ـ ففي يوم القيامة تتغير هذه العوالم كلها :

﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾[2] .
﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾[3] .

فحقيقة الجنة موجودة الآن في عالم آخر ، وفي يوم القيامة تتجسم ويجد الناس أنفسهم في ذلك العالم .

٢ ـ الآية الأخرى الواردة في هذا المجال :

﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢١ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤٨ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٦٧ .

يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين ﴾[1] .

إن أبواب السماء موصدة أمام الذين يكذبون بآيات الله ولن تفتح لهم ، فهل لهذه السماء المادية أبواب يلج منها المؤمنون إلى الجنة وهي مغلقة الأبواب دون الكفار ؟ .

ظاهر الآية وذيلها يدلان على أن من تفتح له أبواب السماء فهو يدخل الجنة ، وهذا يؤيد أن الجنة في السماء ، وأن أبواب السماء ـ التي فيها الجنة ـ لا تفتح أمام الكفار .

ولا يهمّنا الآن التعرّض لهذا الموضوع وهو : هل أن تلك السماء جسمانية أم لا ؟ وما هي حقيقة الجنة ؟ ولكننا نعتقد أن المعاد جسماني ، وكما أن « رزقنا » جسماني وهو نازل من ذلك العالم ، فكذا الجنة لا مانع من كونها ماديّة وجسمانية وهي نازلة من عالم غير مادي ، وهذا النزول ليس مكانياً كما لم يكن نزول « الرزق » مكانياً .

٣ ـ ومن تلك الموارد هذه الآية الكريمة :

﴿ إذ قال الحواريون يا عيسىٰ بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء ﴾[2] .

فدعا عيسىٰ ـ على نبينا وآله وعليه السلام ـ قائلاً :

﴿ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا . . . ﴾[3] .

فهل هذه المائدة قد أنزلت من سماء جسمانية أم من عالم المجردات ؟ .

من المستبعد أن تكون هذه المائدة موجودة في إحدى الكرات السماوية ثم أنزلت من هناك على حواريي عيسى (ع) .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٤٠ .

(٢) (٣) سورة المائدة : الآيات ١١٢ ـ ١١٤ .

٤ ـ يقول الله تعالى في كتابه المجيد :

﴿ يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ﴾[١] .

يعني أن الله يدبر أمر العالم من السماء نحو الأرض ثم يصعد إليه في هذا اليوم المقدّر بألف سنة من سنينكم .

فقوله **﴿ إلى الأرض ﴾** يدل على أن التدبير قد ضُمِّن معنى النزول ، ولهذا كان متعدياً بـ « إلى » ثم يقول : إن هذا « الأمر » يصعد إليه مرة أخرى ، والظاهر أن الضمير في قوله « إليه » عائد إلى الله تعالى لا إلى شيء آخر ، ولو كان الضمير عائد إلى السماء لقال « إليها » .

وواضح أن السماء في هذه الآية أيضاً بمعنى العالم المجرد ، لأن الله سبحانه ليس في السماء ، بل هو تعالى حاضر في كل مجال ، إذن يمكننا أن نستنتج أن المقصود من السماء في هذه الآية ليس شيئاً جسمانياً ، وإنما هو ذلك العالم المجرد الذي فيه خزائن كل شيء .

وهناك آيات أخرى أيضاً يمكن أن يستفاد منها كون السماء اللاجسمانية موجودة أيضاً .

* * *

ويبدو من بعض الآيات (ويمكن اعتبارها الفئة الثالثة في الحقيقة) أن المقصود من السماء فيها ليس إحدى السموات السبع ، وذلك في مثل قوله تعالى :

﴿ أنزل من السماء ماءً ﴾[٢] .

وسوف نذكر فيما بعد أن السموات السبع ـ حسب استظهارنا من

---

(١) سورة السجدة : الآية ٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٢ .

الآيات ـ لا تدركها أبصارنا وهي محيطة بكل ما نراه ، فالماء أيضاً لا يتّم إنزاله من أي كرة أخرى وإنما مكان نزوله هو جوّ الأرض نفسها .

فالسماء في الواقع قد استعملت في هذه الآيات بالمعنى الثالث غير السموات السبع الماديّة وغير السماء التي تعني عالم المجردات .

ب ـ الأرض

١ ـ في القرآن الكريم تستعمل كلمة « الأرض » بمعنى الكرة الأرضية من دون شك ولا ريب ، ولكنه في بعض الموارد قد استعمل هذا اللفظ « الأرض » بمعانٍ أخرى .

٢ ـ إن « الأرض » بمعنى الكرة الأرضية اسم خاص أي أنه علم شخصي ، ولكن الأرض تستعمل أحياناً بمعنى « قطع الأرض » وبهذا المعنى تغدو صالحة للجمع على « أرضين » ، مثلاً يقول الله تعالى مبيّناً حكم « المحاربين » بأنه نفي من البلد :

﴿ أو ينفوا من الأرض ﴾[١] .

فجزاء المحاربين إخراجهم من البلد الذي يقطنون فيه ، وهذا ظاهر في أنه إخراج من وطنهم لا من الكرة الأرضية .

إذن « الأرض » من الناحية اللغوية لها معنى الجنس ، ومن الناحية المنطقية لها معنى « النوع » .

وفي بعض اللغات الأوربية قد يضعون فرقاً بين هذين المعنيين فيستعملون لهما لفظين[٢] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣٣ .

(٢) مثلاً في اللغة الفرنسية تستعمل كلمة la terre بمعنى الأرض والتراب ، بينما هم يستعملون كلمة le globe terrestre أو كلمة notre globe بمعنى الكرة الأرضية . ويطلقون على الأرض الزراعيّة اسم le terroir أما في اللغة الانجليزية فتسمى الكرة الأرضية earthe ، ويطلقون على الأرض اسم ground .

٣ ـ وأحياناً يستعمل القران الكريم لفظ الأرض بمعنى « عالم الطبيعة » في مقابل السماء التي تعني حينئذٍ عالم ما وراء الطبيعة كقوله عزّ اسمه :

﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ﴾[1] .

لو أردنا لرفعناه بفضل المقامات التي منحناها له ولأوصلناه إلى المنازل الرفيعة ، ولكنه (بلعم باعورا) التصق بالأرض وتعلّق بها قلبه واتبع رغباته فهو كالكلب . . . إن هذا التعلق لا يختص بقطعة من الأرض ولا بمكان معين وإنما هو حب لعالم الدنيا ، وبهذا الإطلاق تصبح السماء المادية أيضاً جزءاً من الأرض .

٤ ـ **﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ﴾**[2] .

مثل شيء ثقيل الوزن فهو يميل نحو الأرض ليقع عليها .

« اثّاقلتم » كانت في الأصل « تثاقلتم » ومعناها :

لماذا تتباطؤون وتتعلقون بالحياة الدنيا ؟ ولماذا لا تحبون أن تكونوا مخفّين حتى تحلّقوا مبتعدين عن هذه الدنيا ؟ فأنتم مثل طير قد أُثقلت قدماه بالحجر كلما حاول القفز فإنه يقع على الأرض .

ويحتمل هنا أيضاً أن لا تكون الأرض بمعنى الكرة الأرضية .

إذن إطلاق السماء والأرض على غير السماء الدخانية (الغازية) وغير الكرة الأرضية ليس خطأ وإنما هو إطلاق صحيح وتوجد شواهد تؤيد صحته .

عدد السموات

كما يظهر من بعض الآيات فإن عدد السموات هو سبعة :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٦ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٨ .

﴿ فسوّاهن سبع سموات ﴾[1] .

﴿ فقضاهنّ سبع سموات ﴾[2] .

إذن لا يبقى أثر للشك في أن السموات سبع وأن عدد السبعة هنا بالمعنى الحقيقي للسبعة وليس هو عنواناً للكثرة لأنه :

أولاً : خلاف ظاهر الآيات ولا سيما في بعض الموارد حيث اكتفت الآيات في التعبير عن السموات بكلمة السبع فقط :

﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾[3] .

ثانياً : إذا استعمل عدد السبعة رمزاً للكثرة فلا بد أن يكون العدد الواقعي المقصود في حدود السبعة ، أقل منها أو أكثر منها قليلاً ، فلا يصح مثلاً استعمال السبعة لأشياء يزيد عددها على الثلاثمائة ، بينما نحن نعلم أن علماء الفلك يقدرون عدد المجرّات اليوم بما يزيد على الملايين ، ففي هذه الصورة كيف يمكن استعمال العدد « سبعة » لبيان كثرتها ؟!

هل الأرض واحدة أم أكثر ؟

يظهر بوضوح من الآيات أن الأرض واحدة ولم يرد في أي آية التعبير بـ « الأرضين » .

ولا يوجد احتمال تعدد الأرض إلا من خلال هذه الآية :

﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن . . . ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٩ .

(٢) سورة فصلت : الآية ١٢ .

(٣) سورة النبأ : الآية ١٢ .

(٤) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

ولكننـا نـلاحظ أنـه في هـذه الآيـة نفسهـا أيضـاً لم يجـر التعبـير بـ « الأرضين » ، وعلى هذا فليس فيها دلالة قطعية على تعدّد الأرض ، وليس من المعلوم أن « مثليّة » الأرض للسماء في أية جهة : من جهة العدد أم العناصر أم من حيث الاتقان .

قـد تكون هـذه المثليـة من جهـة « الخلقـة » كـما يفهم من هـذه الآيـة الشريفة :

﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾[1] .

أجل إن احتمال قصد تعدد الأرض في الآية السابقـة (١٢ ـ الطلاق) ضعيف ، لأن القرآن قد استعمـل الأرض مفردة في جميـع الموارد ، ولكنـه لا يمكن نفي احتمال تعدد الأرض اطلاقاً ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار نصّ بعض الأدعية الواردة عـلى لسان المعصـومين عليهم السـلام حيث نجد فيهـا التعبير بـ « الأرضين السبع » ، وفي هذا المورد أيضاً لا يمكن القول أن مقصود الإمام (ع) وجود سبع كرات أرضية فقد يكون قاصـداً إلى انقسام الأرض إلى سبع قطع ، فالأرض تتكون من عدّة قطع يابسة قد ظهرت من المـاء ، ولكن هذا التقسيم أيضاً ليس له حدّ معيّن ، لأن آسيا وأوربا قارتان مع أنهما لا يفصل بينهما فاصل مائي . وكما كان معروفاً في العصور الغابرة فإنهم يقسمون الأرض إلى سبعة أقسام ويطلقون عليها اسم « الأقاليم السبعة » .

ولا بد لنا في خاتمة المطاف أن نؤكد على أن هذه جميعاً احتمالات وعـلى مستوى الاستظهار ، ولا ترتفع إلى مستوى الرأي اليقيني .

زمان خلق السماء والأرض

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

---

(١) سورة الملك : الآية ٣ .

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾[1] .

ما هو المقصود من قوله ستة أيام ؟

كان من المعروف عند بني إسرائيل وأهل الكتاب ولا سيما اليهود أن الله سبحانه قد بدأ في الخلق يوم الأحد وانتهى منه يوم الجمعة ثم قضى يوم السبت في الاستراحة ، ولهذا ـ كما يبدو ـ اطلقوا على ذلك اليوم اسم « سُبات »[2] والظاهر أن « السبت » في الأصل هو بهذا المعنى ، ومن هنا فإنهم يعتبرون يوم السبت عطلة عامّة ، وقد طرح هذا الموضوع في التوراة « سفر التكوين »[3] .

الظاهر إن هذا الاحتمال بعيد جداً لأن « الأيام » من وجهة نظر علم الجغرافيا هي عبارة عن فترة حركة الأرض حول محورها (الحركة الوضعية) ، ويطلق اليوم في اللغة أحياناً في مقابل الليل فيكون مرادفاً لـ « النهار » . فيصبح اليوم أعم من النهار وحده ومن الليل والنهار معاً .

فقبل خلق الأرض والشمس والسماء لا يمكن تصور اليوم ، فلا وجود هناك للسبت ولا للأحد . ولو كان لدينا نصّ صريح على هذا الموضوع فإن أقصى ما نستطيع قوله هو أن اليوم هنا يعني زماناً يعادل أربعاً وعشرين ساعة ، ولكنه لا وجود لمثل هذا النص ، ويزداد الأمر وضوحاً إذا لاحظنا أن اليوم قد استعمل في القرآن المجيد بمعنى آخر قال تعالى :

١ ـ ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾[4] .

فهل يعني هذا أنك اليوم أمين فحسب دون يوم غد ؟

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٢) سَبَتَ : استراح/السبات : النوم أو أوله/ والسبت : يوم من الأسبوع بين الجمعة والأحد .

(٣) التوراة : بالمعنى الأخص تطلق على الأسفار الخمسة للعهد العتيق (التكوين ، الخروج ، الأحبار ، العدد ، التثنية) الأنبياء (إبراهيم (ع) ، إسحاق (ع) ، يعقوب (ع) وأيام بني إسرائيل في صحراء سيناء) وتطلق أيضاً على نصائح موسى (ع) في الأخلاق والتشريع ، ولكنهم أحياناً يطلقون على الكتاب المقدس بأجمعه اسم التوراة تسامحاً .

(٤) سورة يوسف : الآية ٥٤ .

٢ ـ ﴿ تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم . . . ﴾[١] .

أي إن الله جعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً وخياماً وهي خفيفة المؤونة في سفركم وحضركم .

فهل المقصود من اليوم في هذه الآية ما يعادل (٢٤) ساعة فقط من السفر والحضر ؟ .

من الواضح أن المقصود هو زمان الحضر وفترة السفر ، مع الأخذ بعين الاعتبار طول مدة السفر في تلك العصور . إذن قسّم القرآن المجيد حياة مخاطبيه في هذه الآية إلى قسمين : يوم السفر ويوم الحضر .

٣ ـ ﴿ وإن يوماً عند ربّك كألف سنة مما تعدون ﴾[٢] .

٤ ـ ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾[٣] .

فهل المقصود في الآية الأولى ألف سنة وفي الآية الثانية خمسون ألف عام من السنين المتعارفة عندنا أم المقصود بيان طول فترة العروج وعظمته ؟ .

احتمالان كل منهما صحيح ، والاحتمال الأول ليس بعيداً فقد يراد منه أنه يمتد خمسين ألف سنة بالضبط لا أكثر ولا أقل ، أو المراد في الآية السابقة ألف عام بالدّقة .

٥ ـ وتشبه هذه الآيات الأربع المذكورة سابقاً عبارة واردة في نهج البلاغة (حول الشيطان الرجيم) :

« وقد عبد الله ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة »[٤] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٠ .

(٢) سورة الحج : الآية ٤٧ .

(٣) سورة المعارج : الآية ٤ .

(٤) نهج البلاغة . الخطبة القاصعة .

أجل من التأمل في جميع هـذه الموارد يمكن القـول أنه يحتمـل أن يكون المقصود من قوله ستة أيام ست مراحـل للخلقة . ولكن مـا هي حقيقة هـذه المراحل الست وكيف كانت وبأي ملاك كان هذا التقسيم ؟ .

ما في أيدينا من الآيات والروايات لا يسعفنا بشيء حول هذه الأمور .

غاية ما في الأمر أن الآيات الكريمة تعيّن يومين لخلق السـموات ويومين آخرين لخلق الأرض ويومين أيضاً لتقدير الأقوات والأرزاق قال عز وجل :

﴿ فقضاهن سبع سـموات في يومين ﴾[1] .

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾[2] .

﴿ وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾[3] .

يمكن أن يحتمل الباحث كون المقصود من يومين في خلق السماء أنَّ خلقها قد تمّ في مرحلتين : الأولى منهما كانت فيها بصـورة غاز أو دخـان ، والمرحلة اللاحقة أصبحت فيها سـموات سبعاً .

وكذا الأمر في ما يتعلق بالأرض ، ففي المرحلة الأولى كانت بشكل غاز أو سائل ، وفي المرحلة الثانيـة (أو اليوم الثـاني) أصبحت فيها بهـذه الصورة الصلبة (ولا تزال أعماق الأرض سائلة لحد الآن) .

أما إنه لماذا كانت ستة أيام وبأي اعتبار ؟ فذلك ما لانعرفه بالدّقة .

فهل ما في السماء والأرض قد تم خلقه في ستة أيام أو ست مراحل بشكل مستقل ومنفصل ، أم أن يومين منها مثلاً يختصان بخلق السماء ويومين آخرين لخلق الأرض ويومين أيضاً لأقوات الأرض (أي خلق الأرض في يومين ، ويوم

---

(١) سورة فصلت : الآية ١٢ .

(٢) سورة فصلت : الآية ٩ .

(٣) سورة فصلت : الآية ١٠ .

آخر لإعدادها للإنبات ويوم رابع لتهيئتها لظهور الموجودات الحيّة ، ففي المجموع تكون المراحل أربعاً) .

كل هذه احتمالات صرفة ولا يوجد في الآيات ما يؤيدها .

نعم يستطيع الدارس أن يقول باطمئنان أن هذه الأيام الستة ليست هي بمعنى الأيام المتعارفة عندنا حيث يكون طول اليوم (٢٤) ساعة .

كيفية خلق السموات

هل أن السموات قد خلقت في عرض بعضها أم أن بعضها يكون فوق البعض الآخر ؟ .

في مورد الأرض وحسب بعض الروايات القائلة بالأرضين السبع احتملنا أن يكون المقصود من هذا التعبير أقسام الأرض كالقارات في العصور القديمة حيث كانوا يسمونها بالأقاليم السبعة ، وهي في عرض بعضها ، فهل في مورد السماء أيضاً يمكن القول أن السموات كائنة إلى جانب بعضها كالأرض بحيث تشكل بمجموعها سطحاً كروياً واحداً ؟ .

يبدو لنا أن هذا الاحتمال غير صحيح بالنسبة للسموات لأن القرآن الحكيم يعبّر بـ « الطباق » بالنسبة للسموات وذلك في موردين هما :

﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت ﴾[1] .

﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ﴾[2] .

فمن كلمة « طباقا » يفهم أن السموات السبع يستقر بعضها على بعض بشكل تنطبق على بعضها ، فهي سبع طبقات لا سبع قطع إلى جانب بعضها ،

---

(١) سورة الملك : الآية ٣ .

(٢) سورة نوح : الآية ١٥ .

وظاهر هذه الآيات يدل على أن السموات يقع بعضها فوق بعض .

وهناك دليل آخر وهو أن القرآن يذكر سماءً يطلق عليها اسم « السماء الدنيا » ، وظن بعضهم أنها سماء دنيانا ، بينما « الدنيا » هنا صفة ، فيكون المعنى أدنى أسماء ، ويستفاد من هذا أن السموات الأخرى فوق هذه السماء بالترتيب وأنها أبعد من تلك السماء بالنسبة إلينا . وتوجد ملاحظة أخرى تستنبط من الآيات الكريمة وهي : أن النجوم التي نستطيع رؤيتها أخفض مكاناً من السماء الدنيا ـ التي هي أدنى السموات ـ فالسماء الدنيا أرفع من هذه النجوم يقول تعالى :

﴿ إنّا زينّا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب ﴾[1] .

إن ما يبدو من ظاهر الآية أن هذه النجوم التي هي زينة والتي نراها فوق رؤوسنا إنما هي معلقة في السماء الدنيا ولا علاقة لها بالسموات الأخرى ، وغاية ما يمكن قوله هو أن السماء الدنيا تشتمل على هذه النجوم فهي فيها معلقة كالمصابيح المضيئة :

﴿ وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ﴾[2] .

ولا علاقة لها بالسموات الأخرى وإلا لكان من الأنسب أن يقول : « زينا السموات » .

أمّا كيف تكون السموات الأخرى ؟ ألها نجوم ونحن لا نراها أم ليس لها نجوم ، وما هي كيفية خلقها ؟ .

كل هذه الأمور غامضة بالنسبة إلينا ، ولا نستطيع أن نفهم شيئاً عنها من الآيات .

وقد جاء في الآية (١٢) من سورة الصافات قوله :﴿ وحفظاً ﴾، وكذا

---

(١) سورة الصافات : الآية ٦ .

(٢) سورة فصلت : الآية ١٢ .

في الآية السابعة من نفس تلك السورة ، ويقول في الآية السابعة عشرة من سورة الحجر :

﴿ **وحفظناها من كل شيطان رجيم** ﴾[1] .

فنلاحظ أنه بعد ذكره للنجوم وأنها زينة السماء يطرح موضوع « حفظ السموات » ، فما هو المقصود من هذا الحفظ ، وما هو دور النجوم في حفظ السموات ؟ .

قبل الجواب على هذه الأسئلة نذكّر بأن كون النجوم زينة لا يعني أن فائدتها الوحيدة هي الزينة ، فلا يفهم ذلك من الآيات ، وإنما الآيات تقول أن النجوم أيضاً زينة للسماء ، ولا تدل الآيات على الحصر في الغاية منها ، كما ورد في قوله تعالى :

﴿ **وعلاماتٍ وبالنجم يهتدون** ﴾[2] .

حيث نجد أن النجم لم يخلق فقط للهداية ، وإنما هذه فائدة يستطيع الإنسان أن يستفيد منها ، ولا سيما في زمان نزول الوحي .

فما هو معنى حفظ السموات ؟ .

يمكن دراسة هذا الموضوع بعدة صور :

١ ـ الحفظ بمعنى الإبقاء أي حفظها من الزوال :

﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده أنه كان حليماً غفوراً** ﴾[3] .

ولعلّ هذه الآية المباركة من سورة البقرة :

---

(١) سورة الحجر : الآية ١٧ .

(٢) سورة النحل : الآية ١٦ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٤١ .

﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾[1] .

أي لا يصعب عليه حفظ السموات والأرض ، واردة بهذا المعنى .

٢ ـ بمعنى حفظ النظام ، أي المحافظة على السماء والأجرام العلوية من التفتّت والسقوط وبالتالي يؤدي ذلك إلى هلاك أهل الأرض وتدمير الأرض :

﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾[2] .

ويظهر أن معنى الآية هو حفظ النظام من التشتّت ، ولكن ما هو معنى هذه الآية :

﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾[3] ؟ .

يتبادر للإنسان لأول وهلة أن الله سبحانه يحفظ السماء والأرض من قيام الشياطين بالإخلال في النظام ، فيكون « الحفظ » هنا بمعنى المحافظة عليها من الزوال ، أي لا يقتصر العجز عن الإخلال بالنظام على الموجودات التي لا شعور لها ، بل وحتى الموجودات ذوات الشعور أيضاً لا تستطيع ذلك .

ويتوقف هذا الفهم للآية على اعتبار « حفظاً » مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف أي « وحفظناها حفظاً » .

ولكن هناك احتمالاً آخر وهو أن تكون « حفظاً » مفعولاً له ، أي « زينّا السماء لأجل الحفظ » . وفي هذه الصورة يصبح للنجوم دور في طرد الشياطين عن السماء ، ولكن ما حقيقة هذا الدور ؟ .

لسنا نفهم ذلك بشكل دقيق .

ولتأييد هذا الاحتمال نستطيع أن نذكر آيات أخرى :

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة الحج : الآية ٦٥ .

(٣) سورة الصافات : الآية ٧ .

﴿ لا يسمّعون إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب ﴾[1] .

فالشياطين كانوا يصعدون نحو السماء لاستماع الأنباء الغيبية والاطلاع على حوادث العالم فيستقرن في مقاعد لاستراق السمع :

﴿ وإنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾[2] .

أما كيف يستطيع هؤلاء استراق السمع من تلك المجالات ، فهذا مما لم يبيّنه القرآن ولكن الباحث يستطيع أن يذكر بعض الوجوه على مستوى الاحتمال .

ثم تستمر تلك الآية بهذا الشكل :

﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ .

وسوف يذكر توضيح أكبر بهذا الموضوع في البحوث اللاحقة .

وتوجد آية أخرى في هذا المجال :

﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾[3] .

وبعض الذين ألفوا كتباً باسم التفسير كتب يقول :

إن المقصود من « السماء » في هذه الآية هو جوّ الأرض ، فقد خُلق هذا الجو بشكل بحيث يحول دون سقوط الصخور السماوية على الأرض ، ونحن نعلم أنه من وجهة النظر العلمية قد تمّ إثبات كون الأرض معرضّة باستمرار لرشّها بالصخور السماوية ولكن بمجرد أن تصل هذه الصخور إلى جو الأرض فإنها تتحول إلى غاز بسبب السرعة الهائلة والاحتكاك الشديد ، ومن هنا سميّ جو الأرض « محفوظاً » .

---

(١) سورة الصافات : الاية ٨ .

(٢) سورة الجن : الآية ٩ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٣٢ .

ولكن هذا الفهم للآية غير صحيح ، فلو كان هـذا المعنى هو المقصـود للزم أن يقال :

وجعلنا السماء سقفاً حافظاً .

وليس محفوظاً .

يبدو أن المقصود من « السماء » في هذه الآية على أقـل تقديـر ليس هذا الجو . فحسب تعبير القرآن تصبح السماء سقفاً يغطي هذا العالم المحسوس ، وهو سقف محفوظ من الزوال أو من السقوط ، وهو المعنى الأنسب كما يظهر ، لأن خطر السقف يكمن في سقوطه فمن المثير للاستغراب أن ترتفع فوق رأس الإنسان مثل هذه الموجودات العظيمة ثم لا تسقط عليه ، يقول الله سبحانه :

﴿ الله الذي رفع السـموات بغير عمد ترونها ﴾[1] .

ويتصور لهذه الآية تفسيران :

١ ـ أن يكـون المقصود من قـوله **﴿ بغـير عمد تـرونها ﴾** أنه لا وجـود لأعمدة مرئية ، يعني أن « ترونها » قد أخذت صفة لـ « عمد » .

وهناك رواية تتضمن هذا المعنى .

وحسب هـذا التفسير قـد تكون هنـاك أعمدة للسـماء في الواقـع ولكنها ليست قابلة للرؤية البشرية .

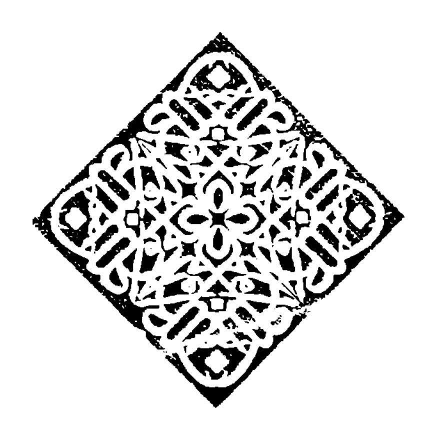
٢ ـ أن يكون قوله **﴿ ترونها ﴾** جملة معترضة ، فـالمعنى أن الله قد رفـع السـموات فوق رؤوسكم من دون عمـد ، وأنتم تـرون أيضـاً أنـه لا وجـود للأعمدة فيها .

وعلى أي حال فكلا التفسيرين محتمل ، ولا مانع من تصور أي واحد من هذين الوجهين .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢ .

والنتيجة : أن ما يفهم من الملاحظات التي يذكرها القرآن بالنسبة للسموات هو أن الله سبحانه يحفظ السموات من الزوال ومن السقوط والهويّ .



العرش والكرسي

لقد ورد في القرآن الكريم اسم شيئين آخرين غير السماء والأرض وما بينهما ، وهما العرش والكرسي .

فبالنسبة للكرسي توجد آية واحدة فحسب هي قوله تعالى :

﴿ وسع كرسيّه السموات والأرض ﴾[1] .

ولكنه بالنسبة للعرش توجد آيات عديدة .

ويثار في هذا المجال سؤال يقول :

هل العرش والكرسي شيء واحد ؟ .

ظن البعض أنهما شيء واحد وله اسمان . فالعرش باعتبار الدلالة على أريكة السلطنة ومنبع القدرة ، والكرسي باعتبار سرير الحكم ومقر إصدار الأوامر . فكلا التعبيرين كناية عن المقام الذي ينشأ منه تدبير أمر العالم .

ولكن هل أنهما حقاً شيء واحد أم شيئان ؟ .

فذلك ما لم نجد عليه دليلاً يقينياً من نفس القرآن الحكيم . ويمكن القول

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

ـ بالاستناد إلى روايات عديدة ـ أن العرش والكرسي شيئان متفاوتان ، ولعل ظاهر القرآن ينصرف إلى ذلك .

الموضوع الآخر في هذا المضمار هو :

ما هي حقيقة العرش والكرسي ؟ .

فهل هما كناية عن مقام الإدارة والتدبير ، أم هما موجودان حقيقيان مثل سائر ظواهر العالم ؟ .

لعلّ بعض الآيات يشير إلى أن المقصود من العرش هو مقام السلطنة والربوبية والتدبير الإلهي ، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن القرآن يذكر بعده غالباً لفظ التدبير ونظائره ومصاديقه ، قال تعالى :

﴿ ثم استوى على العرش يدبّر الأمر ﴾[1] .

فهذه الآية تعيننا على استظهار أن العرش لا يعني موجوداً يستقر عليه الباري عز وجل ، لأن الله جل شأنه ليس جسمانياً . إذن هذا التعبير كناية عن مقام الربوبية . ونذكر هذا على أنه احتمال فقط .

وقد جاء هذا التعبير : **﴿ استوى على العرش ﴾** في سبعة موارد في القرآن ، ومن جملتها سورة الأعراف ـ الآية ٥٤ :

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ .

والاحتمال الآخر هو أن العرش اسم لمخلوق معين ، وتؤيد هذا الاحتمال سبعة موارد أخرى في القرآن وصف الله فيها بأنه ربّ العرش ، ومن جملتها سورة التوبة ـ الآية ١٢٩ :

﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلاّ هو ، عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم ﴾ .

---

(١) سورة يونس : الآية ٣ .

فمن ظاهر هذه الآية يستنبط أن العرش موجود وربّه الله . وليس بمستبعد هذا الاستظهار من الآية ، وإن كان الاعتماد على هذا الظاهر لا يمكن التعويل عليه كثيراً لأنه في بعض الآيات قد أضيف « ربّ » إلى اسم معنى مثل قوله : « ربّ العزة » ، فالعزة ليست موجوداً مستقلاً ولا ظاهرة منفصلة بحيث يكون الله ربّها ، وإنما الربّ هنا بمعنى الصاحب ، أي صاحب العزة أو ذو العزّة ، وفي هذه الآية التي هي مورد بحثنا يمكن أيضاً أن يكون معنى « ربّ العرش » هو « صاحب الملك والتدبير » ، ولكن لدينا آية أخرى هي أوضح دلالة من تلك وهي قوله تعالى :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله ﴾[1] .

فمن المستبعد أن نقول أن هذه الآية التي تذكر عرشاً وله حاملون ويحيط به من حوله إنما هي تعبير كنائي عن مقام الربوبية ، بل الظاهر أن هذه الآية تشير إلى كون العرش موجوداً حقيقياً ، ويظهر هذا المعنى أيضاً من هذه الآية :

﴿ ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾[2] .

وصحيح أنه لو كان لدينا دليل قاطع على خلاف ذلك لأمكننا تأويل هذه الآية ، ولكن ظاهرها هو هذا الذي ذكرناه .

وليس من البعيد أيضاً هذا الاحتمال وهو أن يكون العرش في هذه الآيات موجوداً حقيقياً ، وفي الآيات الأخرى تعبيراً كنائياً ، ولكنه احتمال لا يخلو من تكلف .

فالنتيجة أنه في هذا المورد توجد ثلاثة احتمالات : ـ

١ ـ أن يكون تعبيراً كنائياً[3] عن مقام الربوبية وتدبير العالم .

---

(١) سورة غافر : الآية ٧ .

(٢) سورة الحاقة : الآية ١٧ .

(٣) في الكناية يستعمل كل لفظ مفرد في معناه الحقيقي ولكن مقصود القائل هو اللازم لمفهوم الجملة .

٢ ـ المراد منه في كل مجال أنه موجود حقيقي ، ولكن التعبير ﴿ **استوى على العرش** ﴾[١] عموماً تعبير كنائي .

وهذا يشبه قولنا في الكناية : « زيد عريض القفا »[٢] ، فالقفا حقيقي ولكن كونه عريضاً إنما هو تعبير كنائي .

٣ ـ جمع المعنيين ، والتفصيل في الآيات وذلك بالقول أنه في بعض الآيات حقيقي وفي بعضها الآخر كناية .

أما حسب الروايات فالعرش مخلوق حقيقي وقد ذُكر له فيها حاملون يتمتعون بأوصاف معينة ، وتعتبر هذه الروايات أقوى مؤيد للاحتمال الثاني .

* * *

كل ما ذكرناه لحد الآن كان دراسة حول السموات والأرض والعرش والكرسي في القرآن الكريم ، وهذا هو الذي انتهى إليه فهمنا في هذه الموارد ، ولم تكن خالية من الإبهام ، ولم نُبد رأياً قاطعاً في أي واحد من هذه المجالات .

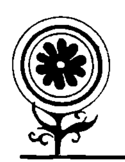
وهناك بحوث أخرى حول تدبير السموات والأرض وخلق الظواهر الجوية والأرضية . فالقرآن يهتم بصورة خاصة ببعض الظواهر مطلقاً عليها اسم الآيات الإلهية ، وقد ذكر في بعض الموارد موضوع تدبيرها ، ويعتبر خلقها مرحلة من مراحل تدبير العالم .

* * *

---

(١) سورة الرعد : الآية ٣ .

(٢) كناية عن أن زيداً من الحمقاء .



ظواهر العالم

من المناسب بعد دراسة الآيات المتعلقة بخلق السموات والأرض أن نشير - بصورة سريعة - إلى ظواهر العالم والحكمة من خلقها مما وردت الإشارة إليه في القرآن الكريم :

فهناك آيات تتعرّض لخلق القمر والشمس والنجوم وتبيّن ما في خلقها من حكم ، ومن جملتها : أن الإنسان يحصل على الحساب من خلال حركة الشمس والقمر ، قال تعالى :

﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾(1) .

وقد وردت في الكتاب الحكيم إشارات أيضاً تتعلق بكيفية حركة الشمس والقمر ونظامها والأوضاع التي يتخذها القمر ، كما هي في هذه الآية الكريمة :

﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ﴾(2) .

وقد استعملت كلمة « التسخير » بكثرة في القرآن ، سواء أكان ذلك في

---

(1) سورة الأنعام : الآية ٩٦ .

(2) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

مورد الكرات السماوية أم الظواهر الأرضيـة أم حتى في مورد الأنهار والبحـار والسفن وغيرها .

والتسخير في اللغة بمعنى التذليل والتسهيل ، وتستعمل عندما يتخذ أحدٌ عاملاً أو وسيلة لتحقيق مقصوده .

وقـد تخيل بعض من لم يكن لهم اطّـلاع على القـرآن ولا إلمـام بـاللغـة والآداب العربية أن آيات التسخير تعدّ من تنبؤات القرآن ، وهم يقصدون من هذا القول أن الإنسان مثلاً سوف يسخّر الكرات السماويّة ! بينما القرآن يجعل التسخير فعل الله لا فعل الإنسان ، والمقصود أن حركة هذه الأجرام مع آثارها الناشئة منها كلها تحت سيطرة الأمر الإلهي ، فهو تعالى الذي وضع كل شيء في موضعه المعين وزوده بخصائصه وأخضعه لأمره لكي يحقق الهدف العام الذي يهدف إليه من وراء خلق هذه الموجودات :

﴿ والشمس تجـري لمستقر لهـا ذلك تقـدير العـزيز العليـم * والقمـر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجـون القديـم * لا الشمس ينبغي لهـا أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾[1] .

وقد أشرنا ـ في موضوع التقديـر الذي مـرّ في الجزء الأول ـ إلى الآيتـين الأوليين وقلنا أنهما تبينان ما في خلق القمـر والشمس من نظام محكم بحيث لا يصطدمان ببعضهما ولا يجذب أحدهما الآخر إلى الحد الذي يعوق حركته .

ونحاول هنا أن نلقي الضوء على الفقـرة الأخيرة من هـذه الآيات وهي قوله تعالى :

﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ .

فقد يظن البعض أن ذكر الفلك في هذه الآية يؤيد ـ بنحوٍ من الأنحاء ـ علم الفلك القديم القائل أن لكل واحدة من السيارات فلكاً معيناً .

---

(١) سورة يس : الآيات ٣٨ ـ ٤٠ .

ولا بدّ من الالتفات إلى أن علم الفلك القديم مبني على فرضية تعتبر اليوم باطلة .

فالقدماء كانوا يعتبرون الفلك جسماً شفّافاً ليس قابلاً لـ « الخرق والالتيام »[1] . فهو ليس قابلاً لأن ينفذ منه شيء ، ويستحيل عليه الكون والفساد . والحاصل أنهم كانوا يعتبرون الفلك جرماً شفافاً قد سُمّرت فيه الكرات ، وكانوا ينفون الحركة عن الشمس والقمر والكرات الأخرى ، وينسبون الحركة فقط للفلك .

أما القرآن الكريم فهو يعتبر الفلك مثل بحر تتحرك فيه هذه الأجرام وتسبح . ومن الواضح أن المقصود منه هو ذلك الفضاء الذي تتحرك فيه هذه الأجرام ، وتعيّن في ذلك الفضاء مدار حركتها ، ولا يتفق هذا مع قول القدماء بأن الفلك يتحرك ، وهذه الأجرام ثابتة فيه .

وبناءً على هذا فالقرآن الكريم يرفض منذ البدء الفرضية التي قدمها علم الفلك القديم . وعلاوة على ذلك فالقرآن يقول :

﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ .

أي كل واحد من هذه الأجرام يسبح في فلك معين ، بينما القدماء لم يكونوا قائلين إلاّ بعدد محدود من الأفلاك . وبالإضافة إلى هذا فإن كلمة « يسبحون » تدل على أن لكل واحد من هذه الأجرام حركةً وضعية وحركة انتقالية أيضاً .

إذن يستفاد من هذه الآية الكريمة أن الأجرام العلوية كلها في حالة حركة ، وهذا أمر يؤكد صحّته علمُ الفلك الحديث . وتوجد آيات أخرى في هذا المجال لا نجد متّسعاً لتناولها .

---

(١) الخرق والالتيام بمعنى الفصل والوصل ، أي النفوذ في الأفلاك والخروج منها .

الأرض

لقد ذكرت في القرآن خصائص محدّدة تتعلق بالأرض نفسها ، وتعود في الغالب إلى ما للإنسان من منافع في هذه الأرض ، ومن هنا فإننا نستطيع أن نقسم البحث في هذه الآيات إلى قسمين : ـ

١ ـ تدبير العالم .
٢ ـ تدبير الإنسان .

ونحاول هنا أن نستعرض خصائص الأرض بشكل سريع ومضغوط :

﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾(١) .

أي مكاناً لاستراحة الإنسان ، وهذه إشارة إلى أن الله سبحانه قد خلق الأرض بشكل يستطيع الإنسان أن يعيش فيها براحة وهدوء بال .

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾(٢) .

﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾(٣) .

أي مكاناً للاستقرار والاطمئنان ، فالمهد والمهاد يتميزان بمعنى يشبه معنى الفراش .

وقال البعض أنه يمكن أن يستفاد من التعبير بالمهد والمهاد أن الأرض تتحرك كالمهد ، ولكن هذا المعنى غير واضح من الآية ، ولو كان هذا المعنى ظاهراً من الآية لصح القول أن هذه الحركة ذات تذبذب جيئةً وذهاباً كحركة المهد ، بينما نحن نعلم أن حركة الأرض ليست بهذا الشكل .

وعلى هذا فإن ظاهر الآية هو الإشارة إلى أن الأرض مكان لاستراحة الإنسان واستقراره كما يكون المهد محلاً لاستراحة الوليد واطمئنانه .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢ .
(٢) سورة طه : الآية ٥٣ .
(٣) سورة النبأ : الآية ٦ .

﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾[1] .

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾[2] .

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ﴾[3] .

المنكب : مجتمع رأس العضد والكتف ، والموضع المرتفع من الأرض ، أما هنا في الآية فالمقصود هو فامشوا في نواحيها .

والملاحظة التي يمكن استنباطها من الآية الأخيرة هي أن الأرض مذلّلة تحت أقدام الإنسان ، وهي مثل مركب يسير وادعاً ، ومن هنا يستطيع الباحث أن يستنتج أن للأرض حركة انتقالية لأن معنى « الذلول » هو البعير السهل الانقياد .

إذن يمكن أن يكون معنى الآية هو أن الأرض مع أنها تتحرك ولكنها لا تؤذيكم بحركتها فأنتم وادعون مطمئنون على سطحها ولما كانت مركباً ذلولاً فهي تواصل حركتها .

﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا ﴾[4] .

الأرض الكفات أي الجامعة للأحياء والأموات ، وفيها معنى « الضم والقبض » ولهذا يستفاد من هذه الآية أن الأرض تجذب الأشياء إليها ، وليس من المستبعد أن تكون في هذه الآية إشارة إلى قوة الجاذبية في الأرض التي لولا وجودها لتناثرت هذه الأشياء الموجودة عليها في الفضاء بسبب السرعة الهائلة التي تتحرك بها الأرض .

ولهذه الكلمة « كفات » معنى آخر فيقال في اللغة العربية : « كفت

---

(١) سورة المؤمن (غافر) : الآية ٦٤ .

(٢) سورة نوح : الآية ١٩ .

(٣) سورة الملك : الآية ١٥ .

(٤) سورة المرسلات : الآية ٢٥ .

الطائر » أي أسرع في الطيران ، ومن هنا حاول البعض أن ينسب للآية أن فيها إشارة إلى حركة الأرض الانتقالية .

ولكن الظاهر أن هذا الاحتمال أضعف نسبياً من الاحتمال الأول لأن كلمة « كفات » لها معنى مصدري ، وحينئذٍ يصبح معنى الآية أننا جعلنا الأرض سرعة ، لا أن لها سرعة ، إلاّ أن نأخذ المصدر بمعنى الصفة ، وهذا أيضاً خلاف الظاهر من الآية .

أجل ما استعرضناه يجمع الصفات الواردة للأرض في القرآن الكريم ، حيث يستطيع الباحث أن يستنبط من كل واحدة منها بعض الملاحظات التي قد تتفق مع النتائج العلمية المعاصرة .

الليل والنهار

من الظواهر الأخرى موضوع الليل والنهار الذي تحدثت عنه آيات متنوعة في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى :

﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار ﴾[1] .

والآيات الواردة في هذا المجال لا تتناول الظواهر بشكل مباشر وإنما هي كلها تهدف إلى ترسيخ معنى التوحيد والربوبية في نفس الإنسان ، وأكثر الآيات يهدف إلى أمرين : أولهما الربوبية الإلهية ، ثانيهما ما في تلك الظواهر من منافع للناس .

﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾[2] .

وقُدّم الجار والمجرور (له) للدلالة على الحصر .

ويختلف المفسرون في المقصود من كلمة « اختلاف » الواردة في الآية :

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٣٣ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٨٠ .

فقال البعض : أن المقصود هو اختلاف ساعات الليل والنهار ، فأحياناً يطول أحدهما وأحياناً يقصر ، ففي الآية إشارة إلى أن الله سبحانه خلق الأرض بحيث تتغير ساعات الليل والنهار بسبب حركتها ، ولهذا التغيير منافع وحكم .

ويقول البعض الآخر أن معنى الاختلاف في الآية هو التعاقب وكون أحدهما خلفاً للآخر .

والظاهر أن هذا المعنى أنسب لأصل الاشتقاق اللغوي (الخلف) وأكثر انسجاماً مع بعض الآيات الأخرى . فمن الأمور التي تجعل الاحتمال الأول ضعيفاً وبعيداً هو أن اختلاف ساعات الليل والنهار ليس متحققاً في جميع أرجاء الأرض ، ففي بعض الأماكن - مثل المناطق الاستوائية - تكون ساعاتها متساوية ، ولكن تعاقب الليل والنهار موجود في جميع الأرجاء . وعلاوة على ذلك فهناك آيات أخرى أيضاً تؤيد هذا المعنى وهو تعاقب الليل والنهار كقوله عز وجل :

﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾[1] .

فهو سبحانه قد جعل الليل والنهار بحيث يخلف أحدهما الآخر لكي يتذكر من أحبّ التذكر ويشكر من أراد الشكر ، أي أن الالتفات لهذا الأمر يؤدي إلى التذكر والتعرّف على الحكم الإلهية ، فيكون ذلك باعثاً على الشكر .

وفي مجال توضيح حقيقة هذه النعمة يقول تعالى في إحدى الآيات :

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾[2] .

ثم تأتي بعدها هذه الآية الكريمة :

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٦٢ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧١ .

الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾[1] .

إن لليل والنهار منافع عظيمةً تعود على الإنسان ، فبالإضافة إلى أن النهار مناسب للحركة والعمل ، والليل خاص للراحة والاستقرار واستعادة القوى وهدوء الأعصاب ورفع التعب ، فلو أن الليل استمر ، أي لم تكن للأرض حركة وضعية بل كان أحد وجهيها مقابلاً للشمس دائماً والآخر لا يرى الشمس اطلاقاً لارتفعت درجة حرارة الوجه الأول إلى حدّ الموت ولانخفضت درجة حرارة الوجه الثاني إلى حد التجمد بحيث لا يغدو صالحاً للسكنى .

الإيــلاج

﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾[2] .

ما هو المقصود من الإيلاج في الآية الكريمة ؟ .

قال البعض : المقصود هو اختلاف الليل والنهار بهذا التوضيح : وهو أن طبيعة الليل والنهار تقتضي أن يكونا متساويين ، ولكن الله سبحانه يأخذ أحياناً من ساعات أحدهما ويضيفها إلى ساعات الآخر ، فهو يدخلها فيه .

وقال البعض الآخر : أنها إشارة إلى اختلاط النور والظلمة عند طلوع خيوط الفجر وفي لحظات غروب الشمس .

ولعل هذا المعنى الأخير أكثر مناسبة للفظ الإيلاج ، لأننا إذا سلّمنا بصحة الاحتمال الأول فلا بدّ أن نفرض الليل والنهار نوعين متميزين ولكل منهما وقت طبيعي ثم نقول إن أحدهما قد أدخل في الآخر ، بينما يوجد للاحتمال الثاني معنى محسوس يدركه الجميع .

وعلى أي حال فإن الاحتمال الثاني أيضاً ليس يقينياً .

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٧ .

التقليب والتكويـر

﴿ يقلّب الله الليل والنهار ﴾[1] .

الظاهر أن التقليب في هذه الآية هو بمعنى جعلهما متعاقبين .

﴿ يكوّر النهار على الليل ﴾[2] .

يبدو أن التكوير هو بمعنى تغطية شيء بشيء آخر ، كما يلاحظ في أوراق براعم الزهور حيث تغطي الورقة الظاهرة الورقة التي تحتها .

وحاولت فئة أن تستفيد من هذه الآية حركة الأرض وكيفية الليل والنهار بالنسبة لبعضهما ، وحاول جماعة أن يستشفوا منها كروية الأرض لأن التكـوير يعني التدوير[3] مثل تكوير العمامة .

الإغشـــاء

﴿ يغشي الليل النهار ويطلبه حثيثاً ﴾[4] .

الظاهر أن المعنى هو أنه يجعل النهار غطاء لليل ، وإن كـان من الممكن أيضاً تصور العكس ولكن لما كان لدينا مفعولان فالأقرب للصحة هو الاحتمال الأول ، فيصبح المعنى بهذا الشكـل : إن الضياء ظـاهرة تشـع على الأرض ، والظلام أمر عدمي ، فلو لم يكن النور لكانت الأرض مظلمة ، فالضياء غطاء يشمل الأرض بأجمعها .

* * *

---

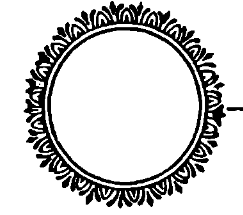
(١) سورة النور : الآية ٤٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٥ .

(٣) spinal .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

الظواهر الأرضية



١ ـ الجبال :

لقد أكد القرآن الكريم في موارد كثيرة على ظاهرة الجبال وحث على التأمل بشأنها ، وحتى أنه نبّه على أي ناحية يجب التفكير فيها :

﴿ **هو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً** ﴾[١] .

فالرواسي صفة حلّت محل الاسم ، وقد كانت الجملة في الأصل : « جبالاً رواسي » . ولم يقل « جبالاً صلبة » ولا « شامخة » ، وإنما عبر بالرواسي ، حيث يستدعي هذا المفهوم للذهن أن الجبال كالمرساة (أنجر) للأرض ، فالإرساء هو بمعنى أن السفينة تلقي بمرساتها في البحر .

أي علاوة على الاستحكام كأن هناك شيئاً يعتمد عليها وهو الذي يحفظ للأرض استقرارها وسكينتها . وقد جاء هذا المعنى بكثرة في الآيات مؤكداً أننا خلقنا الجبال مثل المراسي والمسامير حتى تحول دون تزلزل الأرض :

﴿ **وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم** ﴾[٢] .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٣ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٣١ .

فنحن جعلنا في الأرض أشياء رواسخ ثوابت (جبالا) كالمِرساة حتى تمنع الأرض من الاهتزاز ، أي لو لم تكن هذه الجبال لكان في الأرض استعداد للإهتزاز دائماً . وقد أثبتت العلوم الحديثة هذا المعنى فقالت إن هناك غازات في باطن الأرض وهي تؤدي إلى تزلزل قشرة الأرض وأحياناً تظهر بشكل زلازل .

وقوله تعالى : ﴿ أن تميد بهم ﴾ يفهم معنى التذبذب .

ويشبه هذا التعبير قوله تعالى :

﴿ والجبال أوتاداً ﴾[1] .

فالجبال هي مسامير الأرض ، أي تحفظها من التذبذب .

٢ ـ السبل :

﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾[2] .

قد يبدو هذا الموضوع ـ وهو إن الله جعل في الأرض طرقاً ـ غير ذي أهمية لأول وهلة ، فالإنسان نفسه يشق الطرق ، ومن السهل عليه أيضاً أن يعبّدها !!

ولكن الشيء المهم هو أن الأرض لو كانت سهلة تماماً ولم يكن في قشرتها أي تكسّر لما أصبحت قطع الأرض المختلفة متميزة فيما بينها ولم يتمكن أحد من الاهتداء إلى أي سبيل . وبالإضافة إلى أن الطرق تتعين بفضل تكسر قشرة الأرض والجبال والهضاب والمنخفضات فإن تلك الجبال والمرتفعات لو كانت بشكل جدار عال شديد الانحدار لما أصبح المرور منها أمراً ميسراً ، إذن هذه المرتفعات في نفس الوقت الذي تتشخص بها مناطق الأرض فإنها توفر للإنسان سبلاً يسهل التنقل من خلالها ، وهذه نعمة جليلة . والقرآن يذكر بهذه الأمور الدقيقة ويدعونا للتفكير بشأنها .

---

(١) سورة النبأ : الآية ٧ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ١٠ .

٣ ـ الريــاح :

لقد تناول القرآن الرياح بالبحث من عدّة جهات :

١ ـ من جهة كونها تؤدي إلى ظهـور السحاب ومن ثم إلى سقـوط المطر فهي مبشرات الرحمة الإلهية .

٢ ـ من جهـة إنها لواقـح (وسوف نتحـدث فيـها بعـد عن معنى كـونها لواقح) .

٣ ـ من جهة إنها تسبب حركة السفن الشراعية :

﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾[1] .

والقرآن الكريم يوقظ فينا هذا الحس ويبعث فينا هذه الروح حتى لا ننظر إلى الظواهر بشكل سطحي :

﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرىٰ بين يدي رحمته ﴾[2] .

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً ﴾[3] .

وقد فسّر بعضهم كون الرياح لواقح إنها ملقحّة للأشجار ، متمسكين بما أثبتته الدراسات العلمية من أن الرياح تعتبر إحدى وسائل التلقيح للأشجـار فهل تحمل المسحوق الموجود في الأعضاء الذكرية في الزهور إلى الأعضاء الأنثوية فتلقحها (وفي بعض الأشجار يتم هذا الأمر بوساطة الحشرات والنحل) .

ولكننا إذا لاحظنا ذيل الآية القائل :

﴿ فأنزلنا من السماء ماءً ﴾ .

فإن ذلك الاحتمال يبدو بعيداً ، لأنه لو كان هـذا التلقيح هـو المقصود

---

(١) سورة الشورى : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٧ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٢٢ .

للزم أن يكون ذيل الآيـة مناسباً لصدرهـا ولقال مثـلاً : ثم جعلنا الأشجـار مثمرة .

إذن يقوى الاحتمال بأن هذا التلقيح متعلق بنزول المطر . فبعض من له يد في الدراسات العلمية الحديثة يقول أن تلقيح السحاب (لكي ينزل المطر) يتم عن طريق الرياح ويرتبط بأنواعها .

فبخار الماء المتراكم في الجو بصورة سحاب لكي يتحول إلى ماء فإنه محتاج إلى « عامل مساعد »[1] ، والرياح هي التي تقـوم بدور العـامل المسـاعد هنـا فتؤدي إلى أفعال وانفعالات في السحاب يتلقح على أثرها ويتساقط المطر .

ولا يكون هذا المعنى صحيحاً إلاّ إذا كانت « لـواقح » الـواردة في الآية بمعنى الملقّحات (أي التي تفعل التلقيح) ، ولكن الظاهر أنها لم ترد بهذا المعنى في اللغة ، بل اللواقح هي جمع لاقح أي التي تقبل التلقيح ، وفي هذه الصورة يصبح معناها شيئاً آخر ، فالرياح ـ حينئذٍ ـ هي بنفسها ملقحة من شيء وحاملة لشيء يؤدي إلى سقوط المطر . ولعلها حاملة للقوة الكهربائية أو لأشياء أخـرى أثبتتها أو سوف تثبتها العلوم الحديثة .

وعلى اي حال فالآية فيها مجال للتأمل ولكن لا ينبغي أن نطبّق الآية على أي ظاهرة تواجهنا ، وإنما لا بدّ أولاً من فهم الآية فهماً دقيقاً ، ثم إذا وجدناها منطبقة على القوانين الموجودة فيا حبذا ، وإلاّ فلا ينبغي أن نلزم أنفسنا بتطبيقها عليها .

٤ ـ الرعـد والبـرق :

﴿ هو الذي يُريكم البرق خوفاً وطمعاً ويُنشىء السحاب الثقال ﴾[2]

---

(١) catalyseur وهو مادة تسرع بالتركيبات الكيمياوية ولكنها في النتيجة تبقى من دون تغيير .

(٢) سورة الرعد : الآية ١٢ .

ففي هذه الآية تاكيد ـ مثل سائر الآيات ـ على ارتباط الأشياء بالله (هو الذي . . .) وعلى ما للظاهرة من دور بالنسبة للإنسان (يريكم . . .) .

ثم يقول تعالى بعد ذلك :

﴿ ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾[1] .

توجد في هذه الآية الكريمة ملاحظات دقيقة ليس هذا مجال التحقيق فيها :

ما هو تسبيح الرعد ؟

ظن البعض ممن لا اطلاع له في مجال الأدب واللغة العربية أن التسبيح هنا مأخوذ من مادة السباحة فقالوا إن تسبيح الأشياء يعني تكاملها ! .

إن أبسط المطّلعين على اللغة العربية يضحكه هذا الكلام ، لأن مفهوم التسبيح لا علاقة له إطلاقاً بالسباحة ولا بالتكامل ولا . . . وإنما التسبيح يعني تنزيه الله سبحانه ، وهناك آيات متضافرة في هذا المجال :

﴿ يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾[2] .

﴿ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ﴾[3] .

وتوجد آيات تنص على أن جميع الأشياء تسجد لله . وهي من الآيات المتشابهات التي لا يمكن معرفة مدلولها بدقّة .

وعلى سبيل الإجمال فهناك اتّجاه عام يقول إن هذه التعبيرات من قبيل الاستعارة ، أي أن هذه كلها دليل على كمال خالقها وتجسّد صفات الله سبحانه ، وكأنها تبيّن الصفات الإلهية بلسان التسبيح والتنزيه .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١٣ .

(٢) سورة الجمعة : الآية ١ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٤٤ .

ويوجد مشرب آخر يقول : إن الأشياء تتمتع بشعور حقيقي ، وهي تسبح وتذكر بشكل واقعي ، ويضربون مثلاً لذلك تكلم الحصى بيد الرسول الأكرم (ص) قائلين : في هذا المورد قد كان الإعجاز في إسماع الآخرين التسبيح لا في إيجاد التسبيح .

فالإنسان لا يدرك هذه الأمور وإلاّ فإن أي شيء هو في حالة تسبيح لله .

وينسجم هذا الرأي مع ظاهر الآيات الكريمة :

﴿ وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[1] .

أو أنه تعالى يقول في مورد الطيور :

﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾[2] .

ولكننا لا نفهم المقصود وهو بعيد عن أذهاننا .

وتنقسم هذه الفئة الثانية ـ من حيث بيان الموضوع على أساس الأصول العقلية ـ إلى قسمين :

١ ـ جماعة تقول : أن هذه الأشياء بهذه الصورة المادية لها شعور وإدراك .

٢ ـ وأخرى تزعم : إن للأشياء صوراً أخرى غير محسوسة ، وتلك الصور الأخرى هي التي تتمتع بالشعور والإدراك ، وهي التي تظهر في يوم القيامة وتؤدي الشهادة ، والقرآن الكريم يقول في هذا المورد :

﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾[3] .

وعلى كل حال أياً كان المعنى فإنه لا ينسجم مع إدراكنا العادي ولكنه يتلاءم مع ظاهر القرآن .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٤٤ .

(٢) سورة النور : الآية ٤١ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٢١ .

وقد ادعى البعض أنه قد ظفر بمكاشفات عرفانية في هذا المجال وزعم البعض أن لديه أدلة عقلية على ذلك ، والله سبحانه هو العالم بالحقيقة .

ولكن قوله تعالى : ﴿ لا تفقهون تسبيحهم ﴾[1] تجعل الاحتمال الأول بعيداً (وهو الاحتمال القائل إن هذه التعبيرات كلها من قبيل الاستعارة ويمكن فهمها على أنها تدل على صفات خالقها) لأن الجميع قادر على فهم « حكايتها عن صفات الخالق » ، إذن كيف يقول الله سبحانه :

﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[2] ؟

وبالنسبة للرعد بالخصوص يوجد رأي آخر وهو إن « الرعد » اسم ملك معين ، وقد ذكر في الآية العام (الملائكة) بعد الخاص (الرعد) .

وهو احتمال مخالف للظاهر ، لأن الرعد معنى متداولاً لدى العرف وهو الصوت الخاص الذي ينطلق من السحاب ، ويحتاج هذا الاحتمال إلى دليل أقوى .

والملاحظة الأخرى هي أن الله سبحانه يقول :

﴿ والملائكة . . . ﴾[3] .

ونحن نعلم أن الملائكة موجودات ذوات شعور وهي تسبح ، ثم تستمر الآية :

﴿ ويرسل الصواعق ﴾[4] .

والصاعقة ظاهرة طبيعية ولكنه تعالى يقول :

﴿ فيصيب بها من يشاء . . . ﴾[5] .

أي أن الله هو الذي يقرر على من تنزل الصاعقة ، فالإصابة ليست صدفة ، وإنما هي محسوب لها حسابها ، فالتقدير والقضاء الإلهي سائد في جميع هذه الظواهر ، و « التوحيد الأفعالي » جارٍ فيها جميعاً .

(١، ٢) سورة الإسراء : الآية ٤٤ .

(٣، ٤، ٥) سورة الرعد : الآية ١٣ .

٥ ـ كيفية ظهور السحاب وسقوط الأمطار :

﴿ الم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾[1] .

فالله يدفع السحاب في حركة هادئة ثم يقرب أجزاءه إلى بعضها ويضغطها ويجعلها متراكمة ، عندئذٍ ترى أن قطرات المطر تتساقط من أعماق ذلك السحاب ، فينزل من السحاب (الذي يشبه الجبال) قطعاً من الثلج يوصلها إلى الأماكن التي يريد ويمنعها عما لا يريد ، وتكاد العيون أن تصاب بالعمى من شدة الأشعة المنبعثة من السحاب (البرق) .

من الأشياء التي تجلب الانتباه ـ وهو أمر موجود في سائر الآيات أيضاً كما قلنا سابقاً ـ أن الله ينسب كل واحدة من هذه الظواهر إليه : الله يزجي سحاباً .

فالقرآن ينبهنا لنرى كيف يسوق الله البخار بهدوء نحو الأعلى ثم يقلل من الفواصل بين أجزائه وعندما يتراكم فإن المطر يتساقط .

وكذا بالنسبة للبرد: **﴿ وينزل من السماء . . . من برد ﴾** فالله ينزله ، ثم اختيار المكان الذي ينزل فيه ليس متروكاً للبرد وإنما الله هو الذي يقرر في أي مكان ينزل :

﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ﴾ .

وهناك جملة في هذه الآية تحتاج إلى توضيح أكبر وهي هذه الجملة :

﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ .

فأين هذه الجبال وكيف ينزل شيء من الجبال ؟

يقول العلماء الخبيرون بهذه المجالات : أن البخار الذي يتراكم في جوّ

---

(١) سورة النور : الآية ٤٣ .

الأرض بشكل سحاب يكون مثل الجبال . ويستطيع تجربة هذا الموضوع كل من يسافر بالطائرة فتحلق به فوق السحاب فإنه يرى السحاب بشكل جبال وقد تختلط عليه جبال الأرض بجبال السحاب . إذن يتراكم البخار حتى تتكون جبال من السحاب في جوّ الأرض ، ومن تلك الجبال ينزل البرد .

وحسب هذا الفهم يكون المقصود من قوله تعالى في الآية : ﴿ من جبال ﴾ جبال السحاب ، لا الجبال التي هي من نوع جبال الأرض ، وهذا الفهم نفسه مبني على هذا الاستظهار وهو أن المقصود من قوله ﴿ السماء ﴾ في الآية هو جوّ الأرض هذا .

وقد سبق لنا القول أن السماء تستعمل أحياناً ويراد منها السموات السبع (واخفض سماء فيها هي أرفع من النجوم التي نشاهدها) ، أما السماء التي ينزل منها المطر فهي سماء جوّ الأرض ، ففي هذا الجو يتكون السحاب ، ولا ينزل أي شيء من مكان آخر على السحاب ، فقوله تعالى : ﴿ من برد ﴾ بيان لقوله :﴿ وينزل ﴾: فالذي ينزله الله هو من جنس البرد . ويحتمل أن يكون ﴿ البرد ﴾ في القرآن الكريم شاملاً للمعنيين وهما الثلج النازل بصورة متصلبة أو بصورة منفوشة ، فلعل القرآن يشير إليهما معاً بهذه الكلمة لأنهما في الواقع والمنشأ قطرات مطر متجمدة .

٦ ـ ارتباط ظاهرة السحاب بنزول المطر وسقوط الماء من السماء على الأرض :

قال الله تعالى :

﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنّا على ذهاب به لقادرون ﴾[١] .

قد يستطيع الباحث أن يفهم من هذه الآية وأمثالها أن جميع ما على

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١٨ .

الأرض من ماء قد نزل في البداية من السماء . والنظرية المتداولة اليوم بين العلماء المعاصرين تؤكد نفس هذا المعنى فتقول إن البحار والمحيطات تكونت من هطول الأمطار ولكنها الأمطارالغزيرة التي نزلت على الأرض في المراحل الأولى من تكونها ، وهي مياه قد نزلت بحساب وتقدير . أي أن « التقدير » الإلهي كان دقيقاً جداً ، لأنه لو استمر سقوط الأمطار لازدادت كمية الماء بحيث تغطي سطح الأرض تماماً ولا يبقى مكان للحياة على وجه الأرض ، والأمطار اللاحقة أيضاً تنزل « بقدر » وحساب مع فرق واحد وهو أن المياة الأولى قد جاءت من السحب الأولية المتكونة في السماء ، بينما الأمطار العادية تنشأ من المياة الموجودة على الأرض ، وإن كانت هي أيضاً تنزل من السماء (جوّ الأرض) .

ثم تجري هذه المياه ـ حسب التقدير الإلهي ـ على وجه الأرض أو في باطنها فتكون الأنهار والينابيع ..

ولو أنّ هذه المياه انحصرت بسطح الأرض ولم ينفذ قسم منها إلى باطن الأرض لتعذرت الاستفادة منها في بعض الفصول وفي بعض الأماكن :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾[1] .

٧ ـ الأنهار والعيون :

قال الله تعالى : ﴿ وسخّر لكم الأنهار ﴾[2] .

﴿ وفجّرنا فيها من العيون ﴾[3] .

فكما نلاحظ أن القرآن يحثنا على التأمل في بعض الظواهر الأرضية ، مثل هطول المطر ، ونفوذ الماء في باطن الأرض ثم جريانه بشكل عيون وأنهار .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٢١ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٢ .

(٣) سورة يس : الآية ٣٤ .

٨ ـ البحــر :

لقـد أشرنـا من قبل إلى أن البحـار أيضاً ـ التي هي الآن منشـأ تكـوّن السحاب ـ قد جاءت من مياه الأمطار ، ونستعرض هنا شيئاً من الآيات المتعلقة بالبحر ، قال تعالى :

﴿ وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حليـة تلبسونها ﴾[١] .

ففي هذه الآية ونظائرها نجد أيضاً تأكيداً من ناحية على التوحيد الأفعالي لله ، أي إن الله هو الذي خلق البحار بهذه الصورة ، ومن ناحية أخرى نلاحظ فيها تأكيداً على منافع النـاس ، أي أن البحار قـد خلقت بشكل يحقق فـائدة الإنسان .

إذن يمـكن القول أن معرفة العالم في القرآن ترتبط من ناحية بمعـرفة الله ومن ناحية أخرى بمعرفة الإنسان ، فتدبير الإنسان هو بشكل بحيث يستطيـع الاستفادة من كل جهات العالم :

﴿ الله الذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٢] .

فالبحر مسخّر للإنسان بحيث يستطيع أن يسيّر فيه سُفنه ، فهذه الظاهرة معلولة لقوانين جعلها الله في هذا العالم ، وهي قـوانين تتعلق بهبـوب الريـاح وقوانين أخرى فيزيائية تطفو على أساسها الأجسام على وجه الماء وتتحرك فيه :

﴿ ربّكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله ﴾[٣] .

والشيء الذي يجلب الانتباه هو قوله : أن الله هو الذي يحرك السفينة ، بينما نحن نعلم أن السفينة تتحرك بما فيهـا من قوى . إذن نفهم من هـذا أن

---

(١) سورة النحل : الآية ١٤ .
(٢) سورة الجاثية : الآية ١٢ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٦٦ .

القرآن لا يحيد عن موقفه : فهو يتناول الـظواهر الأرضيـة من خلال عـلاقتها بالتوحيد لكي يدرّب الإنسان على رؤية يد الله من وراء كل شيء .

٩ ـ نمو النباتات نتيجة لهطول الأمطار :

وقد ورد في هذا المجـال ما يـزيد عـلى ثلاثـين آية في القـرآن الكريـم ، ونكتفي هنا بذكر بعضها :

﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾[١] .

ومن المناسب أن نتعرض لذكر ملاحظة تؤكد على أن الآية الكريمة تقول ﴿ من كل شيء ﴾ ،بينما نحن نعلم أن أي شيء ـ وإن كان موزونـاً ـ ليس من النباتات ، إذن يصبح من الواضـح أن المقصود هـو « كل نبـات » قد خلقنـاه بشكل موزون . ولا تختص هذه الملاحظة بهذه الآية وإنما هي شاملة لكثير من الآيات ، ولهذا فإنه لا بدّ من الالتفات والتعرف على أسلوب القرآن العزيز . أي لا بدّ أن نحذر من التمسك بظنـوننا من دون دليـل ، ولا بدّ من مـراعاة « القرائن اللفظية والمقامية » حتى لا نتورط في التفاسير المتعسفة .

ونظير هذا المورد المذكور ما جاء في قصة ملكة سبأ ، قال تعالى :

﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾[٢] .

فمن الواضح أن المقصود هنا ليس هو أن كل شيء في العالم قد أعـطي لها ، وإنما هي قد مُنحت كل ما يلزم لملكها وسلطنتها وحكمها ، فرئاستهـا لم يكن فيها نقص .

ولعلّ قوله تعالى : ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾[٣] .

---

(١) سورة الحجر : الآية ١٩ .

(٢) سورة النمل : الآية ٢٢ .

(٣) سورة النحل : الآية ٨٩ .

العائد إلى القرآن نفسه هو من هذا القبيل ، أي ليس معنى هذه الآية أن القرآن الكريم مبيّن لكل شيء يحدث في العالم ، وحتى الحرب الدائرة بين العرب وإسرائيل مثلاً ، وإنما أنزل هذا الكتاب ﴿ **تبياناً لكل شيء** ﴾ من شأنه أن يكون مبيّناً في القرآن .

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى :

﴿ **تفصيلاً لكل شيء** ﴾[1] .

أو أنه بالنسبة للتوراة يقول عزّ وجل :

﴿ **تفصيلاً لكل شيء** ﴾[2] .

مع أننا نعلم بشكل يقيني أن القرآن أكمل منها ، إذن « كل شيء » في هذا المورد يعني : ما من شأنه أن يُبيّن أو يفصّل في هذا الكتاب أو ذاك .

أجل إن هذه الملاحظات يدركها المطّلعون على لسان القرآن فهم يلتفتون إليها من القرائن وتناسب الحكم والموضوع .

وفي مجال آخر يقول الله تعالى :

﴿ **وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾[3] .

﴿ **أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم** ﴾[4] .

فهاتان الصفتان (بهيج وكريم) تعودان إلى النباتات بمناسبة قوله ﴿ **أنبتنا** ﴾ .

ويحسن أن نتناول هذه الكلمة « زوج » بالتوضيح :

قد يستعمل الزوج في مقابل الفرد ، وأحياناً قد يطلق الزوج على كل واحد من الشيئين المترابطين ، مثل الرجل والمرأة المرتبطين بعلاقة الزوجية ،

(١، ٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٤ ، وسورة الأعراف : الآية ١٤٥ .
(٣) سورة ق : الآية ٧ .
(٤) سورة الشعراء : الآية ٧ .

فإنه يطلق على كل واحد منهما اسم الزوج ، ويطلق عليهما معاً اسم الزوجين .

وقد يستعمل لفظ « الزوج » أيضاً بمعنى النوع والصنف بحيث لا يكون التعدد ملحوظاً أصلاً (ولا يهمنا في هذا المجال أن نعرف كيفية هذا الاستعمال أهو حقيقي أم مجازي ، وما هي مناسبة هذا المعنى مع المعنى الأصلي للكلمة) .

وعلى أي حال فما هو المقصود من كلمة الزوج الوارد ذكرها في الآيتين السابقتين ؟ .

قال كثير من المفسرين أن الزوج هنا بمعنى النوع والصنف ، أي أن للنباتات أصنافاً متنوعة ، والله قد خلق في الأرض من جميع الأنواع . ومن الواضح أن المقصود هو كل نوع تقتضيه ظروف وجوده وتتطلبه الحكمة ، لا بمعنى أنه لا يوجد نوع من أنواع النبات إلّا وقد خلق في الأرض ، لأنه قد تطرأ بعد ذلك ظروف جديدة في الأرض بحيث تؤدي إلى ظهور أنواع أخرى من النباتات .

فهل هذا الرأي هو الصحيح أم أن معنى الآية هو أننا قد خلقنا كل لون من ألوان النبات بشكل زوج ؟ .

لقد ثبت في علم النبات أن النباتات عموماً فيها الذكر وفيها الأنثى ، ما عدا بعض النباتات التي تجتمع فيها أعضاء التذكير والتأنيث في مكان واحد ، بينما هي في سائر النباتات مستقلة عن بعضها . وعلى أي حال فإن كون النباتات قد خلقت أزواجاً بمعنى أن فيها المذكر والمؤنث يعتبر من الأمور الثابتة في علم النبات . وبعض الذين كان لهم إلمام بعلم النبات قد حملوا هذه الآيات على المعنى الثاني أي على انقسام النباتات إلى الذكر والأنثى ، ولكنه يبدو لنا أن أيّاً من هذه الآيات لا يدل على هذا المعنى ، ولعل المعنى الأول (النوع والصنف) هو الأظهر ، وتوجد في هذا المضمار آية هي أقرب للمعنى الثاني ، وهي قوله تعالى :

﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾[1] .

فمن البعيد هنا أن يكون المقصود هو أنه قد خلق نوعين من كل لون من ألوان الثمار ، مثلاً خلق نوعاً حامضاً وآخر حلواً من كل الثمرات .

وإنما الظاهر من التعبير بقوله ﴿ زوجين اثنين ﴾ ولا سيما بعد التأكيد باثنين هو أنه ينطبق على الذكر والأنثى .

أما الصفات المذكورة للنباتات في هذه الآيات فقد ذكرت في الآيات السابقة ثلاث صفات (ويوجد ما يشبهها في آيات أخرى) . وهي عبارة عن : موزون ، بهيج ، كريم .

ولهذه الألفاظ الثلاثة معانٍ متشابهة تقريباً : فالموزون يعني المتناسب ، وصحيح أنه مشتق من الوزن ولكن المعنى الأصيل للوزن هو المقايسة ، وبناءً على هذا فالوزن وإن كان ظاهراً بمعنى الثقل ولكن الثقل ليس مقوّماً لمعنى الوزن ، وإنما المقوّم له هو مقايسة الثقل ، وعلى الأقل لا يمكن الادعاء بأن الوزن في جميع الموارد هو بمعنى الثقل ، قال تعالى :

﴿ والوزن يومئذٍ الحق ﴾[2] .

أي الذي يقاس به في ذلك اليوم هو الحق .

إذن يصبح معنى تلك الآية أن أعضاء النبات قد خلقت متناسبة ومقدّرة مثل التناسب الموجود بين أعضائنا ، فلا يوجد نبات فيه ساق دقيق كسيقان السنابل وله جذور غليظة كجذور أشجار الصنوبر .

وأما البهيج فهو في اللغة يعني الجميل ، وهو الشيء الذي تفجّر رؤيتُه البهجةَ والسعادة في النفس . وهذه خاصية عجيبة في النباتات ، فالنظر إلى أي لون من ألوان النبات وبأي شكل أو صبغة فإنه يوجد في نفس الإنسان لذة وسروراً . إن الطراوة والحيوية تسعد الروح .

---

(١) سورة الرعد : الاية ٣ .

(٢) سورة الأعراف : لآية ٨ .

وتلك الألوان والأشكال نفسها إذا وجدت في الجمادات فإنها لا تتمتع بتلك الخاصية (أو على الأقل ليس بتلك الدرجة) .

وتبقى الكلمة الأخيرة فقط وهي « الكريم » ، ومعناها يقرب من معنى البهيج وهو ما يرضي الناظر . ولها معانٍ أخرى فإذا قيل : الأحجار الكريمة ، فإن معناه هو الأحجار القيّمة ، وتستعمل أحياناً بمعنى الشرف ، وأخرى بمعنى الجود ، وبمعنى العزيز .

* * *

يقول العزيز في كتابه الحكيم :

﴿ إنّا صببنا الماء صبّاً * ثم شققنا الأرض شقّاً * فأنبتنا فيها حبّاً * وعنباً وقضباً *وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبّا * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[1] .

يلاحظ في هذه الآية أيضاً أنها تلفت الانتباه إلى الله تعالى : **﴿ أنّاصببنا ﴾ ﴿ ثم شققنا الأرض ﴾ ﴿ فأنبتنا ﴾** . بينما الكتاب المؤلف في علم النبات ليس بحاجة إلى هذه التأكيدات ، فالماء ينزل وتنشق الأرض وينمو النبات . أما القرآن الكريم فهو يؤكد خطوة بعد خطوة وكلمة تلو أخرى أننا الذين قمنا بهذا الأمر . فلا بد أن لا نغفل عن هذه الدعوة التي لا يعجز القرآن عن تكرارها ، لكي نعد كل شيء قد جاءنا من الله ، وإلا فإن قراءة كتب علم النبات ألف مرة من دون التفات إلى هذه الملاحظة لا تساوي شيئاً من حيث القيمة المعنوية .

ولم يرد في القرآن أي ذكر للتفاح والبرتقال ، وهما من الأشجار التي لا تنمو في الجزيرة العربية . ومن الواضح أن الآيات الكريمة قد نزلت بما يتناسب مع معرفة الناس الذين كانوا يعيشون في تلك المنطقة خلال تلك البرهة الزمنية .

---

(١) سورة عبس : الآيات من٢٥ إلى ٣٢ .

فاختيار الأمثلة المعينة والأساليب الخاصة لبيان بعض المواضيع كان بسبب أن من أهداف القرآن الرئيسية هو هداية سكان منطقة الوحي :

﴿ ولتنذر أم القرى ﴾(1) .

كناية عن مكة ، ولكنه لا يجوز أن يستنتج من هذا القول نتيجة خاطئة تقول إن أحكام القرآن أيضاً تختص بذلك الزمان أو المكان . إنهما مسألتان مختلفتان : فمن الطبيعي أن يكون القرآن كتاباً واحداً ومسطوراً بلغة واحدة ، فليس من الممكن أن يكون مكتوباً باللغة العربية والفارسية والتركية في آن واحد ، بل له لغة واحدة :

﴿ بلسان عربي مبين ﴾(2) .

وكما أنه ليس من الصحيح القول : لما كان عربياً فهو مختص بالأمة العربية ، فكذا القول بأن أحكامه مختصة بالذين نزل القرآن في زمانهم أو في منطقتهم فهو قول لا يتمتع بأساس ، وأما هذه الأمثلة والأساليب فهي لأجل أنه قد أنزل في تلك المنطقة ، وإذا صُب الكتاب في لغة معينة فإنه لا بدّ أن يكون في إطار الثقافة والعادات والأمثلة المتعلقة بتلك اللغة .

لقد وقع في يدي وأنا في لندن كتاب مضلل ورديء (وهو من نوع تلك الكتب المغرقة في عدائها للإسلام في طول التاريخ) حيث جاء فيه :

« عندما يعد القرآن وعداً حسناً فإنه يقول :

﴿ جنّات تجري من تحتها الأنهار ﴾(3) .

ومن الواضح إن هذه الآيات نازلة على أناس لم يشاهدوا في حياتهم الحدائق والبساتين والمياه الجارية قط ، ولو كان القرآن منزلاً على سكان شمال أوربا ـ الذين ملّوا من المياه والأنهار والأشجار ـ لقال أن الله يمنحكم أراضي

---

(1) سورة الأنعام : الآية ٩٢ .

(2) سورة الشعراء : الآية ١٩٥ .

(3) سورة البقرة : الآية ٢٥ .

واسعة تسطع فيها نور الشمس لتستمتعوا بها .

أو يقول القرآن إن نتيجة عمل المؤمن في الآخرة هي :

﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾[1] .

ولو أنه لاحظ فتيات أوربا العاريات لما وعد بهذه الأمور ، لأن القاطنين في أوربا قد أصيبوا بالتخمة من هذه الأشياء ، لا في الخيام وإنما حتى في القصور » .

ثم يستنتج صاحب هذا الكتاب من هذه المقدمات إن :

« القرآن كان لزمان معين ، وهو بنفسه لا يدعي إن أحكامه أبدية غير قابلة للتغيير !! » .

ثم يضيف هذا الكاتب المتدين !! إن :

« الدين ضروري للإنسان ، ولما كان الإسلام مقصوراً على زمن بعينه لذا كان من اللازم الإتيان بدين جديد ونبي حديث » ، مثل (اجست كنت) الذي أصبح نبي « دين الإنسانية » !! .

ومن حسن الحظ أنه لم يبق مجال لمثل هذه الكتب الملتوية الناشئة من الاستعمار الثقافي الحديث ، وذلك في أثر الرقي الثقافي الذي أحرزته الإنسانية ، ويقظة المسلمين أخيراً ولا سيما بعد الثورة الإسلامية المقدسة التي ظهرت بشائرها في إيران الإسلام .

ولكن هذا الشخص قد أظهر تماماً ضحالته وذلك عندما جاء في مقام الاستدلال بشيء يكون جواباً حاسماً لا يشكاله(!) أجل لو أن القرآن قد أنزل على مواطني شمال أوربا لراعىٰ جانب اللغة التي أنزل بها ولتحدث بالثقافة والأعراف والسنن والعادات والآداب التي كانت سائدة هناك :

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٧٢ .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ﴾[1] .

ولكن هذا الأمر لا يصلح دليلاً إطلاقاً على اختصاصه بمنطقة معينة أو زمان خاص .

* * *

ولنختم الحديث بذكر معاني بعض الكلمات الواردة في تلك الآيات :

القضب : الأشجار العالية التي تتميز بغصون متدلية ومتشعبة .

الغلب : هي الحدائق التي تتشابك أشجارها وتتعانق أغصانها .

الأبّ : هي الحشائش التي تتغذى منها الحيوانات .

وكما لاحظنا في خاتمة تلك الآيات فإنه يقول تعالى :

﴿ لكم ولأنعامكم ﴾[2] .

أي كما أشرنا أكثر من مرة فإن القرآن يبدأ من الله وينتهي بالإنسان .

١٠ ـ العلاقة بين الظواهر الجوية والأرضية :

يقول الله تعالى :

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾[3] .

وقال عز وجل :

﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾[4] .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٤ .

(٢) سورة النازعات : الآية ٣٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢ ، وسورة إبراهيم : الآية ٣٢ .

(٤) سورة ق : الآيات من ٩ إلى ١١ .

والمقصود من الخروج هنا هو إحياء الأموات يـوم القيامـة . ويوجـد في آيات أخرى بعد أن تذكر إحياء الأرض قوله :

﴿ كذلك النشـور ﴾[1] .

١١ ـ النباتات الخاصة :

قال الله في كتابه العزيز :

﴿ وفي الأرض قـطع متجـاورات وجنّـات من أعنـاب وزرع ونخيـل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[2] .

الصنوان : هي أن ينمو ساقان من جذر واحد .

في هذه الآية تأكيد على الاختلاف الموجود بين محاصيل النباتات في الطعم مـع أنها تنبت في أرض واحدة وتمتص مـاء واحداً . وهـذا من المـوارد التي لا نلتفت فيهـا ـ نتيجة للعـادة ـ إلى أن الاختلاف من أين ينشـأ ؟ فكيف يكون بعضها حلو الطعم والبعض الآخـر ذا طعم حامض ؟ إذا تعمقنـا قليلاً فـإننا نصل إلى حبة أو نواة الشجيرة أو الشجرة ، أما إذا تعمقنا أكثر فإننا نجد السؤال باقياً : فكيف جعل الله في نواتين صغيرتين جداً ومتقاربتين تغـرسان في أرض واحدة وتتغذيان بمواد متشابهة وتمتصان ماء واحداً ـ كيف جعل فيهما خاصيتين وطعمين متفاوتين ؟!

لقد اعتبر بعض المتكلمين ـ من قبيل الفخر الرازي ـ هذه الآيات دليلاً على وجود الله بعنوان كونه فاعلاً مختاراً بهذا الاستدلال : وهو أن للمادة أثـراً واحداً بينما الآثار المختلفة تتحقق بسبب كون الله مختاراً وذا إرادة ، إذن لا بد من وجود فاعل مختار حتى يوجد آثاراً مختلفة من أرضية واحدة .

---

(١) سورة فاطر : الآية ٩ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٤ .

ولكن هذا الاستدلال ونظائره مهلهل جداً ولا ينسجم مع الرؤية القرآنية لله ولفاعليته ، فـالقرآن الكـريم لا يعتبر إرادة الله فـاعلة في عرض الأسبـاب الماديّة ، بل هي في طولها ، فإرادة الله مهيمنة على جميع الأشياء وهي أعلى من جميع الأسباب المادية . ولهذا فإن التأكيد على فاعلية الله في القرآن الكـريم لا يعني نفي الأسباب المادية ، إن هذا الكتاب العظيم يحث النـاس على التفكـير والتـأمل في كيفيـة خلق الله للعالم ومعـرفة الخصـائص التي جعلها في الأشيـاء بحيث تظهر آثار مختلفة من أرض واحدة وماء واحد ، ومن هذا الطريق يصل الإنسان إلى قدرة الله وحكمته .

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خُضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنّـات من أعناب والزيتون والرمان متشابهـاً وغير متشـابه ، انـظروا إلى ثمره إذا أثمـر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[1] .

توجد في هذه الآيات ملاحظات أدبية دقيقة ، ففي صدر الآية نـلاحظ ضمير الغائب ﴿ هو ﴾ ثم يأتي بعد ذلك ضمير الجمع المتكلم ﴿ فأخرجنا ﴾ ، وهو التفاف من الغيبة إلى التكلم ، ولعل في هذا إشارة إلى هذه الملاحظة وهي أنه أثناء نزول المطر من السماء لا يلتفت الإنسان بسرعة إلى كون هذا الأمر من فعل الله وإنما هو بعيد عن الأذهان ويحتاج إلى البرهان والاستدلال ، ولكنه أثناء نمو النبات تبدو يد الله واضحة في هذا المجال ، وهـذه من خصائص المـوجودات الحيّة ، فظهور الحياة وآثارها يلفت الإنسان بسرعة ـ أكبر مما في الجمادات ـ إلى الله سبحانه ، فلو تـأملنا ـ بقلب حي ـ نبتـة من النباتـات فإننـا سوف نلتفت بسرعة إلى الله عز وجل . وقد أسلفنا القول بأن بعض الآيات قد يهـدف إلى إيقاظ الإنسان ودفع معرفته الفطرية اللاواعية إلى مجال الوعي والشعور .

إن « الحياة » حقاً لأمر عجيب ومعجز ، ولكن لما كانت تملأ حياتنا دائماً وقد اعتدنا عليها فهي تبدو في الظاهر وكأنها قد فقدت جلالها وعظمتها ، ففي

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩٩ .

بذرة إحدى الزهور لا يوجد أكثر من مجموعة من العناصر والخواص الماديّة المتوفرة في سائر المواد ، ولكن مع كون أجزائها موجودة في سائر الماديات فإننا عندما نغرس هذه البذرة في الأرض الصالحة للزراعة فإن جزءاً منها وهو الجذر يغور في الأرض ، وجزءاً آخر وهو الساق يشق الأرض مندفعاً نحو الأعلى ، وكل بذور الزهور والنباتات الأخرى تنهج نفس هذا المنهج . ولا تخطىء هذه أبداً فلم يحدث ولا مرّة واحدة إن اندفع الجذر نحو الأعلى وغار الساق في أعماق الأرض . فما هي هذه الهداية التي زود الله بها النباتات ؟ إن ذلك الجزء من النبات الذي يشقّ الأرض مرتفعاً عليها وهو الساق يكون بشكل اسطواني وفيه أوراق عريضة تنتشر فيها العروق ثم تنمو إلى جانب الورقة زهرة حمراء أو أرجوانية أو صفراء أو بنفسجية أو غير ذلك من الألوان وأحياناً يمتلأ الجو عطراً منها فيعطر مشامّ جسم الإنسان وروحه . فهذه كلها قد جاءت من تلك البذرة الصغيرة التي لم تكن أجزاؤها تتميز عن سائر الماديات ، ولكننا لما كنا قد تعودنا على هذه الآثار فإننا نقول : إن هذه هي خاصية الزهرة !

والسرّ هنا فما هي تلك اليد التي جعلت فيها هذه الخاصيّة ؟ .

﴿ فأخرجنا منه خضراً ﴾ .

أي الزرع الغض الأخضر .

﴿ نخرج منه حباً متراكباً ﴾ .

إلى هنا ثم نلاحظ أن السياق يتغير فجأة :

﴿ ومن النخل من طلعها . . . ﴾ .

فيتحول الحديث إلى جملة اسميّة يكون فيها الخبر مقدماً ، وقنوان مبتدأ مؤخر ، وهذا من جمال الكلام الإلهي فإذا طالت الجملة فإنه ينوع في الأساليب لئلا تكوَن الجملة بنفس واحد .

ونخرج جنّات من أعناب ، ونخرج الزيتون والرمان بطعم واحد أو بطعوم مختلفة بعضها حلو وبعضها حامض وبعضها مزّ .

فانظروا وتأملوا كيف تثمر هذه الأشجار وما هي خصائص هذه المرحلة ، وتعمقوا في مرحلة نضجها كيف كانت فجّة وصغيرة لا يمكن أكلها ثم أصبحت بالتدريج قابلة للأكل ولذيذة .

وبالتالي فكرّوا كيف أوجد الله من أرض ميتة أطعمة لذيذة وبأشكال متنوعة ومذاق مختلف .

﴿ وهو الذي أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾(١) .

١٢ ـ الحيوانات :

يستعمل القرآن الكريم التعبير بـ « بث » في مورد الحيوانات ، وهو بمعنى نشر ، قال تعالى :

﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾(٢) .

فالحيوانات لأنها تتحرك فكأنها منتشرة في أطراف الأرض ، والله هو الذي نشرها فيها .

﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾(٣) .

فهذه من الآيات الكريمة التي تدلّ بظاهرها على أن لجميع الحيوانات حشراً ، وهو أمر من لوازم تجرد الروح في كل الحيوانات ، وقد كان هذا الموضوع مخفياً عن الفلاسفة قبل صدر المتألهين ، فهم كانوا يظنون أن أرواح

---

(١) سورة الأنعام :الآية١٤١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٦٤ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٣٨ .

الحيوانات ليست مجـردة ، وكانـوا يعبرون عنهـا في بعض الاحيان بـ « الـروح البخـارية » وهي روح مـاديّة لـطيفـة جـداً ـ حسب زعمهم ـ وبمجـرد مـوت الحيوانات فإنها تزول من صفحة الوجود أيضاً .

أما إذا ثبت لها الحشر فإن أرواحها ستكون مجردة أيضاً وحينئذٍ لا تنعدم بالأفعال والانفعالات المادية .

ومن الـواضح أن هـذا لا يعني التساوي بـين الروح الإنسـانية وأرواح الحيـوانات ، فللتجـرد نفسه مـراحل ودرجـات ، وليس للحيوانـات إلّا تلك الدرجات الدنيا منه .

١٣ ـ الطيـور :

قال الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ ألم يروا إلى الطير مسخّرات في جو السماء ما يمسكهن إلّا الله ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾(١) .

قد توهم هذه الآية أن حفظ الطيور في الجو يتوقف فقط على إرادة الله ولا دخل للأسباب المادية في ذلك أبداً ، ولكن أسلوب القرآن جارٍ على أنه حتى في المجالات المعتمدة تماماً على الأسباب المادية العادية فهو ينسبها لله سبحانه ، فإذا قال الله بالنسبة للطيور :

﴿ ما يمسكهنّ إلّا الله ﴾ .

فإن ذلك لا يعني أن الأسباب المادية لا دخل لها ها هنا ، وإنما عدم منع الجاذبية الأرضية لها من التحليق في الفضـاء يتم حسب قوانـين علمية خـاصّة (مـذكورة في الكتب المتخصصـة في هذه الأمـور) ، ولكنه عـلى أي حال مَن الذي منحها هذه القدرة ؟ ومن الذي أوجد هذه القوانـين لتستغلها الـطيور في

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٩ .

تحليقها ؟ هل الطيور هي التي فكّرت لنفسها فأوجدت في أبدانها آكياس الهواء ومنحت ذواتها الأجنحة وجعلتها بحيث تستفيد منها أثناء السير في الهواء ؟ .

﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلاّ الرحمٰن ، إنه بكل شيء بصير ﴾[1] .

١٤ ـ الحيوانات التي تعيش على وجه الأرض :

يقول الحكيم في كتابه العزيز :

﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير ﴾[2] .

لقد حاول بعض المؤيدين لفرضية التكامل في الأنواع التمسك بهذه الآية لتأييد تلك الفرضية ، فهي علاوة على ما تشير إليه من كون الحيوانات ناشئة من الماء فإنها تذكر أولاً الزواحف ثم ذوات الرجلين ثم ذوات الأربع .

ونحن نقول في الجواب :

أولاً : ليس من المعلوم كون هذا الترتيب زمانياً .

ثانياً : أن تبديل الحيوان ذي الرجلين إلى حيوان ذي أربع لا يمكن قبوله أيضاً من قبل أصحاب فرضية التكامل .

فالإنسان من الحيوانات التي تمشي على رجلين ، فهل وجدت الحيوانات التي تمشي على رجلين أولاً ثم ظهرت بعدها ذوات الأربع ؟ ولا دليل لنا أيضاً على أن الإنسان غير مشمول لهذه الآية : **﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾** .

---

(١) سورة الملك : الآية ١٩ .

(٢) سورة النور : الآية ٤٥ .

إن هذا التمسك وأمثاله من قبيل « تشبث الغريق بكل حشيش » ، وإلا فإن هذه الآية وسائر الآيات الأخرى لا تصلح دليلاً لصحة فرضية التكامل ، بل ولا يُشمّ منها رائحة التأييد لها .

ولا بأس بالإشارة إلى أننا لا نملك دليلاً على نفي التكامل بالنسبة للحيوانات ، ولكن لدينا دليلاً ينفيه في مورد الإنسان وسوف نذكره فيما بعد بإذن الله .

وعلى أي حال فإنه لا يمكن نسبة هذه الفرضية إلى القرآن الكريم حتى في مورد الحيوانات .

وفي مكان آخر يقول تعالى :

﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾[1] .

﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾[2] .

﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾[3] .

فالحيوانات ذوات الأربع التي يستفيد الإنسان عادة من لحمها ولبنها وصوفها هي الأنعام الأربعة ، ولما كان في كل منها الذكر والأنثى فهي إذن ثمانية أزواج ، فالزوج يطلق هنا على كل فرد من كل شيء ذي زوجين ، إذن ثمانية أزواج تعني ثمانية أفراد من أشياء زوجية .

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾[4] .

إن لبن الحيوانات يتكون من نفس المواد الغذائية التي تتناولها ، فالمواد الغذائية المتناولة بعد مرورها بالمعدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم يُخصص

(١) سورة الزمر : الآية ٦ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٤٤ .

(٤) سورة النحل : الآية ٦٦ .

لبقاء حياة الحيوان فيحمله الدم ويدور به على الخلايا ، ويستمد منه أيضاً نفس الدم ما يحتاج إليه . وقسم آخر يتحول إلى لبن يأخذ طريقه إلى الثديين . ويتخلف قسم ثالث من المواد الزائدة والفضلات تطرد إلى الخارج . إذن هذا اللبن قد كوّنه الله بين الدم والفرث وأخرجه للإنسان بصورة غذاء لذيذ نافع .

والعجيب إن إناث الخيل والخفاش والإنسان وسائر الحيوانات التي لا يستفيد غيرها من ألبانها يوجد مقدار من اللبن في أثدائها بحيث يكفي وليدها ، والحد الأقصى هو أنه يكفي لوليدين (في الحيوانات التي تلد التوأم) . ويستثنى من ذلك البقر والإبل والضأن والمعز فإن اللبن المتوفر في أثداء إناثها يعادل مرّات ما يكفي حاجة وليدها :

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ .

وفي مجال آخر يقول الله تعالى :

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشق الأنفس إن ربّكم لرؤوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾[1] .

الدفء في اللغة بمعنى الحرارة الملائمة للطبع ، وقد استعملت في الآية بصورة دقيقة ورائعة في مورد الحرارة الناتجة في البدن من استعمال الألبسة الصوفية والوبرية .

﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ ، إنها ملاحظة عجيبة يتعرض لها القرآن الكريم ، فهي تشير إلى الجمال الشاعري الكامن في سوق القطيع عند الغروب نحو حضيرته ، وعند الصباح من الحضيرة نحو الصحراء ، وهو حقاً من المناظر الجميلة التي انعكست في آداب جميع الأمم ولا سيما في الشعر .

---

(١) سورة النحل : الآيات من ٥ إلى ٨ .

وفي الآية الأخيرة إشارة إلى زينة ركوب الخيل والبغال والحمير ، فعلاوة على كون هذه الحيوانات تسد حاجة الإنسان في مورد حمل الأثقال ـ ولا تـزال موجودة لحد الآن ولا سيما في الحـروب الجبلية حيث تكـون الوسيلة الـوحيدة لحمـل السلاح الخفيف والمتـوسط وبعض الأسلحة الثقيلة ـ فـإن نفس ملكية الحصان وركوبه لها لذة وتعتبر من زينة الحياة .

نحل العســـل :

يؤكّد الله سبحانـه من بين المـوجودات الحيـة على هـذا الموجـود بشكل خاص :

﴿ وأوحى ربّك إلى النحل أن اتّخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[1] .

في هاتين الآيتين إشارات إلى مـلاحظات عجيبـة في حياة هـذا الموجـود وفوائده لا تتوفر إلاّ لمن أطال التفكير فيها :

الأولى : تلك الهداية الإلهية لبناء بيوتها في صخور الجبال (حيث تنمو في أحضانها أنواع الـزهور البـرية بكثـرة في فصول السنـة المختلفة) وفي سيقـان الأشجار في الغابات وفي الخلايا التي يصنعها لها الإنسان (حيث يضطر المربّون لبناء الخلايا في المناطق الجبلية أو المرتفعة المليئة بالأشجار والزهور) ، وقد جاء في الآية قوله « بيوتاً » ولم يقل « أوكاراً » أو « خلايا » ، وهو اختيـار دقيق لأن الأوكار عادة تصنع بشكل بدائي وبسيط بينها بيوت النحل معقدة ومنظمة ولها جوانب متعددة .

﴿ ثم كلي من كل الثمرات ﴾ .

إن البراعم والزهور في النباتات هي بداية مرحلة إعطاء الثمار ، وبنـاء

---

(١) سورة النحل : الآيتان ٦٨ ـ ٦٩ .

على هدا فلعل ذكر الثمرات في الآية هو بهذه المناسبة . وعلى أي حال فإن الآية الكريمة تؤكّد على أن نحل العسل قد رُكّبت فيه غريزة تدفعه للبحث عن الأزهار المفيدة في مجال إنتاج العسل ليمتص منها الرحيق ، وفي هذا المضمار توجد عجائب وغرائب اكتشفها المحققون وهي مدونة في الكتب المتخصصة ، وتحمل من يتأملها ويهضمها على الخضوع أمام الحكمة الإلهية البالغة .

﴿ فاسلكي سبل ربك ﴾ .

لقد أوحي إليها أن تقطع الطريق الطويل الفاصل بين الحدائق أو المراتع وبيوتها أو خلاياها (وقد يمتد أحياناً إلى عدّة فراسخ) بهداية من الله عز وجل .

إن الالتفات إلى هذا الأمر لعجيب حقاً لأن هذا الموجود الصغير جداً يقطع أحياناً ـ كما تشير الدراسات الحديثة ـ عدّة فراسخ من خليته وحتى الأماكن التي تتوفّر فيها الأزهار المناسبة ثم يعود على نفس الطريق ويميز خليته من بين مئات الخلايا المشابهة لها ، ونحن أحياناً تضيع علينا بيوتنا ولكن هذا الموجود النافع ـ وبهداية من الله العزيز ـ يولد في الخلية وبعد بلوغه السن المناسبة يغادر ـ لأول مرة ـ تلك الخلية المظلمة المغلقة ويقطع لأول مرة أيضاً - طريقاً يمتد عدّة فراسخ ثم يعود بشكل مباشر إلى خليته ، إذن كما قال الله تعالى : إنها طرق قد مهدها الله له وصدق الله العلي العظيم .

﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾ .

أن هذا الموضوع في هذا الموجود مثير للإعجاب أكثر بمراتب مما كان يثيره موضوع الحيوانات اللبونة من رصيد في اللبن ، لأن هذا الموجود بهذا الجسم الضئيل يستهلك مقداراً من الغذاء الذي يحتاج إليه ، أما الباقي فإنه يدخّره ، وتكون كمية هذا المقدار المدخّر كبيرة إلى الحد الذي يستطيع أن يستفيد منها آلاف الملايين من الناس في مختلف أرجاء العالم . وتكون نوعية هذا الغذاء وكيفية تركيبه بشكلٍ بحيث إذا خرج من بطنه فإنه لا يطرأ عليه الفساد مع أن أكثر الأشياء التي تخرج من بطون الحيوانات تتعرض للفساد سريعاً ومنها اللبن نفسه .

وعلاوة على ذلك فهو غذاء سائغ ولذيذ الطعم ، ويستفاد منه في صناعة أفضل السوائل للشرب ، ويستعمل أيضاً دواء كما أشار الجليل في الآية السابقة : ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾ .

* * *

من مجموع هذه الدراسة للظواهر الطبيعية نظفر بنتائج تخيب ظن أولئك الذين يهتهم العلم ، فالقرآن الكريم لا يهدف من وراء هذه المجموعة من الآيات أن يدفع المسلمين للتخصص في العلوم الطبيعية ، وعلى أقل تقدير ليس فيها تحريض مباشر على هذا الأمر ، وذلك لأن أفراد الإنسان كانوا يقومون بهذه المهمة لمنافعهم ومصالحهم ، وحتى إذا لم يتعرض القرآن لهذا الموضوع فإنهم كانوا ينهضون به . إذن إلى أي شيء أو أشياء يهدف القرآن من وراء كل هذه التأكيدات ؟ .

يستطيع الباحث أن يظفر ببعض الملاحظات من خلال التأمل في الآيات :

١ ـ حمل الإنسان على التفكير والتعقل لئلا يصبح سطحياً في تفكيره فيمر على ظواهر العالم وهو غافل عنها :

﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[١] .

﴿ **أفلا تتفكرون** ﴾[٢] .

ومن الواضح أن التفكير نفسه ليس هو الهدف النهائي وإنما هو وسيلة للمعرفة .

٢ ـ أي معرفة ؟ نقول قد يصل الإنسان إلى العلة والمؤثر عن طريق التفكير في الظواهر والآثار . ولعل أكثر المفسرين يعتبر هذه الآيات دليلاً على

---

(١) سورة النحل : الآية ٦٩ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٣ .

وجود الله . وقد سبق لنا القول في « معرفة الله » إن كثيراً من الآيات قد يثبت وجود الله بصورة غير مباشـرة ، وليس هناك آيـات تثبت وجوده تعـالى بصورة مباشرة وإذا كانت فهي قليلة . ولكن مثل هذا الاستنباط يمكن الحصول عليه عن طريق العقل .

٣ ـ إن الموضوع الـذي هو مـورد الاهتمام أكـثر من أي شيء آخر هـو ربوبية الله بالنسبة للعـالم والإنسان . فـالقرآن الكـريم يحاول من خـلال هذه الآيات الكريمة أن يربي الناس على التفكير حتى يلمّوا بـالتدبـير الإلهي المسيطر على النظام العام في العالم ، ويحاول أيضاً من خلالها ترسيخ نظام العلية :

﴿ فأنبتنا به ﴾[١] .

﴿ فأخرجنا منه ﴾[٢] .

ويعلّم الإنسان أيضاً أن لا يكتفي بهذه الأسباب العـادية بـل يمد نـظره ليرى خالق الأسباب من ورائها جميعـاً ، ولهذا فـإنه في جميـع المجالات ينسب الفعل لنفسه مع ذكر ، للأسباب العادية والعلل المباشرة :

﴿ ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد ﴾[٣] .

وهذه الملاحظة مهمة جداً وذات أثر بنّاء وإيجابي في وجود الإنسان ، وكما لاحظنا من قبل فإن كثيـراً من مواضيـع معرفـة الله تعود بـالتالي إلى التـوحيد الأفعالي .

٤ ـ إحيـاء المعرفـة الفطريـة وإيقاظ العلم الحضـوري : عندمـا يتعمّق الإنسان في هذه الظواهر المذكورة في تلك الآيات فإنـه يبعث فيه حـالة معنـوية وعرفانية ، وهي وإن لم تكن من ألوان التفكير الفلسفي ـ الذي يكون فيه السير من المطلوب إلى المبادىء ومن المبادىء إلى النتيجة ـ إلّا أن نفس التملّي في هذه

---

(١) سورة ق : الآية ٩ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٩ .

(٣) سورة ق : الآية ٩ .

الظواهر يبعث الحياة في المعرفة الفطرية للإنسان ويوقظ ضميره ، وهي نفس تلك المعرفة التي خلق الإنسان مفطوراً عليها :

﴿ **ألست بربّكم ؟ قالوا بلى** ﴾[1] .

وهي ليست من ألوان المعرفة الحصولية والاستدلالية ، وعندما يشعر الإنسان بذلك فإنه يستغرق في حالة روحية وكأنه يرى . وتوجد في هذا المجال آيات مثيرة للإعجاب :

﴿ **إن الله فالق الحب والنوى . . . ذلكم الله فأنىٰ تؤفكون** ﴾[2] .

ولم تلتفت التفاسير إلى هذه الملاحظة إلّا نادراً .

٥ ـ عن طريق التأمل في نظام الوجود ندرك أن هناك نظاماً واحداً منسجماً ولهذا النظام منظّم واحد . ففي كثير من الموارد في القرآن الكريم تأتي هذه الآيات في ذيل آيات التوحيد أو أن التوحيد يستنتج منها :

فالله سبحانه بعد ذكر الظواهر في سورة النحل يقول :

﴿ **إلٰهكم إله واحد** ﴾[3] .

وفي سورة البقرة يقول تعالى أولاً :

﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم** ﴾ .

ثم يلحق به قوله :

﴿ **إن في خلق السموات والأرض . . .** ﴾[4] .

٦ ـ يشير الله سبحانه في بعض الآيات إلى الملازمة القائمة بين الخالقية

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٥ .

(٣) سورة النحل : الآية ٢٢ .

(٤) سورة البقرة : الآيتان ١٦٣ ـ ١٦٤ .

والربوبية ، فالخالق هو نفسه المدبّر أيضاً (وذلك في مقابل قول المشركين إن الخالق شيء والمدبّر شيء آخر غيره) .

يقول الحكيم في سورة الأنعام بعد ذكر الآيات التكوينية :

﴿ ذلكم الله ربّكم خالق كل شيء ﴾[1] .

فالله نفسه هو الرب ، والتدبير هو كيفية التكوين وليس شيئاً منفصلاً عن الخلق .

٧ ـ يحصل الإنسان على صفات الله أيضاً بالتفكير في هذه الآيات من قبيل العلم ، القدرة ، الحكمة ، العظمة وأمثالها .

٨ ـ في بعض هذه الآيات يوجد ما يلفت الإنسان إلى المعاد عن طريق إراءة آثار القدرة الإلهية حتى يفهم الناس أن الله قادر على إحيائهم مرة أخرى . فهناك كثير من الناس الذين كانوا يعيشون بعيداً عن مناطق إشعاع الرسالات السماوية يتورطون في إنكار إمكانية الحياة بعد الموت :

﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ ﴾[2] .

وقد وردت كثير من الآيات التي ترد هؤلاء وتأمرهم بالتفكير في عظمة السموات و. . . . : .

﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾[3] .

فهل يحتمل أن يكون الله الذي أبدع هذا العالم العظيم عاجزاً عن بعثكم مرة أخرى وإحيائكم في يوم القيامة ؟ .

٩ ـ إن ذكر بعض الظواهر الخاصة يهدف إلى رفع الاستبعاد عن المعاد ، مثل « إحياء الأرض » حيث يقول بعده :

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٠٢ .

(٢) سورة يس : الآية ٧٧ .

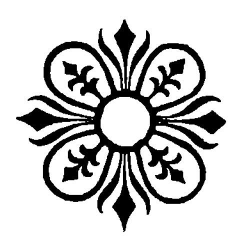
(٣) سورة فاطر : الآية ٩ .

﴿ كذلك النشــور ﴾ .

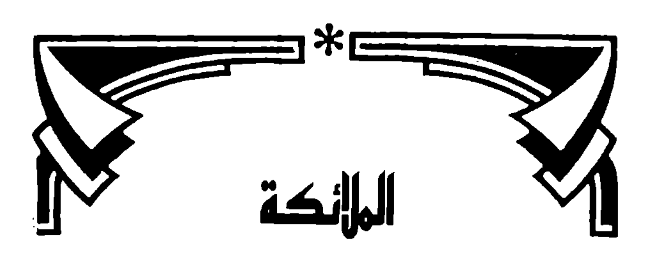
﴿ كذلك الخروج ﴾[1] .

فالقيامة مثل إحياء الأرض .

١٠ ـ ان استيعاب هذه الأمور يفجّر في الإنسـان روح الشكر والعبـادة والطاعة ، وتعتبر هذه من أهم النتائج التي يهدف إليها القرآن الكريم من وراء ذكر ظواهر الوجود .



(١) سورة النازعات : الآية ٢٧ .



الملائكة

إن « معرفة العالم » في القرآن لا تنحصر بالموجـودات المحسوسـة ، لأن هذا الكتاب المجيد يذكر من بين المخلوقات الإلهية ـ التي يشكل كل واحد منها جزءاً من عالم الوجود ـ موجودات لا نستطيع نحن إدراكها بما لـدينا من قـوى حسيّـة ، ومن تلك الموجـودات فئـة تسمى بـ « الملائكـة » . وبسبب أننـا لا نستـطيع إدراكهـا بواسـطة أجهـزتنا الحسيـة لذا فنحن عـاجزون عن معـرفـة خصائصها الوجودية وماهيتها ، ويستثنى من ذلك بعض الجوانب التي بينّها لنا خالقها في القرآن الكريم . وتنقسم الآيات الواردة في هذا المضمار إلى فئتين : فئـة تبينّ أوصـافها العـامة ، وفئـة أخرى تفصّـل أفعـال بعض منهـا وتشـرح خصائصها المميزة .

وما يظفر به الباحث من الآيات الشريفة بشكل عام هو : إنها موجودات لا تعصي الله ولا تملّ العبادة ، وهي دائماً تسبّح الله وتقدسه ، وهي مأمورة من قبل الله ومرسلة منه ، فهذه صفاتها العامة .

ويبدو من الآيات أيضاً أنها ليست في مستوى واحد وإنما لبعضها درجات رفيعة . والأفعال التي تنسب إليها في القرآن هي أفعال متنوعة تعكس الأنواع المختلفة في الملائكة (وهو المعنى الأظهر) أو تتعلق بالمراتب المتعددة لوجودها .

وهذه نماذج من الآيات التي تتعلق بكل واحدة من الفئتين :

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾[1] .

فهذه الآية الكريمة تصف الله بأنه الذي جعل الملائكة رسلاً . ولعل ظاهرها يوحي بأن لجميع الملائكة لوناً من الرسالة ، ولكن هذا الفهم ليس قوياً جداً فمن الممكن أن يكون مفاد الآية مفاد القضية المهملة[2] فهناك رسل من بين الملائكة ، ولو أننا صادفنا دليلاً يؤكّد أن بعض الملائكة لا رسالة له فإن ذلك عندئذٍ لا يكون متنافياً مع هذه الآية .

﴿ يزيد في الخلق ﴾ .

في هذه الجملة إشارة إلى أن أجنحة الملائكة لا تنحصر في الأربعة ، وإذا شاء الله فإنه يخلق أجنحة أكثر من ذلك ، وقد يفهم من هذه الجملة أن هناك ملائكة تتمتع بأكثر من أربعة أجنحة .

فما هو المقصود من الأجنحة هنا ؟ .

أهي مثل أجنحة الطيور ؟ .

إذن ما معنى أن يكون لها ثلاثة أجنحة ؟ .

أم المقصود شيء آخر ؟ .

من الواضح أنه لو لم يكن لدينا دليل من الخارج فإننا لا نستطيع أن نرفع أيدينا عن ظاهر الآية لمجرد استبعاد وجود الأجنحة الثلاثة ولكن بعض القرائن في الآيات الأخرى قد توحي بأن هذا التعبير كنائي أو استعاري ، وسوف يذكر ذلك في محله فيما بعد بعون الله .

---

(١) سورة فاطر (الملائكة) : الآية ١ .

(٢) هي تلك القضية التي لا يكون موضوعها شخصاً معيناً ، وليس فيها ذكر للكلية ولا للجزئية ، ويعتبر هذا اصطلاحاً منطقياً ، ومن أحب التوسّع في ذلك فليرجع إلى أساس الاقتباس وسائر الكتب المنطقية .

وبالنسبة لاختلاف رتب الملائكة يقول تعالى :

﴿ وما منا إلاّ له مقام معلوم ﴾[1] .

أي إن لكل ملك منزلة معينة .

ويستفاد من بعض الآيات الأخرى أيضاً إن لبعض الملائكة صفة الآمر بالنسبة للبعض الآخر ، من قبيل الأمين جبرئيل عليه السلام ، يقول جلّ وعلا :

﴿ مطاع ثمّ أمين ﴾[2] .

فأمر جبرئيل مطاع في عالم الملكوت ، إذن هناك من يأمرهم جبرئيل .

وكذا الآية المتعلقة بملك الموت :

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾[3] .

وفي بعض الآيات الأخرى :

﴿ توفته رسلنا ﴾[4] .

وقد قيل في الجمع بين هاتين الآيتين (حيث ينسب قبض الروح في إحداهما لملك الموت وفي الأخرى لمجموعة من الملائكة) إن ملك الموت هو المأمور لقبض الأرواح ولكن له أعواناً وهو بوساطتهم يؤدي هذه المهمة ، ولعل بعض الأرواح يقبضها نفس هذا الملك الجليل صلوات الله عليه .

إذن هناك تفاوت في المنزلة بين ملك الموت والرسل الآخرين .

---

(١) سورة الصافات : الآية ١٦٤ .

(٢) سورة التكوير : الآية ٢١ .

(٣) سورة السجدة : الآية ١٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٦٢ .

أعمال الملائكة

إن بعض الآيات تصرح بنسبة أعمال معيّنة إلى الملائكة ، ولكن بعضها الآخر يذكر عناوين تنطبق ظاهراً أو بحسب الاحتمال على الملائكة[1] :

١ ـ هناك آيات تصف الملائكة بأنهم حاملوا الوحي ليوصلوه إلى الأنبياء (ع) ، قال تعالى :

﴿ قل نزّله روح القدس ﴾[2] .

الظاهر إن المقصود من روح القدس هو جبرئيل عليه السلام وذلك من خلال هذه الآية الكريمة :

﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك ﴾[3] .

ويظهر من بعض الآيات الأخرى أن لبعض الملائكة الآخرين دخلاً في عملية نزول الوحي أيضاً ، ومن الممكن أن يكون للوحي مراتب ودرجات بعضها يتم إبلاغه بوساطة جبرئيل عليه السلام ، والبعض الآخر بوساطة سائر الملائكة :

﴿ بأيدي سفرة كرام بررة ﴾[4] .

فهذه من الآيات التي لا تصرح بكون هؤلاء البررة ملائكة وإنما يفهم من لحن الآية أن هؤلاء الرسل لا يمكن أن يكونوا من غير الملائكة .

ولدينا آيات لها نغمة عامة :

﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾[5] .

---

(١) وتوجد روايات تذكر في هذا المجال ولكن لما كانت دراستنا قرآنية فنحن نكتفي بالآيات .

(٢) سورة النحل : الآية ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٩٧ .

(٤) سورة عبس : الآية ١٦ .

(٥) سورة النحل : الآية ٢ .

إن نغمة هذه الآية عامة ولكنه من الواضح أن هؤلاء الذين ينزل عليهم الوحي هم الأنبياء (ع) وإن حاملي ذلك الوحي هم الملائكة .

٢ ـ إن نزول « الأمر الإلهي » (ويبـدو من سياق الآيـة أن المقصود هـو الأمر التكويني) يتم على أيدي الملائكة .

أي إن للملائكة دور القوّة التنفيذية في تدبير العالم الذي يتم بأمر الله فهم الذين ينفذون هذا الأمر .

ويتضح هذا الموضوع بالربط بين هاتين الآيتين :

﴿ يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يـوم كان مقـداره ألف سنة مما تعدّون ﴾[١] .

وفي آية أخرى ينسب هذا العروج إلى الملائكة :

﴿ تعـرج المـلائكـة والـروح إليـه في يـوم كـان مقـداره خمسـين ألف سنة ﴾[٢] .

أي أن الملائكة تعرج نحو الله في يوم القيامة .

فمن الربط بين هـاتين الآيتـين يظهـر بوضـوح إن « نزول الأمـر » كان بوساطـة الملائكـة ، ثم عروجـه أيضاً كـذلك . وليس المقصـود هو « الفـوقية المحسـوسة » ، وليس النـزول هنا جسمـانياً ينـزل فيه شيء نحـو الأسفل من الكرات الأخرى .

وقد سبق لنا القول أن الله قد أنـزل من الأنعام ثمـانية أزواج ، وليس معنى هذا إن الأبقار وسائر الدواب كانت ترعى في الكرات السماوية ثم نقلها الله إلى الأرض وأنزلها إلى هذه الكرة .

إنه النزول من الخزائن المعنوية لله سبحانه :

---

(١) سورة السجدة : الآية ٥ .

(٢) سورة المعارج : الآية ٤ .

﴿ وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه ﴾[1] .

وعندما يتحقق في هذا العالم يُعبّر عن ذلك بـ « النزول » ، أي أنه قبل ذلك كان في منزلة رفيعة ثم نزل معنوياً . فالملائكة ينزلون أمر تدبير الكون من العالم الذي هو عند الله وفيه خزائن الأشياء .

إذن للملائكة رسالتان : إحداهما الرسالة التكوينية التي بفضلها ينفذون الأمر التكويني الإلهي ويدبّرون شؤون هذا العالم .

والأخرى الرسالة التشريعية التي يتم فيها إيصال الشرائع التي يوحيها الله إلى الأنبياء (ع) .

وبناءً على هذا فالرسالة المذكورة في مثل هذه الآيات :

﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ﴾[2] .

﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾[3] .

يمكن تفسيرها بأي واحد من هذين المعنيين .

وإذا كانت هذه الآيات تنسب تدبير الأمر إلى الملائكة من العالم الأعلى نازلاً نحو الأرض ، إذن يمكن القول أن المقصود من المدبّرات في هذه الآية الكريمة :

﴿ فالمدبّرات أمراً ﴾[4] .

هم الملائكة ، وكذا المقصود من المقسّمات في قوله تعالى :

﴿ فالمقسّمات أمراً ﴾[5] .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢١ .
(٢) سورة الحج : الآية ٢٢ .
(٣) سورة فاطر : الآية ١ .
(٤) سورة النازعات : الآية ٥ .
(٥) سورة الذاريات : الآية ٤ .

وذلك لأن التقسيم أيضاً من لوازم التدبير ، أي كل ما يجعله الله رزقاً للعباد فإن هؤلاء يقسمونه ، فهم وسطاء في إيصال سهم كل شخص إليه ، وكذا في التقسيمات الأخرى .

كانت هذه عناوين لم تنسب صراحةً للملائكة، ولكن قد تفيد القرائن أن المقصود منها هم الملائكة . ونظير هذه الآيات المذكورة آيات في سورة الصافات وسورة المرسلات .

وهناك عدة تفاسير مختلفة لهذه الآيات ، وأحد الأقوال فيها أن المقصود منها هم الملائكة .

٣ و٤ ـ توجد فئة من الملائكة تحمل عرش الله ، وقد تكون هي أو فئة أخرى تشفع للمؤمنين :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾[1] .

فها هنا أيضاً لم تذكر الآية بصراحة من هم حاملوا العرش ، ولكنه بالاستعانة ببعض القرائن الموجودة في آيات أخرى يمكن الاستظهار أو الاستشعار إن هؤلاء هم من الملائكة وليس لهم من عمل سوى تسبيح الله والاستغفار للمؤمنين ، أو على الأقل يستطيع الباحث أن يفهم ضمناً أن أحد أعمال الملائكة هو التسبيح والاستغفار للمؤمنين ، وهذا بنفسه يعني الشفاعة .

﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[2] .

﴿ ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى ﴾[3] .

وقد جاء في بعض الروايات :

---

(١) سورة المؤمن : الآية ٧ .

(٢) سورة النجم : الآية ٢٦ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

« من ارتضى الله دينه » .

٥ ـ ومن أعمال الملائكة صبّ اللعن على الكفار :

﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾[١] .

﴿ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة ﴾[٢] .

٦ ـ ومن أعمال الملائكة إعطاء البشارة للمؤمنين ، ويفهم من القرائن إن هذه البشارة تكون عند الاحتضار :

﴿ إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾[٣] .

ولو أننا ظفرنا بدليل لأمكننا القول إن الملائكة تنزل على بعض الأشخاص قبل الموت وتعطيهم البشارة ، أي إن هذه الآية لا تتنافى مع مثل هذا الموضوع . ولكن القدر المتيقن هو إن هذه البشارة تعطى عند الموت .

٧ ـ ومن أعمال الملائكة تسجيل أعمال عباد الله :

﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ﴾[٤] .

﴿ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾[٥] .

﴿ ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد ﴾[٦] .

﴿ بلىٰ ورسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾[٧] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٨٧ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٣٠ .

(٤) سورة الانفطار : الآية ١١ .

(٥) سورة يونس : الآية ٢١ .

(٦) سورة ق : الآية ١٨ .

(٧) سورة الزخرف : الآية ٨٠ .

٨ ـ من الآيات التي تبين عنواناً عاماً ولم تصرح باسم الملائكة ولكن القرائن تشهد بأن المقصود هم الملائكة هذه الآية الكريمة :

﴿ له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[1] .

وتوجد في هذه الآية بحوث عديدة ، ولعل هذا الاحتمال هو الأقوى وهو أن لكل إنسان حراساً من الملائكة يحفظونه حتى يحين قضاء الله الحتمي ، ولكنها لم تصرح باسم الملائكة .

٩ ـ إمداد المؤمنين أيضاً أحد أعمال الملائكة :

﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى ، إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾[2] .

كنا إلى ما قبل عدة سنوات نتعب أنفسنا كثيراً حتى نثبت لبعض المثقفين أن هناك موجوداً يطلق عليه اسم الملك ، وأن للمدد الغيبي حقيقة واقعة ، والله سبحانه يرسل هؤلاء الملائكة لنصرة المجاهدين في القتال . وكان أولئك المثقفون يقولون إن هذه إيحاءات روحية وما يشبه ذلك .

ولكنه بفضل انتصار الثورة الإسلامية والانتصارات المتتالية في الحرب المفروضة على المسلمين من قبل أعداء الإسلام فقد أصبحت هذه الأمور مستغنية عن الإثبات ، فالإمداد الغيبي حقيقة واضحة في جبهات القتال وغيرها يلمسها كل منصف لم يعم الهوى بصيرته .

ويقول تعالى في مجال آخر فيما يتعلق بالنبي الأكرم (ص) :

﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾[3] .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

(٢) سورة آل عمران : الآيتان ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٣) سورة التحريم : الآية ٤ .

الأعمال الأخرى للملائكة

وهناك أعمال يقوم بها بعض الملائكة باعتبار شأنهم وفي موارد معينة وبالنسبة لأشخاص محددين :

١ ـ الملائكة الذين نزلوا ضيوفاً على إبراهيم (ع) ثم غادروه ليهلكوا قوم لوط :

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنّا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب * قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ، إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد ﴾[١] .

ثم يقول تعالى بعد ذلك :

﴿ قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك ﴾[٢] .

وقد وردت هذه القصة في سورة الحجر الآيات من ٥١ إلى ٦٤ ، وفي سورة العنكبوت الآيات من ٣١ إلى ٣٤ .

أجل إننا نفهم من هذه القصة أن الملائكة يستطيعون أن يبشروا بأمور سوف تتحقق فيما بعد ، أي أن الأنبياء (ع) أو أشخاصاً آخرين يستطيعون الظفر بلون من ألوان العلم بالغيب وذلك عن طريق الملائكة .

ويُكلفون أيضاً في بعض الأحيان بإنزال العذاب على بعض الأمم ، كما حدث في تعذيب قوم لوط ، فالملائكة كانوا واسطة في ذلك . وكما مرّ علينا في الآيات السابقة إن الملائكة بصورة عامة وسطاء في الأمر والتدبير الإلهين .

---

(١) سورة هود : الآيات ٦٩ ـ ٧٣ .

(٢) سورة هود الآية ٨١ .

فها هنا نلاحظ المصاديق الخاصة للتدبيرات الكونية ، ولما كان تدبيراً غير عادي وليس له وسيلة ماديّة فلهذا كُلّف الملائكة بصورة خاصة للقيام به .

٢ ـ وتوجد قضية خاصة أخرى :

كان لبني إسرائيل تابوت يصطحبونه معهم في الحروب وفيه آيات الله ولعله يحتوي على عصا موسى (ع) ، وكان الملائكة هم الحاملين لهذا التابوت :

﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربّكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾[1] .

إن هذا النبي الكريم لم يذكر هذا الموضوع إلّا عندما لم يقبل الناس ملك طالوت عندما عرّفه لهم .

إذن يمكن القول إن الحوادث التي ليس لها عامل طبيعي تتم بوساطة الملائكة ، أي إن تلك الحوادث ليست فاقدة للسبب وإنما سببها الملائكة أنفسهم .

٣ و٤ ـ وللملائكة دور في قصة زكريا ومريم (ع) ، وقد ذكر ذلك في قصة زكريا في سورة آل عمران :

﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾[2] .

ويشبه ذلك ما ورد في سورة مريم :

﴿ يا زكريا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيىٰ ﴾[3] .

أمّا قصة مريم :

﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتّخذت

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٩ .

(٣) سورة مريم : الآية ٧ .

من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويا * قالت إني أعـوذ بـالرحمـان منك إن كنت تقيـا * قال إنمـا أنا رسـول ربّك لأهب لـك غلامـاً زكيا ﴾[1] .

إن أول ملاحظة تُصطاد من هذه الآيات هي أن الحديث مـع الملائكـة ليس مقصوراً على الأنبياء ، فمريم (ع) لم تكن من الأنبياء ، والذين يصيبهم العجب من أحاديث الأئمة الأطهار (ع) مع الملائكة لا بـدّ لهم من التأمـل في هذه الآيات .

أما المقصود من الروح في الآية فالظاهـر أنه أحـد الملائكـة أو هو أحـد كبـارهم أو هـو مخلوق يشبههم ، وقـد اختلفت الـروايـات الـواردة في هــذا المضمار . فإن كان هو الروح الأمين فهو جبرئيل (ع) ، ولعلَّ هـذا المعنى هو الذي يستظهر من الآيات الكريمة .

أجل إن هذا الروح قد تجلّى لمريم (ع) بصورة إنسان ، أي أنه ظهر لها بصورة إنسان لكي يصبح الوسيلة لتحقق جنين عيسى (ع) في رحم مريم .

وله تأثير كبير في ولادة عيسى بحيث صح التعبير عنـه في الآية بقـوله : **﴿ لأهب لك غلاماً ﴾** .

هذا هو مقام الفاعلية للملك وهو لون من ألوان الخلق إلّا أنه في الحقيقة وساطة في الخلق ، كما أن الأمر كذلك بالنسبة إلى عيسى عليه السلام نفسه عند ما قام بـ « خلق الطير » ، وهو مقام عظيم جداً .

إذن هناك شيء موجود يعرف بـأنه « واهب عيسى (ع) » ، وهـو يتمتع بلون من الفاعلية والتأثير في هذا المجال . ومن هنا يعلم أن بين المـلائكة ـ أو الروح الذي هو من سنخها ـ توجد مثل هذه الأعمال ، وتعدّ هذه الأمور من مصاديق الشيء الخارق للعادة ، والفاعل لها هم الملائكة .

فقبول الإعجاز لا يعني نفي كل فاعل غير الله سبحانه ، بل قد تـوجد

---

(١) سورة مريم : الآيات ١٦ ـ ١٩ .

وسائط في البين ، ومن جملتها الملائكة .

والملاحظة الأخرى التي يستطيع الباحث أن يستفيدها من هذه الآيات هي أن الملائكة ـ أو على الأقل بعضهم ـ يستطيعون أن يظهروا بشكل إنسان . ويفهم ضمناً أن التعبير بـ « الرسالة » يستعمل أيضاً في الأمور التكوينية ، فقد جاء في الآية أن ذلك الروح قال :

﴿ إنما أنا رسول ربّك ﴾[1] .

فالوساطة في العمل أيضاً لون من ألوان الرسالة .

وبعبارة أخرى : إن الرسالة تارة تكون إبلاغاً لموضوع وتارة أخرى تكون أداءً لعمل .

فالله تعالى يقول في قصة لوط الوارد ذكرها في سورة هود :

﴿ إنّا رسل ربّك ﴾[2] .

فهذه أيضاً رسالة .

* * *

أجل من مجموع هذه الآيات المتعلقة بالملائكة يفهم الدارس أن هناك من بين الملائكة مَن يحمل العرش أو يكون في أطرافه ، ومَن يوصل الوحي إلى الأنبياء (ع) ، ومَن يقوم بتدبير أمور العالم ، ومن جملتها قبض الروح ، وكتابة الأعمال ، والبشارة للمؤمنين و. . . .

كل هذه الأمور تتعلق بعالم الدنيا ، فما هو الحال في عالم ما بعد هذه الدنيا ؟ .

يلزمنا القول : إن الملائكة موجودون في عالم البرزخ لأنه عندما نقول إن

---

(١) سورة مريم : الآية ١٩ .

(٢) سورة هود : الآية ٨١ .

الملائكة تأتي للمؤمنين في حالة الاحتضار ليبشروهم ونحن نعلم أن الاحتضار يعني ذلك الوقت الذي يفتح فيه الإنسان عينيه على عالم البرزخ إذن للملائكة وجود في ذلك العالم .

وفي يوم القيامة أيضاً يوجد الملائكة ، فهناك فئة من الملائكة تحيي المؤمنين في الجنة :

﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم ﴾[1] .

وفئة أخرى تستقبل المؤمنين :

﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم ﴾[2] .

وتتولى مجموعة منهم مسؤولية جهنم ، ومن الأشياء العجيبة التي يعتبر التسليم بها علامة على الإيمان ويُعدّ ردّها علامة على النفاق هو عدد الموكلين بجهنم :

﴿ عليها تسعة عشر ﴾[3] .

ويبدو أن هذا الموضوع كان مذكوراً في الكتب السماوية التي سبقت القرآن المجيد ، وكان أهل الكتاب ملمّين به ، لذا فإنهم جاءوا إلى نبي الإسلام (ص) وسألوه عن عددهم ليختبروه هل أنه يعلم بذلك أم لا .

ويوصف هؤلاء الملائكة بأنهم :

﴿ ملائكة غلاظ شداد ﴾[4] .

ويحتمل أن يكون هذا العدد « تسعة عشر » هم الرؤساء الموكّلين بجهنم ، ومع كل واحد منهم آلاف من الملائكة تخضع لأوامره .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٧٣ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة المدثر : الآية ٣٠ .

(٤) سورة التحريم : الآية ٦ .

ويفهم من الآيات الكريمة أيضاً أن هناك ملكاً يهيمن على جميع شؤون نار جهنم واسمه « مالك » :

﴿ ونادوا يا مالك ليقضي علينا ربّك قال إنكم ماكثون ﴾[1] .

* * *

ولا نفهم من الآيات الكريمة شيئاً حول نوعية خلق الملائكة ، فالقرآن يقول ثم خلق الإنسان وممّ خلق الجن ولكنه لا يذكر ممّ خلق الملائكة .

ولعلّ الباحث يستطيع أن يستظهر أن الملائكة ليس لهم مادة قبلية ، وأما الجن والإنس فهي موجودات جسمانية قد خلقت من مادة قبلية .

ولعله يمكن الاستظهار من هذه الآية القائلة :

﴿ قل الروح من أمر ربّي ﴾[2] .

إن للروح ـ الذي هو من سنخ الملائكة لا الروح الإنسانية ـ حقيقة خاصة توصف على أساسها بأنها من أمر الله .

وبناءً على هذا يمكن القول أن الملائكة ليست موجودات جسمانية ، وينطبق هذا الأمر على ما نسميه في الفلسفة باسم « المجرّد » . ومن الممكن أن تكون مجرّدات برزخية أو مجردات عقلانية تامة ، أو أن الملائكة يختلفون بحسب المراتب والدرجات ، فبعضهم ـ وهم الملائكة البرزخيون ـ من المجردات البرزخية ، أي أن لهم شكلاً وهيئة ويتصفون بخواص المادة ، كما جاء في الروايات أن نكيراً ومنكراً يظهران للموتى بصور مختلفة ، والبعض الآخر يكون من المجردات التامة .

وعلى أي حال فإنه لا يوجد لدينا شاهد قطعي من الآيات الكريمة .

ولو أننا رتبّنا هذه الشواهد الظنية لأمكن القول إن التعبير بقوله :

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٧٧ .

(٢) سورة بني إسرائيل : الآية ٨٥ .

﴿ أولي أجنحة ﴾[1] .

بالنسبة إلى الملائكة إنما هو تعبير كنائي ، فكما أن قوله تعالى :

﴿ وجاء ربّك ﴾[2] .

تعبير مجازي يفهم بالقرينة ، فكذا التعبير بأن للملائكة أجنحة ، وهو يعني أن لهم مراتب مختلفة من حيث النزول والعروج . ولما كان النزول يتم من العالم الأرفع ، والعروج نحو العالم الأعلى ، إذن وسيلة ذلك لا بدّ أن تكون متناسبة معه ، لا أن يكون المراد هو الجناح الجسماني . فإذ كان النزول والعروج معنوياً (واستظهار ذلك ليس ببعيد) فإنه يمكن القول إن هذه الأجنحة وسيلة للنزول والعروج ، أي أنه علامة قدرتهم على النزول والعروج . وعندئذٍ يمكن تفسير تلك الآية بأن الملائكة يختلفون في مدى ما يتمتعون به من تلك القدرة ومن تلك العلامة على هذه القدرة ، فبعضهم ضعيف وله جناحان ، وبعض أقوى وله ثلاثة أو أربعة و :

﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾[3] .



(١) سورة فاطر : الآية ١ .

(٢) سورة الفجر : الآية ٢٢ .

(٣) سورة فاطر : الآية ١ .

الجن والشيطان ******************

الجـــن :

من جملة موجودات العالم غير المحسـوسة التي يتعـرض لذكـرها القـرآن الكريم ونحن لا نستطيع أن ندركها بأجهزتنا الحسية في الظروف العـادية هي الملائكة التي مرّ الحديث عنها ، ومن جملتها أيضاً الجن :

فالجن في أصل معناه يتضمن معنى « الخفاء » ، ولعله أطلق عليـه هذا الاسم بمنـاسبة أنـه مخفي عن عين الإنسـان . ويسمى أحيانـاً بالجـانّ . وقـد استعمل كلا اللفظين في القرآن وتتضافر الشواهد على أن المقصود من الكلمتين في القرآن واحد . ومن جملة هذه الشواهد أن القرآن يستعمل في مقابل الإنسان الجن أحياناً والجانّ أحياناً أخرى قال الله تعالى :

﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾[1] .

﴿ فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾[2] .

وعلاوة على ذلك فقد جاء في القرآن إن الجان مخلوق من النار ويعتـرف

---

(١) سورة الرحمان : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الرحمان : الآية ٣٩ .

الشيطان ـ الذي هو من الجن ـ أيضاً أنـه مخلوق من النار ، وهـذا تأييـد آخر للموضوع .

وعلى أي حال فهناك موارد للبحث حول هذا الموجود وردت في القـرآن الكريم ، ومن جملتها أن مادة خلق الجن هي « النار » ، ولكن هل يقصد منها هذه النار التي تتكوّن من تركيب أجسام قابلة للإحتراق مع الأوكسجين أم هي شيء يشبه هذه ، كما قلنا ذلك بالنسبة لـ « الماء » الـذي هو الأصـل في خلق الـموجـودات الحيّـة هـل المـراد منـه هـذا التـركيب المعـروف من الأوكسجـين والهيدروجين أم هو شيء يشبهه حيث يطلق الماء في القرآن على النطفة أيضاً ، قال تعالى :

﴿ والجانّ خلقنا ، من قبل من نار السموم ﴾[1] .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن « الجانّ » مخلوق من النار وتدل أيضاً على أن خلقه قد تمّ قبل خلق الإنسان .

﴿ وخلق الجان من مارج من نار ﴾[2] .

وهناك ملاحظة ثالثة غير الملاحظتين اللتين مرّ ذكرهما ، وهي تستفاد من إحدى آيات سـورة الأنعام وتتضمن الأخبـار بأن بعض الجن يستخـدم بعض الناس ويجعلونهم تبعاً لهم :

﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾[3] .

يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية إن هذا القول من باب « قد استكثر الأمير من الجنود » أي أخضـع كثيراً منهم لأوامـره ، والملاحـظة الأخرى التي تُقتنص من الآيات هي أن الجن مكلفون أيضـاً كالإنسـان ، فهم موجـودات مختارة تقف على مفترق طريقين ولا بدّ لها من اختيار أحـدهما . فـإن اختارت الحق فستنال الثواب وإن اختارت الباطل فسيصب عليها العذاب :

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الرحمان : الآية ١٥ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٢٨ .

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾[1] .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن الجن والإنس مشتركان في عبادة الله .

وهناك آية في سورة الأنعام يفهم منها أن رسلاً قد بعثوا إلى الجن يحملون إليهم الرسالة الإلهية :

﴿ يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي ﴾[2] .

وينقل القرآن الكريم قول الجن أنفسهم أن فيهم فئتين : فئة خيّرة وفئة شرّيرة :

﴿ وأنّا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك كنّا طرائق قددا ﴾[3] .

﴿ وأنّا منّا المسلمون ومنّا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾[4] .

ويفهم من هاتين الآيتين أيضاً أن هؤلاء مكلفون ، وإذا تورّط أحدهم في الكفر فإن مصيره إلى النار التي ينتهي إليها الكافرون من الناس ، وحتى أن التعبير بحطب جهنم المستعمل في هذه الآيات للجن قد استعمل القرآن مثله بالنسبة للإنسان :

﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾[5] .

وهناك أكثر من آية تصرّح بأن بعض الجن ينتهي به المطاف إلى نار جهنّم ، منها هذه الآية الكريمة :

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٣٠ .

(٣) سورة الجن : الآية ١١ .

(٤) سورة الجن : الآيتان ١٤ ـ ١٥ .

(٥) سوره البقرة : الآية٢٤ ، وسورة التحريم : الآية ٦ .

﴿ قـال ادخلوا في أمم قـد خلتَ من قـبلكـم من الجـن والإنس في النار ﴾[1] .

ارتباط مفهوم الجن بالشيطان

لعلّ أصل مفهوم الشيطان يتضمن معنى وصفياً ، أي « الشرير » ، وقد استعمل في القرآن المجيد بهذا المعنى ، إلّا أنه يرد أحياناً ويقصد به إبليس نفسه ، وأحياناً أخرى يراد منه أي موجود شرّير قد أصبح الشر ملكة راسخة فيه .

ونلاحظ في القرآن الكريم تصريحاً بأن الشيطان قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنسن والجن ﴾[2] .

إذن ليس الجن بأجمعهم أشراراً كما لاحظنا في الآيات السابقة :

﴿ وأنّا منّا المسلمون ﴾[3] .

وعلى هذا فالشياطين فئة خاصة من الجن أو الإنس تتميز أعمالهم بالشرّ .

ويوجد بين شياطين الجن فرد متميز وله باع طويل في الشيطنة وهو إبليس ، وفي القرآن الكريم بحوث عديدة تدور حول إبليس ، ففي إحدى الآيات ورد تصريح بكونه من الجن :

﴿ فسجدوا إلّا إبليس كان من الجن ﴾[4] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٨ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١١٢ .

(٣) سورة الجن : الآية ١٤ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٥٠ .

ويطرح ها هنا هذا السؤال :

إذا كان إبليس من الجن فكيف شمله الأمر الصادر للملائكة بالسجود لآدم (ع) ؟ فالظاهر أن هذه الواقعة تدل على أن إبليس قد كان من جملة الملائكة .

ويُبَرّر هذا السؤال بثلاثة وجوه :

١ ـ إن الخطاب في الآية موجّه إلى الملائكة ولم ينقل أبداً إن الخطاب شامل للجن أيضاً ، فلو كان إبليس فرداً من أفراد الجن لاستطاع أن يعتذر بأني لست من الملائكة حتى يشملني الخطاب ولهذا فإنني لم أسجد ، بينما نحن نعلم أنه لم يقل ذلك .

٢ ـ إن المستثنى منه في الآية هم الملائكة :

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلّا إبليس ﴾[1] .

٣ ـ يقول الإمام أمير المؤمنين علي (ع) في الخطبة القاصعة من نهج البلاغة :

« فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجَهده الجهيد ، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة ، لا يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة ، عن كبر ساعة واحدة . فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته ؟ كلا ، ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها مَلَكاً »[2] .

بينما نحن قد رأينا أن القرآن يصرّح بكونه من الجن :

﴿ كان من الجن ﴾[3] .

---

(١) سورة الحجر : الأيتان ٣١ ـ ٣٢ .

(٢) نهج البلاغة ـ تعليق الدكتور صبحي الصالح ـ ص ٢٨٧ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٥٠ .

للجـواب على هـذا السؤال قام المفسّـرون ببحوث متنـوعة حـول هـذا الموضوع وهو هل أن إبليس فرد من الملائكة أم من الجن ؟ .

ولعلّ أفضل جواب هو الجامع بين الاثنين بهذه الصورة وهي أن إبليس كان يعدّ في صف الملائكة لكثرة عبادته حتى أن الملائكة كان يُخيّل إليهم أنه من جملتهم ، وعندما جاء الخطاب شمل إبليس لهذا السبب ، وهو نفسه كان يعلم أن الخطاب شامل له .

ويمكن القول أيضاً لما كانت الأكثرية الساحقة للمخاطبين ـ في مـوضوع أمر الله بالسجود ـ من الملائكة لذا فإن القرآن في مقام نقله لذلك الخطاب يقول أمرنا الملائكة بالسجود فسجدوا جميعاً إلّا إبليس ، وهذا لون من ألـوان البيان ليس من النادر اللجوء إليه .

أجل يبدو لنـا أن هذه الصـورة التي تجمع بـين الاثنين ـ بحيث يكـون إبليس حقيقة من الجن ولكنه لكثرة عبادتـه كان يعـد من جملة الملائكـة ـ هي أفضل الوجوه المذكورة في هذا المضمار ، لا سيما بعد الأخذ بعين الاعتبار أنه من البعيد كون إبليس من الملائكة من حيث الخلقة والماهية ، لأنه لم يرد في أي مجال من القرآن أن الملائكة مخلوقون من النار ، وعلاوة على ذلك فالقرآن يصرّح بأن إبليس عصىٰ ربّه بينما الملائكة لا يعصون الله إطلاقاً .

إن قصة استكبار الشيطان ـ التي كانت امتحاناً له ـ قد وردت في القرآن في سبعة مواضع ، وهي تتميز بآثار تربوية جليلة ، ولكننا مع الأسف الشديد لا نلتفت كما ينبغي لقصص القرآن بسبب العادة أو عدم التعمّق .

ولهذه القصة فصول محدّدة :

ـ الأمر الإلهي بالسجود لآدم عليه السلام .

ـ الامتيازات الخاصة التي كان يتمتع بها آدم ، وعلى أساسها أصدر الله أمره بالسجود له .

ـ مواجهة إبليس لهذا الأمر وإباؤه عن السجود .

ـ جوابه مبيّناً سبب هذا الاستكبار :

﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾[1] .

أو بتعبير آخر يقول :

﴿ أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾[2] .

لقد كان اختباراً عظيماً فمع أنه كان مدمناً على العبادة وبتعبير الإمام (ع) عليه السلام :

« وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة ، لا يُدرىٰ أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة »[3] التي كل يوم منها كألف سنة مما نعدّ ، ولكن نتيجة هذا الاختبار أسفرت عن طرده وسقوطه إلى الحد الذي يخاطبه الجليل :

﴿ فاخرج منها فإنك رجيم ﴾[4] .

﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾[5] .

ومن هنا فإن علينا أن نراقب أنفسنا ونتعهدها ، فإذا منحنا الله توفيقاً وقطعنا عدة خطوات في طريق الحق والخير فلا ينبغي أن يحملنا هذا على الغرور فنظن أننا سوف نبقى على ذلك حتى النهاية ، إن هذا العالم ساحة للتغييرات والتحولات ، وما دام الإنسان حياً وهو يمرّ على الصراط الدقيق للحياة اليومية فإنه معرّض للسقوط . وهنيئاً لأولئك العظام الذين كانوا يخشون دائماً سوء العاقبة أكثر من أي شيء آخر ، وهم يرددون باستمرار هذا الدعاء .

« اللهم اجعل عواقب أمورنا خيراً » .

والشيء الآخر هو ردّ فعل الشيطان بعد طرده : فعندما عرف أن

---

(١) سورة الحجر : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٢ .

(٣) نهج البلاغة ـ تعليق الدكتور صبحي الصالح ـ ص ٢٨٧ .

(٤) سورة الحجر : الآية ٣٤ .

(٥) سورة الحجر : الآية ٣٥ .

الموضوع جديّ وأنه قد هوى من مقامه الرفيع لامتناعه عن السجود لآدم (ع) تفجّرت في نفسه ينابيع العداء لآدم وخاطب ربّه قائلاً :

﴿ لئن أخّرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلاّ قليلاً ﴾[1] .

﴿ فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين ﴾[2] .

وقد ذكر موضوع طلب الإمهال من إبليس والاستجابة لذلك الطلب من قبل الله في ثلاثة موارد من القرآن :

﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون ﴾[3] .

﴿ قال ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾[4] .

والله سبحانه لا يجيبه بأننا قد أمهلناك إلى يوم القيامة وإنما هو عز وجل يقول :

﴿ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾[5] .

وأما الأعمال التي أجيز له أن يؤدّيها أو هو يقوم بها تكوينياً أو يزعم أنه سيفعلها قد وردت في القرآن المجيد في موارد كثيرة :

ففي صدر قائمة أعماله تأتي « الوسوسة » ، ولعلّ أعماله الأخرى تعود بالتالي إليها ، وقد قام بها في مورد آدم وحواء وأدّى إلى خروجهما من الجنة :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلاّهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٢ .

(٢) سورة ص : الآية ٨٢ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٤ .

(٤) سورة الحجر : الآية ٣٦ . وسورة ص : الآية ٧٩ .

(٥) سورة الحجر : الآيتان ٣٧ ، ٣٨ .

سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟! ﴾[1] .

﴿ يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان ، كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾[2] .

﴿ فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . . . ﴾[3] .

﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد . . . ﴾[4] .

وتشير إحدى الآيات الكريمة إلى سبب إعطائه تلك المهلة :

﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شك ﴾[5] .

الأعمال الأخرى للشيطان :

قال الجليل في كتابه العزيز :

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ .

أي من أجل إضلالهم .

﴿ وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[6] .

وقد تحقّق تنبّؤ الشيطان هذا بالنسبة لبعض الأمم ، فهذه الآية الكريمة تؤكد :

---

(١) سورة الأعراف : الآيات من ٢٠ إلى ٢٢ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٣٦ .

(٤) سورة طه : الآية ١٢٠ .

(٥) سورة سبأ : الآية ٢١ .

(٦) سورة الأعراف : الآية ١٧ .

﴿ ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين ﴾[1] .

ومن أعمال الشيطان الأخرى التي تحتل الصدارة في قائمة أعماله هو تزيين الأعمال السيئة في عيون الناس :

﴿ لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾[2] .

وهذا الشباك هو أحد الأسلحة المهمة التي يستخدمها الشيطان خلال نشاطه ، فيجسّم الأشياء التي لا ترضي الله ، ويظهرها لذيذة في ذوق الإنسان أكثر مما تتميّز به من لذة بشكل طبيعي ، حتى يخيّل للإنسان أن طريق المحرّمات هو الأقرب للقلب والأسعد للنفس ، فيتصور أن فرخ دجاجة الجيران طير .

وقد تسلّلت نماذج من هذه الوساوس إلى آدابنا ، أو على الأقل أجادت تصويرها .

وتعتبر هذه الأمور من أغرب وساوس الشيطان فمع أن الإنسان قد جرّب مرات ومرات ولكنه باقٍ على الظن بأن طريق الإثم هو أكثر لذّة وأطيب مذاقاً .

وأما ما أجيز له من قبل الله سبحانه فهو ما تتحدث عنه هذه الآية :

﴿ قال إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ، جزاءً موفوراً ﴾[3] .

ومن الأعمال الأخرى للشيطان هي المشاركة في الأموال والأولاد :

﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾[4] .

أي أنه يعمل عملاً يشوب به الأموال والأولاد بالحرام .

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢٠ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٣٩ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٦٣ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٦٤ .

ومن أعماله أيضاً أنه يعد الناس ، فهو يقول في يوم القيامة إنني لم أفعل شيئاً سوى أنني :

﴿ وعدتكم فأخلفتكم ﴾[1] .

ومن مشاهد جهنم أن المجرمين عندما يقتحمونها ويتأكدون أنها مأواهم فإنهم تعلو أصواتهم بالجدال ويلقي كل منهم اللوم على الآخر ، ويتفقون جميعاً على أن السبب في ذلك هو الشيطان ، ولعلهم يحاكمونه ولكن الشيطان يجيب :

﴿ ما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾[2] .

ومن أعمال الشيطان أيضاً إيجاد النسيان في الإنسان ، فهو يهيء الأرضية ويوفّر الظروف المناسبة لكي ينسى الإنسان ذكر الله :

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴾[3] .

فمن مجموع الآيات يبدو لنا واضحاً أن الشيطان لا يستطيع أن يجبر أحداً على عمل ما ، وإنما هو يدعو فقط ويوسوس ، فإذا اتّبعه أحد واختار لنفسه العبودية له عندئذٍ يتسلّط عليه الشيطان وينفّذ فيه وعيده .

وقد جاء في إحدى الآيات : إننا لم نجعل الشيطان وليّ أحد ، إلاّ أولئك الذين يقبلونه ويصبحون من حزبه :

﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون ﴾[4] .

وتولي الشيطان هي تلك الحالة التي يتصف فيها الإنسان بالصفات الرذيلة فيصبح من التابعين له .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٢٢ .

(٣) سورة المجادلة : الآية ١٩ .

(٤) سورة النحل : الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

فالتورط في الذنب مرة ومرتين لا يغدو به الشيطان وليّاً للإنسان ، ولكنه إذا استغرق في المعاصي واستمرت هذه الحالة فإن الشيطان يستولي عليه .

﴿ إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[1] .

ومن الواضح أن هذه الآية لا تشمل الذين لم يؤمنوا عن جهل وقصور .

﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمان نقيّض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾[2] .

وبناء على هذا فإذا اختار أحد منذ البدء سبيل العصيان عن علم وقصد فقدِ ينتهي به المطاف إلى حالة لا يستطيع فيها تمييز الحق من الباطل ، وتعتبر هذه نتيجة لذلك « الاختيار » السيء الذي تورط فيه منذ البداية ، فإذا بدأ الإنسان العدوَ في المنحدر فسوف يصل إلى نقطة لا يستطيع فيها السيطرة على نفسه وكفها عن مواصلة الطريق .

سمات أعمال الشيطان ودعواته

قال الله تعالى :

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾[3] .

فإذا أراد أن يصرف الإنسان عن الإنفاق في سبيل الله فإنه يزيّن له الحرص ويخوفه من أنه سيصبح فقيراً إذا أنفق ! وإذا أراد أن يكفّ إنساناً عن الجهاد فإنه يلقي الرعب في نفسه :

﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم

---

(1) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .

(2) سورة الزخرف : الآية ٣٦ .

(3) سورة البقرة : الآية ٢٦٨ .

مؤمنين ﴾[1] .

فمن العلائم والقرائن على الوساوس الشيطانية هو الأمر بالفحشاء ، فإذا شعر الإنسان برغبة في الفحشاء فليعلم أنها من وساوس الشيطان .

﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾[2] .

وعلامة أخرى هي أنه يصرف عن ذكر الله :

﴿ وأما ينسيّنك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾[3] .

وقد جاء في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾[4] .

فالخطاب هنا موّجه لنبي الإسلام الكريم (ص) وهو من باب « إياك أعني واسمعي يا جارة » .

ونفس هذا المضمون وارد في آية أخرى :

﴿ . . . ان إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم . . . ﴾[5] .

ثم يقول تعالى بعد ذلك :

﴿ إن الله جامع الكافرين والمنافقين في جهنم جميعاً ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٧٥ .

(٢) سورة النور : الآية ٢٠ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٦٨ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٦٨ .

(٥) سورة النساء : الآية ١٤٠ .

وهو إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أن الحضور في مثل هذه المجالس يقود الإنسان شيئاً فشيئاً نحو النفاق والكفر .

ونحن نعلم أن كثيراً من المسلمين قد انتهى بهم الأمر إلى النفاق والكفر نتيجة لمعاشرة الماركسيين .

فهؤلاء لم يكونوا مخالفين للإسلام ذاتاً ، ولكنهم استدرجوا قليلاً قليلاً نحو طريق كان لا بدّ أن تنتهي إلى تلك الغاية . وحتى إذا رغب شخص في معاشرة الماركسيين للنقاش والبحث معهم فلا بد له أولاً أن يروز قدرته ، ويلاحظ في رياضة المصارعة إن المتصارعين يقاس وزنهما بدقّة ويتصارع المتقاربان في الوزن .

وأما الآية المشهورة :

﴿ **بشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾[1] .

فأولاً : المقصود من « القول » هنا هو القرآن .

ثانياً : لا بد أن يكون هذا قادراً على تمييز الأحسن ، إذن لا يحقّ لأي شخص أن يجالس أيّ أحد ويشترك في كل بحث ، فمن كانت ثقافته سطحية أو لم يكن يتمتع بقدرة التمييز ، أو كان مصاباً بضعف الإرادة[2] والشخصية

---

(١) سورة الزمر : الآية ١٨ .

(٢) إن مسألة « ضعف الإرادة » وضعف الشخصية و « عقدة الإحساس بالحقارة » أمر مهم في هذا المجال . فمثل هؤلاء الأفراد يتأثرون بسرعة ، ولا سيما إذا كان الطرف المقابل لهم ذكياً وفناناً ومطلعاً على المواقف النفسية .

وليس من النابي أن ننقل هنا قصة لتقريب الموضوع للذهن وإن كانت هذه القصة لا تتفق في موضوعها مع ما قلناه ، ولكنها مفيدة في مجال إظهار الإحساس بـ « الضعف » .

لقد انتدب المرحوم آية الله البروجردي أعلى الله مقامه شخصاً لإرساله إلى إحدى الدول الغربية في مهمّة لنشر الإسلام ، وكان هذا الشخص متلبساً بزيّ علماء الدين ، فطلب هذا من السيد البروجردي أن يسمح له في البدء أن يرتدي اللباس المتداول (أي أنه يخلع لباس علماء الدين) لكي يتغلغل بين الناس في ذلك البلد ، وعندما تترسّخ مكانته في نفوس الناس فإنه يعود إلى زيّه الأصيل .

=

فهو لا يجوز له أن يقحم نفسه في كل نقاش .

ويعدّ التبذير أيضاً من العلامات على التبعية للشيطان : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾[1] .

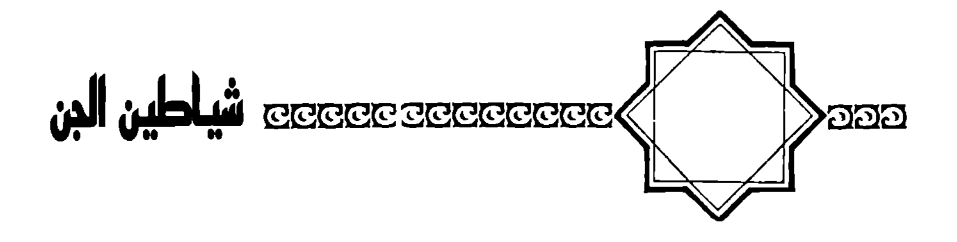


= ولكن آية الله البروجردي أجابه : لقد أرسلناك لتؤثّر فيهم فتظهرهم بشكلك ، وأنت تريد منذ البداية أن تظهر نفسك بشكلهم ؟ .

أجل إذا كان المسلم مسلّحاً وذا أسس مستحكمة فلا مانع من أن يناقش أي أحد بشرط أن يكون معدّاً من الناحية الروحية ومؤهلاً من الناحية العلمية ومتميزاً بطلاقة اللسان والقدرة على البيان .

ولدينا نماذج مشرّفة من هذه الآفاق الرفيعة عاشت في صدر الإسلام ، من قبيل الطرمّاح بن عدي الذي بعثه الإمام علي (ع) إلى معاوية ، ومثل هشام بن الحكم أحد الطلاّب المبرّزين لزعيم المذهب الجعفري الإثني عشري الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) . ونحن بدورنا نؤكّد على دراسة حياة هاتين الشخصيتين الإسلاميتين ، ونحث الشباب المسلم على الاقتداء بهما .

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٧ .



شياطين الجن

لقد ورد في بعض الآيات إجمالاً أن الله سبحانه يحفظ السموات من الشيطان :

﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب * إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾[1] .

ويشبه هذه الآية مضمون آية أخرى :

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلاّ من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾[2] .

فمن هذه الآيات يستفاد بوضوح أن الشياطين تحاول اختراق السموات للظفر ببعض الأخبار . وإلى هنا لا يوجد أي شك بالنسبة لهذه الآيات لأن الموضوع هو استراق السمع .

ولكن هل المقصود حقاً من السماء هي هذه السماء المحسوسة ومن

---

(١) سورة الصافات : الآيات من ٧ إلى ١٠ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان ١٧ ، ١٨ .

الكواكب التي تمنع َهي هذه الكواكب التي نشاهدها ؟ أم أن المراد منها سماء أخرى وكواكب تناسبها ، وكل ما هناك أن الآية الكريمة تتضمن هذا التشبيه لتقريب الموضوع إلى أذهاننا نحن الناس ، أي أننا كما نشاهد في عالم الظاهر شهباً فكذا في عالم المعنى تصوّب سهام نحو الشياطين ؟ .

إن هذا من الأمور التي لا نفهمها بوضوح .

وظاهر الآيات يدل على أن المقصود هي هذه السماء المحسوسة لأن الحديث يدور حول السماء الدنيا :

﴿ إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾[1] .

وإذا كان حديث الآية يدور حول السماء الدنيا فمن البعيد جداً أن يكون المقصود غيرها .

ولا يكون هذا الفهم منسجماً مع سياق الآية ، إلاّ إذا كان لدينا دليل قطعي من الوحي أو كلام المعصومين (ع) .

لكن هناك ملاحظة لا بدّ من أخذها بعين الاعتبار وهي أن القرآن الكريم يتميز بأسلوب خاص ، فإذا دقّقنا وجدنا فيه نماذج تتحدث عن أمور مادية محضة ثم تصل فجأة إلى نقطة معينة فتقفز منها إلى مجال آخر ، مثلاً جاء في سورة النحل :

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس إن ربّكم لرؤوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ .

إلى هنا كان الحديث عن هذه الأنعام ، ولكنه بمجرد ذكره للسفر ينتقل فجأة إلى القول :

---

(١) سورة الصافات : الآية ٩ .

﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾[1] .

فالله سبحانه يتولى الدلالة على الطريق المستقيم والوسط ، وهناك طرق منحرفة ، ولو أراد الله عدم منح الإنسان الاختيار لأجبره على السلوك إلى الغاية المطلوبة .

ثم بعد ذلك تأتي آيات تكمل الحديث عن النعم المادية . إذن ليس من العجيب أن نجد بعض علمائنا الأجلّاء يحتملون في هذه الآية التي هي موضوع بحثنا أن يجري الحديث عن السماء المادية ثم تقفز فجأة إلى السماء المعنوية .

وهذا الأسلوب نفسه من أساليب القرآن التربوية ، فعندما يغدو حال المخاطب مناسباً لشيء فإنه يلقي إليه ملاحظة تفي بالغرض .

فالإنسان عندما يذكر السفر أو يهمّ به فإنه يشعر بحالة الإقلاع ، وهذه الحال تتناسب مع ذكر الإنسان لله ولسفر الآخرة .

﴿ سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وأنا إلى ربّنا لمنقلبون ﴾[2] .

أجل إن بعض العلماء احتمل أن يكون الحديث في البدء عن السماء الدنيا ولكنه بعد ذلك ينتقل فجأة إلى الحديث عن السماء المعنوية . ولكننا نرى أن هذا الاحتمال خلاف الظاهر ، وتوجد آيات في سورة الجن تبعّد هذا الاحتمال :

﴿ وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا * وأنّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا ﴾[3] .

وقد وردت روايات في التفسير تؤكد أنه بعد ولادة نبي الإسلام الأكرم (ص) منع الشيطان من الرقي نحو السماء .

---

(١) سورة النحل : الآيات من ٥ إلى ٩ .

(٢) سورة الزخرف : الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة الجن : الآيتان ٨ ، ٩ .

وتوجد بعض الأسئلة حول ظاهر الآية ، منها :

إن الشهب من الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق وهي موجودة قبل ولادة النبي الأكرم (ص) ، فما علاقة ذلك برجم ورمي الشياطين ؟

والسؤال الآخر :

ما هي علاقة صعودهم نحو السماء باطلاعهم على أخبار الملأ الأعلى ؟ فهل هذه الأخبار متعلقة بهذه الكرات ؟ وإذا سلّمنا بأن الملائكة من المخلوقات المجردة وأن نزول الملائكة على الأنبياء لا يعني أنها تنزل من مكان عالٍ محسوس نحو الأسفل قاصدة الأرض ، وإنما النزول هنا معنوي ، إذن كيف يكون صعود الجن إلى أجواء الأرض له دخل في استراق السمع من الملائكة ؟ .

توجد في هذا المجال آراء مختلفة :

فبعضهم تمسّك بظاهر الألفاظ وقال : إن الملائكة تسكن جو الأرض أو مكاناً يرتفع على ذلك وهي تتبادل الحديث فيما بينها هناك ، ويحاول الجن الصعود إلى تلك الأجواء لاستراق السمع ، ومن الواضح أن هذه الملائكة جسمانية وكلما اقترب إليها أحد أكثر فإنه يستطيع أن يسمع أصواتها بصورة أوضح .

وقال البعض الآخر : أن المقصود من العروج واستراق السمع هو الالتفات إلى الباطن والعوالم المعنوية ، والشهاب وأمثاله إنما هو تشبيه ، أي يوجد في عالم المعنى شيء إذا أردنا تشبيهه من باب تشبيه المعقول بالمحسوس لوجب أن نقول هناك شيء مثل الشهاب ولكنه معنوي يقذف نحو الشياطين فيطردها ، أمّا ما هي كيفيته ؟ فلسنا نعلم .

وعلى أي حال فإن هؤلاء يحملون الآية على الاستعارة والتشبيه .

وهناك احتمال ثالث يحافظ على مسألة تجرد الملائكة وينسجم مع صعود الجن نحو السماء المحسوسة الظاهرة لاستراق السمع ، وبيان هذا الاحتمال يحتاج إلى ذكر مقدمة هي :

إن الجن ـ حسب آيات القرآن ـ كالإنسان موجود مادي ، مع فرق واحد وهو أن الإنسان مخلوق من تراب وأن الجن مخلوق من نار . وكما أن للإنسان روحاً فالجن له روح أيضاً ، ومثل هذه الموجودات يوجد تأثير متبادل بين أرواحها وأبدانها ، فأحياناً يصبح الإنسان حزيناً ، وهذه حالة روحية ولكنها تؤدي إلى ضعف جسمه . والجسم أيضاً يترك أثراً في الروح كما يقال أن بعض الأغذية ينشّط الإنسان ، أو عندما نتناول الطعام فإننا نثقل وتقلّ كمية الدم الذاهبة إلى المخ فيقلّ نشاط الإنسان ولا يرغب كثيراً في التفكير . وعلى هذا فإذا أردنا للروح أن يؤدي نشاطه الخاص فلا بد أن يكون الجسم في ظروف بدنية خاصة ، والمروّضون يستغلون هذه الأساليب فلكي تتقوى أرواحهم لا يتناولون إلاّ قليلاً من الطعام ولا يتحركون إلاّ قليلاً ، ويتنفسون قليلاً أيضاً ، وبغضّ النظر عن حرمة هذا العمل أو حلّيته فإنهم يتصلون عن هذا الطريق بموجودات غير مادية ويظفرون منهم ببعض المعلومات والأخبار ، ويستطيعون أيضاً الاتصال بالجن .

إذن بين الروح والجسم يوجد تأثير متبادل .

ونفس هذا القانون يصدق في مورد الجن الذين هم من المخلوقات المادية ، فبين أرواحهم وأبدانهم توجد علاقة .

وعلى هذا نقول في تفسير موضوع بحثنا : لما لم يكن لدينا دليل يقيني وليس لنا اتصال مباشر بالجن فإننا نستطيع أن نتصور أن الصعود في جو الأرض يوفّر للجن ظروفاً روحية خاصة تستطيع روحه بفضلها أن تتصل بالعوالم العليا . ولعلّ هذا الصعود يعتبر رياضة لها ، وفي ظل تلك الظروف تستطيع أن تستفيد بشكل أفضل من الأمور المعنوية ، ومن جملتها كسب المعلومات الغيبية التي يشتد شوقهم إليها ، ولا سيما شياطين الجن الذين يحاولون الإخلال في أمر هداية الناس . فحسب الروايات كانوا إلى ما قبل ولادة النبي الأكرم (ص) يحاولون الظفر بأمور غيبية من هذه الطرق لإضلال الناس ، وقد كانت هذه الأمور تحدث بشكل أو بآخر ، ولكنهم الآن عاجزون عن ذلك بنص القرآن الكريم :

﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾[1] .

ولا يستبعد هذا الفرض وهو أن الارتباط قد قطِع لئلا يتّهم النبي (ص) بأنه يحصل على الأخبار الغيبية من الجن .

ولكننا لحد الآن لم نظفر بالجواب على هذا السؤال وهو :

إن الشهاب ليس شيئاً قد ظهر في زمن النبي (ص) وإنما هو قد كان من قبل مثل الرعد والبرق ، فما علاقة هذه الظاهرة الطبيعية بطرد الشياطين ؟ فهل المقصود هو هذه الشهب التي نراها ، أم أن الشهب المكلّفة بطرد الشياطين هي بشكل آخر ، وهذا التعبير ليس إلا استعارة ؟ .

للجواب نقول : لا نستبعد هذا الاحتمال وهو أن يكون الشهاب أمراً معنوياً ، ومن باب التشبيه اطلق عليه اسم الشهاب ، وإن كان مقصود الآية هذا الشهاب الظاهري (كما يدل عليه ظاهر الآية) فإننا لا نواجه أي إشكال أيضاً إذا لاحظنا البحث الذي قدمناه قبل ذلك وذكرناه فيه إن وجود العلل الطبيعية لا يعني نفي علل ما وراء الطبيعة . إن هذه وسائل ومعدّات لا تتجاوز حدّ الإعداد في عالم الطبيعة ، فهي لها تأثير ولكن التأثير الحقيقي والأصيل هو لعوامل ما وراء الطبيعة .

ونستطيع أن نتصوّر أن أمر هذه الشهب بيد الملائكة كما يظهر من الآيات الكريمة وأن الملائكة رسل الله ومدبّرات الأمر ، والتدبير الإلهي في مورد الشهب بعد ولادة النبي (ص) إن الشياطين إذا حاولوا استراق السمع فإنهم يقذفون بتلك الشهب .

وصحيح أننا نجد هذا الأمر يتحقق بعلله الطبيعية ، ولكن وراء ذلك تأثير الملائكة الذين أسند إليهم تدبير الأمور . مثلاً هذا المطر الذي يهطل بشكل طبيعي إذا لم ينزل في إحدى المناطق واتجه المؤمنون نحو الله يستسقونه واستجيب دعاؤهم فإن هذه العوامل الطبيعية تكون تحت تصرف ملائكة الله فتدبّر الأمور بشكل يؤدي إلى استجابة دعاء المؤمنين .

---

(١) سورة الجن : الآية ٩ .

وملخّص الحديث أننا لا نملك دليلاً يحملنا على رفع اليد عن ظاهر الآيات فنقول إن « الشهاب » فيها يعني الشهاب غير المادي وإن السماء هي السماء اللامادية ، ولو كانت في أيدينا أدلة يقينية من الكتاب والسنة والعقل لكنّا مجازين في فهمها بشكل مجازي ، ولم يكن ذلك مستبعداً عندئذٍ .

وهذه الوجوه كلها قد ذكرت بعنوان أنها تصويرات لهذه المسألة وليست هي بياناً لحقيقة الأمر وليست تفسيراً قطعياً للآية .

تسخير الجن بوساطة الإنسان

بالنسبة لموضوع تسخير الجن لم يرد في القرآن إلاّ ما جاء في قصة سليمان (ع) من أن الله جلّ جلاله قد أنعم عليه نعماً تزيد على ما أنعمه على سائر الناس ، ومن جملة ذلك أنه سخّر له الجن وحتى الطيور والوحوش :

﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾[1] .

لقد قام سليمان عليه السلام يوماً بتفتيش جيشه ، وقدّم هؤلاء استعراضاً أمامه ، وقد قسّموا إلى فئات ، وكل فئة تؤدّي ما أسند إليها من واجب . وفي هذا الخضم ذكر الجن أيضاً باعتبارهم شريحة من شرائح قواته .

وفي مورد آخر يقول تعالى :

﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها ؟ ﴾[2] .

أي عرش بلقيس .

﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾[3] .

---

(١) سورة النمل : الآية ١٧ .

(٢) سورة النمل : الآية ٣٨ .

(٣) سورة النمل : الآية ٣٩ .

﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذنه ﴾[1] .

﴿ فلمّا خرّ ، تبينّت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾[2] .

وهذه الآية الأخيرة تلقي الضوء على بعض المواضيع : كان الجن مسخّرين لسليمان (ع) ، ولم يكن لهم علم بالغيب ، وكانوا يعملون خضوعاً لهيبته وخوفاً منه .

والقصة التي تشير إليها الآية هي أن سليمان(ع) كان واقفاً يوماً داخل قصره متكئاً على عصاه ، ففاجأه عزرائيل وقبض روحه وهو على تلك الحال . وكان قصره مشيداً من الزجاج ولهذا كان الجن يرونه ويؤدون أعمالهم لشدّة الخشية منه ، لأنه كان يسجن المتمردين منهم .

ومرّت فترة من الزمن استطاعت فيها دابة الأرض أن تأكل عصاه فخرّ إلى الأرض وعندئذٍ فهم الجن أنه قد فارق الحياة .

لقد كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب بسبب ما يتمتعون به من سرعة الانتقال ، ولكن هذه الحادثة أثبتت لهم أنهم محرومون من العلم بالغيب .

وتكررت قصة عمل الجن لسليمان (ع) في سورتين أخريين وقد ورد عنوان الشياطين هناك ، ومن هنا نعرف أن المقصود هم شياطين الجن . فهم مسخّرون وتحت الغلّ والعذاب والقيود .

ويتساءل البعض : هل كان سليمان جبّاراً مستبداً ؟

وجوابه واضح من خلال تلك الآية ، فهو كان يسجن ويعذّب شياطين الجن العاصين ولا يمسّ المؤمنين الصالحين بسوء .

---

(١) سورة سبأ : الآية ١٢ .

(٢) سورة سبأ : الآية ١٤ .

﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنّا لهم حافظين ﴾[1] .

﴿ والشياطين كل بنّاء وغوّاص ﴾[2] .

والنتيجة هي : أنه يفهم من هذه الآيات إجمالاً أن الجنّ قد يُسخّرون ولكن بإذن الله . ونلاحظ في الروايات أن المؤمنين من الجن يخضعون للأنبياء والأئمة ويقومون بخدمتهم . والذين يتميزون بولاية من قبل الله يستطيعون أيضاً إخضاع الكافرين من الجن لسيطرتهم .

إيمان الجن بالنبي

يقول الله في كتابه العزيز :

﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً ﴾[3] .

﴿ وإذ صرّفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴾[4] .

وقد تحدثت الروايات عن كيفية اهتداء الجن إلى مكان النبي (ص) وعن

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٨٢ .

(٢) سورة ص : الآية ٣٧ .

(٣) سورة الجن : الآية ١ .

(٤) سورة الأحقاف : الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

كيفية سماعهم للقرآن وإيمانهم وعن صيرورتهم دعاة للآخرين ، فهناك مسجد في مكة على القرب من مقبرة أبي طالب يسمى مسجد الجن ، وهو المكان الذي التقى فيه الجن بالنبي الكريم (ص) واسلموا على يديه .

ويفهم من هذه الجملة : ﴿ ولّوا إلى قومهم . . . ﴾ إن لهؤلاء مكاناً وذهاباً وجيئة ، وإن هذه الأمور حقائق موجودة تؤيدها الروايات وتشهد بصحّتها التجارب الخاصة . ويقلّ عددهم - عادة - في المناطق المزدحمة بالسكان ، ويختارون بعض الوديان مكاناً لسكناهم .

وقد جاء في الآيات السابقة الذكر أيضاً أنهم :

﴿ قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ .

حيث يُعرف منها أنهم كانوا مطلعين على نزول التوراة ومؤمنين بها ، أي أنهم كليميون ، ويُعلم منها أيضاً أنهم كانوا جاهلين بنزول الإنجيل ، ولم يكن لهم إيمان بعيسى (ع) . ونفهم منها ضمناً أنهم قد لا يعلمون شيئاً عن بعض الحوادث التي تقع في الأرض .

أجل لقد قال هؤلاء لقومهم : يا قومنا أجيبوا داعي الله واسلموا حتى يغفر الله لكم ذنوبكم ويحفظكم من عذاب أليم . وهذا الكلام يشبه دعوة الأنبياء . وأخيراً قالوا لهم : من يرفض هذه الدعوة فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ، ونتيجة أعمالهم أنهم يغرقون في ضلال مبين .

بطانة الشيطان

أيقوم الشيطان بالإغواء دائماً بنفسه أم أن له أعواناً ومساعدون في هذا المضمار ؟ .

للقرآن الكريم تعبيرات متفاوتة في هذا المجال :

فأحياناً يعبّر بالذرّية ، ويفهم من هذا أن الشيطان يتوالد وله نسل .

وأحياناً أخرى يعبّر بالجنود ، وثالثة بالقبيل :

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[1] .

إذن للشيطان بطانة .

﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾[2] .

﴿ أفتتخذونه وذرّيته أولياء من دوني ﴾[3] .

ونواجه هنا هذا السؤال :

إذا كان للشياطين (والجن) ذريّة وأولاد إذن لا بدّ أن يكون فيهم الذكر والأنثى ، فهل الحقيقة كذلك ؟ .

لم يرد في القرآن الكريم نصّ صريح في هذا المجال ولكن بعض الآيات تشعر بهذا المعنى :

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾[4] .

فالتعبير بـ « رجال » يوحي بأن للجن أيضاً نساءً مثل الإنسـان . ولكن هذا ليس دليلاً قطعياً لأنه قد يكون الرجـال هنا بمعنى الشخصيـات المهمة أو بمعنى مطلق الأشخاص . ولعلّ الاحتمال الأول أقرب وأوضح لا سيما بعد أن لاحظنا النصّ القرآني يعبّر بالذريّـة لهم ، ولا بدّ لنـا من التأكيـد على أننـا لا نستطيع أن ننسب للقرآن القول بوجود نساء للجن . ويحتمل أن يكون توليـد المثل عندهم بصور أخرى ، وإن كنّا نجد في الروايات هنا وهناك إشارات إلى وجود نوعي الذكر والأنثى فيهم .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٩٥ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٥٠ .

(٤) سورة الجن : الآية ١ .

وقد أبى بعض المثقفين التسليم بوجود هـذه الكائنـات ، وهم يذكـرون بعض الإشكالات والشبهات حولها ، من قبيل : كيف تكون هـذه الكائنـات موجودة بيننا لا يستطيع أحد أن يراها ؟ .

أو لماذا تستطيع هي أن ترانا ولا نستطيع نحن أن نراها ، إن ذلك مخالف للعدالة فلعلّها تؤذينا ؟

ويتخيلون أن المقصـود من الجن هم الناس البـدائيون الـذين يشكّلون الحلقة الوسطى بين القرد والإنسان ، ويقول بعضهم أن المقصود من الجن هم الناس المتوحشون الذين يسكنون الغابات .

وللجواب نقول :

إن أوضح دليل هي التجارب المتوفرة في هذا المجال ، ويوجد أناس لحد الآن يقومون بتسخير الجن .

ثانياً : إن هذا الموضوع يمكن تفسيره حسب الأسس العلمية ، فهناك في هـذا الكون الـواسع أشيـاء كثيرة مـوجودة ولكننـا لا نستطيـع رؤيتها ، مثـل الالكترونات والفوتونـات والأمواج الكهـربائيـة والأشعة المسمـاة بـ « ما فـوق البنفسجي » و « ما تحت الحمراء » والأشعة السينية ، فهذه كلها لا يمكن رؤيتها بالنسبة لـلإنسان ولكن العلم أثبت وجـودها . إذن مجـرد أننـا لا نحسّ بشيء بوساطة حواسنا لا يصبح دليلاً على عدمها .

وإذا أشكل علينا : إذن كيف يدّعي بعضهم أحياناً أنهم يرون الجن ؟ .

أجبنا : بأن أناساً قد عملوا في هذه المجالات وهم يدعون بأن الجن من الظواهر اللطيفة جداً ، وهم يتميزون بالقدرة على الانقباض والانبساط . ففي الحالة الاعتيادية يكونون في حالة الانبساط وعندئذٍ لا يمكن رؤيتهم ، ولكنهم في حالة الانقباض يمكن لمسهم ورؤيتهم[1] .

---

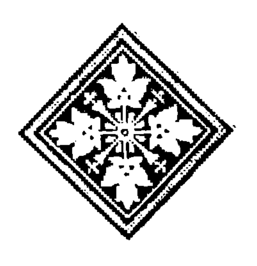
(١) ينقل عن بعض الثقات أن بعض الجن كـان يقلّد المراجـع من العلماء ويسألـون منهم المسائـل الشرعية ، مثل المرحوم الحاج ميرزا حسين الحـاج ميرزا خليـل الذي كـان من مراجـع عصر الحركة الدستورية ، فقد كان فرد من الجن يلتقي به بصورة شخص عـادي في سرداب منـزله=

إذن لا يجوز لنا أن ننكر وجود شيء لمجرد أننا لم نره ، ولا ينبغي لنا أيضاً أن نفسّر الجن بأنها موجودات مجردة كما فعل بعض المتصوفّة والعرفاء . إن الجن من الموجودات المادية وهم مخلوقون من النار ويعيشون على وجه الأرض ويأكلون الطعام ، ولكن لما كانت أجسامهم لطيفة لذا فإن طعامهم سيكون خاصاً ومحدوداً .

أجل عندما يخبر القرآن العظيم ـ الذي أنزله خالق الوجود ومدبّره ـ عن وجود شيء فلا ينبغي أن يبقى لدينا أي شك أو ترديد في وجوده .

« وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين » .

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .



= ويسأله بعض المسائل التي تهمّه .

ويذكر أنه قد سأله عن حكم تناول ما يتبقى من غذاء الإنسان .

ومن الواضح أن هذه الأمور منقولة بوساطة الثقات ولا توجد اليقين ، وتذكر لرفع الاستبعاد فقط ، واعتمادنا على القرآن نفسه ، فإذا ذكر الكتاب العزيز شيئاً فلا يجوز أن يقال أنها خيالات ! .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة